

د. افریقہ سے لیا ہے

44

د. عبد الرحمن حميدة

د. یوسف حقوقی

د. محمد رفیعی

میرزا



0785380

Библиотека Александрина

الدكتور
أديب سليمان باغ

الجولات

دراسة في الجغرافية الإقليمية

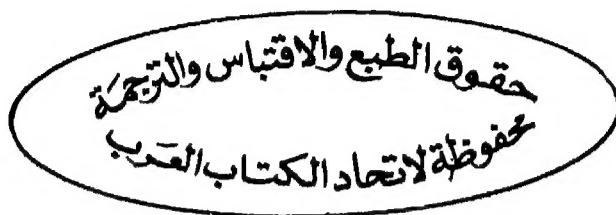
ترجمة

د. يوسف خوري د. عبد الرحمن حميدة
د. محمد عرب فرزات د. محمود رمزي



منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٨٣



صمم الغلاف : سمير الكراد

لمحة عن حياة المؤلف الفقيه المرحوم الدكتور أديب سليمان باغ

- ولد الفقيه في عام ١٩٢٨ في قرية الجوزية في محافظة القنيطرة - الجولان .
- بعد ان دخل المدرسة الابتدائية عام ١٩٣٦ في قريته اتم تعليمه الابتدائي بحصوله على الشهادة الابتدائية في حمص ١٩٤١ بدرجة جيدة .
- ثم قبل في مدرسة التجهيز الاولى بدمشق طالباً داخلياً ونال الشهادة المتوسطة عام ١٩٤٤ بدرجة جيدة .
- تابع الدراسة في دمشق ونال الدراسة الثانوية (البكالوريا) عام ١٩٤٧ .
- نال شهادة الاجازة في الآداب (الليسانس) ، متخصصاً في الجغرافية عام ١٩٥١ ودبلوم في التربية .
- عمل مدرساً للجغرافية في المدارس الثانوية بين ١٩٥١ - ١٩٥٤ .
- في ١١ / ١٠ / ١٩٥٤ اوفد الى باريس لتحضير شهادة الجغرافية العامة والحصول على شهادة الدكتوراه في الآداب .
- في ١٥ / ١١ / ١٩٥٨ تقدم باطروحتة عن اقليم الجولان الى اللجنة الفاحصة في جامعة باريس (السوربون) وحاز على لقب دكتور دولة في الآداب .
- في ١٦ / ١٢ / ١٩٥٨ صدر القرار رقم ٨٠ بتعيينه مدرساً في كلية الآداب . اما انتاجه العلمي فغزير متنوع رغم حياته العلمية القصيرة :
- فقد أعد بالفرنسية مؤلفين :
- ١ - الصناعة في سورية بين ١٩٢٨ - ١٩٥٨
- ١ - اقليم الجولان ، دراسة في الجغرافية الاقليمية . (وهو الكتاب الذي قمنا بترجمته)
- وترجم الى العربية كتاب « المدخل الى علم الجيولوجيا » تأليف شارل كومبالوزية (ترجم بالاشتراك مع د . يوسف خوري) ، وكان هذا الكتاب خاتمة انتاجه العلمي .

وألّف باللغة العربية المؤلفات التالية :

- ١ - جغرافية امريكا .
 - ٢ - البيئات .
 - ٣ - الحيوية والترب .
 - ٤ - جغرافية اوستراليا .
 - ٥ - جغرافية آسية .
 - ٦ - الجغرافية البشرية للبلاد العربية (بالاشتراك مع الدكتور صلاح الدين عمر باشا)
 - ٧ - اقتصادية البلاد العربية (بالاشتراك مع الدكتور صلاح الدين عمر باشا)
 - ٨ - الجغرافية البشرية والاجتماعية (بالاشتراك مع الدكتور صلاح الدين عمر باشا)
 - ٩ - المدخل الى الجغرافية الطبيعية (بالاشتراك مع الدكتور صلاح الدين عمر باشا والاستاذ عمر الحكيم)
 - ١٠ - المدخل لدراسة الجغرافية البشرية (بالاشتراك مع الدكتور صلاح الدين عمر باشا)
 - ١١ - جغرافية بلاد الشام للصف الثاني من دور المعلمين (بالاشتراك مع الاستاذ بسام كرد علي والاستاذ دواود صليبا)
- وقد استمرّ الفقيه مثابراً على نشاطه العلمي الخصب في التأليف والتدريس في جامعتي دمشق وعَمَّان الى ان توفاه الله صبيحة يوم السبت الواقع في ٢١ آذار ١٩٦٤ بعد مرض لم يمهلّه الا اسبوعاً واحداً مخلفاً أسرته وابناءه الاربعة وتلاميذه الكثر وزملاءه واصدقائه الذين فاجأهم نعيه الخاطف .

والآن بعد مضي عشرين عاماً من فقدّه تترجم هموم أديب باغ وأفكاره عن الجولان مسقط رأسه لكي تنتقل بلسان عربي الى أبناء هذا القطر العربي السوري وأجياله الصاعدة فيعرفوا بصدق ما ينبغي ان يعرف عن هذه البقعة الغالية من أرض الوطن الحبيب .

الاهداء

- الى ذكرى ضباطنا الشجعان ، وصف الضباط والجنود الذين سقطوا
شهداء على جبهة الجولان من اجل الدفاع عن الوطن .
 - الى ذكرى والدي الذي لاقى وجهه ربه قبل مثول هذا الكتاب للطبع ،
الذي يرقد جثمانه الطاهر في قرية تل عكاشة ، وهو واحد من اشهر تلال
ارض الجولان .
 - الى ولدي عرفان وصفوان اللذين ولدا في دمشق بعيدين عن الجولان ،
مسقط رأسي ، لكي يخلد عندهما نفس ما أكن له من حب .
- أهدي هذا الكتاب .

باريس ١٩٥٨

أديب دباغ

مقدمة

كرّس اديب دباغ سنوات عديدة لدراسة منطقة الجولان التي هي مسقط رأسه وموطنه ولذا فقد جاء عمله في هذا الكتاب ثمرة لخبرة شخصية لان المؤلف هو ابن المنطقة .

إن العمل الذي أنجزه اديب دباغ حيّ وأخاذ اتبع فيه الطرق العلمية المرعية في دراسة الجغرافية الاقليمية ، وهو بعمله يسهم بدور مهم في ميدان البحث الجغرافي في سورية ، وقد تناول فيه منطقة لم تسبق دراستها بهذه الدرجة من الاتساع والتخصص المستقل

أما الاصلة في بحث أديب باغ فتتجلى في النتائج التي توصل اليها من دراسة منطقة معقدة من الناحية الطبيعية وقوعها بين جبل الشيخ الرطب وبين سهول حوران ذات المناخ شبه الجاف والامطار الأقل ، وهي معقدة ايضا من الناحية البشرية لاختلاف اصول السكان واختلاط عناصرهم ، ولتنوع أسلوب معيشتهم عندما تلتقي الفلاحة بالبداوة والرعي ، لممارسة فعاليات اقتصادية تتناسب مع فئاتهم الاجتماعية ومع ظروف الاستقرار والترحال . ويلاحظ الباحث ، وهو مصيب في ذلك ، انه في الوقت الذي تستمر فيه المؤثرات الطبيعية في أداء دورها تتقلص شيئاً فشيئاً تأثيرات الاختلافات العرقية والدينية التقليدية . لقد اعمارت الدراسة أهمية أكبر للعوامل الاجتماعية : نظام الملكية واستثمار الأرض الذي يتحكم في طرق الانتاج والمردود وفي السوق ونظام العمل .

وتتضمن هذه الدراسة مادة علمية غنية نتعلم منها . وهي ككل بحث جغرافي ليست عملاً وصفيّاً او شرحاً مخصصاً لأرضاء فئة مختصة ومحدودة العدد . بل إنها تقدم نتائج واضحة محسوسة ومحددة تساعد على رسم الطريق للعمل على تحسين شروط المعيشة عند السكان وللمساعدة على ادماج المنطقة بشكل اكثر فعالية في اقتصاد البلاد . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف فإنني أتمنى ان يخرج هذا الكتاب من خزائن المكتبات المغيرة ليعرف طريقه الى المهتمين بمختلف شؤون الاقليم من جميع الوجوه .

ويأتي بحث أديب باغ الذي تقدم ، عام ١٩٥٨ الى جامعة باريس للحصول على درجة دكتور في الآداب حلقة جديدة في سلسلة الأعمال الرائعة للجغرافيين السوريين الذين درسوا أقطار بلادهم وأقاليمها (مثلاً : النعمان ، منطقة حمص ، وحيدة ، منطقة حلب) إنني لأمل ان ينشر الباحثون أعمالهم بالتعاون فيما بينهم وبمعمونة المؤسسات السورية المسؤولة ، وإن أمامهم مناطق ومسائل أخرى لدراساتها وفق الطرق العلمية التي تتطور نحو الأفضل باستمرار

واننا نعيش في عالم متغير بشكل متسارع وان بإمكان الجغرافي أن يقوم بدور مهم في تحليل هذه التغيرات ، لأن للجغرافي من الاهتمامات المتنوعة ما يسمح له بأن يضع يده على الشروط المعقدة للحياة وان يفسرها كما ينبغي ان يكون للكتاب الجغرافيين كلمتهم في توجيه التطور ، لأن الجغرافي ككل باحث آخر يعمل في خدمة الانسان والوسط الطبيعي الذي يعيش فيه دون أن يتخلى عن الاهتمام بالمستقبل .

ج . دريش
استاذ في السوربون

القسم الأول

الجولان في الإطار الطبيعى

الفصل الأول :

تعريف :

الاسم ، الحدود ، الموقع ، الاصلة ، المساحة :
 « الجولان » اسم المنطقة التي ستكون موضوع هذه الدراسة ، وقد اطلق الجغرافيون العرب بتحديد دقيق وبمطابقة صحيحة هذه التسمية على الاقليم مما يجعل من المجدي التحقق من اشتقاق الكلمة .

فقبل الاسلام اطلق العرب اسم الجولان على جبل في بلاد الشام اي في سورية . فلقد كانوا يعرفون جبل الجولان . ولقد كانت المنطقة جزءاً من إمارة الغساسنة العرب الذين حكموا سورية الجنوبية وعاشوا فيها وتركوا فيها آثاراً تنتشر في انحاء كثيرة من البلاد .

والاشتقاق اللغوي لكلمة الجولان يدل على اتصاله بكلمة « اجوال » وهي تعني البلاد التي يعج فيها الغبار . وبهذا المعنى يكون اختيار اسم الجولان للمنطقة في محله . فغالباً ما يسبب هبوب الرياح وعجيج الغبار في تعرض العيون للأمراض كالترأخوما منذ نهاية فصل الصيف وبداية الخريف ، عندما يفقد معظم الأرض الغطاء النباتي بحلول الحصاد وفصل الجفاف . وفي هذا الموسم يتغير اتجاه الرياح وتصبح عنيفة وغير منتظمة وزوبعية .

على ان الاسم الجغرافي للمنطقة هو نفسه في العصور الكلاسيكية ، ففي العصر الروماني كانت المنطقة تعرف باسم أرض الجولان (Gaulamitide) وتقع ما بين سفح جبل خرمون واليرموك من الشمال الى الجنوب وما بين بحيرة طبرية ونهر العolan من الغرب الى الشرق^(١) .

(٢) من . آبل جغرافية فلسطين بالفرنسية ص ١١

وهكذا يتطابق هذا التحديد مع حدود الجولان المعاصرة . ولكن آبل
يعلل تسمية الجولان بطريقة عربية عندما يقول بأن اسم المنطقة هو بالاصل
اسم محلة في ارض باشان ، وهي المعروفة باسم سحم الجولان^(٢) . فهذا
التفسير غير صحيح إن سحم الجولان اسم مكان اضيف الى اقليم الجولان
الموجود قبلاً .

اما التفسير الذي قدمه آبل فيرمي الى نسبة الجولان الى باشان ولكن
ر . دوسويرى رأياً آخر مفاده «ان التعسف في استخدام اللغة هو الذي اعطى
لاصطلاح باشان وبخاصة في الادب العبراني مفهوماً اوسع تتجاوز بموجبه
مملكة عوج ملك باشان حدود باثانيا . ولكن هذا لا يبرر تعديلاً في قيمة
الاصطلاح الجغرافي . فالاتجاه الذي يبديه محررو اسفار التوراة لتوسيع
اصطلاح باشان^(٣) ليشمل كل ممتلكات عوج يجب تصحيحه . وقد جر ذلك
اضافات على النص التوراتي من السهل تقصيه واكتشافه^(٤) .

ومن المناسب أن نشير هنا الى ان لاسم الجولان حالياً مدلولاً ادارياً
اصطلاحياً . فالجولان اوقضاء القنيطرة يتطابق مع القسم الشمالي من مدلول
اصطلاح «جولانتيدي» القديم بينما القسم الجنوبي من هذا الاصطلاح ينطبق
على وحدة ادارية اخرى هي قضاء فيق الذي يرتبط بمحافظة درعا . هذا
التقسيم الاداري التعسفي ليس قديماً جداً . وينقسم قضاء القنيطرة ايضاً الى
مديريتي ناحية ، الشعرة ومركزها مجدل شمس والزوية ومركزها فيق .

اننا دون ان نتقيد بهذه التقسيمات الادارية فإن دراستنا ستتناول الجولان
كوحدة جغرافية حسب ما يتضمنه اصطلاح الجولانتيدي ، بلاد الجولان .
وهكذا فإن الجولان بهذا الاعتبار ، يضم القنيطرة المرتبطة بمحافظة لواء

(٢) آبل ، المرجع السابق ص ٢٧٥

(٣) أرض بثينة ، وبقي باسان ، باشان اسم بيت سان - بيسان

(المترجم)

(٤) ر . دوسو . الطبغرافية التاريخية لسورية القديمة في العصور

الوسطى باريس ١٩٢٧ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ (بالفرنسية) .

دمشق ، قضاء فيق (الزّوية) المرتبطة بمحافظة درعا (حوران) والقسم الجنوبي الغربي من قضاء وادي العجم المرتبط بدوره لمحافظة لواء دمشق^(٥) .

وهكذا بعد ان حددنا ميدان البحث يمكن تحديد الجولان كما يلي :
السهل الجنوبي والجنوبي الشرقي من جبل حرمون ، وادي الاردن غرباً وادي اليرموك جنوباً وشرقاً المنخفض الطولاني العريض الذي يتخذه مجرى نهر الرقاد والعلان .

وتتضح حدود الجولان الطبيعية عند الأب آبل في الخارطة التي تضمنها مؤلفه عند بحثه في جغرافية فلسطين الطبيعية . وقد حدد على خارطته المناطق المجاورة للأقليم بصورة تتحدد معه بوضوح حدود الجولان على الصورة التي حددنا آنفاً . ويذكر فيها جدور في الشمال والنقرة في الجنوب كحدود شرقية بين الجولان وحوران . ولكن جدور والنقرة ليسا في الحقيقة سوى فرعين شمالي وجنوبي لمنخفض واحد يحتله بصورة متوازية نهر الرقاد والعلان اللذان يتوازيان في مجراهما .

ويرى ر . دوسوان حدود الجولان القديم (جولانيتيد) تغيرت على مر الزمن فسحم الجولان وهي قرية في حوران حالياً كانت تقع في الماضي في ارض الجولان . وحسب رأيه يعتبر نهر الرقاد هو الحد الشرقي . إن هذا الرأي لا يختلف ابداً عما تقدمنا به . ولقد فضلنا ان نحدد المنطقة بالخوض بمجمله وليس بنهر الرقاد لسبب هام نوضحه فيما يلي :

لقد تعرّض نهر الرقاد بالواقع الى تغييرين خطيرين في الصورة . فالجزء الاعلى من النهر الذي كان يزوده بالمياه الدائمة فصل عنه بتشكيل الوعرة في الدور الرابع الجيولوجي وبانحراف مجرى المياه نحو الشرق وعندها يتخذ اسم نهر الأعوج . بينما استولى رافد ثانوي من روافد اليرموك على مياه الجزء الأدنى من نهر الرقاد . وهكذا نرى ان المجرى القديم لنهر الرقاد ينبغي ان يعتبر الحد الشرقي لأرض الجولان^(٦) .

(٥) حسب الإحصاءات الادارية المعتمدة عند تأليف الكتاب

(المترجم)

(٦) انظر المصور رقم ١ .

تقع المنطقة التي نتناولها في بحثنا إذن في الجنوب الغربي من سورية . بين شرقي الاردن جنوباً وفلسطين غرباً ولبنان الى الشمال الغربي وجبل الحرمون شمالاً وقضاء وادي العجم الى الشمال الشرقي وحوارن شرقاً . ولهذا الموقع اهمية خاصة . وسنرى فيما بعد النتائج التي ترتبت على هذا الموقع على جوانب الحياة في المنطقة : على جيولوجيتها ، ومناخها ، ومياهها ، وجغرافيتها الحياتية والبشرية والاقتصادية .

إن الجولان في موقعه بين أربعة اقطار : سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن مرجيولوجياً وتاريخياً بنفس الادوار التي مرّت فيها الأرض ومرّ فيها الناس . انه المحور بين هذه الأقطار في قلب بلاد الشام ليس على الصعيد الانساني وحسب بل وعلى الصعيد الطبيعي وإنه عزله عن كل منها . فكل المناطق المجاورة أثرت في تكوين الجولان وتركت بصماتها عليه . فقد إرتبط الجولان بفلسطين وتاريخها القديم العربي الاسلامي . كما ان من الصعب التمييز بين الجولان وحوارن ولكن الدراسة المعمقة لسورية الجنوبية وجغرافيتها هي التي تتيح لنا التعرف على مميزات الجولان وأصالتها وجدارته بان يكون موضوع بحوث معمقة ومتطورة .

فالجولان وحدة جغرافية اقليمية والأدلة على ذلك كثيرة منها :

- ١- إن حدوده الطبيعية واضحة المعالم فالى الغرب منه يقع نهر الأردن وحووض الحولة وبحيرة وطبرية بينه وبين فلسطين . وان نهر الاردن والحولة وطبرية تشكل عناصر من الغور الذي يبلغ عمقه حوالي ٤٠٠م الى شرقي الحولة و٥٠٠م شرقي طبرية وعلى مستوى القرية السورية كفر حارب . وهذا انحدار عميق قليل التقطيع يشكل جرفاً عالياً مشرفاً على أرض فلسطين .
- أما وادي اليرموك الذي يشكل الحد الفاصل بين الجولان وشرقي الاردن فليس أقل وضوحاً . يبلغ عمقه ٣٠٠م عند مصب نهر العلالن في نهر اليرموك . ثم يعمق النهر مجراه متجهاً الى الغرب . ولكن فرق الارتفاع يبلغ ٤٠٠م عند مصب نهر الرقاد في نهر اليرموك . وهو يبلغ ٤٥٠م عند الحمة ، محطة الحمامات الطبيعية الحارة المشهورة

أما جبل حرمون فهو جدار مانع حقيقي يسيطر على أرض الجولان . والحدود السورية - اللبنانية شمال الجولان تقع في نقاط ترتفع الى ٢٢٦٩ ، ٢٤٦٥ ، ٢٨١٤ ، ٢٦٨٣ م .

ولكن جبل حرمون كما يدعى في الجغرافية القديمة هو جبل الشيخ ليس مجرد حد شمالي لإقليم الجولان ولكنه العامل الجغرافي الاساسي في مناخ الجولان وخزان المياه في المنطقة . اما الى الشرق فالخوض الممثل بالنقرة والجدور وإن لم تكن منخفضة بدرجة انخفاض المعالم السابقة الذكر فإنها تمثل الحد الفاصل الجغرافي بين الجولان وحوران .

٢ - على الرغم من وحدة الغطاء البازليتي الذي يغطي كل المنطقة البركانية في سورية الجنوبية ، فإن إقليم الجولان يحتفظ بخصائص مميزة له عن حوران . إن مخاريط الحمم البركانية من النموذج الاسترومبولي عديدة وتشكل عنصراً أساسياً في مشهد المنطقة . وقد تم تكوين أرض الجولان في الحقب الجيولوجي الرابع ، وإن نضارة أشكال هذه المخاريط تبدي لنا مدى حداثة المنطقة جيولوجياً .

وحول هذه المخاريط يمكن التعرف غالباً على مسكوبات متأخرة لم تمسها يد الفساد الا قليلا فالمسكوبات المتأخرة في حضرة الوعرة لاتعود اطلاقاً لأكثر من ٦٠٠٠ آلاف سنة في حين تعود صخور بازلت حوران الى الميوسين ولما كانت أغشية الجولان المتأخرة سليمة من التفكك فهي تقدم سطحاً فوضوياً حيث تراكب وتتجاوز القببات المطموسة الى جانب بعضها البعض مثلما تكون متشققة محورياً أو جانبياً ، وترسم على سطحها المؤلف من الالاف المفتولة اقواساً مندمج بعضها بالآخر .

فالمشهد الطبيعي هو حديث جداً على عكس ما نراه في سهل او حوض حوران . وقد شدد لارته على هذا الاختلاف في الخارطة الجيولوجية التي وضعها^(٧) ، عندما قال بأن البازلت يغطي الجولان في حين ان في حوران تجمعت بقايا بازلية .

(٧) انظر : ل . لارته L.lartet ، رحلة استكشافية الى البحر الميت ،

الى بترا والصفة اليسرى للاردن .

ومن ناحية اخرى فان الانتقاض البازلتيه هي التي عملت على اذاعة شهرة حوران منذ العصور القديمة بخصوبة تربتها ووفرة انتاجها للحبوب ، فاستحقت بذلك اسم اهراء سورية . فالمقابل ليس الجولان اقليماً منتجاً للحبوب لكنه بلد نموذجي للمراعي وتربية المواشي .

٣- اما طبغرافية الجولان فتقدم لنا ملامح اسباسبية من خصائصه . فافرض الجولان هضبة حقيقية ترتفع ٢٠٠ م وتنزرع فيها مخارط الحمم البركانية ومحاطة بوديان منخفضة جداً . وهكذا تسيطر هضبة الجولان على سهول حوران الى حد يمكن معه للمراقب الناظر الى الشرق في يوم صحو استكشاف حوران بل يمد بصره الى جبل الدروز .

٤- ويشكل المناخ خاصية مميزة للجولان . فما يهطل عليه من امطار وتلوج يمكن مقارنته بما يهطل على الساحل السوري ولكنه اعلى مستوى مما يهطل على حوران وجبل الدروز .

وفيما يلي جدول مقارن (للعام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ من احصاءات وزارة الزراعة) :

المحطة	المتوسط السنوي	الايام الماطرة	الايام الاقل مطراً
درعا	١٥٠ مم	٣٥	٨
ازرع	١٩٦ر٨ مم	٣١	٧
السويداء	٢٤٢ر٩ مم	٣٩	٧
قطنا	٢٦٨ر٥ مم	٣٤	٧
القنيطرة	٥٧٩ر٥ مم	٥٢	٩

ان امطار القنيطرة يمكن مقارنتها مع الامطار الهاطلة في بيروت واللاذقية . وينبغي علينا ان نوضح ان القنيطرة تنال في شهر كانون الاول وحده كمية من الامطار تساوي ٤٠٤ر٢ مم وهو ما يزيد عن معدلات كميات

الامطار في المحطات المذكورة في الجدول اعلاه للعام كله . وسنعود الى شرح هذه الخاصية في مناخ الجولان في الفصل المخصّص لذلك في هذه الدراسة . وهناك امر ملفت للانتباه عند المقارنة بين نظامي الامطار في الجولان وفي حوران . فبالنسبة الى الجولان ما يهم هو استمرار الهطول اما في حوران فالمهم هو الكمية . وينعكس هذا على ما يتداوله الفلاحون في وصفهم لموسم الامطار قياساً على طبيعة الهطول فيدعون السنة جولانية او حورانية . فالواقع ان المسألة ترتبط بتكوين التربة في كل من الاقليمين وحاجة كل منهما للمياه . فالكميات الكبيرة من المياه يمكن ان تغذي الارض العميقة في حوران وتخصبها . لكن كميات مماثلة يمكن ان تغرق ارض الجولان القليلة العمق وتعطل الحرارة وتجرف اجزاء التربة الى السفوح .

٥- إن التباين المناخي بين الجولان وحوران ينعكس على جغرافية المياه . فان كمية الامطار السنوية في حوران ادى الى ضعف افتقار البلاد الى الثروة المائية . والمياه الصالحة للشرب ليست متوفرة في كثير من قرى حوران ولذا يجري توزيع المياه في موسم الامطار في احواض تدعى البرك . اما في الجولان فالثروة المائية جيدة . والقرى التي لا تتوفر فيها الينابيع والآبار نادرة . اما على سفوح جبل حرمون وعلى المنحدر الغربي للجولان فالينابيع كثيرة وغزيرة ودائمة التدفق .

٦- وللمناخ والمياه تأثير على الجغرافية النباتية للجولان . فحوران لكونه اقل ميهاً فهو اكثر فقراً في الاشجار والنبات . ومن الظواهر البارزة في منطقة الهضاب بما فيها حوران اختفاء الغطاء الشجري . لكن الشجر ما يزال موجوداً في الجولان في نقاط مختلفة على الرغم من الاتلاف المريع ، ذلك لانتشار القطعان والمواشي التي يرعاها البدو . اما البقايا المتبقية المبعثرة هنا وهناك فهي تسرد لنا القصة الحزينة لغابات الجولان التي كانت تغطي كل سطح المنطقة .

وقد تؤدي كميات الامطار الكافية في ارض قابلة للغطاء الى نمو الاشجار من جديد اذا كانت بمنأى من الحيوانات وبمنجاة من فؤوس الحطابين . ويرقم اجمالي فإن البقع الباقية من غابات الجولان تغطي مساحة تساوي

١٨١٢٥٠ دونم اي ما يعادل ١٨١٢٥ هكتار . اما حوران فهي خالية من كل اثر للغابة . اما الأشجار التي تراها على مقربة من التجمعات السكانية فهي من شتل الانسان وزرعه .

٧- إن هذه الفروق المناخية والمائية والحيوانية من نتائج وجود فروق في التربة بين تربة الجولان وحوران . فتربة حوران تصنف في مجموعة التربة السمراء . اما تربة الجولان فهي من مجموعة التربة الكستنائية حسب الدكتور فان لير .

٨- أما الجغرافية البشرية فهي تعكس بدورها خصائص مميزة . فسكان حوران يتميزون بانسجام تام تقريباً . فالسكان هناك من اصول عربية والنمط المعاشي هو الزراعة . والاكثرية الساحقة مسلمة اما الفعالية الاساسية فهي زراعة الحبوب . اما في الجولان فعلى العكس فالجولان يضم سكاناً سوريين ولكن من اصول عرقية مختلفة عرب وتركمان وجراكسة واكراد وازمن ، هذا عدا التعدد في العقائد الدينية . اما فعاليات السكان فمتنوعة : فهناك البدو الرعاة ، ومن هؤلاء الغنامة رعاة الغنم والبقارة رعاة البقر ، والفلاحون المستقرون العاملون في الزراعة او في رعي المواشي وهناك المشتغلون بالاختشاب ، او الكرمة ، او زراعة الرز .

٩- إن ما اتينا على ذكره فيما يخص الجغرافية البشرية يصح قوله بشأن التناج الاقتصادي . فافتصاد حوران بأجمعه يستند على مدى خصوبة التربة وبالتالي على نوع واحد من زراعة الحبوب غير المسقية . ويتعلق الانتاج الى حد كبير بكميات الامطار الهاطلة . وان توالي سنتين في شح المطر يكفي للقضاء على التوازن الاقتصادي في اقليم حوران ويؤدي الى هجرة عدد كبير من السكان الى اي مكان وإلى المدن الكبرى للبحث عن عمل ومورد للعيش . ولكن سكان الجولان يمارسون حرفاً وفعاليات اخرى الى جانب الزراعة ، ولذا فإنهم لا يتعرضون بالتالي لخطر الاعتماد على مورد واحد محدود .

إن هذه المقايسة التي عقدناها بين اقليمي الجولان وحوران في سورية تكشف لنا اصاله اقليم الجولان ، وهي أصالة واضحة حتى بالنسبة لاقطار

الشرق الأدنى . وان شرقنا يختص بغلبة الماضي على الحاضر ، وللتاريخ دور مهم جداً عندما يلجأ المرء الى التاريخ لتفسير وقائع جغرافية . وانطلاقاً من ملاحظة ثاقبة يقول ج . فولرس : « بالنسبة اليانا نحن الغربيين ، يبدو الشرق الأدنى آلة لصعود الزمن إذ حيث يعيش الناس الى اليوم في اطار الماضي بصورة عادية وهنا يحاذي الجغرافي في عمله زميله المؤرخ او عالم الآثار » .

إلا أنه بالنسبة الى الجولان تتقدم الجغرافية على التاريخ . فهذه البقعة من ارض سورية بوتقة ذابت فيها المجموعات العرقية كما ذابت عاداتهم وتقاليدهم الشعبية وحتى طريقة حياتهم من تركمان وجراكسة بالاضافة الى سائر المواطنين من مذاهب مختلفة حيث لا نلمس اي اثر لاي تنافس عرقي .

وان اندماج السكان في المحيط الذي يعيشون فيه يجعل من الصعب على الغريب ان يميز بسهولة الفروق بين مجموعات السكان لامن حيث السحنة ولا من حيث اللباس او طريقة المعاش . هذا الى ان بعض فئات السكان كالجراكسة والأتراك الذين قدموا الى الجولان حديثاً لا يستطيعون الا بصعوبة كبيرة المحافظة على بعض خصائصهم العرقية .

ان اقليم الجولان الذي اتينا على تعريفه وتحديدده ووصفه فيما سبق يضم إدارياً ثلاث وحدات : قضاء الجولان او القنيطرة ، قضاء الزوية اوفيق واخيراً الجواء الجنوبي الغربي من قضاء وادي العجم . هذه الوحدات تتباين في مساحتها . فاستناداً الى احصاءات مصلحة المساحة تكون مساحة كل وحدة كالتالي :

قضاء القنيطرة	١٣٤٨٠٠ هكتاراً	ضاء
قضاء الزوية	٥٥٨١٠٠ هكتاراً	حسب الاحصاءات القديمة
	٥٩٠٠٠ هكتاراً	حسب احصاءات احدث
جنوب وادي العجم	٢٠٣٠٥ هكتاراً	

فالمساحة الكلية تغطيان ٢١٤٨١٠٥ هكتاراً اي ما يساوي ٢١٤١ كم

الفصل الثاني

جيولوجية الجولان

١ - مدخل

نجد في مجمل ثبت المراجع العائدة الى الشرق الادنى ، بعض الاسماء اللامعة التي يمكن اعتبار اصحابها رواداً حقيقيين لهذه المنطقة . غير ان هؤلاء العلماء لم يكونوا دوماً على اتفاق في تفسيرهم للحدوثات حتى العادية منها . وهكذا فان اول من بدراسة منطقتنا هما : س دينر ، وم . بلانكنهورن على التوالي في عام ١٨٦٦ وانطلقا من عام ١٨٨٨ واخذوا بنظرية الانهيارات والكسورات . اما ل . كوبر فقد فسّر عام ١٩١٠ بنية هذه المنطقة على اساس الالتواءات . وفي عام ١٩٢٥ اندمج المفهومان المتناقضان من قبل ا . كركنل في تركيب اقل ما يقال فيه انه خيبة امل . وعاش الجيولوجيون والجغرافيون منذ هذا التاريخ الاخير ، على هذا الميراث من النظريات . ونجد هكذا ل . دوبرتره الذي كان يتابع ابحاثه ، منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ، في الشرق الادنى . فقد انحاز الى النظريتين المتناقضتين آخذاً بالاولى بعد اخذه بالاخري . فنراه يقول هو نفسه : « لقد انحزنا نحو فرضية كوبر ، ولكننا عدنا الى آراء دينر وبلانكنهورن ولكننا نتمسك بها بزيادة وذلك بقدر ما كانت تتضاعف لدينا المعطيات الحقلية ° .

ان احدث دراسة عن بنية الشرق الادنى هي دراسة اتيان دي فوماس . ان هذا لاخير هو نصير النظرية الثانية وهي نظرية الالتواءات ولا تعدو كونها عودة الى راء كوبر .

لقد كان الشرق الادنى ، منذ الحرب العالمية الاولى ، هدفاً للبحوث المعمقة . اذ ظهرت عدة مصورات بمقياس ١/٥٠٠٠٠ كما ان مخططات طبوغرافية شاملة ساهمت في الحصول على معلومات دقيقة عن التضاريس .

٢ - البنية الجيولوجية والتكتونية :

لما كان الجولان يقع في وسط بلاد الشرق الادنى تقريباً فان بنيته الجيولوجية لا يمكن بالواقع ان تدرس منفصلة عن دراسة بنية مجموع هذه البلاد . وان القول بان بنية الشرق الادنى هي افريقية اكثر ما هي اسيوية هو قول عادي ومبتذل . وتبدو حقيقة هذا الواقع اكثر فاكثراً اذا اعتبرنا ان الجولان يمثل سطحاً مائدياً على العموم مصاباً بالاخود الانهدامي وموزعة عليه هنا وهناك مخارط بركانية ذات منشأ صدمي . والامر يتعلق بالواقع بزمرة طبقات رسوبية تعود بجوهرها للحقب الثاني كما ان منها ما يتصل بالحقب الثالث مصابة بطية محدبة سحج سطحها سطح حتي اتت عليه صبات بازلتية ميوسينية فحجرتة واستحاثته .

هذه الطية تهيمن على منطقة حوران ، التي تشكل ، حوضاً على شكل منحدر خفيف يقابل لياً (شكل ١) . ولكن يبقى لدينا الجانب الغربي الذي يطرح سؤالاً لا يجد له جواباً . فمما هو المقصود من ذلك ؟ هل هو جرف الانهدام ام هو شدة تحدر جانب الطية التي ينعتونها بالمصندقة او ذات المقطع المربعي . وبالواقع فان سهولة بنية الجولان والشرق الاوسط ان هي إلا سهولة ظاهرية . وان المناقشات التي دارت حولها منذ بداية القرن التاسع عشر لما تنته بعد .

لقد سبق للعالمين : س . دينر ، وم . بلانكهون وهما اول من درس بشيء من التفصيل الشرق الاوسط ، ان فسرا المورفولوجية باضفائهم الدور الرئيسي للصدوعات وليس للطيات . ويكون هذا الانخفاض ، الذي يحتوي على بحيرتي الحولة وطبريا برأي هذين الباحثين عبارة عن حفرة نموذجية ، هي امتداد لحفرة البحر الميت الكبيرة وتكون الجبال المحيطة بها بمثابة نجوم .

ويكون الجولان وهو يمثل المنطقة التي تهمنا خصيصاً ، نجداً حقيقياً بحسب رأي هذين العالمين . ان ل . دوبرتريه يتفق معها على هذه الفرضية ويقول : « لقد اكثرا من عدد القوالب بعض الشيء غير ان تفسيراتها تبقى اقرب من غيرها بكثير للواقع » لم تقتصر الصدوعات على اصابة الحفرة الوسطى فحسب بل تعدتها الى لبنان والسلسلة الشرقية . والقوالب الكبيرة في السلسلة الشرقية سهّلت ايضاً انتقالات شاقولية لاقسام كبيرة - اما النمط الالتوائي فهو لا ينتشر الا باتجاه الشرق .

لقد صنع ل . كوبر ، وهو احد جيولوجيي الالب ، من سلسلتي لبنان الغربية والشرقية طيتين ومن البقاع مقعراً مصدعاً . فهو يجد في ذلك رد فعل لجبال طوروس من جهة وللسلسلتي لبنان الغربية والشرقية من جهة اخرى ، كما هو الحال على التعاقب في جبال الالب والجورا . فالحفرة السورية تقابل الحفرة الرينانية وكذلك تأتي بمقابل هضاب فلسطين وشرقي الاردن (بما فيها الجولان) جبال الغابة السوداء والفوج . وقام كرنكل بدمج المفهومين المتقابلين بتركيب يجمع جميع التضاريس الحافة الجنوبية الشرقية والشرقية للبحر المتوسط بشريط عريض من الطيات يمتد من مصر حتى جبال طوروس .

غير ان الفرع الشمالي لهذا الشريط مقطوع طويلاً ، وليس بشكل مائل ، بامتداد حفرة البحر الميت بنوع يصبح فيه البقاع عبارة عن حفرة محاطة بطيات سلسلتي لبنان الغربية والشرقية .

ان محاولة الدمج التي تعود الى ا . كرنكل استخدمت كنقطة انطلاق من قبل باحث حديث هو دي . فوماس في دراسته التركيبية لاعطاء تفسير جديد لبنية الشرق الادنى .

لقد قبل ل . دوبرتريه ، الذي بدأ ابحاثه حوالي عام ١٩٢٨ في سورية ولبنان ، فرضية كوبر معلمه وصديقه . لكنه عاد الى الفرضية المقابلة وهي فرضية دينر وبلاكنهورن .

وكان دوبرتريه يغير رأيه من سنة الى اخرى ويترك فرضية ليمسك بفرضية اخرى .

يمكننا ان ننقل بعض المقاطع التعبيرية المأخوذة من مذكراته :
لقد كتب في عام ١٩٢٩ : يؤلف لبنان قبة كبيرة . . . وسقوط الجانب
الشرقي . . . يحصل فجأة وبرفقة فائق نحو البقاع الذي هو عبارة عن سهل
واسع مقعر ، تصعد بعده الطبقات بانحدار ضعيف نحو سلسلة لبنان الشرقية
وهي القبة الثالثة . . .

فإذا كان هذا صحيحاً فإن منخفض الحولة يكون مقعراً والجولان هو
ايضاً يكون قبة . ونجد بعد مرور ثلاث سنوات ان دوبرتريه لم يعد يتمسك بما
كتبه عام ١٩٢٩ وهكذا نجده يكتب في عام ١٩٣٢ ليقول : ان جبال سورية
وفلسطين الكتلية ومنخفضاتها لها احياناً صفات القباب والمقعرات وطوراً
صفات النجود والحفر . فهي تنجم عن تشوهات الركيزة والغطاء الرسوبي
المطاوع الذي لم تلحقه الالتواءات الا ثانوياً .

ونراه بعد مرور سنة واحدة يترك فرضية القباب والمقعرات ليأخذ
بالفرضية المقلبة وهي فرضية النجود والنشاذات والاغوار . لقد كتب في عام
١٩٣٣ « تبين الخريطة الجيولوجية اليوم ان المناطق العليا لهذه الجبال هي مائدية
نسبياً وانها محددة بفوالق ذات رميات كبيرة او بمناطق ضيقة ذات انحدارات
قوية . فهي تقابل اذاً نجوداً والمنخفضات التي تحيط بها ان هي الا حفر .
وتابع يكتب في عام ١٩٣٤ على النحو التالي : « البقاع هو حفرة في الواقع غير
انه يعطي للوهلة الاولى انطباعاً بأنه عبارة عن منخفض عريض مقعر » .

وعند قيام آ . دي فوماس بوصف تضاريس الشرق الادنى فإنه لم يأت
الا على ذكر طيات . والخريطة البنيوية المرفقة والمتعلقة بالحافة الغربية للشرق
الادنى تظهر بوضوح رجحان المحدثات (خريطة رقم ٥) . ويذكر المؤلف
من بينها محدبات سلسلتي لبنان الغربي والشرقي والحرمون . والمنخفض الذي
يفصل هاتين السلسلتين هو مقعر البقاع . اما منخفض الحولة الذي يحد
منطقة دراستنا نحو الغرب فهو المنخفض الذي يحدّد بالواقع مقعر البقاع والذي
لا يفصله عنه سوى طية صغيرة محدبة (محدب الخيام) .

يتجه مقعر الحولة في البداية نحو الشمال الغربي ثم ينحرف نحو الجنوب
الغربي آخذاً جانباً بحيرة طبرية .

ويأتي جبل الجليل الذي يتم بالضبط السلسلة الغربية للبنان الى الجنوب من نهر الليطاني ، على شاكلة محدب مواز لمقعر الحولة . اما اتجاهه في البداية فهو شمال - جنوب ثم ينحرف بوضوح نحو الجنوب الغربي على ارتفاع بحيرة الحولة .

ان فوماس لم يعط اي شكل بنيوي للجولان وهو الجبل المرتفع الذي يسيطر على مقعر الحولة الى الشرق ومجده .

ولكن اذا اخذنا بآراء المؤلف نفسه ، أفلا يؤلف الجولان محدباً آخر (طية غطائية) موازياً لمحدب الجليل ومناظراً له ؟ .

صحيح ان جولاننا يدخل ضمن المنطقة الواسعة المغمورة بغطاء بازليتي . غير انه لما كان هذا الغطاء حديث العمر وعمل ببساطة على افراغ التضريس الموجود من قبل في قلبه ، فمن الواجب ألا يجعلنا نهمل البنية الجيولوجية قبل البازلتية وكذلك مورفولوجيتها .

ان هذا العرض المنوط ببنية الشرق الادنى كان ضرورياً وحتى لا مندوحة عنه لتفهم بنية الجولان الذي يقع بالضبط في وسط الحافة العربية للشرق الادنى .

نستخلص من كل ما تقدم ان الجغرافيين والجيولوجيين القائمين على دراسة هذه المنطقة منذ القرن التاسع عشر قد تجمعوا في زميرتين : الاولى وهي الممثلة حالياً بـ لويس دوبرتريه وهو من انصار الفرضية الانهيارية والمتصدعية او بالاحرى « الحفرة السورية » والثانية ممثلة بـ آ . دي فوماس وهو من انصار الفرضية المقابلة اي فرضية الالتواءات دون ان تنفي مع ذلك وجود تصدعات وفوالق .

اما استاذنا ج دريش فانه يجد ان هذه المناقشات شكلية الى حد ما . وبرأيه : « ان طيات الجبال الساحلية هي طيات « مصندقة » محدبة وشبيهة بتلك التي نشاهدها في عدة سلاسل تمهيدية من نموذج الجور أو الأطلسي . ان جوانب الطية مربعة القطع ان تم الحالية ممطوطة ، او الى فالق في العمق ، حسب مقاومة المواد . وحتى اننا نمّر كذلك من الكسورات او طيات الاعماق الى طيات غطائية . وطبقاً للآراء التركيبية التي ينادي بها ج . انجينو وعلى

الاخص لـ . بيكار فاننا نلاحظ اذن بشكل مجمل تجمعاً للتكتونيات الالبية (جبال طورس) والافريقية وما قبل الالب . وبينما يبدو ان تكتونية ما قبل الالب هي الراجحة في جناحي مقدمة البلاد ، في افريقيا وفي سورية الداخلية ، والعراق ، والعربية السعودية فان هذه الانماط الثلاثة تتداخل مع بعضها في لبنان . والحركات الشاقولية على ما يبدو ايضا هي الاقدم وبالتالي المسيرة اذ انها حددت التجاوزات البحرية والمنخفضات الداخلية التي تتجمع فيها رسوبيات قارية . ولم تأخذ الطيات والكسورات على ما يظهر اهمية الا في الاوليجوسين او الميوسين الادنى وذلك في مقدمة البلاد المتوسطة الآسيوية ، غير ان الكسورات التي رافقتها تشوهات خفيفة لم تلعب لدرجة تصل فيها الرميات التي نلاحظها حالياً ، الا بقدر ما كانت تمتد هذه الحركات وتتعاظم في نهاية الميوسين وفي البليوسين .^(١) وعلى هذا فانه يمكننا بلا ريب ان نقول عن الجولان انها منطقة مرتفعة تكتونياً وطبوغرافياً اذا ماقيست بالحولة او حوران وهما المنخفضان اللذان يحددان المنطقة موضوع بحثنا وذلك على التوالي من الغرب ومن الشرق .

وبالواقع فان الجولان لا يمثل شيئاً آخر سوى انه يمثل تنمة طبيعية لمحدب الحرمون كما ان الجليل هو تنمة لمحدب السلسلة الغربية والجولان يهيمن على مقعر الحولة من جهة بجانب شديد التحدّر وعلى منخفض حوران الذي يعتبر بمثابة امتداد طبيعي لمنخفض وادي سرحان المقعر ، بلي ممطوط في العمق من جهة ثانية (شكل ١) ان خريطة التساوي في شواذات بوغرسورية ولبنان (خريطة ٤) تبين انحراف الركيزة السورية نحو الشمال والشمال الشرقي ، وتظهر ايضاً ضعف سبكاتها تحت الجولان والجليل . وهذا امر حيوي اذ انه يخولنا ان نقول ان محدب الجليل ، ومقعر الحولة وكذلك محدب الجولان كلها من نموذج الطيات الغطائية .

(١) دريش : المتوسط والشرق الاوسط . الجزء الثاني ص ٢٢

والحق يقال فان الجولان هو طية محدبة مصندقة تابعة للحرمون وهي متناظرة وموازية لمحدب الجليل الذي يفصله عنه مقعر الحولة . والى الشرق من الجولان تأتي حفرة حوران التي ليست سوى تنمة لوادي سرحان الذي هو بمثابة منخفض مقعر .

ويثبت ل . دوبرتريه هو ايضاً صفة الجولان المحدبة عن غير قصد اذ يقول « الى القرب من ارتفاع ٥٠٠ م وعلى بعد ١٢ كم الى الغرب - شمال غرب القنيطرة يبدأ بالتكشف السينوماني والتوروني والسينيوني والاوسين افقيا او مع ميل خفيف نحو الغرب . وهناك اكتشافات اخرى تظهر كلما اقتربنا من الحرمون وتبدي انحداراً نحو الجنوب الشرقي » .

وبالاضافة الى ماتقدم فان صبات الحدر (الوعرة) وتل الاحمر المنتشرة على التوالي نحو الشرق والغرب قد اثبتت بوضوح ميول الطبقات الرسوبية التحتية (انظر الخريطة الجيولوجية رقم ٣) - يتجه المحدب الجولاني نحو الشمال - الجنوبي غير انه مصاب ، على ارتفاع بحيرة طبريا ، بالانهدام وبيحيرة طبريا ولكنه يقع في هذه المرة في حفرة تكتونية حقيقية .

فالمحدب المقطوع على هذا النحو يظهر ثنائية خلف البحيرة (محدب رقم ٦ على الخريطة البنوية رقم ٥) باتجاه شمال شرق - جنوب غرب - والامور تمجري كما لو كان شغل محدب الجولان الشاغل هو الحفاظ على التناظر والتوازي مع محدب الجليل .

١١١ - المواد كيفية احتلالها مواقعها

١ - الستراتيغرافيا والسلم الستريغرافي

ان استراتيغرافية الجولان والمناطق المجاورة لها معروفة تماماً في الوقت الحاضر . وبالنسبة لقوماس « اذا كانت لا تزال هناك نقاط بحاجة لتحديد لها بدقة فإنه من المؤكد بان لبحوث التي ستجري لن تؤدي الى تعديل في مجمل الفكرة » ان الركيزة البلورية لا تتكشف في اي مكان . فهي غير معروفة قطعاً من جبال طوروس حتى البحر الميت وفي جبل سيناء . حتى انه لا تظهر اية طبقة قديمة . فالحقب الاول وكذلك عصر الترياس لا يظهران في اي نقطة ، وحتى ان ظهور اللياس في الحرمون يبقى عرضة للشك . ومع هذا فان دوبرتريه قد اشار اليه على الخريطة الجيولوجية بمقياس ١/٢٠٠٠٠٠ بحرف . . . وهكذا فاللياس يشغل مساحة شاسعة على السطح الجنوبي الشرقي للحرمون وضمن حدود حقل دراستنا . (خريطة رقم ٣) ويخصه فوتران بحجر رملي فحمي يجتمع مع كلس بحيري ذي معديات الارجل . اذا كان وجود اللياس في الحرمون مشكوكاً فيه ، فان بقية الطبقات التي تعود للجوراسي تحت الحرمون بكامله وتشكل هيكله .

لقد اهتم عدد لا يستهان به من الجيولوجيين بدراسة جوراسي الحرمون منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وعلى الاخص بدراسة ضواحي مجدل شمس .

« ان الفضل بتسليط الاضواء على جوراسي الحرمون يعود بالنهاية الى فوتران وذلك بتبينه كون طبقات مجدل شمس تتوج متتالية سميكة دولوميتية وكلسية جوراسية وهي التي تؤلف مجموعة جبل الحرمون . (انظر رسم ٢ ورسم ٣) ويحدد فوتران بالاضافة الى ذلك « ان التتابع الستراتيغرافي المستمر من الباتونيان المؤكد وجوده الى الكيمردجيان لا نصادفه الا في الطرف الجنوبي للسلسلة الشرقية بين عرنة ومجدل شمس (رسم ٤) .

انه من العسير جداً بل من المستحيل تقدير سماكة جوراسي الحرمون بدقة إذ ان مداهمة الحت الشديد لم تصل في اي نقطة الى حدود تماسه مع الترياس

ومع ذلك فإن فوماس يقدر هذه السماكة بحدود ١٥٠٠ م الى ٢٠٠٠ م في قمة الحرمون ودوبرتريه يعطيها ٢٠٠٠ م .

لا يظهر الجوراس في اي نقطة منذ الحرمون حتى شرقي الاردن ، فهو مغطى باراضٍ احدث منه . غير انه يعود فيظهر من جديد في شرقي الاردن ولكن سماكته في هذه المرة منكشمة بحدود ٢٠٠ م .

ان التابع الطبقي نفسه قد شوهد في لبنان وفي الحرمون ممتداً من اليباس حتى البورتلانديان فالكريتاسي يستقر على سطح حتى قاطعاً طبقات الجوراسي العليا .

ان الكريتاسي في ضواحي بيروت هو الاكثر انتشاراً على كل السواحل الشرقية للبحر المتوسط . وقد وضعت فيها السلام الطبقيّة للكريتاسي نظراً لسهولة الوصول اليها .

لقد سهلت الفوالق العديدة وكذلك الحث تعرية الغطاء الكريتاسي . ومع هذا فان هذه الطبقات تستمر ايضاً على السفوح الجنوبية والجنوبية الشرقية . وهنا ايضاً نجد استراتيغرافية الكريتاسي كاملة : النيوكوميان او حجر رمل الاساس ، فالاسيان ثم الالبان ويبدو واضحاً السينوماني والطوروني والسينوني الى الجنوب من مجدل شمس موزعين على شاكلة هالة حول الحرمون .

ان هذا السلم نفسه ايضاً ساري المفعول فيما يخص لبنان والسلسلة الشرقية وحتى الجليل غير ان السماكات والسحنات تتحول جانبياً وبخاصة تشكيلات السحنات الضحلة»^(٢) .

غالبا ما يصعب تثبيت الحد الاعلى للسينوني على الارض اذ انه يعقب هذه الاراضي الكلسية - المارنية البيضاء مارن ابيض يعود للبايوسين ثم يأتي مارن كلسي ابيض يعود للايوسين الادنى بنوع يمر فيه غالباً السينوني بشكل لا

(٢) مذكرة الخريطة الجيولوجية بمقياس ١/٢٠٠٠٠٠ بيروت . حزيران

شعوري الى اسفل الايوسين . وقد جمع الاثنان معاً على الخرائط الجيولوجية تحت اسم C6..E غير ان دراسة الحيوانات المجهرية تثبت وجود انقطاع واضح بين السينوني والنمولوتي يرافقه غالباً حث . والتشكيلتان هما من نفسي نموذج الترسيب . وهكذا نرى في جنوب لبنان ان الحوار السينوني يمر بشكل لا شعوري في قسمه الأعلى الى حوار ذي اسرة من الصوان تكون فيها الفلسيات أولاً نادرة ثم تصبح فيما بعد غزيرة جداً . يتكشف النمولوتي ، في عدة نقاط ، في الجولان ويرتكز غالباً على السينوني . ولا يشكل كلاهما ، في منطقتنا ، الامساحات محدودة . (خريطة ٣) .

ويبدو النمولوتي ، في حوض دمشق ، كأنه مكّون ، بمنجمله ، من كلس حوار ذي غلوبيجرين غير انه يصبح كلسياً تحت رصيفي على حافة السلسلة الشرقية .

ان استراتيجرافية نمولوتي مناطق خريطة بيروت او ضواحيها المباشرة تظهر طبوغرافية تحت بحرية معقدة او بحالة تطور .

ونجد ، من جهة ، انه توجد احواض بقي فيها الترسيب متواصلاً منذ السينوني حتى آخر التوضعات النمولوتية .

كما انه من جهة اخرى ، عند ضواحي جبال السلسلتين الشرقية والغربية وكذلك الحرمون يتولد شعور لدينا بوجود انقطاع استراتيجرافي رافقه حث في اسفل الايوسين . فيحل هنا الكلس تحت الرصيفي محل الحوار ذي بلوبيجرين . واخيراً فان الطفوقد حصل في نهاية اللوتيسيان .

يقابل دور الانقطاع الستراتيجرافي والحت للجزء الشمالي من الجولان توضع الكونغلوميرا في جنوب المنطقة التي انتشرت عليها اولى الصبات البازلتية . لم يترك الاوليجوسين اي اثر له في منطقتنا .

ونرى تشكيلات النيوجين تؤلف احياناً من توضعات بحيرية كتلك التي توضع في منخفض الحولة الى الجنوب من البحيرة وهي تعود للميوسين وتؤلف من توضعات المياه العذبة ، وتكون طوراً سيليسية وتعود للبلويسين كتلك التي توجد في كعب السفح الجنوبي الشرقي للحرمون .

غير ان النيوجيين يلعب دوراً رئيساً في الجولان بفضل صباته البازلتية ،
إذ ان هذه الصبات قد غمرت هذه المنطقة بكاملها تقريباً .

ان هذا البازلت النيوجيني المعبر عنه B2 و B3 . . (٣) قد تدفق على طول الشقوق على شكل صبات كثيرة الميوعة انتشرت على مسافات بعيدة جداً عن مركز قذفها لقد قولبت هذه الصبات الطبوغرافية الموجودة من قبل والتي استقرت عليها بسقف حتى قاطع للاراضي التي تعود للحقنين الثلاثي والثاني (رسم ٥) وقد غمر هذا البازلت بالتالي الاودية ومجاري المياه القديمة .

وبقي مع هذا من الصعب بل ومن المستحيل ، التمييز بين البازلت الموسيني والبليوسيني .

لقد خلقت البركنة الرباعية في الجولان مخاريط من الخبث البركاني يتجمع بعضها حسب خط ممتد من الجنوب - الجنوب الشرقي الى الشمال - الشمال الغربي : مثل المخاريط الملتصقة والتي تمتد من بريقة حتى مضربة (قحطانية) تحت اسم بريقة وبير العجم داغلاري .

ونتعرف غالباً على مساحات صغيرة من الصبات اللاحقة حول هذه المخاريط يكاد الفساد ان يصيبها ولا يوجد سوى مركزي قذف كانا مصدراً لتدفق صبات بازلتية واسعة ومتأخرة (رباعية) . وهما تل الاحمريق الى الجنوب من مسعدة وقد بث صبات هبطت نحو منخفض الحولة باتجاه منحدر السفح الغربي لمحدب الجولان والفوهة البركانية للمحدب في اسفل السفح الجنوبي للحرمون وقد قذفت صبة «الوعرة» الشهيرة التي امتدت على السطح الشرقي حتى الكسوة اي انها امتدت الى مسافة ٤٠ كم . وهناك صبة صغيرة متأخرة رباعية تتبع قعر سيل يهبط من السفح الغربي للجولان نحو الزاوية الشمالية الشرقية لبحيرة الحولة .

(٣) تعبير اطلقه الدكتور بردت في

« معدلات الترشيح في حوض اليرموك لسوريا - الاردن »

والطبقات الرقيقة من الرماد ذات التطبيق المنتظم حول تل ابو الندى الى القرب من القنيطرة تعود هي أيضاً الى الحقب الرباعي .
كما ان الرباعي يتمثل ايضاً في الجولان بتوضعات قارية وسطحية تنحصر في المنخفضات : منخفض الحولة ؛ وكذلك في فوهة بركان : فوهة بركان تل ابو الندى .

اما مخاريط التفريغ في وادي الاردن ، اليرموك ، والرقاد وفي اسفل الحرمون فهي تعود للحقب الرابع وتتّوج السلم الستراتيغرافي .
٢ - مميزات السلم الستراتيغرافي .

لا يكفي في الواقع ، ان نقدر ما لهذا الصخر او ذاك من تأثير على البنية وبالتالي على التضريس فحسب ، بل يتوجب علينا ايضاً ان نشير الى اصابة تجمعات الصخور ونبيّن كيف يكون رد فعل التضريس لقاء القوى المولدة للجبال (القوى الاوروجينية) القابلة لاحداث طيات فيه او كسورات .

يمكن تلخيص الخطوط الرئيسية للسلم الستراتيغرافي بما يلي :
أ - نضع جانباً الركيزة البلورية لانها لا تنكشف في اي مكان والسلم الستراتيغرافي هورسوبي بجوهره . غير انه تبقى مع هذا صببات بازلتية متداخلة بين الطبقات التي تعود للجوراسي الاعلى والاوسط وبخاصة في الحرمون (شكل ٣) . وتعود الصببات في الجولان على الضبط الى الميوسين فتكون اذا احدث من الاراضي الرسوبية وتغطي قريبا المنطقة بكاملها .
وتكون هذه الصببات البازلتية ، من جهة اخرى ، متطبقة على نمط الصخور الرسوبية وتتصرف مثلها (شكل ١٠)

ب - لا يكون للطبقات الرسوبية نفسها التي توجد في الوقت ذاته في الجولان وفي المناطق المتاخمة لها ، نفس السماكة في كل مكان ؛ كما ان السحنات تتغير جانبياً من منطقة الى اخرى .

فالسماكة تتناقص نحو الجنوب ونحو الشمال اعتباراً من السلسلتين الغربية والشرقية (بما فيها الحرمون) . وتحولات السماكة تلعب بلا ريب فيما يخص السنيوماني مثلاً . فسماكته تتراوح بين ١٣٠٠ م الى ١٥٠٠ م في لبنان الشمالي بينما تنخفض الى ٥٠٠ - ٦٠٠ م فقط في لبنان الجنوبي « تنطلق من

هذه الملاحظات خلاصة عامة « لقد كان الترسيب اكثر فعالية بكثير في لبنان وفي السلسلة الشرقية مما كان عليه في المناطق المجاورة . وقد بلغ ذروته في مواقع هذه الجبال بينما كانت فعاليته تقل تدريجيا كلما ابتعدنا نحو الجنوب ونحو الشرق وبخاصة نحو الشمال . » لقد كان تجمع المواد كبيراً لدرجة تجعلنا نفكر بترسبات جيوسنكلينالية لولم نكن ندري بوجود الجبال الشرقية التي تقع بلا شك على السطحية السورية العربية . فهي تظهر على اقل تقدير نطاق هبوط ثابت وجدت فيه الطبقات نقطة اصطفاء للتوضع

لقد اشيرنا في موقع آخر الى ان الجولان هوطية محدبة تمتد الحرمون نحو الجنوب وبشكل مواز لمقعر الحولة ومحدب الجليل . ان هذا النمط من طيات الغطاء لا يقارن مع نمط لبنان - البقاع والحرمون لا بالارتفاع ولا بتعدد البنية . وبالموقع « ان اهمية السلسلتين الشرقية والغربية لا تفسر في الاتساع الذي اتسمت فيه عملية تشكل الجبال فحسب بل انها تعود ايضا بقسمها الاكبر الى واقع كون الالتواءات قد نمت في السلسلتين بشكل يفوق ما صارت عليه في الجبال المجاورة» .

والسلم الستراتيغرافي هو الذي يفسر لنا اذن ، في تبانه لنا ضلالة سهاكة طبقاته الرسوية ؛ الاهمية البسيطة التي تُعزى للجولان بصفته تضريسا التوائيا ، بالنسبة للبنان ، وللسلسلة الشرقية والحرمون .

جـ - لما كانت الطبقات وكذلك سهاكتها متحولة فانه لم يكن لها بتاتا درجة اللدونة وبالتالي لم يكن لها اي سبب للاستجابة الى المجهودات الاوروجينية (الحركات المولدة للجبال) وفيها جاء ميل هذه الزمرة الستراتيغرافية للخضوع للالتواء غير المتناسق .

ويكون هذا الواقع اكثر احتمالا بقدر ما يكون الدفع قد مارس عمله الى حد ما في الاعماق ليخضع بعضا من هذه الطيات الى تشوه اكثر اهمية مما هو

(٤) E. دي فوماس . لبنان (جبل لبنان . البقاع ، السلسلة الشرقية ،

الحرمون ، الجليل الاعلى اللبناني) اطروحة منسوخة على الآلة الكاتبة .

(٥) E. دي فوماس .

عليه في بقية الطبقات « هناك صفة بارزة جدا لجبال المشرق تتمثل في اظهار الجوراسي ذي طبقات شديدة (الحرمون ، جبل الجاج الخ . .) بينما لا يظهر السنيوماني غالبا الا عل شاكلة قبب عريضه » ومصندقة كتلك التي توجد في الجولان .

لقد استنتجوا من هذه المشاهدة ان الدفع الاوروجيني مارس عمله في الاعماق على مستوى شريحة الطبقات الجوراسية وان البقية لم يصبها التشويه الا بفعل النهوض اللاحق للطبي الذي اصابها فلو ان السلم الطبقي كان متجانسا وله نفس المقاومة لكانت طبقة الكريتاسي اعادت احداث الطبقات الجوراسية بامانه . وفي الحقيقة فان الاساس اللدن للكريتاسي هو الذي اضعف تشوهات طبقات الجوراسي الاساسية . وهكذا نتمكن من تفسير الفارق الواضح الذي يوجد بين شدات الطبي في الجبال الجوراسية والسنيومانية .

وفي الحقيقة فان الطابع البنيوي الالتوائي للحرمون بواضح العبارة يختلف جدا عما هو عليه في متن الجولان . ويعود هذا الاختلاف الى الطبقات الجوراسية التي تكشفت في الحرمون بعد ان اصابتها الالتواءات وارتفعت بشدة بتأثير التكتونية وبعد ان مزقتها الفوالق العديدة التي سهلت من جهتها تعرية الحرمون من غطاءه الكرتاسي . واطهار النواة الجوراسية . واذا انجهدنا اكثر فاكثر نحو الجنوب اي دخلنا في الجولان بمعنى الكلمة ، نجد ان الطبقات الجوراسية لم يلحقها نهوض بنفس الدرجة ولم يتهيا للحت نفس الغطاء لكريتاسي . كما ان سطح الحت الذي يقطع هذه الاراضي قد استحات بفعل الصبات البازلتية . والفضل كل الفضل يعود الى درع الكلس السنيوماني الذي حفظ لمحدب الجولان قبة عريضة وسطحا يكاد يكون مائديا نوعا ما مما يجعله يشبه بالتالي ، هضبة حقيقية . كما ان البازلت هو ايضا لم يشوه مظهر الجولان المائدي .

د - لم تكن الترسبات تتم بشكل متواصل كليا ، كما ان النشاط البركاني كان دوريا . ولذا فاننا نجد السلم الستراتيغرافي من الناحية النظرية على الاقل يتصف بوجود عدد من سطوح عدم التوافق حسب التعبير الجيولوجي .

أو من سطوح حتية حسب تعبير الجغرافيين .
 ان اراضي المنطقة التي نهتم بها هي جوراسية ، كريتاسية ، ثلاثية
 ورباعية . والاراضي الرسوبية تقابل طفيانين بحريين اغرقا البلاد بكاملها
 ثم حصلت حادثات طفو استمرت حتى تحقيق التضاريس الحالية .
 فالطفيان الاول يعود للجوراسي وان اراضي هذا الدور لا نراها الا في
 المناطق المرتفعة : الحرمون والسلاسل التي تسانده .
 اما الطفيان الثاني فانه يعود للكريتاسي . وهناك بعض الصخور
 التجمعية النادرة كالبودنغ تشهد على انه حصل طفو فصله عن الطفيان الاول
 وذلك موضعياً على الاقل فالكريتاسي يستقر اذا على سطح حتي انتزع من
 طبقات الجوراسي العليا .

ونمر بصورة لا شعورية من الكريتاسي الاعلى الى الفلسي
 (النمولوتي) الذي يتألف مبدئياً من مارن حواري مع انه اشد تماسكاً من
 الكريتاسي الاعلى واغنى منه بالصوان . ومن المحتمل ان تكون هذه المنطقة
 قد حصل فيها طفو خلال العصر النمولوتي ، اذ ان الكلس الرصيفي قد حل
 محل المارن الحواري . وبدأ البحر بالانسحاب تدريجياً منذ نهاية الايوسين
 الاوسط آخذاً اتجاهاً الشاطئ الحالي من جهة واتجاه الصحراء من
 جهة اخرى . لقد نوهنا في مكان آخر ، بان دراسة المستحاثات المجهرية
 اثبتت مع ذلك انقطاعاً واضحاً بين عصري السنيوني والفلسي رافقه حت
 على الأغلب

تظهر مع الميوسين الصخور التجمعية أو بالأحرى يظهر البودنغ
 البحري او القاري على شكل واسع الانتشار . وتعتبر الحصباء الغليظة
 المستديرة التي تحتوي عليها الصخور التجمعية (البودنغ) والواقعة الى
 الجنوب من الجولان شاهداً على حصول طور بنائي فعال نحو الشمال
 (اوروجيني) وعلى حصول نقل الى مسافات طويلة من شأنها ان تؤدي الى
 تدورة البقايا المجروفة . تستقر هذه التوضعات الجديدة من الصخور
 التجمعية بعدم توافق استراتيجرافي صريح على الرسوبات السابقة .

ان هذه التحولات العميقة رافقتها يقظة بنيوية (اوروجينية) ونشاط بركاني كثيف في حوران وجبل العرب والجلولان وفتحة حمص .
وهكذا فان اولى الصبات البركانية العائدة للميوسين تستقر على الصخور التجمعية . وعلى السفوح الشاقولية لوادي التايم في المجري الاسفل لوادي الرقاد تظهر مقاطع جيولوجية جميلة تكشف بوضوح السلم الستراتيغرافي .

وتجدر ملاحظة كون قيمة سطوح عدم التوافق هي نظرية اكثر مما هي حقيقية ، ولم يشيروا الى وجود عدم توافق يستحق الذكر بين مختلف الطبقات الثانوية التي تظهر كأنها متوافقة عمليا مما يؤدي فضلا عن ذلك الى اثبات كون مناطق الجبال الطافية كانت محدودة . فعدم التوافقات هذه لا تلعب اذا دورا هاما في اشكال التضاريس ، بينما يبقى دورها مع هذا كبيرا في هدرولوجية هذه المنطقة .

« تجلّت في نهاية الميوسين مفارقات التضريس . فكتل الجبال ارتفعت ، بينما هبطت الحفر . اما الساحل السوري فلم يطرأ عليه تعديل يذكر في البليوسين غير ان البحر دخل من سهل سارونة (اسدرولون) في عمر البحر الميت وتقدم الى مابعد في شرقي الاردن (قصر ازرق) .

ولا نعلم فيما اذا كان هذا الخليج يسير باتجاه معاكس لحدود الاردن حتى بحيرة طبرية او بحيرة الحولة . كانت البركة كثيفة دوما غير انها عرفت دورا بلغت فيها ذروة النشاط كما عرفت أيضاً ادوار استراحة . وهكذا نجد ان صبات الحمم توضع فوق بعضها بتطبق شبيه بتطبق الصخور الرسوبية .
ان هذه الصبات التي تدفقت خلال اطوار ذات فعالية بركانية نجدها منفصلة عن بعضها بمستويات غضارية ناجمة عن تفسخ الحمم الكيميائي .
وتكشف الآبار التي تحفر في هذه المنطقة في جميع الاماكن تقريبا سطوحاً تماسية بين الصبات ذات الاعمار المختلفة والرقع الرقيقة من الغضار المتبقي التي تؤمن وجود مستويات مائية باطنية مختلفة .

لقد فرشت الصبات البليوسينية فوق صبات الميوسين . ويدوانه من العسير بل من المستحيل ان نميّز بعضها عن بعضها الآخر .

اما ما يتعلق بالصبات التي تتبع نهر الحاصباني وتتصل بالغطاءات
البازلتية لسهل الحولة ، وكذلك الصبات التي تحتل وادي التيم (، فيبدو انها
بليوسينية ، اذ انها تستقر بعدم توافق على البودنغ الميوسيني . لقد نشرت
البركنة الرباعية في الجولان مخاريط من الخبث تجمعت تقريبا بالاتجاه جنوب
جنوب شرق - شمال شمال غرب .

ونتعرف غالبا على مساحات صغيرة من الصبات المتأخرة حول هذه
المخاريط والتي حافظت تقريبا على وضعيتها . والرماد البركاني توضع حول
بعض المخاريط مثل الرماد الذي يوجد الى الجنوب والى الغرب من
القنيطرة . ان هذه المخاريط من الخبث وهذه الصبات المتأخرة وهذا الرماد
البركاني تستقر جميعها على سطح حتي ميوبليوسيني .

الفصل الثالث

تضريس الارض

١ - نشأة التضريس وتطوره خلال التاريخ الجيولوجي .

يتدخل التاريخ الجيولوجي في الواقع كعامل مهم جداً في كل من البنية والتضريس .

لا تتكشف أية طبقة من الحقب الاول او من الترياس او الالياس في لبنان والسلسلة الشرقية (ان تكشف الالياس في الحرمون مشكوك فيه دائماً) . ولذا فقد اصبح من المتعذر استعادة تاريخه . وهذا التاريخ يبدأ فقط من الجوراسي الاوسط الذي تنم طبقاته الكثيفة عن ترسب غزير . ان تاريخ الجولان الجيولوجي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ لبنان والسلسلة الشرقية . ويمكننا تلخيصه بسلسلة من النهضات ادت الى طفو هذه الجبال اعقبها ادوار ترسيبية غطتها بكاملها او بجزء منها .

«في غضون الكالوفيان ، حدث طور اوروجيني رفع الاعماق البحرية لمنطقة السلسلة الشرقية الى السطح . اما ضواحي الحرمون فبقيت مغمورة وتوضعت عليها سلسلة بحرية (نيرتية) مارنية غضارية . هذا الطور الاوروجيني اثار ايضاً طفوا كاملاً للحرمون كما تعرّت السلسلة الشرقية بجزء منها على الاقل (١) .

ولكن اذا كان الحرمون قد انحسرت عنه المياه مع الضواحي المحيطة به مباشرة فان جنوب الجولان قد بقي على العكس مغموراً بالبحر .

(٦) دي فوماس - اطروحة .

وكان من جرّاء حركات نهاية الجوراسي وبداية الكريتاسي ان شيد سطح ، يمكن نعتة بما قبل الكريتاسي ، على الاراضي التي سبق ان انحسر البحر عنها .

وفي غضون الطغيانات التي توالى على المنطقة ، كان الحرمون يشكل جزيرة لم تغمر البحار الطاغية سوى حافاتهما . والجبل الجوراسي الذي انسحبت عنه المياه لم تعد تغمره بحار الادوار اللاحقة فكانت توضع رسوباتها في الجولان بشكل هالة تحيط بنواة الحرمون الجوراسية .

ان هذه البحار التي كان تغمر حافات الحرمون كانت ضحلة قليلة العمق وكانت توضعها نيريتية (شاطئية) وكانت اكثر عمقاً نحو الجنوب مما ادى الى وجود اختلافات في سماكة التوضعات التي كانت اقل سماكة واشد انحداراً الى الشمال مما هي عليه في الجنوب ، وسبب ذلك يعود الى كون هذه الرسوبات تستند الى الشمال على جبل غير مغمور مازال يرتفع (الحرمون) . ان هذا الواقع يفسر لنا السهولة التي تمكّن فيها الحت من نزع طبقات الكريتاسي الاعلى في اسفل السفح الجنوبي للحرمون ليكشف طبقات الكريتاسي الاوسط والادنى بينما لم يكن بمقدور اليرموك اقتطاع السينوني الذي بقي في هذا الموقع كثيفاً للغاية (انظر رسم رقم ٦) .

لقد كانت الطغيانات والانسحابات تحصل على التناوب خلال عصر الكريتاسي . فالكريتاسي الادنى (النيكوميات والابسيان) مؤلف بصورة رئيسة من توضعات نيريتية وتتخلله ثغرات . ونكون اذا امام طور ثان من النهضات واقع بين نهاية الكمرديان وبداية الالبان .

لقد عاد الغمر منذ الالبان مدشناً عمله بتوضعات بداية الطغيان . وبلغت التوضعات ذروتها في بداية السنيوماني حيث توضع قشرة كلسية تشكل درع الجولان . وفي التوروني حصل انسحاب اعتبر انطلاقا لتشكل التضاريس الحالية .

وفي نهاية الحقب الثاني اي في اواخر السينوني اصبحت لكل من السلسلتين الشرقية والغربية وحدته الخاصة به ولم يعد يغمره البحر اطلاقاً .

والكتلتان الجبليتان اضحتا طافيتين بحيث ان طغيانات الحقب الثالث لم تعد تغمر إلا القسم الاسفل منها .

يمكننا القول بان اطوار الحقب الثاني الترسيبية الفت القسم الاضخم من الحمولة التي شيدت بها الجبال المشرقية ، بينما لم تجلب اطوار الحقب الثالث إلا تتممة بسيطة على حافاتها .

« يلعب تاريخ النمولوتي (الفلسي) دوراً انتقالياً لتاريخ الحقب الثاني والثالث . فالشرق الاوسط حصل فيه نهائياً على هيئته الحالية رغم محافظة الطغيانات والانسجابات التي اصابته على شيء من الاتساع .

تطفو جبال السلسلتين الشرقية والغربية وكذلك جبال العلويين وتساهم مع العتبات تحت البحرية في تقسيم الطبقات المائية الى احواض الامر الذي ادى الى انقطاع الانتظام في الترسيب . زد على ذلك ان اسراع الحركات المولدة للجبال ، جعلت شرائط هذا الترسيب غير مستقرة^(٢) » .

ان طغيان الايوسين الادنى أحاط بالجبال دون غمرها : فأراضي هذا العصر غير موجودة في الحرمون اللهم إلا ماكان منها على شكل هالة في اسفل سفوحه الجنوبية والجنوبية الشرقية .

يمكننا ان نستخلص من هذه الملاحظة ان الطغيان البحري العائد للحقب الثالث كان يقف عند القسم السفلي من الحرمون اذ ان هذا الجبل كان مرتفعاً جداً من قبل على شاكلة حازر يصعب تخطيه .

وقد بلغ الطغيان البحري أشده في الايوسين الاوسط (لوتيسيان) فأراضيه هي توضعات تجاوز الطغيان او طغيان واضحة . ونجد على الكريتاسي الاعلى الذي تستقر عليه هذه التوضعات غالباً ، آثار الحت بوضوح : ان هذا هو السطح الحتي السابق للوتيسيان . لقد حصلت بداية انسحاب للبحر في الايوسين الاعلى . ويبدو انها انحسارية بالنسبة للايوسين الاوسط تمكن الحت خلاها من اشادة سطح حتي جديد . ان هذا السطح اللاحق باللوتيسيان هو الذي يظهر في عدة نقاط بين خان ارنبة - جباتا الخشب وطرنجة .

(٢) آ . دي فوماس - اطروحة .

ان هذا السطح نفسه هو الذي انتشرت عليه صبات من حمم الميوسين
مسيبة تحجره . ومع ذلك فان الصبات لم تغمر البسطح بكامله وان «كلس
اللوئسيان يتكشف من تحت الغطاء البازلتي على طول طريق خان ارنبة - جباتا
الخشب - طرنجة - حضر» (٣)

يسجل الاوليفوسين انحساراً عاماً ولا يترك رسوبات في الجولان .
ونرى من الان وصاعدا ان حدود السلسلتين الشرقية والغربية هي نفس
الحدود التي تشغلها الان تقريبا ومنذ عصر البرديغالي طفت البلاد بكليتها .
واصبح الحث اكثر نشاطا بسبب التضريس الواضح نحو الشمال ، كما ان
الانقراض على غلظها جرفت نحو الجنوب لتتوضع في بحر ضحل للغاية . اما
البحر البرديغالي فكان يغمر فقط الاماكن الاقل ارتفاعاً ويحتل المنخفضات .
ان هذه التوضعات شكلت بودنغ الاساس . وفي عصر البونسيان انتشر
طور جسيم من النهضات ادى الى ضعفة الجبل بشكل عنيف وبالتالي الى
توضع البودنغ الى الجنوب من الجولان وفي اسفل الحرمون مثل ما تغطيه صبة
الوعرة الحديثة والتي امتدت حتى الكسوة (٤) .

يتطابق البلزنسيان مع طغيان بقيت آثاره ماثلة الى القرب من الشاطئ
الحالي ، فهو لا يصل الى المنطقة التي تهمنا . ومن جهة ثانية فانه لم يطل بقاؤه
حتى على الساحل .

وحين حصل الطغيان كان الجولان خاضعاً لحت شديد ، شيد الى
الشمال على الاقل ، سطحا حتيا يعود للبليزانسيان ويقتطع كلا من البودينغ
البونسياني والسطح القديم اللاحق باللوئسيان . وعلى هذا السطح متعدد
الدورات انتشرت صبة الوعرة .

(٣) تقرير رحلة جيولوجية الى القنيطرة (جولان) كلية العلوم بدمشق

١٩٥٥ .

(٤) نفس التقرير السابق

والتوضعات البحرية التي اعقبت الصخور التجمعية (كونغلوميرا)

البونسيانية في المناطق الواطئة الداخلية ، تعود على الأرجح الى البليوسين
ظهرت البركنة منذ الجوراسي وفي غضون الميوسين . غير ان دور اكبر نشاط
اعظمي لها حصل في البليوسين (البليزانيان) ومع هذا فان الاندفاعات
امتدت حتى الحقب الرابع . والصبات البازلتيّة ذات الاعمار المختلفة التي
تنضدت على غرار الطبقات الرسوبية هي بالواقع صبات مفصولة عن بعضها
بتوضعات ركامية . ولوحظ وجود هذه الطبقات اثناء حفر الآبار ، من وجود
عصيات رقيقة من الغضار المتبقي ناجمة عن فساد البازلت تحت تأثير مختلف
عوامل الحت .

والستراتيغرافيا لا تقدم لنا الا النذر اليسير من البراهين التي تمكننا من
استعادة عرض تاريخ الرباعي . وهذا التاريخ يتم بخاصة عن طريق دراسة
التطور المورفولوجي وكذلك دراسة باليوجغرافية المنطقة .

II - تضريس الهالة الرسوبية : سطح الحرمون الجنوبي والجنوبي

الشرقي

الحرمون ، هوجبل كلسي شامخ ، يشكل حدود الجولان نحو
الشمال . ويبدو كأنه سور حقيقي يدل مظهره على عالم آخر يختلف جداً عن
الجولان بمعناه الدقيق . وبالواقع ، فان الحرمون يبدي عدة تناقضات مع
الجولان : فالممم العالية التي تصطف على طول الحدود السورية - اللبنانية
تبلغ ٢٢٩٦ ، ٢٤٦٥ ، ٢٨١٤ ، و ٢٢٦٩ متراً وتتناقض تماماً مع ارتفاعات
اكمة الجولان التي لا تتجاوز ارتفاعاتها الالف متر الا فيما ندر وعلى المخاريط
البركانية فقط . فالصخور الكلسية والحوارية تتقابل مع صبات الجولان
البازلتيّة السوداء . ويبدو ، على الرغم من وجود بعض الشبه بين البازلت
والصخور الكلسية فيما يتعلق بالنفوذية ، ان الحرمون أغنى بالموارد المائية :
فالينابيع الغزيرة ودائمة التدفق هي بداية نشوء انهار حقيقية : الاردن
والاعوج .

ويبدو اخيراً ان مورفولوجية الحرمون ، المشتملة بطية كلسية هائلة تكثر فيها الاشكال الكارستية المجوفة تناقض مورفولوجية الجولان البركانية والمائدية بشكل عام حيث تتواجد فيها بكثرة نتوءات الاجهزة البركانية . ويبقى مع ذلك الحرمون ، رغم تناقضاته مع الجولان ، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً به . فهو يلعب ، وقد سبق ان أشرنا الى ذلك ، دوراً هاماً في انظمة المناخ والمياه والاقتصاد في الجولان « الحرمون يلقي ظلّه على كل الجولان » .
وليس من قبيل العبث اذاً ان نهتم بالحرمون باعتباره منطقة تؤلف جزءاً من حقل دراستنا .

ان الحرمون في الواقع مؤلف من قبة ضخمة يتجه محورها من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي أو على الاصح من غرب جنوب غربي - الى شرق شمال شرقي .

وتأثير بنيتّه على مورفولوجيته كبير جداً . فتضريسه ، كما هو عليه في السلسلة الشرقية ولبنان والبقاع والقلمون ، هو تضريس ذونية التوائية متوافقة ، والاستثناءات الوحيدة لهذه القاعدة تقدمها الهضاب البازلتية ذات المساحات المحدودة تقريبا وكذلك شدة تحدّر الفوالق .

وبالواقع فان القسم الرئيسي من التضريس مرتبط بالنموذج الالتوائي : قمم حقيقية بنيوية تتدرج على طول الحدود اللبنانية - السورية وتقابل خط تقسيم المياه .

والسفوح الكبيرة وكذلك الجروف التي يقدمها الحرمون هي ايضاً على صلة بالبنية . فالاولى مدينة للبنية . والمنحدرات الشديدة اما تعود لأعراف (قمم صخرية) او جروف الفوالق .

لقد تجوّف مركز الحرمون على شاكلة وهذ ظهرت فيه اراضي اللياس واذا وضعنا هذا الامر جانباً ، فان التطور المورفولوجي يبقى على العموم قليل التقدم : الاقسام المرتفعة تقابل بأمانة النقاط المرتفعة من البنية (من ناحية التكتونيك) كما ان الاقسام المنهارة تقابل النقاط المنخفضة من البنية .

لقد لعب التكتونيك ايضاً بواسطة الفوالق دوراً هاماً على الحرمون :

فالوحدات البنيوية الكبرى غالباً ما تكون متقطعة بفوالق ذات رميات كبيرة (رسم ١٠) .

وبالواقع فإن مسقط قبة الحرمون الجنوبي والشرقي متصدع وقد استند التوروني والسنيني والايوسين على العديد من طبقات الجوراسي المرئية يعني اللياس والباجوسيان وذلك في المنطقة بين قريتي عرنة وبقعسم (انظر الخريطة رقم ٣) .

وهناك وباتجاه شمال - شرق يتصل باجوسيان الحرمون بالبودنج النيوحييني لحافة الجولان بتأثير فالتق رميته (بحدود ٣٠٠٠ م) حسب دوبرتريه^(٥) .
ويبدو ان هذه الفوالق تعود الى نهاية الجوراسي على الاقل . وقد لعبت ثانية فيما بعد من خلال الرسوبات التي كانت غمرتها .

ان الاوضاع الصخرية (الليتولوجية) تساهم مع البنية في نشوء التضاريس ، ويكون لتناوب الطبقات القاسية والرخوة اهمية اساسية في هذا المنحى .

واشكال التضاريس التي تنجم عن مثل هذا التناوب لطبقات قاسية ورخوة هي التي نتوقع حصولها مبدئياً .

فهي تتميز بمصاطب افقية عريضة مشيدة على السفوح ، وبمنخفضات احادية الميل او بجروف او قمم حسبما تكون الطبقات افقية او منتصبة .

كادت اوضاع مختلف طبقات الجوراسي الاعلى الواقعة بين مجدل شمس وجبات الزيت ان توفر جميع شرائط نشوء الكويستا فيها لو كان ميل هذه الطبقات اقل شدة (انظر رسم ٤) .

وعدا ذلك فان كل نوع من الاراضي الجيولوجية له بصورة دائمة تقريباً ، مورفولوجيته المميزة . فالمورفولوجية التي تشتق عن الاحجار الرملية التي تعود لعصر النيكومي والتي هي بمجملها تشكيلة غير مثبتة تكون رخوة وتتمثل بمنخفضات او بمناطق متقطعة باودية متعرجة نوعاً ما .

(٥) لويس دوبرتريه - لمحة عن الخريطة الجيولوجية مقياس

١/٢٠٠٠٠٠ بيروت ص ٧٦

ان هذه الاحجار الرملية التي تتوضع بشكل هالة حول الحرمون ، تأخذ بالواقع اوضاعاً منتصبة . فهي ترسم بهذا الوضع حول النواة الجوراسية خطاً من النقاط المنخفضة يجعلها بمثابة منخفض محيطي . يمثل الابسيان مجموعة معقدة تعود من الناحية المورفولوجية الى زمريتين من الطبقات رخوتين نسبياً ، يفصل بينهما جدار كلسي بسماكة ٦٠ متراً هو الجدار الابسياني . يتكشف الالبان بشكل مشابه تقريباً للابسيان ، فنجد شريطاً قاسياً الى حد ما من الكلس يتداخل بين الطبقات الرخوة ليعطي جداراً صغيراً يدعى بالجدار الالباني . وتظهر من جديد ، اعتباراً من الالبان ، كتلة هائلة من الكلس ، في السلم الستراتيغرافي للكريتاسي الاوسط .

ان الملامح البارزة لكل من البنية والتضريس السابقتين للبركة مرتبطة كلها بالطبقة الكلسية التي تعود للسينوماني . ان هذه الطبقة هي التي تشكل هيكل المحذب المصندق الذي يقال له الجولاني .

غير ان السينومان لا يتكشف حالياً الا على مساحات محدودة . والكارست فيه لا يظهر بنفس الشكل الذي يظهر فيه الجوراسي . فاللايات Lapiez (خدوش عميقة تقطع سطح المنطقة الكلسية) غير واضحة المعالم فيه ، والدولينات (هوات عريضة وغير عميقة) هي اقل عدداً فيه ، وهذا يعود ، دون ادنى ريب ، الى صفات السينومان الاكثر مارنية . وهناك مع السينوني مستوى صخري (ليتولوجي) جديد قطعاً يظهر في الستراتيغرافيا وله مورفولوجية مختلفة كلياً عن مورفولوجية السينوماني . غير انه لا يتكشف على اكمة الجولان الا نادراً ولا يغطي سوى مساحات محدودة للغاية .

ومع هذا فان التعرف عليه يتم على الطبيعة بدون ادنى صعوبة إذ انه ، كما هي الحال في جميع الحوار ، فان السينوني يبدي طبوغرافية رخوة وكثيرة التقطع . ويُمثل السينون نحو جنوب الجولان العنصر الرئيسي للاودية الكبيرة وبخاصة في اليرموك .

ن السينوفي غير قادر على التصرف بحرية في نحت السطوح شديدة الانحدار . ويمكن تفسير ذلك بوجود غشاء بازلي يفرض على السطوح الحوارية تطوراً مشروطاً .

اما الكلسي (النمولوتي) فانه ليس سوى امتداد لزمرة الكريتاسي الاعلى من الناحية المورفولوجية كما ومن الناحية الرسوبية الا اذا ظهر فيه صف من الكلس الواضح فوق المارن التحتي .

وتنتهي مع النمولوتي الزمرة الرسوبية للمواد التي تمثل حمولة كافية لاحداث تضريس هام .

وطبقات النيوجين التي تعقبه ، لا تمثل من وجهة النظر هذه ، إلا دوراً ثانوياً للغاية .

لقد نوهنا في السابق بان التطور المورفولوجي لا يزال قليل التقدم . غير انه ليس لنا ان نتوهم او نظن من حادثة هذا التطور ان التضريس بكليته بنيوي .

ولا يكمن تحليل مورفولوجية الحرمون الكاملة بالعوامل البنيوية فحسب ، فمختلف الادوار الحتية التي شنت بالاطوار الاوروجينية قد لعبت فيها دورا هاما وتركت آثاراً يسهل التعرف عليها ايضاً .

وبالفعل فان الجبال المشرقية تنقسم الى منطقتين مورفولوجيتين متميزتين كما يوحي بذلك تطورهما : فالاولى مؤلفة من بقايا سطح التعرية بينما لا تظهر الثانية سوى تضريس بنيوي ناجم عن خرق السطح الذي تعرض لعدة دورات حتية من قبل دورة الحت الاخيرة مما أدى الى ازالة هذا السطح في الاجزاء المرتفعة من الجبال ، وهكذا نفسراظهار الجبال الشرقية لتضريس مماثل لتضريس الكتل المحيطة بالالب وذلك في قسمها المركزي اما سطح الحت فهو على العكس تماماً اذ انه قد حُفط نسبياً على المحيط .

وتجدر ملاحظة ان آثار التمهيد لم تحفظ حتى على المحيط بنفس الشكل . فقد حفظت على السطح الجنوبي - الشرقي احسن مما حفظت فيه بالجنوب . وتلعب عدة عوامل بالفعل ، للحفاظ على آثار التعرية بشكل متفاوت على

السفحّين . ثم ان بعد مستوى الاساس يلعب دوراً هاماً . فالسطح المهد يحفظ جيداً بقدر ما يكون مستوى الاساس بعيداً .

أما ما يتعلق بمجري المياه التي تنحدر من السفح الجنوبي ، فان مستوى الاساس قريب ، غير ان فارق الارتفاع كبير . فهو يمثل بسهل الحولة . وعلى العكس فان بحيرة الهيجانة ، وتمثل مستوى المجري المائية الجنوبية الشرقية ، بعيدة نوعاً ما ، مع فارق ارتفاع اقل اهمية .

وغزارة الامطار هي عامل آخر . وهكذا فان من المحتمل جداً إذاً ، والامطار تقل بسرعة فائقة كلما توغلنا في الداخل ، ان يكون للدورة الحالية للحت - التي اصبحت سيطرتها على السفح الجنوبي الشرقي اقل دقة - نصيب ضعيف في تقطع السطح ، الذي تعرض لعدة دورات حتية والمميز للتضريس ، من نصيبها في السفح الجنوبي .

والفوالق العديدة ذات الرميات الكبيرة التي لعبت ثمانية خلال مختلف الرسوبات التي غطتها فانها هي ايضا ساهمت في تشويه سطوح الحت والوحدات البنيوية .

آ . دي فوماس يستصغر دور الفوالق ويعتقد ان « الفوالق تلعب دوراً ثانوياً نوعاً ما وانعكاستها على السطح هي ايضاً طفيفة » .

ومع هذا فان السطوح البنيوية و سطوح الحت ليس بمقدورها لوحدها ان تعطينا فكرة تامة عن تضريس سطحي الحرمون الجنوبي والجنوبي - الشرقي . اذ من الضروري جداً ان تؤخذ اشكال تفصيلية بعين الاعتبار والتي من اهمها واكثرها انتشاراً : هي الاشكال الكارستية .

١ - الاشكال الكارستيه .

وتنحصر بخاصة في الكلس الجوراسي والسينوماني والاشكال الاكثر نموذجية موجودة في الاولى بسبب نقاوتها :

اللابيات Lapiez : توجد اينما كان في الصخور الكلسية وبخاصة في صخور الجوراسي . ولا يجدونها دائماً بنفس الاشكال اذ انها تكون احياناً على شكل اقنية نحتت بالازميل على سطح الصخر . فهي نادرة في كلس السينومان مما يساعد على تمييزه عن الجوراسي .

الدولينات Dolines : وهي شائعة في طبقات الكلس الافقية او تحت الافقية . . ويلاحظ اختلافات تعود لكون الصخور الكلسية هي جوراسية او سينومانية .

تكون الدولينات عريضة نوعاً ما في الصخور الجوراسية وذات جدر شديدة الانحدار وتكون كلها تقريباً بنفس الحجم . وفي كلس السينومان تكون اكثر اتساعاً وتتغير مقاييسها اذ انها تكون تارة عريضة وتارة ضيقة للغاية .

البوليية Poljes وتكون بصورة عامة عديدة في الجبال المشرقية وعلى صلة دائمة تقريباً مع العوارض البنيوية : مقعرات اوفالتي . يقع اجمالها في شمال الحرمون خارجاً عن حدود حقل دراستنا .

ويبدو ان التضريس الكارستي قد جاوز ، اجمالاً ، المرحلة البدائية دون ان يصل مع هذا الى الطبقات الكتيمة التحتية .

وأخيراً يبدو ان ليس بالامكان تفسير هذه الاشكال الكارستية ، التي لم تكن موضوعاً لاية دراسة دقيقة ، دون افتراض وجود مناخ رطب^(١) .

(١) دريش ورد اسمه من قبل ص / ٢٥٠ /

٢ - الاشكال الجليدية

هذه الاشكال تفترض مشكلة تبقى دائماً بلا حل فيمكننا ان نفترض ان المناخ القديم الرطب كان ايضاً بارداً . يعتقد عدد كبير من المؤلفين انهم تعرفوا على اشكال تمثل مظاهر «جليدية» في لبنان والسلسلة الشرقية والحرمون . بينما يؤكد غيرهم بشكل قاطع تقريباً ان لبنان والسلسلة الشرقية والحرمون لم يعرفوا عهداً جليدياً على الاطلاق . ولكن اذا كان لا يرى اي شكل لحت جليدي فيمكن ان لم نفترض ان الاشكال الجليدية زالت بسبب كون البنية غير ملائمة لحفظها او بسبب شدة التصدعات الصخرية الحالية الناجمة عن الاختلاف الشديد بين الحرارة والبرودة ، ان نعتبر على الاقل ان وجود اشكال تضريرية خاصة وينعتونها بالاشكال التي تحيط بالجليديات معقول تماماً .

وبالحقيقة فان الاشكال الوحيدة التي تعزى الى حث جليدي هي حفر دائرية ذات جوانب شديدة الانحدار بإمكانها ان تمثل احواضاً ثلجية .

ان المورينات (المجروفات التي ينقلها الجليد معه) فقد ازيلت وانهما نقحت بقوة بعمل السيول مما افقدها كل معالمها . ولكن يبدو ان امرأ واحداً يبقى مؤكداً وهوان الكميات الكبيرة من التوضعات البليوسينية والرباعية التي فُرشَت على كعب السفح الجنوبي - الشرقي للحرمون هي من اصل واعداد ركام حصل بفضل الجليديات تحت مناخ محيط بالجليدي .

واضافة الى ماتقدم فان اشكالاً حالية ناشئة عن ثلج تجمدي في جبال المشرق ، حيث توجد فوارق ملموسة في الحرارة التي تهبط في الشتاء غالباً الى ما تحت الصفر مع استمرار الثلوج عليها من سنة الى اخرى (جبل الشيخ) ، تلعب دوراً هاماً في التضاريس ، « عندما يذوب الثلج وفي غضون تهطل المطر الغزير ، فان الحدودات المارنية تتآكل بشدة كلما كانت اكثر جفافاً وغالباً تُثَلَّم بشقوق ناشئة عن التجفيف وفاقاً للشرائط البتر واغرافية السائدة في فصل الجفاف . كما ان اشكال سيلان التربة Solufluxion والانزلاقات ، والانهار الطينية تبقى مثيرة للغاية »^(٣) .

(١) دريش ورد اسمه من قبل ص / ٢٥١ /

٣ - انهيارات ومهيلات Eboulements et éboulis

ان الانهيارات في الحرمون اندر بكثير مما كان ينتظر وقوعه حيث تتنضد غالباً طبقات سميكة وقاسية على ارض رخوة .
ومثلها المهيلات أيضاً فهي محدودة الانتشار وتكاد تكون عديمة الوجود تقريباً في الجوراسي ، ولا تصبح ذات اتساع الا في كعب الجروف الكريتاسية (ابيسانية والبيانية) حيث تكون مع هذا متقطعة . فهي لا تمثل عنصراً بارزاً للمشهد الا نادراً .

وعلى العموم فالطبقات القاسية الكلسية تكون غالباً مجردة من كل التشكيلات السطحية ، فهي تمثل المنطقة الهيكلية او الارض الصخرية بتعبير علماء التربة .

٤ - مخاريط التفريغ Cônes de dejection

تؤلف هذه المخاريط الى جانب الاشكال الكارستية ، الاشكال الثانوية الوحيدة التي تكتسب بعض الاهمية . فهي تنحصر بالسفوح المحيطة بالحرمون وبخاصة في سهل الحولة حيث تتوفر شرائط ملائمة جداً لتشكيلها : تيارات مائية تنحدر بسرعة من الحرمون والجولان وانقطاع مفاجيء جداً في الانحدار عند كعبه مما يؤدي الى انهك قوة التيارات ويؤثر على توازن مجرياتها ، علماً بان الانقراض الغليظة تتوضع اولاً بينما تنقل الاكثر نعوبة الى ابعد نحو المصب .

وكذلك الامر فيما يتعلق في كل من سهل البطيحة الصغير الواقع الى الشمال الشرقي من بحيرة طبريا ، وقاع وادي اليرموك اللذين يكونان مستويات اساس لروافدهما السيلية التي تلقي فيهما بحمولتها عند مصباتها على شاكلة مخاريط تفريغ .

مخطط الشبكة المائية وتأثير المياه في التضريس .

الحرمون هو احد الجبال الرطبة في الشرق الادنى . يلعب فيه حث المياه الجارية دوراً هاماً لانتمكن بدونه من اجراء تحليل مورفولوجي كامل له . غير ان جبل الحرمون لا يشمل اي مجرى مائي يستحق الذكر .

« تعرضت المنطقة الجبلية في لبنان الغربي والشرقي وفي الحرمون لحت منذ نهاية النملوتي اي منذ ٣٠ مليون سنة .

وكان الحت اكثر شدة في المناطق التي تسودها تناقضات شديدة في التضريس : في الكسروان ، الى الشمال الشرقي من بيروت وفي الحرمون ودعائمه^(٨) .

لقد تم الحت بطرق عدة : نحت المياه الجارية ، ميع الاراضي الغضارية . تفاعل الكلس بالمياه الجوفية وانحلاله .

تفاعل المياه المزودة بـ CO_2 (غاز الفحم) عند اختراقها للكلس يوسع الشقوق فيصبح الكلس نفوذاً للغاية . فيضعف كثيراً لهذا السبب عمل كل من الجريات والبري بالمياه الجارية .

ونجد ، على العكس ، ان البري يظهر مفعوله كاملاً على الاراضي الحوارية والمارنية والغضارية ، ويصبح عمله الحتي تماماً بميع الغضار والمارن الرطبين .

واخيراً فان الاحجار الرملية ، رغم كونها نفوذة للماء ، فانها تتفكك بسهولة بتأثير المياه الجارية اذ انها تكاد تكون ملتحمة ببعضها .

وينجم عن هذه التناقضات في تصرف مختلف الصخور التي تؤلف الزمرة الستراتيغرافية ان طبقات الكلس السمكة تقاوم الحت بشكل جيد وتسعى بالتالي للاحتفاظ بالتضريس ، بينما ينجرّف الحجر الرمي والحوار والمارن والمارن الحواري وتكشفتها في المستوى الادنى تقتصر على بعض عصبية ضيقة .

وأثناء تآكل التضاريس المرتفعة ، كانت الانقراض بقسميها الغليظ والناعم تنجرّف نحو المنخفضات الداخلية لتردم فيها النقاط الاكثر انخفاضاً محدثة سهولاً خفية ردمية . ان هذا العمل قد استمر منذ بداية الميوسين ونُقّحت سهول خفية ميوسينية وبلوسينية على التوالي بالحركات مولدة الجبال فانتجت تلالاً .

(١) دوبرتية : ملخص الخريطة الجيولوجية بمقياس ١/٢٠٠٠٠٠

تتكشف لحقيات قديمة ميوسينية شاركت بالحركات مولدة الجبال على حافة مرج عيون ، في السفح الغربي للحرمون . فهي الشاهد على دور تشكل اللحيقيات في تطور التضريس .

مخطط الشبكة المائية للحرمون اشعاعي : فالأنهار تتجه اعتباراً من منشئها في الحرمون في جميع الاتجاهات . وادي بقروش ووادي عين جديدة يجريان نحو الشمال بينما تجري مياه كفر حور وبيت جن نحو الجنوب الشرقي . والسيلان القديم نحو الجنوب قد انقطع بصبّة الوعرة . ووادي العسل ووادي الخشبي يتجهان نحو الجنوب - الغربي ووادي شعبة يجري نحو الغرب حتى التقائه بنهر الحاصباني .

ان خط تقسيم المياه يتطابق مع خط الحدود السورية - اللبنانية الذي يتبع تماماً خط القمم التي تبلغ ارتفاعاتها من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي ١٧٥٠ ، ١٩٧١ ، ٢٢٦٩ ، ٢٤٦٥ ، ٢٨١٤ متراً .

وفي الحرمون نفسه فان مجاري المياه تكون لاحقة (cataclinaux) وتهبط من الجبل بسرعة حسب ميول الطبقات . يظهر ايضاً التأثير المباشر للبنية (التكتونيك) في الشبكة المائية التي تنشأ بعض اوديتها عن الفوالق والكسورات . واهم هذه الاودية الناشئة عن الكسورات هي : وادي شعبة الذي يهبط نحو وادي التيم ووادي العسل الذي يهبط نحو منخفض الحولة . ان شق شعبة لوحده متبوع بأربعة مجار مائية لا تجري كلها بنفس الاتجاه : فوادي المعابر Maa'ber هو الاول الذي يتبع هذا الشق ليجري فيه من الشمال الى الجنوب منذ راشيا الوادي حتى مرتفع تنورة حيث يغير الاتجاه ليجري نحو الغرب ثم يأتي وادي فيجة à Figa الذي يجري من الجنوب نحو الشمال . فوادي شعبة الذي يجري من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي حتى شعبة حيث ينحرف نحو الغرب ليخلفه وادي العسل الذي يتبع القسم الجنوبي الغربي من الشق حتى منخفض الحولة .

ان الشبكة المائية للحرمون بصورة عامة قليلة التطور . فمحور طية الاعماق لم يُخترق ولا في موضع وتبدي خطوط القاع اجمالاً تكيفاً كبيراً مع البنية محتفظة بهذه الخاصة وهي كون العناصر الطولانية هنا افضل انتشاراً مما هي

عليه في لبنان . والتكيف مع العوارض البنيوية هو أيضاً نام بالتفصيل .
ومجاري المياه اللاحقة (التي تجري باتجاه ميل الطبقات) هي المسيطرة .
ونجد على السفح نفسه عدة مجار مائية ، تعود الى مستويات اساس
مختلفة ؛ لتقارب ذرواتها كثيراً حتى لا يعود يفصل بينها سوى نطاق محدود من
سيلان تصريف يكتنفه الغموض ويبقى داخلياً (خريطة ٦) .

ان وضعية الشبكة تتيح لنا التكهن بأسر نهري لصالح المجاري المائية
التي تصب في منخفض الحولة ، وعلى حساب تلك التي تضيق في الهيجانة
والتي هي اسوأ مصيراً بسبب بعد مستوى أساسها ولأن فرق الارتفاع يصبح
بالتالي ضعيفاً جداً لاثارة حت تراجع عنيف .

ان وادي العسل وهورافد الاردن ، يتمتع بموقع افضل من وادي شعبة
ونهر بيت جن . فهو على وشك أسر رافد يساري لوادي شعبة ولكن لذروة نهر
بيت جن ايضاً .

وفي الواقع فان تيار وادي العسل سريع جداً بسبب شدة الانحدار نحو
خط قاعه . ان وادي العسل ينحدر من ارتفاع ١٧٦٠ متراً الى نقطة يبلغ
ارتفاعها ٢٥٠ متراً وذلك من الحدود السورية - اللبنانية الى سهل الحولة على
مسافة ١٢ كم . فيكون متوسط الانحدار بحدود ١٢ر٥٪ .

ان الشبكة المائية في الحرمون ليس لها نفس الكثافة في جميع الارجاء .
فهي تختلف من موضع لآخر حسب طبيعة الاراضي او بالاحرى حسب درجة
نفوذية الصخور (خريطة ٦) .

يتألف الجوراسي كلياً في جنوب الحرمون من صخور كلسية والشبكة
المائية فيه قليلة الكثافة بشكل واضح ، غير ان المجاري المائية حفرت خنادق
حقيقية وهي مميّزة للمناطق الكلسية في العالم اجمع : وادي العسل ، نهر عين
الحمر - بانياس .

وعلى العكس ، فاننا نجد في الاراضي اللياسية حيث تتعاقب فيها
الصخور الكلسية مع صخور المارن الرملية وكذلك في الاراضي الكريتاسية
والايومينية ، ان الشبكة المائية هي اشد كثافة كما ان الخنادق غير موجودة
فيها .

تتقطع الشبكة المائية من جراء العوارض البنيوية ، الى احواض مستقلة عن بعضها تماماً . ويتشعب كل مجرى مائي في داخل حوضه الانصبابي ، على شاكلة فرع شجرة .

ونرى في جنوب الحرمون ان تفرع المجاري العليا اقل وضوحاً . فوادي العسل ووادي يعفور لا يمكن مقارنتهما بنهر بيت جن ونهر كفر حور اللذين هما ابعد الى الشمال (خريطة رقم ٦) .

يجفف نهر كفر حور حوضاً قليل الاتساع ؛ والروافد الصغيرة التي تؤلف المجرى الاعلى للنهر تتجه من الشمال الى الجنوب ، ولكن الاتجاه هذا يتغير على ارتفاع ريمه اذ يصبح من الغرب نحو الشرق على طول فائق . ويُبدشّن اتجاه ثالث شمال غرب - جنوب شرق على ارتفاع بقعسم ويستمر حتى كفر حور حيث يعود الاتجاه الأولي شمال - جنوب من جديد . ويحصل تبديل أخير في الاتجاه على ارتفاع بيت جن ومغرمير حيث يجري النهر نهائياً من الغرب نحو الشرق تحت اسم جديد فهو من الان فصاعداً نهر الاعوج . وعلى العموم نجد ان الاتجاه الاصلي هو اتجاه شمال - جنوب والجريان باتجاه غرب - شرق بين عرنة وبقعسم ، مرده وجود فائق بنفس الاتجاه . اما تبديل الاتجاه الاخير وهو الأهم فإنه ناجم عن تشويش اصاب الشبكة المائية من جراء صبة الوعرة البازلتية الحديثة . ان هذه الصبة الحديثة سدت سيلان المياه التي كانت فيما مضى ترفد اليرموك نحو الجنوب بواسطة وادي الرقاد الذي كان يصرف مياه كل السفح الجنوبي - الشرقي للحرمون . واصبح مصير المياه التي انحرفت نحو الشرق الضياع في منخفض الهيجانة المغلق .

وفضلاً عن ذلك فان صبة الوعرة قد حرمت الاراضي التي فرشتها ومساحتها ٢٣٠ كم^٢ من كل تصريف سطحي للمياه . ان هذه الصبة هي التي تفسر قسر الوادي الحالي لنهر الاعوج الذي سير الزامياً نحو الشرق على تماس من الصبة على طول حدوده الشمالية دون ان يتمكن من شق طريق فيها نحو الجنوب حسب الانحدار الطبيعي .

وكذلك فان الصبة الحديثة الصادرة عن تل الأحمر في كعب الحرمون الجنوبي اصابتها نفس النتائج : فقدان كل سيلان سطحي وقسر وادي نهر

الحمرا - بانياس .

والدكتور برندن هدر و جيولوجي انكليزي التبعية ، يطلق على هذه
الصبات الرباعية تعبيراً هيدروليكيّاً (مناطق غير نامية التصريف) Areas of
« Underdeve lopped drainage » .

التضريس البركاني للجولان

إذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى السطح الطبوغرافي الحالي ، فإن الجولان
يصبح منطقة مائدية نوعاً ما ، وإذا انحدرين يتجه احدهما نحو الغرب والآخر
نحو الشرق . ثم ان هذين السفحين يتقاطعان في داخل الجولان حسب خط
ذرى شمال - جنوب يقارب خط تقسيم المياه بين حوض الاردن من جهة
وحوض رقّاد من جهة ثانية .

وبالواقع فإن الجولان بوضعه الحالي ، عبارة عن هضبة تتجمع فيها
الانهار في اودية عميقة تحد المنطقة من الغرب ، والجنوب ، ومن الشرق :
وهذه الانهار هي على التوالي : الاردن ، اليرموك والرقاد . وهناك عدة أودية
ثانوية وعمودية على الاودية الرئيسة تقطّع أيضاً هذه الهضبة دون ان تتوصل
مع هذا الى تشويه السطح المائدي للهضبة تشويهاً عميقاً .

ان هذا السطح ليس من عمل الصبات البازلتيّة فحسب . اذ ان دور
هذه الصبات تمثل في قولبة سطح موجود من قبل ويعود اصله لدورات حتية
مختلفة .

يجب ان يكون للجولان اذاً ركيزة مائدية على نحو ملموس : ان صبات
الحمم اصابت السطح بحالة كبيرة من الميوعة مكنتها من اجتياح
المنخفضات . ومع هذا فقد حافظت على المظهر المائدي السابق . وتخاريط
الخبث التي شيدت في المرحلة الاخيرة من البركنة ، وفي مواقع كثيرة من
النقاط المصفوفة حسب شقوق اتجاهها : جنوب شرق - شمال شمال غرب لم
تمكن هي أيضاً من ازاله المظاهر المائدية للجولان .

وهكذا فان تضريس الجولان مدين بوجوده للصبات والاجهزة
البركانية . ولهذا فانه يصبح من المعقول ان نبدأ بدراسة البركة التي تدين لها
منطقتنا بسماتها المميّزة .

آ - البركة :

يبدو من المؤكد ان البركة السورية كان لها اصل تشققي . « ان
اختراق الكسورات التي يعتونها بالافريقية ، لسوريا رافقه تدفقات بركانية
كبيرة ، قد يكون لها صلة ايضا بنهوض جبال الانصارية ولبنان والسلسلة
الشرقية .

لا يمكننا في الوقت الراهن ان نجزم بارتباط الفعالية الاندفاعية في البلاد
حصراً على الكسورات اذ اننا لا نعلم بالواقع ما فيه الكفاية عن بنية ما تحت
الارض حتى ولا البركة (١) .

وان التوزع العام للاندفاعات البركانية في سوريا واضح تماماً . فهي
كما يشير الى ذلك آ . دي فوماس « تقع كلها الى الشمال والى الغرب من
الركيزة السورية : فهي بالتالي على صلة مع النقاط التي اصاب الركيزة فيها
أشد التضعع ، ومع منظومة الكسورات التي تعرضت لها على طرفها
المتوسطي » (٢) (نسبة الى البحر المتوسط)

ان مراكز التدفق البركاني في الجولان مصفوفة غالباً على طول الشقوق
ذات الاتجاه جنوب جنوب شرق - شمال شمال غرب حيث يُفسر كل من المنشأ
والاتجاه بضعة الركيزة السورية على حافتها وانهاير قطاع هامشها تحتها .
والدكتور صفدي يتطرق في اطروحته الى علاقة الاندفاعات البركانية
مع انهيار الاردن (٣) . فهو يرى مع الاستاذ دوبرتريه ، ان التشققات التي هي

(١) دوبرتريه : دراسة المناطق البركانية . ذكر من قبل ص ٢٧٥

(٩) . دي فوماس : بنية الشرق الأدنى ص ٣١٢

(١٠) د . شفيق الصفدي : هيدروولوجية الأراضي البركانية السورية الجنوبية .

في اصل الصبات لها كلها نفس الاتجاه : جنوب جنوب شرق - شمال شمال غرب . وتؤلف منظومة مختلفة عن فوالق البحر الميت والاردن ذات الاتجاه شمال - جنوب . فتوجد ولا شك مضاهاة بين البركنة وانخفاض البحر الميت . ومع ذلك فانه يبدو ان فوالق الاتجاه جنوب جنوب شرق - شمال شمال غرب هي سابقة للفوالق شمال - جنوب ويمكن التساؤل عن سبب كون البركنة هي ايضا قليلة الانتشار على طول فوالق البحر الميت والاردن ذات الاتجاه شمال - جنوب .

ويورد الدكتور صفدي ايضا فقرة مستنبطة من كتاب التكتونية لـ ج . غوغل . « ان فعالية بعض البراكين يمكن ان يكون لها رد فعل يحصل ببعض تشوهات في القشرة تقابل بخاصة انهيار سقف الخزانات المهلية التي انسكبت منها المهل على السطح » .

ويستخلص الدكتور صفدي من هذا العرض : « وترانا هكذا مسوقين ، بسبب عدم وجود معطيات اخرى عن القضية الى القبول بفرضية كون انهيار وادي الاردن والبحر الميت حصل نتيجة اندفاعات حوران البركانية ، فهو اذن لاحق لهذه الاندفاعات » .

وفضلا عن ذلك فانه يبدو ان المؤلف وقع في تناقض مع استخلاصه هذا اذ انه يرى في موضع آخر ان « الصبات التي نوهها الجيولوجيون والواقعة الى الشمال من بحيرة طبريا ، تعود في اصلها الى انسكابات الجولان » . وبالواقع فان حدوث انسكابات الجولان في وادي الاردن يتطلب ، وخلافا لما يراه الدكتور صفدي ، ان يكون هذا الوادي سابقا للبركنة او على الاقل انه انهيار بنفس الوقت الذي حصلت فيه انسكابات الحمم : لتتمكن هذه الاخيرة من الوصول اليه قبل تبردها .

ونضيف بان الامر لا يتعلق ابداً بوجود انهيار . فوادي الاردن بين الحولة وطبريا هو واد قسري بسيط سابق التكوّن ، ومحفور في الصبات البازلتية بتأثير تغيرات لمستوى الاساس (البحر الميت) والمسبب عن تحولات مناخية أو بتأثير الحركات الهبوطية . ان مصاطب الحفروهي صخرية ومتدرجة والتي نراها في هذا القسم من الاردن ، لا تترك اي مجال للريب في اقرار المنشأ القسري لهذا

الوادي وتبعد كل فكرة تتعلق بالانهار.

لقد ظهرت الفعالية البركانية بادوار ناشطة تفصل بينها ادوار استراحة . وبالمواقع فانه يمكن التمييز بين اربعة ادوار للانسكابات البركانية . وقد سماها بردن بالاحرى ، B1,B2,B3,B4 وقدمها بمقطع جيولوجي (رسم رقم ٥) . اما ، M.V فرولوف فقد ميّز هو ايضاً اثناء حفر آبار في حوران انواع البازلت التي تعود الى ثلاثة اطوار مختلفة من النشاط البركاني . ويفترض ان الطورين الاولين كانا متقاربين نوعاً ما بينما حدث الثالث بعد فترة زمنية كبيرة . ولم يأت على ذكر الطور الرابع لان البركة الرابعة لم تظهر على الحقل الذي تمت الحفريات فيه .

والصبة الاولى التي يصفها بردن بـ B1 فاننا نتعرف عليها بضواحي الكسوة وجبل المانع . وقد تعرضت لحت متقدم قطعها لاشكال متبقية . لقد خرجت هذه الصبة من سلسلة شقوق فاعطت زمرة من الجبال تفصل حوض نهر الاعوج عن حوض نهر الهريير رافد اليرموك .
والصبة الثانية B2 غطت مسافات شاسعة . وكانت مائعة للغاية وذات منشأ تشققي .

لقد وصلت نحو الجنوب حتى اليرموك الذي امتلأ سريره بالالابات التي تمكنت حتى من اجتيازه لتتوزع محلياً على الضفة الجنوبية (رسم ٧ و ٦) .
اما موضع الشقوق التي اعطت هذه الصبة ، فلم يعد بالامكان كشفه .

وفي غضون الادوار الهادئة التي اعقبت النشاطات البركانية الحادة انتشرت مستويات كبيرة من الغضار . غير ان الغطاء الغضاري لم يكن متواصلاً ، ولم يكن له في جميع نقاطه نفس السماكة : فهو في الحفر اكبر مما هو عليه في القمم . والصبات اللاحقة استحجرت ، في شمال الجولان ، التراب التي هي الآن طبقات متداخلة في الصبات على شاكلة عصيبات غضارية ناجمة عن فساد البازلت ومعلّمة لمستوى حتي .

والصببة الثالثة B3 انتشرت في البليوسين من مراكز بث الجولان الشمالي . وكانت اقل ميوعة من سابقتها ، ولهذا السبب لم تصل الى جنوب الجولان ، مما يفسر ، كما سنرى ، وجود تربة متطورة حتى مرحلة النضج في هذا الجزء المسمى بالزوية . وكان مسعى هذه الصبة قليلة الميوعة هو التصلب بسرعة ، مما ادى الى اعادة سد الشقوق والمداخن التي سلكتها اللابة لتصل الى السطح .

وهكذا نرى ان بركنة الجولان اخذت صبغة انفجارية برزت من خلالها مخاريط من الخبث الاحمر او الاسود تمثل مقذوفات الطور الاخير من البركة . ان هذه المخاريط الاضافية التي تعلق الغشاء البازلي للجولان ترسم خطأً للذرى باتجاه جنوب جنوب شرق - شمال شمال غرب وتؤلف بالتالي خط تقسيم المياه الحالي بين حوض الاردن من جهة وحوض رقاد من جهة ثانية . كان الاندفاع قبلاً من نموذج تحت هاوائي مما لا يعطي سوى لابة تكون بحالة غليان في الفوهة حيث تطفح منها بهدوء . وفي البليوسين اصبحت البركة انفجارية فانقلت الى النموذج السترمبولي والفولكاني .

« تصعد اللابات الى السطح كما يفور الحليب على فرن مطبخ » دي لابرانت « او كما يتدفق الخمر من زجاجة شمبانيا منساقاً بفقايع غاز الكربون .

وحين وصول الحمم الى فتحة الفوهة فان الغازات تشق طريقها في اللابة المائعة فتحمل معها انقاضاً مؤلفة من الرماد واللويبات . وبقدرة ما تكون اللابة مائعة تضعف مقاومتها لخروج الغازات ويكون الانفجار اقل عنفاً . وعلى العكس ، اذا لم تتمكن اللابة من الوصول الى قمة الجبل البركاني ، فان ضغط الغازات على جوانب البركان ينتهي بالتغلب على المقاومة ويحصل تدفق من خلال شق لا تلبث فتحة ان تتحول ، بتأثير الانفجارات المتتالية الى فوهة وغرور اضافي » . هذا ما حصل في البليوسين في بركنة الجولان . فقد اصبحت اللابة اقل ميوعة وشيدت مخاريط الانقاض البركانية نتيجة الانفجارات المتتالية التي قذفت احجار خفان وجلاميد وقنابل ولويبات بالاضافة الى الرماد . « ان طبيعة المواد المقذوفة تختلف حسب نموذج

'الاندفاع : فهناك غلبة للرماد البركاني الناعم والخفان في النموذج الفولكاني وغلبة للمواد الغليظة في النموذج السترومبولي . وهكذا فان معظم مخاريط الجولان وجباله البركانية تدخل في صف النموذج السترومبولي اما تل ابو الندى ، وتل فاذارا وتل الفرس فهي من النموذج الفولكاني .
والصبة الاخيرة B4 هي رابعة . فهي تملأ المناطق المنخفضة لتختلط مع التوضوعات البحرية والنهرية . يميز دوبرتريه بين بازلت الهضاب الذي غمر مشهداً مخدداً ويعود لعصر النمولوتي وبازلت الاودية كالذي يوجد في وادي اليرموك . بازلت الهضاب يمكن ان يكون ميسيني او بليوسيني - وبازلت الاودية هورباي .

غير ان اللابات الرباعية التي تغطي مساحات واسعة هي التي تدفقت من حدر (الوعة) وتل احمر .

ان جميع هذه الصبات ذات نضارة خارقة لانها لم تتأثر بعد بعوامل التجوية تأثيراً كبيراً . « فتظاهراتها تجعلنا نرجع تاريخها الى الباحة نظراً لنضارة اشكالها ولكن اذا كان من المحتمل ان تكون الصبات قد استمرت حتى ما قبل التاريخ فانها لم تحصل في غضون تاريخنا ولا حالياً »^(١١) .
وعلى العكس ، فان آبل يرى ان « النشاط البركاني الذي ظهر هنا وهناك في غضون العصر التاريخي قد اتمى الآن . ومن المحقق وجود ينابيع معدنية دائماً على تخوم المنطقة البركانية التي تهمننا (وآبل يهتم أيضاً بمنطقة الجولان) . كما ان الهزات الزلزالية تحتل مكاناً مرموقاً في تظاهرات القوى الطبيعية » .

وبالواقع فان البركة في منطقتنا قد اوقفت نشاطاتها الرئيسة ، منذ زمن طويل ، وظاهراتها حالياً هي الينابيع الحارة المعدنية الغنية بالغازات وبالمواد المعدنية ، وتضم معها حادثات ديناميكية داخلية تتمركز على خطوط التخلص الى القرب من بحيرة طبريا وفي وادي اليرموك . وتقدم لنا محطة مياه الحمة المعدنية الحارة الشهيرة مثلاً جيداً على ذلك . فالياء الحارة والمعدنية تنبع من عدة ينابيع ذات حرارات متفاوتة بالاضافة الى تمعدن غالباً ما يكون كبيرتياً حيث يتوضع الكبريت بحرية حول منابعه الحارة .

١١ - تضريس الجولان البركاني

وهكذا نرى ان الجولان يصبح هضبة بنيوية والاجهزة البركانية التي تسيطر عليه هي ايضاً بنيوية وبالواقع ان الاشكال المشتقة نادرة للغاية وحتى عديمة الوجود ، اذ ان التطور المورفولوجي لا يزال قليل التقدم ودورة الحث الحالية التي تصنع التضريس لاتزال في مرحلة الشباب . فالأجهزة البركانية التي توجد حول القنيطرة لاتزال تحتفظ ببيكارتها . وأغشية المواد الخطامية النارية لاتزال على وضعها البدائي منذ توضعها .

والى الشمال الشرقي من الجولان وخارجاً عن حقل دراستنا فان التطور المورفولوجي هو اكثر تقدماً . اذ يصبح بالامكان التعرف على اجهزة بركانية قديمة متقطعة تلاشى منها مخروط الخبث - وتلال الكسوة شاهدة على ذلك حيث يمكن رؤية البازلت على جبل المانع بسماكة ٣٠٠ متر .

وهضبة الجولان البركانية البازلتية هي على وتيرة واحدة رائعة فلا تقطعها مخاريط الانقراض الاضافية ولا الأودية التي تقطع الجولان على اطرافه الى سلسلة موائد منعزلة . وهكذا فانه يتوجب التمييز بين اجهزة البراكين وصبات الحمم حيث تنجم ، الفوارق المورفولوجية الوحيدة التي تبديها ، عن اختلافات في العمر او عن تغيرات مناخية . وبالتالي عن درجات متفاوتة من الفساد

آ - مورفولوجية الصبات البازلتية .

للمركيزة الرسوبية تأثير أعظمي على مورفولوجية الصبات البازلتية ، غير ان هذا التأثير يبقى عاجزاً لوحده عن تفسير اوضاع مختلف الصبات تحت الافقية والمنضدة فوق بعضها وكذلك توازيها . وبالواقع فانه يجب اخذ كيفية احتلال الصبات لمواقعها بعين الاعتبار .

لما كان الاندفاع البركاني قليل الانفجار ومن النموذج تحت الهاوائي ، كان عطاء البركنة عبارة عن صبات غزيرة وكثيرة الميوعة . وقد انتشرت هذه الصبات ، اعتباراً من مركز بثها ، مزودة بسرعة كافية لغمر المقعرات مع تحاشي التلال ، كما يفعل اي سائل آخر ، وقد اعطى هذا النوع من التلال ، بسبب تصلب اللابة ، سطحاً تحت افقي . والصبات اللاحقة انتشرت على هذه المنطقة الممهدة سابقاً فزادت بالتالي أفقية السطح الاعلى والنهائي .

ان هذه البنية المائدية واضحة للغاية على سطوح الاودية العميقة (يرموك ورقاد) حيث تمكن الحث الخطي من اقتطاع مختلف هذه الصبات . وتُظهر دراسة تكشفات البازلت على سفوح هذه الاودية ، انه يمكن للصبية الواحدة ، ان تبدي ، بوجه عام ، مستويين مختلفين : مستوى اعلى مكون من بازلت فقاعي ، ومستوى ادنى مؤلف من البازلت المتماسك .

« وجود هذين المستويين ناجم بخاصة عن انطلاق الغازات المهلية عندما تكون اللابة على وشك التبريد ، وبالواقع ، فان التبريد يبدأ من القسم العلوي للابة التي تصبح تدريجياً اكثر لزوجة . وفي الوقت نفسه ، تنطلق الغازات من اللابة : حتى اذا ما اصبح سطحها صلباً تقريباً ، فانها تترك فيه فراغات فقاعية بعد انطلاقها . اما الغازات الموجودة في القسم الادنى ، الذي مازل يحتفظ ببعض الميوعة ، فانها تسلك طريق القسم العلوي من اللابة بهدوء وفي النهاية فان الصبة تتصلب بكليتها معطية المستويين المختلفين »^(١٢) ويمكن ان نضيف بان المستوى الاعلى يكون غالباً خبثياً . ان هذا التمييز بين بازلت فقاعي وبازلت متماسك هام ، اذ ان ذلك يلعب دوراً كبيراً في تفتت الصخور وتفككها وبالتالي في مورفولوجيتها . وبالفعل فان القسم العلوي هو الذي يجب ان يتفكك بسرعة نسبية . والمياه التي تخترق الثقوب تلعب دوراً رئيساً بخاصة اثناء الجمد وهو كثير الشيع في شمال الجولان .

(١٢) الدكتور شفيق صفدي : هيدرولوجية الأراضي البركانية السورية الجنوبية

اطروحة دكتوراة في العلوم . نانسي ١٩٥٦ .

وهكذا فالصخور تتفكك والثقوب السطحية تملأ بقسيمات متبقية ناعمة وتنمو بالتالي الحزازيات على هذه السطوح الصخرية مؤدية الى زيادة الفوارق المورفولوجية بين البازلت الفقاعي والخبثي والبازلت المتناسك .
لما كانت عملية التفتت الميكانيكي والتفكك الكيميائي لبازلت الجولان هي حالياً نفسها في مختلف اجزاء المنطقة ، فان تحول مظهر الصبات المورفولوجي منوط بشكل رئيسي بتأثير العمر من جهة ، والتغيرات المناخية التي حصلت منذ عصر البليوسين من جهة اخرى . وهكذا فاننا نجد على الصبات الميوسينية والبليوسينية والرابعة ثلاثة اطوار مختلفة لتفتت البازلت وتفككه . .

والصبات الرابعة هي الأقل تطوراً (الوعة) بسبب حداثتها ولكون المناخ الحالي اقل رطوبة مما كان عليه في القديم . فهذه الصبات لاتزال في مرحلة التصدع البنيوي الذي يتمثل بشبكة شقوق (فصمات) تقسم الكتلة الى متعددات الوجوه ومواشير . .

« نلاحظ في الصخور البركانية بصورة دائمة تقريباً ، انفصلاً واضحاً تماماً وغضاً . كما هي الحال في الصخور الصوتية وبخاصة صخور البازلت التي تظهر مجزأة الى مواشير سداسية القاعدة وعمودية على سطح الصبة . ان منشأ هذه البنية الخاصة والحاصلة اثناء التبريد ليست موضحة تماماً . وقدموا لتفسيرها فرضية الشقوق التقلصية ، غير ان البازلت يتمدد في غضون التبريد . ويبدو ان تشكل هذه المواشير يعود الى تيارات الحملان التي توجد بين سطح اللابة ، الذي كان يبرد بسرعة ، وبين الاقسام الداخلية التي تظل محتفظة بحرارة مرتفعة »^(١٣) .

وبالواقع ، فان كل ما ورد ذكره اعلاه ، يمكن ان نتبينه بوضوح ، في صبة (الوعة) الرابعة ، فالصبة التي كانت تبرد تدريجياً اثناء انتشارها نقلت معها قشرة بحالة « نصف صلبة ونصف لزجة » كانت تنسحق وتلتوي وتتكرر

(١٣) ش . بوميرول وفورييه : الصخور الاندفاعية .

الى قبب مخلعة يبلغ ارتفاعها بسهولة (٥ - ١٠) امتار . ثم ان البازلت قد تقسم ، خلال تبرده ، الى مواشير في الطبقات العليا السطحية والى متعدّدات الوجوه غير متميزة في الاعماق .

ان مظهر (الوعرة) المشوش واضح تماماً على طريق القنيطرة - دمشق والى القرب من سعسع فالسطح معرّى وفيه وعورة من جرّاء تلال صغيرة تفصل بينها احواض تركد فيها مياه الامطار الشتوية حتى بداية الصيف . فالبازلت متشقّق بشكل كثيف ، وهذه حقيقة ، ولكن الشقوق قد سدّت في قعر الاحواض ، بغضار متّات من حصيلة تفكك السطح الصخري وقد جلبته المياه مما جعل قيعان هذه المنخفضات كتيمة أي غير نفوذة .

اما البلاطة البازلتية فانها مقسمة الى مواشير صغيرة ومضلعة متماسكة او مفككة حسب درجة التفسخ موضعياً . وتأخذ هذه الاعمدة المشورية اوضاعاً عمودية على السطح الخارجي . والعوامل الجوية للتفسخ تفصل المواشير عن بعضها . فالجلاميد المنتزعة تصبح مدورة ببطء شديد . والاقسام المعرضة منها للهواء تكتسي غشاء رقيقاً رمادياً بينما يبقى السطح المستقر على الارض سليماً ، مالمّا ذا لون قاتم . وباختصار فانه يظهر في هذه الصبات انفصال بنيوي وميكانيكي نام نسبياً بيد ان فسادها الكيميائي بالمقابل بقي بطيئاً للغاية مما ادى الى فقدان كامل للتربة .

اما الصبات البليوسينية وهي اقدم من السابقات فقد وجدت في الماضي تحت مناخ رطب . مما ادى الى نشاط الفساد . فتحررت المواشير وعديدات الالوجه وتقطعت بالاضافة الى تعرضها للفساد وتغطيتها بترية قائمة اللون . تغطي هذه الصبات عادة بترية عميقة نسبياً . هذا وان غنى البازلت بالاسس يجعلها قابلة للتفكك بسهولة . فالالوجيت وهو فلز نموذجي للبير وكسين وفيه نسبة مرتفعة من CaO و MgO يتلاشى كلياً في الاراضي المتطورة . والبازلت يعطي التربة المسماة بالليمون وهي غضارية بجوهرها مع قليل من المرو ونسبة عالية من العناصر الحديدية التي تلونها .

(سنجد هذه الصفات في دراستنا للتربة)

وفي الجولان ، وهي منطقة تتمتع برطوبة جوية مرتفعة نسبياً ، فإن الصخور السطحية تفسد خارجياً وعلى عمق بضع ميللمترات . والسطح المعرض للهواء يكون خشناً ذا لون رمادي فاتح ، وتغطيه احياناً الحزازيات والسطح المستقر على الارض يكون على الاغلب مائلاً .

اما الجلاميد ، التي كانت بالاصل موشورية وزاوية الاطراف فانها تصبح مدورة . إذ ان الرطوبة بالواقع تلعب دوراً هاماً في تفتيت البازلت . والبازلت هذا هو نفوذي بمجمله بسبب تشققاته ، والماء يخترق كتلته ليملىء الفصمات والثقوب الفقاقيعية . والحمد الليلي كثير الحدوث في الشتاء في الجولان ، والمياه التي تتسرب في الكتلة البازلتية تكون مزودة بقوة ميكانيكية كبيرة وتكونه قادرة على تجزئة الكتل الصخرية لتحويلها الى جلاميد ، وقطع تترقق اكثر فاكثراً بالعملية ذاتها ، لتعطي بالاشتراك مع التفكك الكيميائي ، تربة غضارية قائمة اللون او كستناوية تتوزع عليها جلاميد وحجارة بازلتية . والقسميات الاكثر نعومة في هذه الترب الغضارية ، تجرفها على المنحدرات مياه التصريف . غير انها بقدر ما تستقر في موضعها بقدر ما تتوحد علاقة ثنائية بين التربة والاحجار التي تحتوي عليها . وهذه الاخيرة اي الاحجار تحول الى حاد ما دون جرف التربة التي باحتفاظها للرطوبة تسهل عملية نمو البازلت مما يؤدي الى تشكل غشاء اصفر على الاغلب وناعم وقابل للنزع ، حول القسم المغموس دائماً في التربة .

وتغارس المياه الجارية ، بجرفها للانقراض ، نوعاً من الاصطفاء : فهي تهتم بالقسميات الدقيقة لتوضعها في الاماكن المنهارة . اما الاحجار المتبقية في مواقعها فانها تؤلف ما ندعوه بـ « حقول الحجارة » المشهورة في الجولان .

وعلى هذا النحو يتحقق المظهر المورفولوجي المألوف في الجولان ، اي تواجد مواد حطامية ونتائج الفساد الكيميائي ، على نفس الحقول او الساحات . (انظر مصور لوحة III ، ١ ، ٢ ، ٣) .

ومن هذه الزاوية ، تطرح في هذه المنطقة (شمال الجولان) قضية التربة الزراعية فالحقول الزراعية غارقة بجلاميد ذات مقاييس متفاوتة مما يجعل الحراثة عسيرة ، اذ ان هذه الحجارة تحول دون عمل سكة المحراث بحرية .

وتبرز ، في بعض الاماكن ، قبب لاتزال على اتصال ببعضها وقد لا يبقى منها احياناً سوى النواة المتماسكة للصبية .

والفلاحون يقومون بحملة عنيفة لمنع « تدفق » الحجارة ، وقد تمكنوا من تحرير مساحات زراعية واسعة . فالحجارة المنتزعة تشكل كومات اوجدراف صغيرة . ثم ان هذه الحقول المحررة من الحجارة لا تلبث ان تنتشر فيها الحجارة هنا وهناك من جديد فيما بعد . ان حادث « تدفق » الحجارة هذا بالنسبة للفلاحين يمكن تفسيره بتصفيه مستمرة للجزيئات اوبانزلاق التربة الذي من شأنه اظهار الاحجار التي كانت تحت التربة .

وهناك مشهد آخر للدور الهام الذي تلعبه الرطوبة في تفكك اللابات يكمن في واقع « ان الجلاميد تظهر فيها احياناً اعداد كبيرة من الثقوب تتراوح اقطارها من ٢ الى ١٠ سم ويصل عمقها الى ١٠ سم . وقد نميل بادىء ذي بدء الى اسناد هذه الاشكال الى عمل الانسان . غير انها تتأني بالواقع من تفكك مغازل فقاقيعية موجودة في كتلة اللابة المتماسكة . وهذه المغازل تشكلت من انطلاق غازات موجودة في اللابات اللزجة وتمددت فيما بعد .

وعندما تكسرت اللابات المغزلية الشكل الفقاقيعية بشكل مائل لاتجاه سيلان الكتلة اللزجة ثم انتصبت فيما بعد فان مياه الندى والامطار اصبحت تركد في اقسامها الاسفنجية مثيرة تفكك المغازل السريع الذي يؤدي الى تشكل الثقوب «^(١٤)»

تكون تغيرات الحرارة بين الليل والنهار كبيرة جداً . فشمس الصيف الحارقة في النهار ، تسخن جلاميد البازلت السود بشدة ، وفي الليل تهبط بالمقابل ، الحرارة بتأثير الرياح البحرية الرطبة التي تجلب الندى . فتغيرات الحرارة تؤثر ، ولوكان هذا التأثير ضعيفاً ، على تفكك الصخور . ويكون تأثير الحرارة مرتفعاً طالما بقي المناخ اكثر رطوبة . ففي الجولان ، وهي منطقة ذات جورطب نسبياً ، نجد ان حقول

(١٤) دوبرتريه : دراسة المناطق البركانية ص ٢٩٩ .

اللابة تحتوي على جلاميد مدوّرة ، ذات مقاييس متنوعة ، وتكون مدفونة بقسم منها احياناً تحت التربة السمراء ، بخلاف ما هو عليه الحال في حرّات المناطق البركانية الجافة حيث نجد الجلاميد موضوعة ببساطة على الارض وبعضها قريب من بعضه الآخر .

ومع هذا فالجلاميد المعرة شائعة في الجولان . وهذا ليس مرده الى مياه السيّلان او انزلاق التربة فحسب بل الى عمل الرياح ايضاً التي تهب بشده بخاصة في الخريف . فهذه الرياح الاعصارية تجرف التربة المعرة من غطائها النباتي ، وتمتص تربة المنحدرات المحولة سطحياً الى غبار ناعم حتى تصل الى تعرية تامة للحجارة .

لا تكون ألوان التّرب ، وهي حصيلة تفكك اللابات ، واحدة في كل الاماكن ؛ فهي سمراء قائمة او كستناوية في الشمال الرطب وسمراء او صفراوية في الجنوب الاقل رطوبة . يؤدي غسل الاراضي بمياه السيّلان الى جرّ الغضار ؛ وهذا الغضار يتوضع في قيعان الاودية والاحواض . والغضار الذي تجمع له الاهالي يستعمل لصنع بعض الفخاريات . وشراكس المنطقة يصنعون منه افراناً صغيرة للخبز وجرّات للمياه . غير ان رقع الغضار قابلة الاستثمار تجارياً معدومة .

ان الصبات الميوسينية في جنوب الجولان (الزوّة) ، وهي اقدم الصبات في جميع المنطقة ، تظهر تفككاً متقدماً نوعاً ما . فالتربة عميقة للغاية ولا نرى فيها الاحجار الاعتيادية ، وحتى ذات المقاييس الصغيرة .

ان هذه التّرب الناضجة «لزوّة» هي حصيلة تطور طويل بدأ في الميوسين . وقد نجت هذه التربة من التحجر بتأثير اللابات البليوسينية التي حصلت في شمال الجولان .

ويمكننا ان نضيف الى تاريخ التطور الطويل تأثير الادوار المناخية القديمة الرطبة ، والملائمة للتفكك . ويجب التنويه ايضاً بعنصر ثالث ، وهو ميل المنحدرات مما يساعد على بقاء التربة في مواقعها دائماً ، وهذا عامل ايضاً ملائم للتطور البيدولوجي .

ان هذه « السهول » الحقيقية ذات التربة العميقة الخالية من الحجارة والملائمة لزراعة الحبوب تقابل نوعاً ما الحقول كثيرة الحصى والوعرة في شمال الجولان .

ب - مورفولوجية المواد الحطامية النارية.

ان جميع المواد الحطامية النارية التي تقذفها البراكين الانفجارية كبراكين الجولان ، تتميز عن اللابة بكونها فقائية عامة . فهي من ناحية بتروغرافية اقل تبلوراً ايضاً وتؤلف تقريباً من الزجاج فقط .

ان التعريف البتروغرافي للخبث يميل لاجل ذلك من الاقتراب من تعريف الزجاج البركاني . ان الخبث ، بالنسبة لعلماء المورفولوجيا ، يبقى مع هذا ، تسمية تعود لمظهر العناصر التي يتألف منها الصخر ، وتنطبق على جميع المواد الفقائية المقدوفة ، باستثناء الرماد الناعم . وهذا يساعدنا على تسمية المخاريط المؤلفة من مختلف المواد المقدوفة بمخاريط الخبث .

ان تاريخ مخاريط الخبث يعود الى نهاية البليوسين ، وهذه المخاريط تحدد ، كما مر معنا ، مرحلة البركنة النهائية في الجولان ، . اذا ما تركنا بعض الاندفاعات الرباعية على حدة .

ان هذه المخاريط التي احتلت مواقعها بالانفجارات البركانية ، تعود من حيث المنشأ الى التشققات التي تدفقت منها صبات اللابات وتقع على صف واحد بالاتجاه جنوب جنوب شرق - شمال شمال غرب .

اما تضريسها فليس بالشديد ولا يقطع مشهد اللابات الرمادي .

ان اعلى نقطة لسلسلة جبل بريغا البركاني ، وبئر عجم التي تقع الى شمال (تل هزيكة Hazzike) لا تتجاوز ١١٥٨ متراً . بينما تبقى الاراضي المحيطة بها بحدود ٩٥٠ متراً . فيكون اذا ارتفاع تل هزيكة بحد ذاته هوفي حدود ٢٠٠ م . فالقياسات تتحول حتى في داخل زمرة معينة . اما نصف القطر فهو بحدود نصف كليو متر على العموم والارتفاع لا يتجاوز غالباً ٢٠٠ م .

غير ان لهذه المخاريط البركانية ، على الرغم من ارتفاعاتها الضعيفة ، شكلاً دقيقاً ومتميزاً عن تجمعات الصبات .

ونضيف بان هذه الاجهزة قد حفظت سالمة ، بسبب عمرها الذي يعود الى نهاية البليستوسين من جهة والى وجود غطاء حراجي كثيف كان يغطيها حتى تاريخ حديث .

لقد تهدم هذا الغطاء بعمل الانسان على الاخص . فالاشجار المقطوعة لاتنبت من جديد بسهولة في الشرائط المناخية الحالية التي هي اقل ملائمة من التي كانت سائدة خلال ادوار الرباعي الممطرة .

وبالواقع فاننا لا نرى اي اثر للتخديد على المخاريط التي مازالت تحمل اشجاراً ، بينما نرى المخاريط التي فقدت غطاءها النباتي قد خددت ؛ والاخاديد نراها في تل يوسف وتل الخنزير معرة تماماً .

ويمكننا ان نجزم ، بناء على المعطيات الحالية ، ان جميع المخاريط البركانية في الجولان ، تحتفظ ايضاً بالاشكال البنيوية الاولى كاملة . فهذه المخاريط تستقر على هضبة بنيوية تدفقت عليها الصبات في دور سابق كان الاندفاع فيه من نوع تحت هاوائي .

ومن زاوية الدراسات البركانية ، يمكننا ان نصنف مخاريط الخبث في زمرتين : « تختلف طبيعة المواد ، حسب نموذج الاندفاع : في النموذج الفولكاني تؤلف غالبية المواد من رماد ناعم وخفان . وفي النموذج السترومبولي تؤلف غالبية المواد من مواد غليظة » وبحسب هذا المعيار ، فان معظم المخاريط والكتل البركانية هي من النموذج السترومبولي .

وقد لاحظوا على هذه المخاريط وجود مختلف العناصر النارية الحطامية التي تقذفها عادة اندفاعات سترومبولية من خبث ، قنابل ، لويات ، ودموع . . الخ .

غير انه توجد ايضاً بعض الامثلة على النموذج الفولكاني في الجولان : تل ابو الندى وتل الآرام وتل فاذاوا وتل الفرس . فهذه المخاريط مؤلفة بصورة

رئيسة من المواد الناعمة (رماد) ومن خفان . فتل ابو الندى محاط بالرماد البركاني (لوس بركاني) المنضد على شكل طبقات افقية تماما . ان هذا اللوس البركاني يعطي طبوغرافية تتجه نحو المائدية اذا كان التوضع غزيراً . وهذا ما نلاحظه في السهل الصغير الذي يحيط بالمخروط موضوع بحثنا . ان تركيب الجهاز البركاني هو ايضاً معروف . ومن السهل ان نفحصه في تل الفرس بسبب كثرة المغاور التي حفرها الانسان في كعب سطحه الشرقي ، لاستخراج الرماد البركاني منها والمعروف تحت اسم الرمال ، واستعماله في ترميم طرقات المنطقة غير المزفتة . والرماد الخفيف والهش يتبدل لونه ، فيكون تارة اسمر وطوراً اسود . وتتداخل طبقات من الخبث الاسود بين الرماد بشكل مواز لسفوح التل .

يفسد رماد الفوهة التي تحول الى تربة بنفسجية اللون ، باستثناء ما كان منه على الجدار الغربي ، المحمي من الامطار الغربية ، حيث يكون لونه اسمر . تحيط بكتلة رماد تل الفرس بقسمها السفلي حقول من البازلت الفقاعي استخرج منها الانسان منذ القدم : انصلاً ذات سطوح حادة استعملها في الزراعة .

ويمكننا ، من الناحية المورفولوجية ، ان نتيّن عدة فوارق شكلية بين هذه الاجهزة البركانية . فبعضها بدون فوهات « كان ستوبل قد لاحظ ان الفوهة بنموذج البركنة السوري قد توجد وقد لا توجد ، وعلى كل حال فهي ليست سوى تابع ليس له اهمية بالنسبة للاندفاع الذي نميّز فيه فقط الاطوار الاخيرة .^(١٥) » .

وبالواقع ، فان مخاريط الخبث هي غالباً بدون فوهات . والمخاريط التي لها فوهات هي مخاريط الرماد من النموذج الفولكاني . وهذه يمكن تقسيمها الى نموذجين فرعيين : نموذج ذي فوهة منتظمة ، ونموذج ذي فوهة شرماء .

(١٦) ج . دريش .

وتل الفرس هو مخروط من الرماد في ذروته فوهة نموذجية يبلغ قطرها ١٥٠ متراً وعمقها ٢٥ متراً . وبحيرة الجولان الوحيدة وهي بحيرة مسعدة او بركة رآن ، ليست بالواقع سوى مغيض (مستودع صغير) اقيم على فوهة قديمة ويتمثل النموذج الفرعي الآخر ذو الفوهة الشرماء بتل ابو الندى وتل الفاذا را حيث نجد اختلافاً في الاتجاه . ويبدو لنا ان الرياح لعبت دوراً مؤكداً في اشادة هذه المخارط من الرماد (فولكانية) وفي اتجاه شرم الفوهة . وتكون المنحدرات الشرقية في جميع هذه المخاريط ، ذات ميل اشد من المنحدرات المقابلة للرياح المسيطرة الغربية . وكانت الرياح خلال الاندفاعات واثناء اشادة المخاريط تدفع الرماد والانقاض نحو الشرق لتشيّد منها سفحاً هاوياً على شاكلة الكثبان ان هذه المخاريط ذوات الفتحات الشرم تشبه كثيراً برخانات آسيا الوسطى . (لوحة مصورة ١٧ - ١) . غير ان الشبه ليس تماماً ، اذ ان اتجاه الفوهة الشرماء هو نحو الرياح بسبب غزارة الرماد المقذوف من جهة ومدة الاندفاع القصيرة من جهة ثانية . وتكفي عدة ايام واحياناً يوم واحد لتوضع رماد على ارتفاع مئة متر تقريباً . ويبدو ان الفوهة الشرماء لتل ابو الندى وتل العرام الواقعين الى الشمال الغربي لها علاقة بالرياح الشمالية الغربية المسيطرة التي تهب بعنف على هذه المواقع بعد اجتيازها فتحة مرجعيون . واننا بالاعتماد على نفس الاسباب ، نتبين توضع الرماد الى الجنوب الشرقي من تل ابو الندى فقط . ان الرياح هي التي نقلت الرماد ووضعت . غير ان وضع الرماد بشكل صفوف افقية متطبقة بانتظام يجعلنا نفكر ان الترسيب حصل في الماء . كما يجعلنا نفترض بالتالي وجود بحيرة في مكان الرماد ذاته وتظهر الصبة البازلتية السليمة من جديد تحت هذا الرماد الذي تبلغ سماكته عشرين متراً تقريباً . وكذلك فان اتجاه فوهة تل الفاذا را الشرماء نحو الجنوب . 'غربي' يجعلنا نفكر ايضاً بالرياح الجنوبية الغربية التي تسيطر على هذه المنطقة . تهب بعنف فيها بعد اجتيازها سهل اسديلون وسافلة اليرموك .

ان هذه العلاقة بين الرياح والفوهات الشرم لدليل على ان المناخ لم يطرأ عليه اي تغيير وان الرياح لم تغير من اتجاهها منذ ظهور هذه المخاريط من الرماد .

وجدير بنا ان نسترعي الانتباه الى حادث أخير وهو ان الاجهزة
البركانية او مخاريط الخبث التي تكثُر في شمال الجولان ، وبخاصة في ضواحي
القنيطرة ، تصبح نادرة أكثر فأكثر وتصغر حجوما كلما اتجهنا نحو المنطقة أي
نحو الزوينة .

فالمشهد المائي هو إذا أكثر تأثراً إلى الجنوب من منطقتنا . اما في
الشمال فان المخاريط والكتل الجبلية الخبثية يضيفان على المنطقة مشهداً وعرّاً
نوعاً ما (خريطة رقم ٣) . وعلى وجه الاجمال ، فالشمال هو أكثر ارتفاعاً
واعتباراً من تل عكاشة حتى اليرموك ، لا توجد اي ذروة على ارتفاع ١٠٠٠ م
والارتفاع الوسطي للزاوية هو بحدود ٥٠٠ م

هذا واذا كان القسم الشمالي من الجولان ، يتميز بتكاثُر المخاريط
البركانية ؛ فان القسم الجنوبي يتميز بالمقابل بتعدد اوديته العميقة : فالزاوية
هي بلد الاودية . وهذه الاخيرة بالواقع وفيرة وعميقة وبخاصة تلك التي
تتوافد على اليرموك والاردن .

من الضروري القيام بدراسة خاصة للاودية ، وتطوراتها والتضريس
الذي نجم عن ذلك .

ج - رسم الشبكة المائية ونظام الأودية .

يبدو وجود واقع غريب في الجولان : وهو فقره بمجري مياه هامة
بالنسبة الى تهطال الامطار السنوي الذي يتلقاه من جهة وجود اودية غير
متناسبة من حيث كونها عريضة وعميقة بالنسبة لما تجلبه كميات المياه الضئيلة
التي تجري فيها من جهة ثانية . غير ان هذا الواقع سهل التفسير : فمياه
الامطار بدلاً من ان تجري على السطح تتسرب في الاراضي التي تتمتع بنفوذية
على نطاق كبير بسبب تشققات البازلت ونفوذية المواد النارية الحطامية .
والاودية الكبيرة مدينة بوجودها لمناخ قديم رطب ولتبديل مستواها الاساسي
الذي من شأنه ان يعمل على شن حث تراجع عنيف .

ان جميع السيلان والرشاحة في الجولان مآلها في النهاية الوصول الى
اطرافه عن طريق مجموعة من الاودية تفرغ المياه وتلقي بها في البحر الميت عن

طريق نهر الاردن الذي يؤلف المجمّع النهائي للمياه التي تصرفها الشبكة المائية للمنطقة .

ان مجموعة الاودية هذه التي تقطع الاكمة البازلتية لها اهمية كبيرة . ومن الناحية المورفولوجية ، فان المنطقة مدينة بتضريسها الى هذه الاودية اكثر من اي عنصر آخر . وشأن هذه الاودية في الهيدروغرافيا هو ايضاً رئيسي : فتجمعات المياه الترشيحية والسيلائية تحصل عن طريق هذه الاودية . ثم ان دورها في النشاط البشري ، وبخاصة في تربية الابقار يجب الانسائه . فالاودية العميقة هي الاماكن المختارة لتشتية الماشية . فالحيوانات تجد فيها ملجأ ساخناً في الشتاء بينما يجيم على الاكمة برد قارس . (صورة لوح ١٧ ، ٢٠) واذا نظرنا الى خط تقسيم المياه لرأيناها يتمثل بخط ذي اتجاه شمال غرب - جنوب شرق . فالمياه تتجه على هذا النحو الى الغرب والى الشرق ، لتتوزع وقتياً بين الاردن ورفّاد .

تكون المياه الغربية اغزر من الشرقية واكثر ملائمة للحث لانها تنحدر في صدع وتجري على السفح الغربي للجولان . وبالواقع ، فان مياه السيلان هذه حفرّت اودية عميقة واقتطعت المنحدر الشديد للصدع الى وُجُن متطولة مشكلة مشط سمك حقيقي .

والمياه الرافدة للرفّاد وهي اقل حظاً من حيث الطبوغرافية والهواطل فقد اقتصرت اعمالها على تحديد ليس بالشديد تماماً لكن لاجمال للمقارنة بينه وبين الحلوق والخوانق الحقيقية العمودية على وادي نهر الاردن . وهذه الاودية تفرض ، اينما وجدت ، قضية عامة وهي قضية منشئها ، فهل هي من منشأ تشققي ؟ وهذا الاحتمال وارد ، فيما يتعلق بوادي الاردن ، إذ انه يمكننا ان نعتبره ، مع الانهيارات ، بمثابة واد منهار .

غير اننا نتساءل : ألم يحصل تخلّع للركيزة السورية ايضاً في الاتجاه الغربي - الشرقي ؟ وهل لم يؤد هذا الأمر الى حدوث تشققات عرضانية امثال وادي اليرموك وغيرها من الاودية العمودية على وادي الاردن ؟ .

فهل هي حصيلة الحث الخاصة ؟ يبدو لنا انه طبيعي تماماً . اذ ان مياه السهول التي تصب في الاردن وفي اليرموك اضطرت الى حفر خوانق بالنظر

للتفاوت الكبير في الارتفاع بين الهضبة ومستوى الاساس المتمثلين في الاردن واليرموك انفسهما .

فالاودية الرافدة تمكنت هكذا من دفع رؤوسها بحث تراجعى ، فالتعمق المستقيم رافقه تطور في السفوح . وانتشرت منافذ لاحقة عند مصباتها : وادي الهوى ، وادي الصفا ، وادي الدالية ، وادي الشيخ علي ووادي السمك (خريطة رقم ٧) .

أليست هذه المجموعة من الاودية الرئيسة والرافدة من النموذج الفرضي ؟ وبما لا شك فيه ان هذه الاودية وجدت منذ الميوسين وصبات الحمم عملت على ملئها .

غير ان المنطقة التي لم تصل الى حالة الاستقرار بعد كانت عرضة لحركات توازنية أدت الى رفعها بمقابل هبوط البحر الميت الانخفاضي بالوقت نفسه وقد زادت من جراء ذلك فروق الارتفاعات بين رؤوس الاودية ومستوى الاساس ، فتعمقت الاودية مقتطعة الصبات البازلتية وتوصلت الى حز الركيزة نفسها ، ونكون هنا امام حادث سبق التكون . (Antécédence) . وبمناسبة هذه الاودية ، فاننا نرى ضرورة التنويه بحادث آخر ، وهو ان المياه التي تسيل حالياً ليست متناسبة مع اسرتها .

ففي هذه الاودية الكبيرة ، تجري ماعدا الشتاء ، انهار صغيرة ليس بوسعها اشادة مثل هذه الاودية . من المعلوم انه يلحق بهذه الاودية فيضانات كبيرة ، لكنها تبقى بسبب كونها وقتية ، غير قادرة على القيام بعمل حتي على هذا المقياس .

وبالواقع فان هذه الاودية تشهد بوجود دور ماطر سابق على الاقل وبما لا شك فيه ان الاردن مازال يحتفظ بمناسيب غزيرة ومنظمة الى حد ما . ويحتفظ بقدرة على النقل والحفر . لكن الاودية الرافدة فقدت هذه القدرة وتنجرت سفوحها وكذلك اسرتها تحت الانقراض المتراكمة التي لم يعد بإمكان المياه الحالية جرفها .

وبما يبدو غريباً ايضاً وجود اكبر الاودية في جنوب الجولان ، في الزاوية ، حيث تقل كمية الامطار . وفيضانات الاودية في الشتاء ، مهما بلغت شدتها ،

تبقى عرضية ، والحت الطولاني يصبح متقطعاً اويتلاشى برمته . اما الحت الجانبي ، وهو ذات ارتباط بالحت الطولاني الذي هو بالتالي ضعيف ، فانه يسيطر مع هذا ، لان الحمولة تسعى للتغلب على شدة التيار على السفح او في أسرة الأودية ، والردم يصبح ذات اهمية بقدر ما تكون الشبكة في الغالب ، ذات صرف داخلي .

وبصورة عامة فان الغطاء البازلتي يحفظ للسطوح انحداراً كبيراً وحتى رأسياً كما هي الحال في وادي التايم (سافلة الرغاد) . ان نحت السفوح يتم بصورة رئيسة ، بالانهيالات واستطراداً بالمهيالات والكدرات (صورة لوحة ٧ ، ١ ، ٢) اننا نرى بالقرب من ذروة الافريز ، تشققات عميقة وموازية للأودية ، وهذه التشققات من شأنها ان تجنب الجلاميد الكبيرة الانهيار (صورة لوحة ٧ ، ١) والانقاض تحجّر (او تستحث) اسفل المنحدرات (صورة لوحة ٧ ، ١) . والانهيالات تكثر نحو السافلة حيث يسهل العمق حدوثها او بالاحرى يجرى على ذلك .

ان ما اوردناه اعلاه يفسر لنا قلة تطور مجموعة الشبكة المائية . فمعجاري المياه مؤتلفة كلها مع البنية . فهي تتبع الانحدار الذي تظهره البنية ، وتكون اذا كلها جداول لاحقة ، باستثناء اليرموك الذي يعتبر جدولا تابعاً . على انه لايمكننا ان نعود بتاريخ تطور الشبكة المائية الى ما بعد العصر الميوسين . فالجداول كانت في هذا لعصر ، جداول لاحقة وكانت تجري حسب الانحدار الذي كانت عليه البلاد اثناء نهوضها .

فكل هذه الأودية كانت غارقة في اللابات البازلتية المائعة التي كانت تقذفها بركنة شديدة . والمياه الغزيرة اقتطعت الغطاء البازلتي ، مستفيدة من فروق الارتفاع الكبيرة لمستوى اساسها . وهذا الغطاء يمثل الافريز الحالي الذي يتوج ذروة السفوح .

وصبات الأودية التي ذكرها دوبرتريه ، عادت للظهور مجدداً في الرباعي وسدت ، مرة ثانية ، اودية الجولان . وقد اقتطعت هذه الصبات ، خلال دورشان للحت ، أثاره تغير مستوى الاساس ، نتيجة انخفاض اوتبدل المناخ ، مما أدى الى اقتصار هذه الصبات الرباعية على جدار بازلتي جديد ذي

مستوى اخفض من المستوى الأولي الذي هو افريز القمة .

والجداران البازلتيان المتدرجان يظهران بخاصة في اليرموك وفي الرغاد الادنى . وان البازلت هو الذي يعطي لهذه الاودية مظهرها المورفولوجي المتميز .

ان الشبكة المائية مشوشة بقسم منها . وان اسلوب المنخفضات المغلقة هو السائد في سوريا . فبعض المنخفضات التي تعود للميوسين الأعلى حصلت بالصرف الخارجي حتى البحر . وبعضها الآخر امكن جمعه مع بعضه كتلك التي يصرفها نهر الاردن حتى البحر الميت بالرغم من وجود حاجز من المخاريط اللحيية الجانبية او صبات من اللابات تسد ايضاً بحيرتي الحولة وطبريا .

اما اسباب التشوش فهي متنوعة وقد سبق لنا ان شرحنا في مكان آخر دور صبات النورة وتل احمر التي تعود للحقب الرابع . « لقد تمكنوا من الادعاء ، وان كان واقع الاحتمال ، ان منطقة دمشق جرى صرفها نحو اليرموك والاردن ، وان اماكن التدفقات البركانية المحلية ، تدفقات الجانب الشرقي للحرمون ، وحووران ، وجبل العرب ، كانت في الاصل عبارة عن احواض بحيرة الهيجانة وبحيرة العتيبة حيث تضيق فيهما مياه نهر الاعوج وبردى^(١٦) .

غير ان اهم احواض هذه المنخفضات لها علاقة مع التشوهات التكتونية ، مقعرات ، فوالق او حفر كما هي الحال في منخفضات الحولة وطبريا وكذلك في المنخفضين اللذين يجمعهما الرغاد وهما : حيدور والنقرة . غير ان عدم انتظام الشبكة المائية بسبب اللابات ، وتواتر الاحواض لا يمثلان المشهد الوحيد الكلاسيكي لتضريس الجولان ، فسفوح الاودية شديدة الانحدار لدرجة تكاد تكون رأسية بالاضافة الى السطوح البنيوية الثابتة والمتمثلة بالافاريز تعتبر هي ايضاً مشهداً آخر مميزاً للتضريس وكلاسيكياً .

(١٦) ج . دريش .

اما السطوح البنيوية او افاريز الذرى البازلتي فيظهر انها محصنة ضد التفكك الكيميائي وحتى ضد التفكك الميكانيكي ، واما المهيلات الناشطة حالياً فتبدو مع ذلك انها تكون اكثر ندرية بقدر ما يكون المناخ اكثر جفافاً . ان ضعف الحث الجانبي يعود الى نفوذية البازلت الكبيرة المسببة عن كثرة تشققاته . (صورة لوح ١٧ ، ٢) . وكذلك الى جفاف المناخ بخاصة في الزاوية واخيراً الى وجود تربة عميقة متطورة حتى مرحلة النضج والتي تمنع السيلاان وتحمي الصخر الام ذا السطح المستوي من عوامل التجوية . تكون سفوح الرغاد واليرموك رأسية تقريباً . فهي تتطور ، كما هي الحال في المناطق القاحلة ، دائماً وبالتوازي مع نفسها .

وادي الاردن

يمثل اهم وادٍ في منطقتنا من ناحيتين : المورفولوجية والهيدرولوجية . فهو عنصر رئيسي في مورفولوجية الجولان من حيث سفحه الشرقي وقاعه وروافده . غير انه اذا كان المراد بوادي الاردن ، شكلاً تضريسياً ناجماً عن نحت الارض بالحث النهري ، فان وادي نهر الاردن يجب ان يتقلص بواد عميق وضيق ، ذي طول يبلغ ١٢ كم ويمتد من الحولة حتى بحيرة طبريا . ان لمنخفضي الحولة وطبريا منشأً مستقلاً عن النهر والبحيرات التي تحافظ عليها مياهها . ان هذا الجزء من المنخفض الوسطي السوري - الفلسطيني السابق لنهر الاردن بزمان طويل ، مدين بمشهده الى تخلعات وانهارات او الى التواءات وتجمعات ، والى الترسيب البحري والبحري والى حت الاودية العرضانية التي وجدت قبل الجدول الرئيسي . « ان مجرى الاردن لم يشيد الا اعتباراً من نهاية البليوسين واستتباب المناخ الحالي إذ عندهما فقط اخذ النهر بالتعمق .

لقد كان لحركات الارض الحديثة ولتغيرات المناخ خلال البليوسين تأثير على مختلف مناظر الشرق الاوسط ، وهذا التأثير يجب ألا نهمله . وبالواقع فقد سبق لنا ان ألمحنا الى هذه الحركات وهذه التغيرات العائدة للرباعي .

وزيادة في الدقة والايضاح ، فاننا نقبس عن استاذنا ج . دريش المقطع التالي « ان من السهل تحديد دور حركات الارض وتغيرات المناخ في الامتداد الشمالي للانهدام ، في حفرة وادي عرابة ، في البحر الميت وفي الاردن ، بفضل توضعات الردم القارية ، وجهود عدد كبير من المؤلفين ، مبيّنة على الاخص بـ م . بلانكنهورن ول . بيكار .

ففي الحفرة التي كانت تهبط على مراحل في الميوسين والبليو فيلافرا نشيان امتد بحر داخلي من البحر الميت حتى بيسان نحو الشمال وعلى ٣٠٠ كم خلال البليوسين الادنى . وكان المناخ السائد رطباً بما فيه الكفاية وحاراً او على الاقل نصف جاف اذا استندنا الى طبيعة التوضعات الصخرية وعالم السهب الحيواني الذي وجد في المنطقة (نظام ممطر A لبيكار) وفي المنخفض البحري العذب نجد تراكمات ، من الاحجار التجمعية والرملية ومن صخور كلسية بحيرية عذبة (مجموعة سمره) مستقرّاً لا على التوافق على التوضعات النيوجينية .

فهذا التراكم يؤلف مصطبة الاردن العليا . غير انه اصاب هذه المصطبة العليا ، اثناء عصر الاكاليان وخلال المرور من البليستوسين الادنى الى البليستوسين الاوسط ، تشوه واقتطاع بفوالق ، بينما تقدمت صبات جبل العرب وحوارن البازلتيّة حتى الحفرة ، عازلة بحيرة الحولة عن بحيرة طبريا . مما يجعل دراسة المصطبة العليا دقيقة ويفسر بالوقت ذاته اختلاف وجهات النظر في التفسير بين بلانكنهورن وبيكار . ثم ان المناخ زاد ايضاً في تجفّفه ، وقد اثار رجوع الحت وتجفّف المناخ هبوطاً في مستوى البحيرة استمر حتى بدت معالم نظام ممطر ثان (الممطر ، B لبيكار) وهذا النظام يتطابق مع البليستوسين الاوسط من الاكاليان الاعلى الى الموستريان الادنى . والبحر الميت كان اصغر مما هو عليه حالياً والانخفاض قد ردم جزئياً بالاحجار التجمعية لجزيرة ليزان ، بينما نجد اذا صعدنا اكثر نحو الشمال ، ان مخاريط من اللحقيات كانت تتعاقب مع توضعات من السبخة . وقد تمكن بلانكنهورن من تحديد مصطبة وسطية . قد رافق الحركات الارضية من فوالق ضعيفة المدى ونهضات محلية مرة اخرى ، تجفّف في المناخ بلغ ذروته في نهاية الموستريان وفي غضون

البليستوسين الاعلى . ثم حصلت ذبذبة اخيرة رطبة (الممطر ج) تفسر
توضع التشكيلات الحطامية الحديثة . ولم يتألف مجرى نهر الاردن ويبدأ
بالتعمق الا اعتباراً من نهاية البليستوسين وتوطيد المناخ الحالي «^(١٧)» .

وهكذا نرى ان وادي الاردن عاش تاريخاً طويلاً معقداً اشتركت خلاله
في احداث الحركات الارضية كل من التغيرات المناخية والتدفقات
البركانية . ومن هنا تنشأ صعوبة التفسيرات .

وفسرت المصاطب الثلاث المعترف بها من قبل بلانكنهورن وبيكار
على وجه مخالف . فبينما يرى الاول فيها مصاطب ردمية متعلبة بانتظام منذ
بداية الرباعي . فان الثاني يرى فيها مصاطب حتية صنعها نهر الاردن الذي
حفر واديه ، على مراحل تبعاً لهبوط مستوى اساس البحر الميت اعتباراً من
البليستوسين الاعلى . يدولنا ان اختلاف وجهة النظر في التفسير متأ من
واقع قيام الباحثين بدراسة مصاطب نهر الاردن في قطاعين مختلفين من
الوادي . وبالفعل يمكننا ان نجد في نفس الوادي وبآن واحد مصاطب حتية
متدرجة نحو العالية ومصاطب ردمية متعلبة نحو السافلة .

فهل يمكن تحقيق وجهات النظر بين الباحثين بلانكنهورن وبيكار على
هذا الاساس .

ونرى في اطار حقل دراستنا ، ان المصاطب المرئية في وادي نهر الاردن
بين بحيرة الحولة وبحيرة طبريا ، هي مصاطب حتية من صنع النهر الذي
اضطر الى اقتطاع هذه المستويات الحتية بالترايط مع تغيرات مستوى
اساسه .

ان اول منبسط او قطاع من وادي نهر الاردن هو سهل الحولة الذي يبلغ
طوله حوالي ١٥ كم وعرضه ٧ كم . انه سهل تراكمي نهري حقيقي
ومستنقي بقسمه الاكبر وقد انتشر فيه البازلت .

هذا ولما كانت التشكيلات اللحية غليظة في جزئه الشمالي فان السهل
يظهر انحداراً شديداً نسبياً . والارتفاع ينقص تدريجياً من ٢٠٠ الى ٨٠ متر

على مسافة ٦ كم ، فيكون الانحدار الوسطي بحدود ٢٠/١٠٠ (عشرون درجة بالالف متر) .

واسرة مختلف المجاري النهرية الرافدة للاردن ، تشكل فيه اذرعاً غير ثابتة على شاكلة شبكة معقدة تحصر جزراً صغيرة . « هذا هو نموذج سريري اقية متشابكة »^(١٨) . وعند منفذها في السهل يضعف الانحدار فجأة وتتغلب الحمولة على الاستطاعة يؤدي الى ان توضع المجاري المائية الانقاض ذات الحجم الكبير من حملتها على شاكلة مخاريط تفريغ .

وفي كعب المنحدر الذي يشرف على هذا السهل من جهة الجولان تلتحم مخاريط التفريغ مع بعضها لتشكل احدوراً لحقياً يحدد منحني التسوية رقم ٨٠ اتجاهه .

واعتباراً من ملتقى الجداول الثلاثة المؤلفة للاردن ، يصبح سرير هذا النهر على نفس ارتفاع البحيرة ، اي على ٧٠ م مما يساعد على رؤية افقية السهل ونعومة القسيات المؤلفة له .

وهناك منحدران يشرفان على سهل الحولة من الشرق والغرب غير ان تفسير وجودهما يختلف حسب النظريات التي عرضناها بصدد البنية الجيولوجية للمنطقة التي نقوم بدراستها ، وان المنحدر الشرقي فقط هو وحده موضع اهتمامنا هنا .

ليس لهذا الجرف نفس الاتجاه ولا نفس الانحدار في جميع ارجائه . فالصبة الرباعية التي تدفقت من تل الاحمر وغطت الطرف الشمالي قضت على كل سيلان سطحي واضعفت الميل الوسطي الذي اصبح بحدود ٨.٥٪ وحتى ٥٪ عل ارتفاع زاو ره . ويقطع النظر عن الصبة الحديثة واعتباراً من الرشايلة يعود الميل ليشند تدريجياً بينما تقوم الاودية باقتطاع المنحدر .

وعلى ارتفاع القسم الجنوبي من بحيرة الحولة ، يصبح الميل بحدود ١٩٪ ، ونلاحظ في هذا المكان بالذات ظهور عدة سطوحات على السطح شديد الانحدار . واذا تتبعنا منحني التسوية الذي يحمل رقم ٤٠٠ م على

(١٨) ج . تريكاروم . روشفورت

اعتبار انه يشكل اطارا لذروة السطح ، امكننا التمييز بين ثلاث سطحيات تظهر بوضوح الى الغرب من دبورة ويقال عنها انها عبارة عن درجات فالقية . وبالواقع فهي درجات كاذبة تتأتى من تجزئة الغطاء البازلتي اللزج عند سقوطه على جانب المحدث المصندق .

وبعد خروج نهر الاردن من وهدة الحولة فان اول مستوى ذرى لسفحه الشرقي وهو منحي التسوية ٤٠٠ م ، يبتعد نحو المشرق ويصبح الانحدار اضعف من ذي قبل اذ يكون بحدود ٥١٪ على ارتفاع قرية العامودية . لكننا نجد بالمقابل ، ان السرير الصغير للنهر قد تعمق وضاق الوادي مما لا يلقى مجال لمقارنته بانخفاض الحولة الذي يبلغ عرضها ٧ كم تقريباً . ان المنبسطة موجودة حالياً ، ولكن المقصود بها هذه المرة هو السطوح الحتية التي المحنا اليها اعلاه . فاعلاها اكثرها اتساعاً ، واوسطها ضيق . واما السفلى فهي حالياً مناطق زراعة الرز . وقد اضطروا ، نظراً لضعف ارتفاعها ، لجلب قناة لها مشتقة عن نهر الاردن الى الشمال من علمين ، ولا نلاحظ هذه المصطبة الاخيرة على السطح الفلسطيني . اما خط قاع نهر الاردن فهو مخمخمت تقريباً تحت رواق من اشجار الغابة . وقد نتأثر الا يكون هذا الوادي الكبير من صنع نهر الاردن في الشرائط الحالية للهيدرولوجيا والمناخ .

وخط القاع يصل ارتفاعه عن سطح البحر الى الصفر على بعد (٥) كم نحو سافلة بحيرة الحولة ، وذا تقدمنا (١٢) كم تقريباً الى الجنوب ، فان مستوى بحيرة طبريا يصبح اقل من ٢١٢ متراً .

وفرق الارتفاع هذا يكفي وحده لتفسير تعميق وادي الاردن في هذا القطاع . فالوادي يبدي ، عدم تناظر واضح ، والسفح الغربي اعلى مع ميل لطيف ، بينما يظهر السفح الشرقي على شاكلة سفح شديد الانحدار . وسرير النهر يزداد اتساعاً كلما تقدمنا نحو الجنوب . وعلى ارتفاع كراعة يفتح الوادي على سهل لحقي ، هو سهل البطيحة . وهذا يمثل سهلاً اخر لتراكم نهري يتفرع عنده الاردن الى عدة اذرع غير ثابتة تعزل بينها جزيرات : وهنا نكون ايضاً امام سرير ذي اقنية متشابهة .

ومع ذلك فان لهذا السهل اللحقي ميلاً كبيراً اذا ما قيس بميل السهول اللحقية الواقعة على سفح الجبل او بمستوى الاساس ، وهذا الميل يصل الى ٣٢ بالالف .

والسهول الصغيرة التي تمتد على اطراف البحيرات التي شكلها الاردن ، باستثناء سهل ليزان الجاف ، هي ذوات خصوبة غزيرة ولا ينقصها الا ان يصار الى استثمارها ضمن خطة معينة : وهذه هي حال سهول ارض الحولة والسهل النهري لبحيرة طبريا .

ان هذا السهل الأخير الذي تثير تسميته فكرة المستنقع ، يتسع الى الشرق من مصب الاردن في بحيرة طبريا على طول ٦ كم وعرض ٢ - ٥ كم . ان المياه الناشطة لعدة اودية (وادي الهوا ، وادي الصفا ، وادي الدالية ، وادي الشيخ علي) قد وضعت فيها لحقيات غنية يقوم البدو بزراعتها (تلاوية) كمزارعين (مرابعين) لكبار الملاكين المقيمين في دمشق .

يروى السهل بقناة « الافريثية » مشتقة من الاردن ، والاراضي السود المبللة واللزجة ، والمزروعة بالبازلت ، تصبح بالقرب من البحرة ، مستنقعات خصبة بالحميات المؤذية .

الى الجنوب من البطيحة ، واعتباراً من وادي السماك الكبير ، تقوم هضبة الجولان البازلتية بحصر بحيرة طبريا عن قرب ، ويكون ارتفاع الهضبة في هذه المنطقة ضعيفاً بحدود ٢٠ م الى الجنوب من وادي السماك و ٣٠٠ م في ضواحي كفر حارب . ومع ذلك فان الانحدار يصبح شديداً للغاية بسبب هبوط البحيرة بمقدار ٢١٢ م تحت مستوى سطح البحر مما يجعل فرق الارتفاع ٥٧٢ م الى القرب من عمرة عز الدين . واعتباراً من وادي السماك وباتجاه الجنوب يصبح الانحدار على اشده واكثر من اي نقطة اخرى . ويكون له ، من وادي السماك حتى اليرموك ، خطاً مستقيماً تقريباً لا يخترق الا في موضع واحد حيث تنزل فيه اكمة الحصن الشهيرة بمشاركة مياه الواديين : عنجف والجاموسية .

غير ان المقطع الجانبي للحدور ليس مستقيماً ، اذ انه يقتطع بمنبسطات هي بالتأكيد تقريباً درجات الفالق : ويلزمنا ان ننزل اربع درجات لنذهب من

سكوفية الى بحيرة طبريا علماً بان قرية بئر الشغوم الصغيرة تقع على الدرجة الثالثة منها . ان الدرجات الاربع مغطاة بالبازلت الذي تظهر تحته صخور تجمعية تعود للثلاثي والكريتاسي الأعلى . ونجد ، تحت الكونغلوميرا اي الصخور التجمعية التي تحمل البازلت مشكلة معه افرزياً ، نجد التشكيلات الرخوة من المارن والحوار التي تظهر انحداراً لطيفاً تتكشف عند اسفله صفوف اكثر قساوة ، تؤلف على الاغلب من الكلس كما انها تشكل جروفاً صغيرة متدرجة .

والى القرب من شاطئ بحيرة طبريا وفي مكان ليس يبعد عن الدرجة الدنيا ، ترتفع تلة فوق اللحيقيات : تتألف هذه التلة من تشكيلات رخوة في الاعلى وصخور كلسية في الاسفل . ويكون ميل هذه الطبقات ظاهرياً نحو الغرب . فهي تلة شاهدة بقيت في موقعها بعد تراجع جرف الفالق نحو الشرق . وتلة قلعة الحصن محاطة بارض حوارية يضاء حُفر فيها الواديان اللذان يقطعانها ويعزلانها عن المنحدر . ولا تزال التلة تحتفظ بتاجها البازلتي الذي يضيء عليها مظهراً مائدياً .

فالبازلت يشكل درعاً واقياً يحول دون انهيار الحوارات وتصبح السفوح بالتالي متتعبة .

يصل ارتفاع هذه التلة الى ١٣٢ متراً بينما تبلغ قمة الحدور الرئيسي ٣٠٠ م تقريباً . وهذه الوضعية تثبت ان تلة قلعة الحصن لم تكن تؤلف جزءاً من الحدور الرئيسي بل درجة من الفالق . وهناك تلال اخرى فقدت غطاءها البازلتي فتعرضت بالتالي لمهاجمة الحت العميق لها وهذا هو الحت الذي اقتطعها باخاديد تفصل بينها اعراف حادة ، وهذه اشكال مألوفة في الاراضي الحوارية والمارنية .

والى الجنوب من قلعة الحصن ، يصبح الخط الطولي للحدور مستقيماً وباتجاه شمال - جنوب دون ان تقتطعه الاودية لان تهطل الامطار يتناقص في هذه الاماكن قليلة الارتفاع وسيئة التعرض للرياح البحرية الماطرة الجنوبية الغربية .

وتقع كفر حارب على قمة انحدار الانهدام تماماً ، وفي منطقة تكشف منها حفرة طبريا بكاملها (صورة لوحة VII, 1) . والى الاسفل بـ ٢٠ متراً تقريباً وعلى منبسط وبالأحرى على درجة من فالق انتشرت عليها جلاميد بازلتية ، تتفجر الينابيع التي تُحمل مياهها الى القرية على ظهر الحمير . وتقوم النساء ، اقتصاراً للجهد والوقت ، بحمل غسيلهم لغسله الى جانب النبع وعلى البلاطات الصخرية البازلتية . (انظر لوحة VII, 2) ونجد الى الاسفل ، درجة ثانية زرع سطحها البازلتي بأشجار الكرمة والتين ، كما ان الحدور الحواري الذي يأتي تحتها قد تغطي بغطاء نباتي وطوعي . ومن الممكن رؤية التلال المنعزلة في اسفل الحدور وعلى مقربة من البحيرة .

ثم ان هذه المشاهد نفسها تتكرر مع نفس المنظور في عمرة عز الدين . واعتباراً من هذه المزرعة ، تبتعد البحيرة نحو الغرب مع ازدياد تقليصها لتشكيل رأسها الجنوبي ، مما يسهل انتشار سهل ثالث لحقي تستغله المستعمرات الصهيونية استغلالاً كثيفاً . كما انتشرت في السهل هنا وهناك احواض اصطناعية خصصت لتربية الأسماك .

وادي اليرموك

هذا هو الوادي الذي يحد حقل دراستنا الى الجنوب . انه يتشكل في اواسط حوران ، وعلى هذا الاعتبار فانه لايهمنا بجميع قطاعاته ، ومع ذلك فاننا سنتناول باختصار مكونات عايته وبأسهاب سافلته اعتباراً من محطة المكارين حيث يبدأ الوادي باكتساب الطابع الجولاني .

من حيث التضريس ، فان بداية الوادي الذي يجري في قاعه نهر اليرموك ليس سوى واد ميوسيني كان يتعمق في زمرة الطبقات الحوارية الثلاثية - الشائبة (Main Chalk series de Burdon) التي كان يتعرض

سطحها لعمل الحت (eroded and weathered) .

ونقول بالاضافة الى ذلك ، « لدينا براهين كثيرة تثبت ان نهر اليرموك لم يغير مطلقاً واديه ، غير انه لم يكن له العمق الذي وصل اليه حالياً ولا نفس العرض » . وباختصار فان اليرموك كان قد رسم ، قبل يقظة البركنة الميوسينية ، مخطط واديه ، وان تعميقه كان مرتبطاً بحركات انخفاس البحر الميت المتتالية الذي كان يمثل مستوى اساس اليرموك المباشر ، حتى قبيل نشوء نهر الاردن ، واننا نتساءل ؟ اليس من المعقول ان نغير ، من حيث التركيب الزمني على الاقل ، التصنيف الحالي فنجعل من نهر الاردن رافداً لليرموك ؟ فالبركنة قد لعبت بالواقع ، دوراً هاماً في تطور وادي اليرموك المورفولوجي وان اقدم الصبات البركانية للمنطقة (B2) وعمرها يعود للميوسين ، صادفت ، لدى انتشارها نحو الغرب والجنوب ، وادي اليرموك القديم ، وانسكبت فيه اللابة شديدة الميوعة دون ان تتخطاه الا محلياً نحو السفح الجنوبي الذي كان يقع في الاعلى . وهذا ما يفسر عدم التناظر الحالي للوادي .

ان استمرار وجود الدرع البازليتي الواقع في اعلى السفح الشمالي ، يفرض على الحوار الذي يستقر تحته تطوراً مشروطاً ومرتباً بتطوره الخاص والذي هو بطيء جداً بسبب تراص ونفوذية البازلت .

وان التربة التي لها بعض العمق تحفظ البازلت ايضاً من التفكك والتفسخ ، مما يجعل الغطاء البازليتي ثابتاً على السفح الشمالي .

ان وادي عز الدين ، الذي ينحدر من جبل العرب ، يمر الى الشمال من بصرى الشام فيخترق درعا ويتابع امتداده مثل وادي الميدان حتى تل شهاب حيث يلتقي بوادي أويرد .

ويصبح وادي اليرموك ، اعتباراً من تل شهاب ، وادياً حقيقياً معمقاً ويزداد عمقه كلما تقدّمنا نحو سافلة النهر وعند سافلة تل شهاب يأخذ الوادي اسم زيزون ويتلقى هذا الاخير ، الى القرب من مكارين ، رافدين هما :

وادي الهرير ووادي العلان اللذين ينحدران من الشمال بالاضافة الى رافد شرقي الاردن ايضاً وادي شيلالة الذي يتأتى من الجنوب . واعتباراً من ملتقى الرافدين (المكارين) يغير الوادي اسمه « زيزون » ليأخذ نهائياً اسم اليرموك ، ويبلغ عرض وادي اليرموك في هذا المكان نفسه ، ١٧٥٠ متراً بعمق ٢٨٠ متراً .

ويتوج ضفتي اليرموك اليمنى واليسرى غطاءً بازليتي يشكل افريزاً يعلو الاراضي الرسوبية التي تعود بجوهرها للحقب الثاني .

ويزول الغطاء البازليتي بسرعة من السفح الجنوبي ، غير انه يستمر دائماً على السفح الشمالي مضيفاً على هضبة الجولان مظهراً مائدياً ، ومتيحاً التعرف ، عند خط التماس بين البازلت والحوار ، على الاخاديد والتلال العائدة للتضاريس القديمة التي اغرقتها اللابات وجعلتها بحكم مستحاثات واذا تقدمنا دائماً نحو السافلة نجد ان الوادي يزداد تعميقه بين جنين حوارين وغير متناظرين بسبب زوال غطاء السفح الجنوبي البازليتي الواقي الذي يصل تدريجياً حتى ٥٠٠ م عمقاً .

ولما كان نهر اليرموك عبارة عن رافد للاردن فان تطوره مرتبط بتطور هذا الاخير الذي يعتبر المستوى الاساسي له .
لقد وجد وادي اليرموك الاولي قبل الاندفاعات البركانية .

وعلى العكس فان حوار السطح الجنوبي غير المحمي بغطاء واق ، قد تطور بحرية . فهو مخدد ومقطع بالسيول والودية الرافدة . ونرى هكذا ان السفح الجنوبي قد تراجع تاركاً الى الامام تلالاً صغيرة وروابي مع مظهر داوونز (Downs) الذي يميز غالباً تضاريس الاراضي الرخوة من حوارية ومارنية (صورة لوحة VIII—1,2) .

اما الصبات البليوسينية (B3) فهي غير معروفة في ضواحي وادي اليرموك . غير ان الصبات الرباعية (صبات اودية لـ دوبرتريه) بالمقابل جاءت لوادي اليرموك من الشمال بواسطة رافدين هما : رقاد وعلان .
وهذه الصبات الاخيرة التي ملأت قاع الوادي قد اقتطعت من جراء

هبوط مستوى اساسها الذي اثار دورة حثية ثانية كما يفسر لنا وجود جرفين بازلتين متدرجين : ادناهما هو الاحداث .

وتوجد هناك تلال بازلتية لها نفس مستوى الجرف الادنى ومقطعة به ، على شاكلة جزري في وسط سرير اليرموك الواسع . (صورة لوحة 2,VI) . وبالواقع فان للجرف الادنى مظهراً قتيماً للغاية : فالموشير لاتزال متماسكة ولكنها تبدو واضحة تماماً . أما بعض الجلاميد التي تنفصل فانها تقع الى الاسفل نحو سرير النهر . (صورة لوحة 1,VI) . وبجمال السفح الشمالي لوادي اليرموك يبدو الى القرب من جسر الحمة على الشكل التالي : افريز بازلتي قليل السماكة في الذروة وهو جزء من هضبة الزاوية التي يقدر ارتفاعها عن سطح البحر بحدود ٣٠٠ م .

- ثم يأتي بعده حدود ذوميل لطيف في الاراضي الحوارية التي تعود للايوسين - الحقب الثاني .

- ثم افريز ثان ملتصق على السفح ويقابل الصبات المتأخرة التي اكتسحت الوادي في الرباعي .

- ثم نجد الى الاسفل ، الاراضي الحوارية التي تظهر من جديد مع ميل معاكس بشكل واضح للكورنيش البازلتي .

وتنتهي هذه الاراضي الحوارية في الاسفل بشريط من الكلس معطياً جرفاً صغيراً اظهرته مياه نهر اليرموك (صورة ، لوحة 1,II) .

وبصورة عامة نجد ان اللون الابيض للتشكيلات الحوارية ، يسيطر هنا ، اذ ان سماكة الصبات تضعف تدريجياً من الشرق الى الغرب ومن الشمال نحو الجنوب ، اما الافريز الاعلى فان سماكته ليست بذي اهمية .

اما العمل الجبار الذي قام به الحث فانه يفسر ، بقسمه الاكبر ، بغلبة طبقات سميكة حوارية ، رخوة وضعيفة المقاومة .

فالوادي بالواقع ، يزداد عرضه وعمقه كلما اتجهنا نحو السافلة . فالحمة وتمثل قاع الوادي ، يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ١٤٠ متراً ، كما ان عرض سرير الاكواع هو بحدود ٧٠٠ م . فالنهر هنا قريب من مستوى اساسه والنهر يخرج من مسيله راسماً عدة اكواع . (صورة لوحة IX ، ٢) هذه الاكواع تعمل

على تقويض الضفة المقعرة ، لتعطي جرفاً صغيراً حتى ولو كان ذلك في التشكيلات الرخوة للكريتاسي (لوحة ، صورة IX ، ١) .
وفي سافلة ملتقى الرغاد واليرموك نجد ان قاع وادي هذا الاخير يأخذ مظهر سهل تراكمي نهري حقيقي ، فميل مقطعه الطولاني يصبح بحدود ١/١٥٠ اي حوالي ٦ بالالف ، مما يؤدي الى تعدد الاكواع ويصبح السرير من نموذج الاقنية المتشابكة مع جزيرات غير مستقرة وبخاصة في الشتاء فصل الفيضانات .

وقد نجم عن عدم استقرار مستوى أساس اليرموك وانخفاضاته المتتالية . تشكل مصاطب نهريّة متدرجة ومرتبطة بالسفوح . وهذه هي المصاطب الردمية . والمقطع الجيولوجي (شكل ٨) الذي نجم عن الدراسة التي قام بها د . ج . بردن بمناسبة مشروع سد المقارن ، يحدّد وضعية هذه المصاطب الردمية الثلاث . فأقدمها تقع على ارتفاع ٨٠ متراً عن السرير الذي يمثل هنا بمستوى البحر . والثانية تقع على ارتفاع ٤٠ متراً . وهاتان المصطبتان تتألفان من تشكيلات متماسكة على شاكلة الاحجار التجميعية (بوننج) . اما الثالثة فتقع على ارتفاع ٢٠ متراً وهي مؤلفة من لحقيات غير مثبتة وغير متماسكة ، كما ان عناصر هذه اللحقيات الرئيسة هي : غضار وصوان وحصى ورمل . ثم ان تشكيلة المصطبتين الوسطى والعليا ، تتألف من جلاميد بازلتية مدوّرة ملتحمة ببعضها بملاط من كربونات الكلس بالاضافة الى رماد بركاني احياناً . والنهر باقتطاعه لتوضعاته القديمة ، قد غير سريريه محلياً . والمصاطب القديمة لاتزال تعين اتجاه هذه الاماكن المهجورة والتي يمكن الافادة منها في اعادة تخطيط مجرى النهر القديم . (صورة ٧) قد نتساءل فيما اذا كان يوجد بعض التوافق بين هذه المصاطب ومصاطب نهر الاردن . في الواقع ، ان النهرين مرتبطان ، اعتباراً من الرباعي ، بنفس مستوى الاساس . ولو حدثت تغيرات في هذا المستوى لكانت أدت الى نفس النتائج في الواديين أي الى نشوء مصاطب نهريّة . غير ان طبيعة هذه المصاطب تكون مختلفة بين نهر الاردن واليرموك . فالاول لا يزال حديثاً (يعود للبليوسين فقط) وانه يعمل على شق طريقه واعطى بالتالي مصاطب حثية .

بينما نرى اليرموك وهو متقدم عنه في السن واكثر تطوراً فانه بالتالي ينقح توضعاته القديمة ويقتطعها ليعطي مصاطب ردمية .

وهكذا نرى ان الافريزين البازلتيين مختلفي الاعمار يرويان لنا بالاضافة الى المصاطب اللحقية المتعلبة في اسفل سفحي وادي اليرموك ، التاريخ الطويل لتطور هذا الوادي من الناحية المورفولوجية مما يسمح لنا بالتأكد من انه من صنع تطور متعدد الدورات الحتية

وادي الرقّاد -

انه عبارة عن حفرة عريضة قليلة العمق ومن اصل تكتوني . فهو يدين بوجوده للية تصل بين الجولان وحوران الذي هو اقل ارتفاعاً ، اولفالق طولاني باتجاه شمال جنوب .

انه المجمع الحقيقي للمياه المنحدرة من الحرمون ومن شرقي الجولان ، تسيل هذه المياه بغزارة في الشتاء ، فصل الامطار - وفي الربيع عندما تبدأ ثلوج جبل الشيخ بالذوبان . تصل هذه المياه الى الرقّاد على شاكله سيول برية تحمل معها كميات كبيرة من الانقراض التي توضعها في قاع وادي الرقّاد العريض . ان المياه التي تجري فيه حالياً اقل غزارة من تلك التي كانت تجري فيه قبل تدفق صبات الوعرة الرباعية . فهذه الصبات بالواقع ، قد اقتطعت الينابيع الدائمة والغزيرة التي كانت تغذي القطاع الأعلى للرقّاد .

فحتى تاريخ حديث نسبياً كان الرقّاد هو الذي يصرف مياه حوض نهر الاعوج الحالي التي تضيق في منخفض الهيجانة المغلق . فحوض الرقّاد مفصول على هذه الحال عن حوض الاعوج ، بمنطقة بركانية حديثة لم ينتشر بعد فيها اي صرف سطحي للمياه Areas of undeveloped drainage .

فوادي الرقّاد ليس بالواقع سوى حفرة طولانية جافة في الصيف وتحتجز فيها المياه الوحشية في الشتاء . وفي الحفرة نفسها واعتباراً من عين الباشا نرى

نهر العلاء الذي يجري بالتوازي مع الرهاد . ونهر العلاء هذا يغير اسمه ليأخذ الى الغرب من تسيل وهي قرية حورانية اسم نهر العلاء الذي يصب في اليرموك الى الشرق من محطة المكارين . ويتمتع نهر العلاء ، بسبب عدم ضياعه لينابيعه العالية كالرقاد ، بسيلان دائمى محتفظا دوماً باتجاه واضح هو اتجاه شمال - جنوب .

اما ما يتعلق بنهر الرقاد فهو جاف في فصل الصيف باستثناء سافلته ويأخذ اعتباراً من غدير البستان الاتجاه شمال شرق - جنوب غرب . ومنذ الجسر المصري القديم^(١٩) اي جسر رقاد القديم يتغير وادي الرقاد فيقل اتساعه ولا يعود قليل العمق كما كان عليه في العالية ، اذ يصبح حلقاً حقيقياً برياً ، ويضم سفوحاً شبه افقية كما يأخذ اسم وادي التميم . (صورة ، لوحة ١٠٢)

لقد كان وادي التميم ، في الاصل ، عبارة عن رافد لليرموك ومستقلاً عن الرقاد . وفي غضون الدورة الثانية الحتية التي انطلقت اثر انخفاض مستوى الاساس ، دفع وادي التميم بعنف رأسه ، بالحت التراجعي ، نحو الشمال الشرقي مما مكنه من أسر سافلة الرقاد . وبالواقع ، فان هذا الاحير اي الرقاد ، بعد ان خسرينابيعه الدائمة والغزيرة الواقعة على سفح الحرمون . اصبح اقل حظاً من التميم . اما الاسر النهري الذي نحن بصددده فقد حصل بعد تدفق الصبات البازلتية الرباعية . والدورة الحتية نفسها اقتطعت الصبات الرباعية لوادي التميم وأسرت نهر الرقاد . وبالواقع فان وادي الرقاد ، في عالية جسر الرقاد القديم ، يختلف مورفولوجيا وهيدرولوجيا عن سافلة الجسر اي عن وادي التميم .

ففي عالية الجسر ، وعلى ارتفاع كسبية ، لا يعود بالامكان التمييز بين سرير الرقاد وسرير نهر العلاء ، فكلاهما يتبع نفس المنخفض الذي يبلغ عرضه ٦ كم تقريباً ويجريان فيه بالتوازي .

(١٩) بناء ابراهيم باشا أثناء غزو سوريا

وفي فصل الصيف ينقطع مجرى ماء الرغاد ويجف الوادي باستثناء الحفر الكبيرة العميقة حيث يركد فيها الماء لاستعماله كمساقاة للحيوانات المتعددة التي تؤم منطقة الرعي هذه بالدرجة الاولى .

وقد وضعت المياه السيلية والوحشية فيها ، وبخاصة اثناء الفيضانات ، جلاميد كبيرة من البازلت مستديرة الاطراف نوعاً ما . (صورة ولوحة X ، ١) ووضعت معها ايضاً لحقيات ناعمة بلون اسمر وسميكة بالاضافة الى انها خصبة وتشقق على شاكلة مضلعات في فصل الجفاف . اما اللحقيات الناعمة فانها تفرش السرير الاكبر بينما تفرش الجلاميد الكبيرة السرير الاصفر .

والمياه السيلية تظهر ، بعد خروجها من قناطر الجسر ، على شاكلة دوامة ذات محور رأسي ناجمة عن مقاومة دعامة الجسر للتيار المائي . وهذه الحركة الدورانية تمكنت من حفر قدر كبير بنزعها المواشير البازلتية السطحية مما ادى الى ظهور ارضية صخرية سليمة وغير موشورية (صورة لوحة III ، ٣) .

والى الجنوب من الجسر القديم وعلى مسافة تقدر بـ ٧٠٠ م ، يتعمق فجأة وادي الرقاد بحدوث انقطاع في ميله قدر بـ ١٠٠ م ليعطي شلالاً حقيقياً في الشتاء . ومن هنا يبدأ وادي التاييم ، وهو عبارة عن حلق حقيقي يبلغ اتساعه ١٥٠ م ويتجاوز عمقه مئة متر ويزداد كل من الاتساع والعمق كلما اقترب نحو سافلة النهر .

ويصبح السفحان (شاقوليين) راسيين في الافريز المؤلف من تطبق الصبات الصادرة عن مختلف التدفقات البركانية التي انسكبت فوق الصخور التجمعية (الكونغلوميرا) . وحتى ان القسم الادنى من السفح ، وهو مؤلف من صخور رخوة ، يفى ميله شديداً الى حد ما . (صورة ، لوحة 1,2) . فالقطاع الطولاني اذا يشمل فرعين مفصولين بشلال : والميل في القطاعين شديد الى حد ما . ولا يوجد هنا اي تأثير تكتوني : كما ان تطور هذا المقطع تركز على اعادة هذا الشلال تدريجياً نحو عالية النهر بالحت التراجعي . ويبلغ الانحدار في القسم الاعلى من الشلال بحدود ١/٨٣ ويصبح القسم

الادنى ١٧ / ١ ولا يعتدل الانحدار الا بعد التقائه باليرموك حيث يصبح ١٥٠ / ١ ولا يزال يعتبر شديداً نوعاً ما (انظر شكل ٩) .

ان هذا الحلق او الخائق الهائل ليس ولا شك من عمل خييط الماء الذي يجري حالياً باستمرار وعند البحث عن التفسير يجب ان نأخذ بعين الاعتبار الامطار في الرباعي ، اذ ان الفيضانات ، مهما كانت على غاية من الغزارة ، فانها تبقى مع ذلك غير قادرة على اشادة مثل هذا الوادي . ونجد انفسنا مضطرين للبحث عن سبب وجود هذه الاودية الضخمة في منطقة شبه جافة بالرجوع الى المناخ القديم من جهة والى الحركات الحديثة او الحالية للتربة من جهة ثانية .

هذا وبما ان منطقة البحر الميت هي منطقة انخفاض ، كان من الطبيعي ان يرتفع الجولان ليحقق التوازنية مع تجديد الدورة الحتية (تصابي الحت) وعلى هذا الاساس فان هذا الوادي قد حُفر بحادث سبق التكوّن (antecédence) .

لقد بقي تطور السفوح بطيئاً للغاية بسبب الجفاف ، والنفوذية ، وتماسك الافريز البازلتي واخيراً بسبب ضعف الحت المستقيم . غير اننا مع ذلك نعلم بوجود انهيارات ومهيلات ، لكن الانقراض نظراً لعدم وجود تيار قدري ، تمكنت من جعل اسفل المنحدر بمثابة كتلة مستحاثية تنتظر الفيضانات الشتوية التي هي القادرة لوحدها على جرفها وتحرير السفح . والسفح يتراجع متوازياً مع نفسه كما يحصل في المناطق الجافة تماماً . ونفوذية البازلت تحرم الترب من جريان المياه الذي بإمكانه ان يساهم في صنع السفوح .

ويبدو ان الافريز البازلتي المستقيم والشاقولي قد بقي على حاله دون ان يُمس ، إذ أن نفوذية هذه الصخور تحول دون أي جريان سطحي ، ولكن الوادي ، بالمقابل ، يقوم بصرف قسم من المياه الباطنية لمنطقة واسعة ، وتعود المياه المترشحة للظهور في الوادي على طول اشطرة رقيقة من الغضاريات المتبقية التي تفصل الصبات المتطبقة على غرار الصخور الرسوبية ، او انها تعود على طول خط التماس بين الافريز والحدود الرسوبي التحتاني اي الواقع تحته . وقد اعطت التربة الغضارية المتداخلة بين الصبات والمياه التي تبللها

مجالاً لنمو النباتات الشوكية التي تثبت على طول خطوط رشاحة المياه .
(صورة ، لوحة 1-2) .

اما قاع الوادي فيبدو ، على العكس ، صحراويّاً : فالنباتات لا تستطيع ان تجعل منه موطئ قدم لها بسبب الفيضانات السيلية التي تكشف القسيمات الناعمة الملائمة للنباتات ولا تبقى الا التشكيلات الغليظة غير المثبتة وقابلة للنقل . واذا نظرنا الى المناطق الواقعة في نهاية الجنوب ، نجد ان التطور متقدم عما هو عليه في بدايته وان المظهر المورفولوجي يتغير اكثر فاكثر كلما تقدمنا نحو الجنوب .

فيصبح اكثر اتساعاً ويزداد عمقه وبالتالي فانه يصبح اكثر رطوبة . فالياه ترشح على طول السفح الغربي معطية ينابيع حقيقية يسمع لها خريير (خرارة) ويحتل قاع الوادي حالياً خيط ماء دائمي يغذي محلياً نباتات الاقصاب وانواع الفصيلة الدفلية عل حافتي الوادي . غير ان عمق الماء ضعيف وبخاصة في فصل الشح ، اذ لا يعود بمقدورها غمر حتى الجلاميد الهابطة من السفوح اوالتي جلبتها مياه الفيضانات . (صورة ، لوحة 3,X) .

ويبلغ عرض الوادي بين الجاملة وكفر الما ٣ كم كما يصل عمقه الى ٢٨٠ م ، وقد تراجع الافريز البازلي مع الكونغلوميرا التحتانية بكثرة نحو الشرق وتكشفت الاراضي الحوارية العائدة الى الكريتاسي مع المقطع التقليدي المحذب (صورة ، لوحة 3,X) ويحصل التراجع بانهايار جلاميد كبيرة سهلتها تشققات كبيرة متوازية مع الوادي نفسه . وهناك عامل آخر مساعد وهو ضعف سماكة البازلت مما سهل تراجع الافريز وبالتالي ادى الى زواله تدريجياً . وتحت الافريز البازلي المتراجع يظهر شريط من الكونغلوميرا ، اوبالاحرى من البودنغ ذي الجلاميد الكبيرة المدوّرة التي يلحم بينها اسمنت ابيض وقاس للغاية (مؤلف على الاغلب من كربونات الكلس) . ان البودنغ يتراجع بالتضامن مع البازلت .

في اسفل الوادي تختلط جلاميد ضخمة من البازلت مدورة الاطراف نوعاً ما مع بعضها بعضاً . وهذه الجلاميد جرفت حتماً من اماكن بعيدة مع جلاميد اخرى انهارت من الافريز الاعلى والبودنغ الموجود تحته .

ويظهر هناك الى الاسفل مستوى آخر من البازلت الحديث يقع بين القريتين السابقتين : الجاملة وكفر الما . فالافريز الاسفل نجم ، كما حصل في وادي اليرموك ، عن صبات الاودية التي تعود للرباعي والتي كانت قد ملأت وادي التايم وتقطعت بتصابي الحت .
وقعر الوادي يقع على مستوى البحر الى القرب من معاريا وهي قرية تقع على قمة السفح الشرقي .
ويصبح قعر الوادي هذا فيما بعد ، فوق مستوى سطح البحر : وعند التقائه باليرموك يكون ارتفاعه عن سطح البحر (٢٠ -) متراً .

أودية ثانوية ، روافد للأودية الرئيسة

ان الجولان ، وهو المجاور للاخدود الأوسط ، مدين بتضريسه الوعر لا الى المخاريط الخشبية البارزة على ارتفاع ١٥٠ الى ٢٠٠ م فوق الهضبة لا الى وجود المائلة فحسب بل الى حت السيول ايضاً التي تنحدر نحو الاردن وبحيرتي الحولة وطبريا .

وهناك سيول أخرى تنحدر نحو الرقاد على حوص السفح الشرقي (مستجمع الامطار الشرقي Eastern watershed) وانا مضطرون ، لدراسة مجموعة هذه الاودية الثانوية ، الى توضيح وضعية خط تقسيم المياه .

فهذا الخط ليس بالواقع سوى خط القمم الذي يمثلته توالي الاجهزة البركانية الممتدة بالاتجاه الى الشمال غرب - جنوب شرق واهمها تل عمورية (١١٩٨ م) جنوب بحيرة مسعدة . تل الشيخة (١١٢١ م) . تل العمران (١١٧١ م) تل ابو الندى (١٢١١ م) تل خريقة (١١٥٨ م) وبريجة وبيير العجم وغلاري . تل عكاشة (١٠٢٩ م) وأخيراً تل الفرس (٩٢٩ م) .
هذا الخط يوزع المياه بين الغرب والشرق . وهكذا نرى مياه الجولان تتجه في نهاية المطاف ، اما نحو الاردن او نحو الرقاد . ولكن الى الجنوب من تل الفرس ، يتلاشى خط الارتفاعات ، والسيلان لا يعد يتم نحو الغرب والشرق بل اصبح يتم نحو الجنوب فقط حسب انحدار عام نحو اليرموك ، وهذا الانحدار مرده انحدارات المحذب (المدعو الجولاني) القبية .

والاودية عديدة ومميّزة على الحافة الغربية للجولان ، اذ ان هذه الحافة شديدة الانحدار مع تباين كبير في الارتفاع بالاضافة الى الاودية العديدة التي تقتطع الحافة الشرقية للانهدام على شكل جرف حاد .
غير ان الحافة الشرقية للجولان ليس لها ايضاً انحدار شديد . ولم تحفر السيول ، رغم كثرتها وشدتها ، الا اخاديد لا مجال لمقارنتها بالاودية التي تلتقي وعمودياً مع وادي الاردن .
واننا نكتفي هنا بالاشارة الى الاودية الرئيسة التي تهبط على المنحدر الشرقي لانهدام الحرمون حتى بحيرة طبريا .

وتتجه هذه الاودية كلها من الشرق نحو الجنوب او من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، وبعضها يشكل روافد الاردن كما ان بعضاً منها يشكل روافد لبحيرة الحولة واخيراً فان بعضاً منها أيضاً يشكل روافد لبحيرة طبريا ، وهذه الاخيرة هي أهم هذه الروافد .
اما وادي عين كينيا ، ويقع على الحدود الشمالية للابات فهو عبارة عن وادٍ متعمق وتؤلف مياه هذا الوادي بالاضافة الى نهر بانياس احدى مكونات الاردن الثلاثة .

ونشاهد الى الجنوب من الصبة الرباعية ، المنحدرة من تل احمر ، والممتدة حتى منخفض الحولة روافد الاردن نفسه :
وادي غراب - وادي دفيلة - وادي الدبوس - وادي الهندل .
اما الاودية التي تصب في الحولة فهي : وادي الغجر وادي دبورة ووادي دير سراس .

واكبر اودية الجولان هي : وادي الهوى ، وادي الصفا ، وادي الدالية ، وادي الشيخ علي ، وادي المتاع ، وادي السمك . وكل هذه الاودية تهبط عن الهضة باتجاه شمال شرقي - جنوب غربي وتنتهي في سهل البطيحة اللحيقي الصغير الى الشمال الشرقي من بحيرة طبريا .
وهذه الاودية تعمقت في الصخور البازلتية وظهرت سفوحها الهاوية بوضوح ، تطبق الصبات المشققة على اشكال موشورية ، (صورة ، لوحة

. . 2, IV وخريطة رقم ٧) .

ويزداد عرض هذه الاودية عند مصباتها كما تصبح قصورها دون مستوى سطح البحر بحوالي مئة متر . والاراضي الرسوبية التي تتكشف على سفوح هذه الاودية هي ايسينية فقط .

وتشكل هذه الاودية فيما بينها ، عند اقترابها كثيراً من بعضها ، وُجُنًا ضيقة وتلالاً يطلقون عليها اسم سنام (سنام الجمل) بالعربي (صورة ، لوحة 3, II) ويطلق على اماكن تجمعها اسم «مشبك الوديان» .

ويعود اصل هذه الاودية المحفورة بدقة حتماً ، كما هو حال كل من اليرموك والرغاد ، الى ادوار المناخ القديم الماطرة ، والى القوى الحثية التي اطلقها انخفاض مستوى الاساس العام ، وهو البحر الميت .

وبالواقع ، فانه ليس باستطاعة المياه الحالية لهذه الاودية ، حتى في حالة فيضانها ، تحريك الجلاميد البازلتية الضخمة ، المبعثرة في سرير السيول . فهذه الجلاميد مدوّرة الاطراف الى حدّ ما وهي تشهد بالتالي على وجود قوى قديمة هائلة للنقل في الماضي .

اما الجداول الصغيرة والدائمة التي تجري فيها فوق التوضعات القديمة ، فانها تكتفي باجراء عملية فرز بسيطة . فهي تجرف منها القسيات الاكثر نعومة لتوضعها في سهل البطيحة الذي هو بالحقيقة من عمل هذه الاودية الردي .

ان هذا النقل الانتقائي يضيف على الاودية مظهراً مشوشاً للغاية .
والوادي الأخير الهام هو وادي السماك الذي يبلغ عمقه حوالي ٤٥٠ م وقعره (١٥٠-)

ان لهذه الاودية ولسواقي المياه الصغيرة التي تجري فيها اهمية كبيرة في الحياة الاقتصادية للجولان الى جانب اهميتها المورفولوجية . فهي تؤلف في الشتاء اماكن تشتية للمواشي ، ويحصل انتجاع بين اعالي الجولان واوديته . ومنذ الحرب العالمية الثانية ، بوشر باستعمال مياه الاودية في زراعة الرز الذي كان مردوده كبيراً ونوعيته ممتازة وفوق كل ذلك ، فان هذه الاودية تؤلف منطقة جغرافية حيوية متميزة نوعاً عن مرتفعات البلاد .

الفصل الرابع مناخ الجولان

أولاً الوضع الحالي لمعرفتنا عن مناخ سوريا ومصادرها
لقد تجلّى الاحساس الحاد بالحاجة المتزايدة والضرورية لمعرفة
المعطيات المناخية الدقيقة خلال فترة الانتداب الفرنسي .
فبعد أن تأسس مرصد كسارا في عام ١٩٠٧ ، على أيدي المبشرين من
الرهبان اليسوعيين ، والملاحق بجامعة القديس يوسف في بيروت ، أصبح
المؤسسة الاولى الوحيدة التي تهتم بالدراسات المناخية .
ولكن هذا المرصد ، الذي كان هدف مؤسسيه الانصراف لدراسات
فيزيائية الارض ، لم يهتم بالأرصاد الجوية الا بصورة ثانوية ، ومن جهة
أخرى فقد توقف العمل في المرصد خلال الحرب العالمية الاولى بين ١٩١٤ و
١٩١٧ ، ولكنه استأنف عمله فوراً في ١٩٢١ حيث راح يمارس نشاطه
بصورة طبيعية .
وعندما عزم المفوض السامي ، الجنرال غورو على تأسيس دائرة
الأرصاد الجوية في سورية ولبنان ناشد المشرفين على المرصد ان يأخذوا على
عاتقهم أمر ادارتها ، وكان ذلك عبارة عن اتجاه جديد لمرصد كسارا ، والذي
اخذ منذ ايلول ١٩٢٨ بأصدار نشرة شهرية تلّخص الملاحظات الرئيسية .
وكان مرصد كسارا يستقبل المعلومات النووية من سبعة عشر محطة
رئيسية ومن ثلاث وثلاثين محطة ثانوية لقياس الامطار وقُدّمت الحرب العالمية
الثانية فرصة مواتمة لتقدم المعرفة النووية المتعلقة بالخوض الشرقي من البحر
الابيض المتوسط وبالتالي عن سورية . وفي الحقيقة استدعت شدة حركة
الملاحة الجوية خلال هذه الحرب وجود مراكز عديدة في البحر الابيض
المتوسط مما أدى الى تجدد المعلومات النووية عن هذه المنطقة واستقرت فوق
اساس متين .

واستناداً الى كتابات د . ب . فيش الراصد النوبي للقوات المسلحة بين ١٩٤٢ و ١٩٤٥ فقد ظهر ان للارصاد الجوية في سورية ولبنان ذاتية جديدة ، مختلفة عن معطيات الارصاد الجوية الفلسطينية التي كانت مرتبطة بها بصورة ضمنية .

ومنذ عهد قريب جداً أخذت « دائرة الارصاد الجوية » تعمل في سورية والذي يتعهد القسم المناخي فيها بإصدار نشرة شهرية تلخص الملاحظات الرئيسة^(١) .

ولكن يكون نصيب الجولان ، مع الاسف ، من هذه الملاحظات ضئيلاً . وتؤلف بلدة « فيق » لوحدها جزءاً من هذه الشبكة النوية السورية التي تضم ٦٨ محطة مراقبة . بيد أن فيق ليست بالمحطة الرئيسة بل هي ، بكل بساطة ، عبارة عن مركز لقياس الامطار . اما وزارة الزراعة السورية فتملك ، من جانبها ، معلومات مناخية تسجل في مراكز زراعية ، ونجد في عدادها محطتين جولانيتين هما فيق والقنيطرة ، ومراكز أخرى في المناطق المجاورة ، وهي قطنا وازرع ودرعا والسويداء^(٢) .

وسنحاول من خلال المعلومات المتعددة والمختلفة ان نستخلص اكثر الملامح تميزاً لمناخ المنطقة التي نحن بصدد الكلام عنها .

ثانياً - أصالة مناخ الجولان

يتميز حوض البحر الابيض المتوسط بمناخ يدعى المناخ المتوسطي (الرومي)^(٣) تكون ملامحه العامة ، هي ذاتها ، في سائر انحاء الحوض المذكور .

ومع هذا لا يمكن الكلام عن مناخ متوسطي وحيد ، بل على خلاف ذلك ، نكون تجاه مناخات متوسطة ، أو بالاحرى اصناف مناخية متوسطة (رومية)^(٣) .

(١) نشرة تصدر بالعربية والانكليزية تدعى « النشرة المناخية » . قسم الرصد الجوي

بسورية .

(٢) لا يكون التنسيق وثيقاً دائماً بين مختلف الاحصائيات المناخية .

(٣) نسبة الى بحر الروم وهو البحر الابيض المتوسط لدى الجغرافيين العرب في

العصر الوسيط .

ففي سورية وفي اسيا الصغرى يمكن ملاحظة تفهقر المناخ الرومي تدريجياً نحو مناخ صحراوي .

« غير ان التأثير الثلاثي لدرجة العرض والتضريس والبحر يعمل على تنوع المناخ لدرجة تسمح بالعثور على ما لا يقل عن خمسة انواع مناخية تتراوح بين المناخ المتوسطي الرطب الى المناخ الصحراوي مروراً بمناخ متوسطي قاري ومناخ سوري والذي يجب ان نضيف اليه نمطاً من مناخ جبلي »^(١) .
ترى ما هو أحد هذه الاصناف المناخية المتوسطة الخمسة الذي يتحقق اذن في الجولان ؟

وفي الواقع لا يبدو انه في المستطاع إلحاق مناخ الجولان بأي مناخ من هذه الاصناف المذكورة آنفاً .

وفي الحقيقة يبدو ان بإمكاننا النظر الى مناخنا على انه صنف جديد يترأى لنا انه يستحق اسم هذه المنطقة وبالتالي يمكن ان نطلق عليه اسم « المناخ الجولاني » .

بيد ان هذا المناخ الذي اشرنا اليه على هذه الصورة ليس إلا شكلاً من تصافرين مميزات نمطين هما : المناخ الرومي والمناخ الجبلي .
وفي الحقيقة يقترب النمط الجولاني من النمط الجبلي عن طريق صفاته الحرارية :

- ١ - لا تكون المتوسطات الحرارية الحقيقية المسجلة في القنيطرة ، وهي مركز المنطقة ، اقل من مثيلاتها على الساحل بل اخفض من متوسطات الحرارة في داخل البلاد :
- القنيطرة ٢٥ ، ١٥ درجة
- بيروت اكثر من ٢٠ درجة
- اللاذقية ١٩ درجة
- دمشق ٢٢ ، ١٧
- دير الزور ١٩ ، ٠٥ درجة

(١) اتيان دوفوماي E. de Vaumues اطروحة مطبوعة ص ٢٢٨

ويفسر هذا الانخفاض في الحرارة الوسطى السنوية في القنيطرة بتأثير الارتفاع^(٥) وتأثير الرياح البحرية .

٢ - وتكون متوسطات الحرارة لشهر آب في القنيطرة كذلك دون مثيلاتها على الساحل وفي الداخل .

القنيطرة ٢٢, ٦٤ درجة

بيروت ٢٧ درجة

اللاذقية ٢٦ درجة

دير الزور ٣٣ درجة

دمشق ٢٧, ٢٥ درجة^(٦)

وهكذا نرى بكل وضوح ان القنيطرة تكون أقل حرارة في شهر آب ، وهو أكثر شهور السنة حرارة ، من المنطقة الساحلية ومن المنطقة الداخلية .
وتكون الرياح الشمالية الغربية التي تهب من خلال فتحة مرجعيون ذات برودة ملحوظة مما يؤدي لتخفيض الحرارة .

٣ - هذا كما تكون فصول الشتاء في الجولان على قدر لا بأس به من البرد ، وليس ذلك بالموازنة مع المنطقة الساحلية فحسب ، بل ولكن ايضاً بالمقارنة مع الداخل حيث يكون المناخ قارياً .

ويسود في الواقع مناخ يارد على الجولان يستمر عادة اربعة شهور هي كانون الاول وكانون الثاني وشباط وآذار حيث تكون المتوسطات الشهرية دون ١٠ درجات ، والثلج ظاهرة مألوفة وقد يتساقط بضع مرات في كل عام .

وتكون موازنة معدل شهر كانون الثاني في القنيطرة مع معدل الشهر ذاته في مدن اخرى ذات مدلول :

(٥) تقع القنيطرة على ارتفاع ٩٣٥ م فوق سطح البحر

(٦) احصائيات من مصادر مختلفة : أولاً - ويلرس : بلاد العلويين ، ثانياً - النشرة

الاحصائية السورية ، ثالثاً - احصائيات وزارة الزراعة السورية .

القنيطرة ٦٣, ٥ درجة

بيروت أكثر من ١٣ درجة

اللاذقية ١٢ درجة

دمشق ٥٨, ٧ درجة

دير الزور ٥٨, ٦ درجة

مرسيليا ٦, ٣ درجة

وهنا نرى ان القنيطرة أكثر برودة شتاء من دير الزور الواقعة في قلب المناخ الصحراوي ، وليس أقل استغراباً من ذلك ان يكون للقنيطرة متوسط شهري يقل عن معدل مرسيليا الحراري التي تقع على درجة عرض أكثر تقدماً نحو الشمال بكثير (٧, ٤٣ درجة شمالاً) اي أكثر بعشر درجات عرض .
وسنقدم فيما تفسير هذه الملحوظة الاستثنائية .

٤ - وهكذا تكون السعة الحرارية السنوية للمحطات ذاتها على الشكل التالي :

القنيطرة ٩٨, ١٥ درجة

اللاذقية وبيروت ١٤ درجة

دير الزور ٢٤, ٢٦ درجة

دمشق ٤٢, ١٧ (٢٣, ١٨) حسب ش . الصفدي (٧)

هذا وتكون القنيطرة أقل تأثراً بدور البحر التنظيمي من بيروت واللاذقية ، ولكنها تكون بالمقابل أقل قارية من دمشق ودير الزور ويمكن تفسير السعة الحرارية العالية نسبياً ، في القنيطرة ، بتأثير الرياح البحرية التي تخفّض الحرارة الى حد كبير ولا سيما في الشتاء . ويجب ان نضيف الى ذلك تأثير الارتفاع ، اذ يتعرض الجولان ككل منطقة مرتفعة أخرى ، الى تسخن صيفي والى تبرد شتوي بسبب تخلخل الهواء . وتؤثر الساعات الحرارية للأرض على درجات الحرارة المسجلة بعيداً عن سطح الأرض .

(٧) ساعات محسوبة استناداً لدرجات الحرارة في خمسة اعوام (١٩٥٠ - ١٩٥٥)

. وإذا اخذنا الآن بين الاعتبار متوسطات التهطالات السنوية ، فإننا سنجد أن الجولان سيكون أيضاً أكثر مطراً من الساحل ذاته :
القنيطرة ٩٣٥ مم (متوسط ١٢ سنة)^(٩)
بيروت ٨٥٠ مم (عن ويلرس)
اللاذقية ٩٠٤ مم^(١٠)

هذا ويكون المتوسط السنوي للتهطالات في القنيطرة أيضاً أكثر ارتفاعاً مما هو عليه الحال في المدن التالية :

الجزائر ٧٦٥ مم

لشبونة ٧٢٦ مم

مرسيليا ٥٤٨ مم

أثينا ٧٢٦ مم^(١١)

وإذا كانت التهطالات متمركزة حقاً في الفصل البارد فإن الرطوبة النسبية الجوية تظل مع ذلك عالية حتى في الفصل الحار .

وفي المواقع إذا كان الانخفاض الضروري في الحرارة من أجل اشباع الهواء كبيراً جداً في داخل البلاد فإنه يظل عند حافة البحر أو في الجولان على المستوى نفسه خلال الشتاء .

وهكذا يظل الهواء في أكثر الأحيان قريباً من الاشباع ، كما يكفي التبريد الليلي الطفيف لكي ينساح الماء من فوق السقوف في الصباح كما يحدث تماماً بعد أمطار من مستوى الطل . ولكن على خلاف ذلك يظل الندى أكثر ندرة وأقل غزارة في داخل البلاد .

وفي المواقع يحتل الندى أهمية عظيمة في الجولان وذلك بالنسبة للحصّادين والحيوانات والينابيع لأنه يحدث في فصل حار عديم الامطار .

(٩) من ١٩٣٧ - الى ١٩٤٧ - ٤٨ احصاءات المحطة المطرية في القنيطرة .

(١٠) النشرة الاحصائية السنوية لعام ١٩٥٥

(١١) جاك ديكرس : بلاد العلويين .

وسنقدم فيما يلي صورة موجزة عن المميزات الرئيسية للمناخ المسمى « المناخ الجولاني »

١ - يكون المعدل السنوي للحرارة (٢٥ , ١٥)^(١٢) قليلاً الارتفاع بالموازنة مع وضعه الجنوبي الواقع على درجة العرض ٣٦ , ٨٠ غراد شمالاً^(١٣) ويبدو هذا المتوسط السنوي للحرارة بالواقع متناقضاً مع درجة العرض الجغرافي وبالتالي مع حدة الاشعاع الشمسي حتى في الشتاء عندما تكون الأشعة الشمسية أكثر ميلاً . ويخشى السكان المحليون شمس شهر كانون الثاني وذلك حسب مثلهم الشعبي القائل : « شمس كانون الثاني مثل الطاعون »

٢ - يسود فصل بارد حقيقي في هذه المنطقة خلال اربعة شهور يكون متوسطها دون ١٠ درجات .

هذا وقد كانت المعدلات الشهرية المسجلة خلال شتاء عام ١٩٤٥ بالقنيطرة هي التالية :

كانون الاول ٦ , ٦٩ درجة

كانون الثاني ٥ , ٩ درجة

شباط ٤ , ٩١ درجة

آذار ٥ , ٣١ درجة

ويتساقط الثلج هنا عدة مرات خلال العام .

٣ - هذا ويكون المتوسط السنوي للأمطار على درجة من الارتفاع تجعله قابلاً للموازنة مع معدل بيروت واللاذقية أو تتمركز الأمطار في الفصل البارد كي تنحبس في الصيف حيث يكون النبات في أمس الحاجة للماء . ويستمر الجفاف المطلق خلال ثلاثة اشهر هي : حزيران ، تموز ، آب . هذا ويمكن اهمال كمية الأمطار التي تسقط في ايلول وتشرين الاول وأيار لقلة مقاديرها .

(١٢) المتوسط السنوي لمحطة القنيطرة

(١٣) على اعتبار ان بين خط الاستواء والقطب الشمالي ١٠٠ درجة .

وهكذا تدوم فترة الجفاف عملياً مدة ستة أشهر . والمأخذ الكبير على المناخ الرومي هو تصادف الحر والجفاف في فصل واحد .

٤ - غير ان انقطاع الامطار صيفاً لا يستبعد وجود الرطوبة الجوية المرتفعة نسبياً .

فالتبرد الليلي يكفي للتسبب في تكاثف بخار الجوعلى شكل ندى ، ويلعب هذا التكاثف الذي يسمى « التكاثف الخفي » دوراً شديد الأهمية في الجولان كما سنرى ذلك فيما بعد .

وهكذا نرى أن هذه المنطقة تخضع ، رغم بعدها عن البحر ، لتأثير عظيم قادم من البحر الأبيض المتوسط .

٥ - ويصل هذا التأثير البحري الى الجولان بتأثير الرياح الغربية ، والشمالية الغربية ، ولا سيما الرياح القادمة من الجنوب الغربي ، اذ تصل هذه الرياح الى منطقتنا عبر ممرين : الأول هو مرجعيون ، وممر سهل مرج ابن عامر . فالرياح الشمالية الغربية والجنوبية الغربية تنتشر على الجولان عند مخرج هاتين الفتحتين اللتين تؤلفان قناتين لجريانهما . وهناك قريتان ، الاولى في جنوب غرب المنطقة ، والاخرى في جنوبها الشرقي ، تقعان عند مخرج هذه الرياح ، ويطلق عليها السكان الاسم ذاته وهو باب الهواء اي « باب الريح » وتكون هذه الرياح البحرية على العموم نشطة ومفيدة في الوقت ذاته . فرياح الشمال والشرق والجنوب الشرقي تجلب لمنطقتنا مؤثرات قارية فتكون باردة في الشتاء ، ومحرقة في الصيف ، وتتسبب في الجفاف في سائر الفصول .

وقد ميز السكان المحليون مختلف مؤثرات هذه الرياح المختلفة ولديهم امثال شعبية شديدة التعبير في هذا الخصوص .

٦ - وتتفقر الصفات الاصلية للمناخ الجولاني ، اكثر فأكثر ، باتجاه الشرق . وهكذا تصبح قارية حوران شديدة الافراط فيما وراء جبل الدروز . وهكذا يكون السفح الشرقي لجبل الدروز ذا مناخ صحراوي بكل ما في الكلمة من معنى .

ويكون هذا التفقر الذي يتجلى في اتجاه غربي شرقي في الواقع ملحوظاً بظواهر بيولوجية وفي الانظمة الهيدروغرافية .

وتعود أصالة مناخ الجولان الى عدد من العوامل التي تتضافر سوية لتحديد المميزات الرئيسية .
ولن يكون لأي تفسير عقلائي للظواهر المناخية حظ من الواقعية دون ان نأخذ عوامل المناخ بعين الاعتبار .

ثالثاً - عوامل المناخ الجولاني

١ - الطاقة الشمسية ، العامل الفلكي في المناخ

لقد استطعنا بأنفسنا ، ان نلاحظ ، رغم نواقص الاحصائيات ، وجود دورة في كل احدى عشرة سنة في مقادير الامطار في الجولان . وقد كان العامان المطريان ١٩٤٠ - ١٩٤١ و ١٩٥٠ - ١٩٥١ جافان بصورة تلفت الانظار بالموازنة مع المعدل السنوي الذي يبلغ وسطياً ٩٣٥ مم . فقد كان الفارق بالنسبة للعام الاول - ٢٤٠ مم وبالنسبة للعام الثاني - ٥٠٩ . وقد سمحت طرائق الحسابات المختلفة للمهندس صبحي مظلوم ان يستنبط قانوناً لتعاقب السنوات الجافة والسنوات المطيرة . فقد تمكن من العثور على مركبات تتألف من سنتين ، ومن ٣ سنوات ، ومن ٤ سنوات ، ومن ٦ سنوات ، ومن ١١ سنة ، ومن ٢٢ سنة ، وأن يستشف فترات اخرى اكثر طولاً (٦٠ سنة تقريباً) . ويشير تطور المركبة العشرية وتوافقاتها الى وجود موازاة صارخة مع تطور الكلف الشمسية^(١٤) .

ومن ناحية اخرى أشار عمانوئيل ديارتون الى إمكانية حدوث تبدلات كبيرة اكبر بكثير في الاشعاع الشمسي الواصل الى الأرض بسبب تبدلات في حركات الأرض ذاتها حول الشمس : وهذه ملاحظات تتعلق بدورة تمتد على آلاف السنين ولا تتعلق بالمناخات الحالية .

٢ - تأثير درجة العرض : عامل فلكي آخر

ينتج توزيع السخونة الشمسية على سطح الأرض عن استدراجه الكرة

(١٤) صبحي مظلوم . حول « تبدل الامطار في الحوش الشرقي للبحر الابيض

المتوسط » منشورات مدرسة الهندسة الفرنسية . بيروت ١٩٤٤

الأرضية . ومن المعروف جيداً أن درجة حرارة منطقة ما تتعلق أساساً بدرجة عرضها .

وعندما نحسب القيم الوسطى لعوامل المناخ الرئيسية حسب مختلف درجات العرض ، فيكون باستطاعتنا أن نوضح علاقتها بالملامح الكبرى لتوزع السخونة الشمسية . وهذا يكفي لتبيان أهمية تأثير درجة العرض . فالجولان الواقع بين درجتي العرض ٣٢ و ٣٣ شمالاً يكون محصوراً كلياً ضمن النطاق شبه المداري ، والواقع أيضاً على الحافة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، أي ضمن وضع جنوبي ، ويتمتع بكل مميزات المناخ المتوسطي (الرومي) الجنوبي .

وهكذا تكون درجة العرض هي المسؤولة بالطبع عن المتوسط السنوي للحرارة وعن توزيعها . غير أن درجات الحرارة المعدلة بالنسبة لسطح البحر هي التي تكشف عن تأثير درجة العرض ، وهكذا تكون خطوط الحرارة الوسطى السنوية المعدلة حسب مستوى البحر ، متوازية مع خطوط العرض .

٣ - تأثير تضريس الأرض

لا يكون من المستطاع إطلاقاً مناقشة أي مظهر من مظاهر علم الأنواء العلمي دون الاستناد على الإطار الطبغرافي . ويلعب هذا الإطار في سورية ولبنان دوراً واضحاً بشكل فريد .

والطابع البارز في تضريس سورية ولبنان هو تضافر حاجز جبلي ضخم ممتد من الشمال للجنوب ، محاذياً ساحل البحر الأبيض المتوسط مع هضبة داخلية لطيفة التموج^(١٥)

هذا ويمارس المركب الجبلي المحاذي لحافة البحر الأبيض المتوسط تأثيراً مضاعفاً على المناخ ، فمن ناحية عن طريق تأثير درجة العرض لوحدها ، ومن ناحية أخرى ، فإنه يسارع في الانتقال من بيئة متوسطة (رومية) إلى الداخل الآسيوي^(١٦)

(15) W. B. Fish. premières notes sur la météorologie

du la syrie et du Liban — Notes et mémoires T. IV. P.93—110.

(16) ibid précitée P. p.93

ويؤلف الجولان في الحقيقة ، جزءاً من الهضبة الداخلية ولكن المركب الجبلي لا يبارس هنا مفعولاً انتقالياً فجائياً . فمنطقة الجليل ، وهي كتلة جبلية تواجه الجولان من الغرب ، والتي لا يزيد ارتفاعها عن ١٠٠٠ م إلا فيما ندر ، لا تستطيع ان تمجّز أي تأثير بحري ملطّف . ومن ناحية أخرى فإن المركب الجبلي يكون مجزأً بصورة عرضانية بفتحات عريضة وممرات أكثر ضيقاً ، تمر منها الرياح البحرية باتجاه الداخل .

« نجد في سورية ، من خلال العلاقات بين الرياح والتضريس ، نوعاً من مماثلة مع يوغوسلافيا وإيطاليا الشمالية ، حيث يعترض حاجز جبلي كذلك بين البحر وبين السهول الداخلية . فالرياح تكون هنا موجهة ضمن قنوات باتجاه الفتحات أو الممرات التي تخلق الاتصال بين البحر وبين الداخل . . . ويكون انحصار تيارات الهواء ، لدى اجتيازها هذه الممرات مصحوباً بانضغاط ، والذي يؤدي ولا سيما عند الدخول وعند الخروج ، إلى نشوء رياح عنيفة وغير منتظمة ، قادرة على ان تثور بصورة فجائية للغاية »^(١٧)

ويسد الجولان في الواقع مفتوحاً على البحر من الشمال بواسطة ممر مرجعيون الذي يقع على ارتفاع ٧٥٠ م . كما يكون كذلك مفتوحاً من الجنوب على البحر الأبيض المتوسط ، ذلك لان سهل مرج ابن عامر الواقع بين الجليل وجبال القدس يسهّل نفوذ رياح بحرية باتجاه الداخل . وتمر هذه الرياح الشمالية الغربية عبر سهل مرج ابن عامر إلى وادي نهر الجالود وسهل بيسان . وعند بلوغها جرف شرق الأردن ، تتجه نحو الشمال سالكة شمال الغور ، ومع انحراف قوة كوريوليس^(١٨) ، تبلغ اقليم الجولان على شكل رياح جنوبية غربية ، عنيفة ورطبة . ويفسر عنف هذه الرياح التي تهب من خلال الممرات بتجربة فتتوري أو مفارقتها ، في كل قطاع متضايق تمرّكز العرق (هنا

— W.B.Fish. précité. P.109 — 110

(١٨) وهي القوة التي تعرف كل متحرك في نصف الكرة الشمالي نحو اليمين وفي نه

الكرة الجنوبي نحو اليسار (المغرب) .

الهواء) ، فيحدث تناقص في الضغط على الجوانب وتزايد في السرعة « (١٩)
 فجبل الحرمون الجنوبي الغربي ، حيث ينمو الزيتون والصنوبر المثمر
 على الخصوص ، يكون غزير التهطال ، لأنه يتعرض بشكل مباشر للرياح
 البحرية الرطبة التي تهب من خلال فتحة مرجعيون .
 ويتدخل التضريس أيضاً ، بسبب الارتفاع وحده ، بصورة حاسمة في
 توزيع الحرارة ، ولكن له تأثيراً ملحوظاً أيضاً على توزيع التهطالات . وبينما
 يكون جبل الحرمون وضواحي القنيطرة مغطاة بالثلوج ، تكون الاودية الجنوبية
 بمنجى من انخفاض مفرط في الحرارة وتكون بالتالي بقاع اشتاء ممتازة
 للحيوانات الضامرة والتي تتمتع خلال الفصل البارد بحرارة معتدلة تماماً .
 وهكذا يؤدي جبل الحرمون وصفوف المخاريط البركانية مثل بريقة
 ومرتفعات بير عجم الى ظاهرة الفوهن . وظاهرة الفوهن هذه هي التي تفسّر
 اختلافات مقادير الامطار بين الجولان المرتفع وبين حوران الاقل ارتفاعاً .
 وتكون الرياح الرطبة القادمة من الجنوب الغربي ومن الشمال الشرقي ، والتي
 تهب على الجولان ، من أصل سيكلوني ، مما يفسّر غزارة الامطار التي تنتج
 عنها ، والتي يجب أخذ التأثير الطبغرافي فيها بعين الاعتبار . وتهبط هذه الرياح
 بعد ان تكون قد خسرت شطراً من رطوبتها نحو حوض حوران . فعند هبوطها
 تتسخن وتنضغط بتأثير ظاهرة الانكباس مما يشرح لنا قحولة حوران النسبية .
 ويعود التأثير الاوروغرافي (الجبلي) للظهور مرة ثانية في جبل الدروز الذي
 تكون تهطالاته اوروغرافية بحتة |

٤ - تأثير البحر الابيض المتوسط

ان تأثير البحر على المناخ هو واقع معروف ومسلم به ، ويعبر عنه
 بتسمية المناخ البحري ، والذي يشير حسب مفهوم كل الناس ، الى المناخ
 المعتدل الذي يتنافر مع مناخ متطرف آخر يطلق عليه اسم المناخ القاري .

ويحدد وضع سورية في قلب الكتلة القارية شأن وضعها في نهاية البحر الأبيض المتوسط ، الذي يمد حوضه بين أوروبا وأفريقيا ، أقول يحدد كل نظامه المناخي بصورة أساسية .

وتتسم كل مناطق هذا البحر الهامشية بمناخ يشتهر بصفة « الرومي » أي المتوسطي والذي تكون مميزاته معروفة لدى الجميع . أما بالنسبة للجولان فإن البحر الأبيض المتوسط هو المصدر الوحيد لكل أنواع الرطوبة ، من أمطار ومن تكاثفات خفيفة ، أو الندى . وتشهد المتوسطات السنوية المرتفعة للتهطلات ، شأن تشكل الندى الصيفي ، الذي يكاد يكون يومياً في أعقاب هبوب الرياح الغربية ، تشهد على التأثير الكبير لهذا البحر .

هذا ويتقبل الرياح البحرية ، الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الغربية ، من قبل السكان بسرور خلال كل العام لأنها تجلب الأمطار في الشتاء والندى والبرودة في الفصل القاطظ . ويظهر تأثير البحر الأبيض المتوسط بصورة بليغة في توزيع درجات الحرارة الحقيقية . ويؤدي وجود هذا البحر ، الأكثر برودة من الأرض خلال القسم الأعظم من السنة ، الى تخفيض درجات الحرارة الوسطى كلما كان البحر أكثر اقتراباً . وينتج عن ذلك كون خطوط الحرارة المتساوية مائلة على بعضها أو تنخفض من جانب البحر عوضاً عن أن تكون متوازية مع دائرة خط العرض^(١) فالساعات الحرارية التي نجدها تتزايد ، في كل مكان من الغرب نحو الشرق تشير الى تناقص مفعول البحر التثليبي .

وأخيراً فإن البحر هو الذي يجعل أكثر الشهور حراً وأكثرها برداً على الساحل ليساً تموز وكانون الثاني كما يحصل عادة بل هما على الغالب آب وشباط .

ولا يكون الجولان كما هو الحال على الساحل خاضعاً لتأثير البحر مباشراً لتأثيره التنظيمي . وهكذا نجد في القنيطرة أن أكثر الشهور حراً لا يكون تموز بل آب ، ولكن كانون الثاني يظل دوماً هو أكثر الشهور برودة .

— Charles Combier. Climatologie de syrie et du Liban. Rev.

Góg. Phy. et géol. et géol. dyn T.6. Fasc. 4. 1933.

٥ - تأثي الوضع الجغرافي

ان اهمية وضع سورية ، على الجغرافية الطبيعية والبشرية ، عند تلاحم ثلاث قارات العالم القديم هي أمر معروف منذ زمن بعيد . ومن العجيب ان نلاحظ ان هذا الوضع يلعب في مجال علم الانواء دوراً لا يقل اهمية . ولهذا لا يكون من المستطاع ان نعرّف في سورية نظاماً مناخياً بسيطاً ، إذ تتجلى فيها وتسود مؤثرات آسيوية وافريقية واوروبية .

ففي خلال شهر حزيران وتموز وآب تكون سورية ، بصورة شبه كاملة ، تحت تأثير رقعة الضغط المنخفض لموسميات الهند ، وفي حوالي نهاية الشتاء وفي الربيع ، يكون العنصر المسيطر هو تيار هواء بارد قادم من السهوب الروسية ، وبين فترة وأخرى يمرض اضطراب من نمط فريد ، شديد وقصير الامد ، قادم من شمال شرق افريقية . ويلعب تعقيد أصل هذه الكتل الهوائية وتحديد مميزاتها دوراً هاماً في علم الانواء السوري هذا وتلعب الطرائق القائمة على تحليل كتل الهواء ذاتها ، والبحث عن مصدرها ، هنا دوراً أكثر اهمية مما هو عليه الحال في شمال غرب اوروبا^(١) .

ونستطيع في الحقيقة ، ان نميز في الجولان كتلاً هوائية من أصول وصفات مختلفة . ويمكن القول بصورة تقريبية ، أن كتل الهواء المتوسطة من أصل قطبي أو شبه مداري ، والتي تبلغ سورية ، تتناثر مع كتل هواء من أو آسيوي بحث . وهذه الكتل الآسيوية الأخيرة هي التي توجه نحو الجولان رياحاً شرقية ، تكون جافة وباردة شتاء وتسبب طقساً صحواً مستقراً نسبياً مما يشهد على أصلها الأنتسيكلوني .

وتكون هذه الرياح شديدة الجفاف وشديدة الحرارة صيفاً . ويؤدي مرورها عبر العراق الأدنى وبادية الشام الى استفحال صفاتها المتطرفة ، وتكون هذه الرياح المذكورة ضارة في سائر الفصول ويستقبلها السكان بشعور مشوب بالقلق .

٦ - تأثير طبيعة التربة والنبات على المناخ

« تتحكم طبيعة التربة وباطن الأرض بصورة عالية على المشهد الطبيعي والنبات ، وبذلك تمارس على المناخ مفعولاً غير مباشر بواسطة المحاصيل الزراعية ، من كرمه ، وحبوب ، ومروج وأصناف غابية . فالغابات تصد الرياح وتخفف من التبدلات الحرارية ، كما تنشر جواً منعشاً رطوبة أكبر »^(٣٣)

ولا يعود التأثير الحراري للغابة الى انها تحمي التربة من الشمس والاندماج فحسب بل لأنها تطلق قدراً لا بأس به من الرطوبة ، فتؤدي بالتالي الى بقليل التبدلات الحرارية .

وعلى هذا نجد ان المدينتي القنيطرة وفيق ساعات حرارية متعادلة تقريباً ، فتكون السعة في الاولى ١٦٩٨ درجة مقابل ١٦٢٠ في الثانية ، وذلك رغم اختلاف العرض والارتفاع . فتكون الاولى في شمال الجولان على ارتفاع ٩٣٥ متراً في حين تقع الثانية في جنوبه ولا يزيد ارتفاعها عن ٣٣٠ متراً .

ويجب ان يكون للقنيطرة سعة حرارية أكثر اتساعاً ، وذلك بصورة نظرية على الاقل . ذلك هو المفعول المعدل الذي تمارسه الحراج المجاورة التي تعمل على تقليص التبدلات الحرارية . وهذه الاحراش هي التي تزيد كمية المياه التي تتلقاها الأرض بتأثير الضباب والتي تتكاثف على الأوراق ، وذلك هو ما يدعى بالتكاثفات الخفيفة . ولكن من العسير تبيان ما اذا كانت الغابة هي السبب ام النتيجة .

وفي الواقع لقد قضى الانسان ، في الجولان ، على مساحات واسعة من هذه الغابات وساهم بالتالي في جفاف مناخ الجولان . ولم تتمكن الاشجار المقطوعة من النمو من جديد أو تعود للنمو مع كثير من الصعوبة ، غير ان مما يجدر ذكره ان دور الانسان في اختلال توازن المناخ يبدو هزياً جداً .

رابعاً - العناصر الرئيسية في المناخ

١- الحرارة

تتم ملاحظة الحرارة في كل سورية الجنوبية ضمن عدد محدود من المحطات التي تؤلف جزءاً من دائرة المراكز الزراعية السورية . ولحسن الحظ يكون اختيار هذه المحطات جيداً بحيث يمكننا أن ندرك من خلالها بسهولة شرائط توزع الحرارة في هذه المنطقة . وتظهر اللوحة التالية درجات الحرارة الوسطى الحقيقية السنوية في سبع محطات :

لوحة رقم ١- توزع المتوسطات السنوية للحرارة الحقيقية والمصححة على مستوى سطح البحر

الرقم	المحطات	الارتفاع بالامتر	الحرارة الوسطى السنوية الحقيقية	الحرارة الوسطى السنوية المصححة
١	القيطرة	٩٣٥	١٥٫٢٥ درجة	٢٠٫٢٦
٢	فيق	٣٣٠	١٨٫٨٨ =	٢٠٫٨٦
٣	أزرق	٥٨٠	١٧٫٦٩	٢١٫١٧
٤	السويداء	١٠٠٠	١٦٫٦٥	٢٢٫٥٠
٥	درعا	٥٠٠	١٨٫٥٣	٢١٫٥٣
٦	قطنا	٨٨٠	١٧٫٥٧	٢٢٫٨٥
٧	دمشق	٧١٠	١٧٫٢١	٢١٫٢٧

ويظهر من هذه اللوحة أيضاً توزع المتوسطات السنوية المصححة لحرارة بعد حذف مفعول الارتفاع بإعادتها الى مستوى سطح البحر^(٣٣) . وهكذا نرى بصورة جلية أن المتوسطات السنوية تكون متقاربة بصورة محسوسة . غير أن الفحص الدقيق لهذه اللوحة يسمح لنا باستخلاص الملامح المميزة للتوزع العام لدرجات الحرارة :

(٢٣) على اساس تناقص الحرارة بمقدار ٠٫٦ من الدرجة لكل ١٠٠ م من الارتفاع

- تتناقص درجات الحرارة الصحيحة بصورة واضحة من الجنوب نحو الشمال مما يبين تأثير العرض والارتفاع في الوقت ذاته .

- تتكشف المتوسطات السنوية للحرارة الحقيقية في كل من القنيطرة والسويداء عن التأثير الواضح للارتفاع .

- أما توزيع المتوسطات السنوية لدرجات الحرارة المصححة حسب مستوى سطح البحر فيظهر تأثير البحر الأبيض المتوسط . وهكذا نرى أن المتوسط السنوي للحرارة يتزايد من الغرب نحو الشرق أي من البحر نحو الداخل ، لأن وجود البحر الأبيض المتوسط الأكثر برودة من الأرض خلال الشطر الأعظم من العام ينجح إلى تخفيض درجات الحرارة العظمى كلما ازدادنا اقتراباً منه .

وتكون اللوحة التالية ، التي تضم زميرتين من المحطات معبرة للغاية في هذا الخصوص . فالمجموعة الأولى تقع في أقصى الجنوب من المنطقة في حين تقع الزمرة الثانية في أقصى الشمال .

لوحة رقم ٢ - تأثير البحر الأبيض المتوسط على التوزيع الوسطي لدرجات الحرارة المصححة .

الزمرتان	المحطات	درجات العرض	متوسطات الحرارة السنوية المصححة
		شرق غريتش	
الأولى	فيق	٣٥٤	٢٠٨٦
	درعا	٣٦٠٦	٢١٥٣
	السويداء	٣٦٣٤	٢٢٥٠
الثانية	القنيطرة	٣٥٤٩	٢٠٨٦
	أزرع	٣٦١٥	٢١١٧
	دمشق	٣٦١٧	٢١٤٧

ويظهر من اللوحة الثانية أيضا أن المتوسطات المصححة تكون على قدر لا بأس به من الارتفاع ، ويفسر هذا بالطبع بموقع المنطقة شبه المداري . أما توزيع الساعات الحرارية السنوية فيدل بدوره أيضا على التأثير البحري . فتتزايد قيمها من الغرب نحو الشرق أي بصورة مطابقة لتناقص تأثير البحر الأبيض المتوسط باتجاه داخل البلاد . وهكذا نجد أن السعة السنوية في فيق تكون ١٦ر٢ درجة في حين تكون السعة في درعا ١٧ر٠٥ وتؤكد محطات القنيطرة ودمشق الملاحظة ذاتها : فتبلغ سعة الأولى ١٦ر٦٨ في حين تكون سعة الثانية ١٧ر٤٢ . وفي الواقع تكون الساعات الحرارية في الجولان مشابهة لمثيلاتها على الساحل أكثر من مثيلاتها في المنطقة الداخلية . وتكون اللوحة رقم - ٣ - معبرة جدا في هذا المجال :

اللوحة الثالثة: توزيع الساعات الحرارية من الساحل باتجاه الشرق

الساحل		الجولان		الداخل السوري	
بيروت	١٤	القنيطرة	١٦ر٦٨	درعا	١٧ر٠٥
اللاذقية	١٦ر٣	فيق	١٦ر٢٠	دمشق	١٧ر٤٢
				حماة	٢١ر٧٩
				دير الزور	٢٢ر٢٤

وتتزايد الساعات كما هو الحال بالنسبة لكل سورية ، من الجنوب إلى الشمال . وهكذا نجد أن للقنيطرة سعة أكبر من السعة في فيق ، كما أن السعة في دمشق أكبر من السعة في درعا .

وببدو توزع الساعات الحرارية إذن كظاهرة شديدة الانتظام مما يستبعد أن تكون من مفعول الصدفة : « إذ لا يمكن تفسيرها بسهولة إذا تذكرنا بأننا كلما انتقلنا نحو الشرق فإننا نبتعد عن البحر وعن تأثيره المنظم ، في حين كلما صعدنا نحو الشمال ، فإننا نقرب من الكتل الجبلية في تركيا ، المغطاة بالثلج شتاء ، فتؤدي بذلك إلى تبرّد كبير »^(١١)

وتكون منحنيات توزع الحرارة بين أشهر السنة بسيطة نوعا ما وتشهد كلها على وجود حد أدنى شتوي وحد أقصى صيفي . وينطبق الأول والثاني بالطبع على الانقلابين .

ويكون شهر كانون الثاني على العموم أكثر الشهور بردا

المحطة	كانون اول	كانون ثاني	شباط
القنيطرة	١٠٢٦	٦٢٣	٧٠٧
درعا	١٠٨٦	٩٦١	٩٧٠
دمشق	٩٦٣	٧٥٨	٨٩١
فيق	١٠٩	١١١	١٣٣

ولكن قد يحدث أن يتعادل شباط في برده مع كانون الثاني أو قد يتفوق عليه دون أن تكون هذه الظاهرة عامة في كل المحطات في العام ذاته . وهكذا فقد سجلت القنيطرة في عام ١٩٤٥ المتوسطات الشهرية التالية :

كانون الثاني	شباط
٥٩	٤٩١

وقد سجلت درعا الظاهرة ذاتها ولكن في عام ١٩٥٣ : ١٠٧ في كانون الثاني و ٩٧ في شباط . وعلى عكس كل المحطات في سورية الجنوبية فإن

آذار يكون أحياناً أكثر برداً من شباط في القنيطرة وفي فيق . ويكون هذا الشهر أقرب للشتاء منه إلى الصيف .

ويأخذ الحر بالتزايد بصورة فجائية نوعاً ما منذ بداية شباط وفي خلال

شهر أيار

وكان هناك في القنيطرة ، اختلاف مقداره ٨ر٣ درجات بين متوسط آذار ومتوسط شباط ، وفي فيق كان مقدار الاختلاف ٥ر١ درجات في ١٩٥٦^(٢٥) . ولشهر حزيران دوماً متوسط يفوق ٢٠ درجة . وتظهر أعلى درجات الحرارة الوسطى في تموز وفي آب في كل المنطقة نظراً لاستمرارية واستقرار الحر خلال هذين الشهرين . ويعتبر شهر آب أكثر الشهور حراً ، ولكن تموز يتفوق عادة في دمشق ، وفي بعض الأحيان في المراكز الأخرى .

وتكون الحرارة في الخريف أعلى من حرارة الربيع ، فيكون أيلول أحياناً أكثر حرّاً من تموز ، مثلما يكون أيار أقل حرّاً من تشرين الأول . ويلاحظ الفلاحون استمرار الحر الخريفي أيداً بقولهم « بين تشرين وتشرين صيف ثان » حسب المثل المحلي :

وابتداءً من كانون الأول تأخذ الحرارة بالانخفاض والمطر بالتساقط بصورة متفاوتة في غزارتها ، ويكون المتوسط الشهري للحرارة ١٠ درجات . وهكذا تنذر الحرارة المنخفضة بقدم الفصل البارد والرطب في في الشتاء . وأخيراً فإن الاختلاف بين أشهر الشتاء وأشهر الصيف أنها ينجم عن شدة البرد الشتوي أكثر مما هو عن القَيْظ الصيفي وعلى الرغم من أن البرد والانجماد يظهران بضع مرات فإن السنة تنقسم إلى شطرين أقل تمايزاً حسب الساعات الحرارية منه حسب الرطوبة والجفاف .

٢ - الضغوط والرياح

تساهم الحركات الجوية ، من جهتها ، في مجمل الملامح المميزة

(٢٥) تكون الملاحظات التي تغطي الفترة ذاتها ناقصة ، وهكذا لا نستطيع تقديم الأرقام المقابلة للعام نفسه وكذلك بالنسبة للمحطات الأخرى في سورية الجنوبية .

للمناخ . فسورية الواقعة بين نطاق الاليزه في الجنوب وبين نطاق الرياح المضطربة غير المنتظمة في الشمال ، تكون خاضعة لرياح يبدو عليها انها تشترك تارة في انتظام النطاق الجنوبي وتارة في عدم انتظام النطاق الشمالي .

وتكون دراسة نظام الرياح هامة جداً ، ولكن يكون الريح ، من بين كل العناصر النوئية في سورية ، هو اقلها اهلية لعرض معقول . فهناك شذوذات ظاهرية على الأقل ، تجعلنا نميل للاعتقاد بأن التعقيد هو الطابع المهيمن ، وهو ما يفسّر بكونه متعلقاً بعوامل مختلفة .

ويجب ان تعتمد دراسة الرياح على دراسة الضغط الجوي ، فالضغط ، أوبالاحرى ، غرايدان الضغط ، هو الذي يفسّر تكوين الرياح ، فمراكز العمل التي تتحكم في نظام الرياح في سورية تقع في معظمها في خارج هذه البلاد .

وهناك نوع من تماثل قائم مع المناطق المدارية ، فقد تسبّب منخفضات قليلة العمق وذات رقعة ضئيلة الاتساع في انطلاق رياح على درجة لا بأس بها من القوة ، تبلغ ٥٠ - ٦٠ كم / ساعة وأكثر من ذلك . وقد تتورعواصف عديدة فيها خلال بضع ساعات ومن هذا تأتي صعوبات التنبؤات .

فقد يضطرب طقس كان يغلب عليه الهدوء نتيجة تطور مفاجيء لمركز صغير من ضغط منخفض بين قبرص وسورية لم يتكشف في البداية على الخرائط الاجمالية . ويؤدي في كل مكان خلال ثلاث أو ست ساعات الى اثاره ريح تصل سرعتها الى ٥٠ كم / ساعة . غير ان هذه المنخفضات القليلة المدى والتي تؤدي الى تبدلات فجائية لا تؤلف أكثر من عنصر ثانوي في المناخ السوري .

أما مراكز العمل وكتل الهواء التي تطلقها فتكون بالفعل واسعة ومستقرة نسبياً . وعلى خلاف ما يجري في بقية حوض البحر الابيض المتوسط ، فإن الشرق الاوسط العربي يكون مشغولاً بصورة وسطية بضغط عالية في الشتاء وبضغط منخفض في الصيف ، وتكون واضحة فعلاً وبصورة متفاوتة خلال كل العام في بلاد ما بين النهرين .

« فأنيسكلون آسور ، المؤلف من هواء مداري بحري ، لا يلعب هنا أي دور . ولكن في الخريف وفي بداية الشتاء على الخصوص ، تشأ ظهرة من ضغوط عالية مصدرها الصحراء الكبرى وتمدد ، بعد تقلصها فوق البحر الاحمر ، حتى شبه جزيرة العرب حيث قد تتلاحم مع الضغوط العليا الآسيوية . وقد يتمكن ما نسميه عادة بالأنتيسكلون الاوراسي او السيبيري بالفعل ان ينشر ، من خلال الاناضول أو ايران ، كتلاً من هواء قطبي قاري

ولكن قد تندس ، بين هذين المركزين من الضغوط العالية ، بين الخريف والربيع ، منخفضات جوية قادمة من الغرب ، على طول البحر الابيض المتوسط »^(٢٦)

غير ان المنخفضات القادمة مباشرة من الاطلنطي تكون نادرة وتتولد في الغالب في شرقي مالطة . وتستطيع هذه المنخفضات ان تعطي ، وذلك حسب القطاع المعين من الهواء السيكلوني ، وحسب النقطة المحددة من البلاد ، رياحاً غربية ، وشمالية غربية ، أو جنوبية غربية .

هذا ويتغير الوضع البارومتري من فصل لآخر ، والاضاع الفصلية هي التي تفسر لنا طبيعة واتجاه الرياح .

وفضلاً عن ذلك يكون الوضع البارومتري خلال الصيف ، في كل الشرق الاوسط العربي ، أكثر بساطة واستقراراً مما هو في الشتاء . فلا نجد ابداً مراكز ضغط عالٍ وتبدو المنطقة هذه ، بقضها وقضيضها ، وكأنها مندوجة في نطاق الضغوط المنخفضة الصيفية المدارية . ويكون الطقس الناجم عن هذا الوضع هادئاً بشكل يثير العجب من نهاية آيار حتى بداية أيلول .

وهكذا تسود في الصيف رياح منتظمة اشتهرت باسم الرياح الصيفية . وتأتي هذه التسميات الصيفية ، دون أمطار طبعاً ، من الغرب أو

من القطاع الشمالي الغربي .

إذن تكون الرياح الغربية والشمالية الغربية شبه مستمرة لأنها تهب صيفاً
«لها تهب شتاء» . وعلى كل حال فإن طبيعتها ونتائجها مختلفة من فصل
لاخر .

وفي الصيف نظراً لوجود حد أدنى من الضغط الجوي السمتقر فوق
داخل القارة ، أي في الصحاري الشديدة التسخن في شرقي البلاد ، يكون
الرياح مجذباً من الغرب ، أي من البحر المتوسط ، الذي يكون مفرضغوط
عالية نسبياً ، ويصل هذا الرياح الى سورية قادماً من الشمال الغربي . ويجلب
هذا الرياح المشحون بالتأثير البحري هواء ندياً منعشاً يقي البلاد من موجات
الحر المفرطة ويجعل شهري تموز وآب لطيفين الى حد ما .

ويستقبل الاهلون الرياح الغربي في الجولان ببشر فهو يوحى للسكان
بشعور الاستحسان الذي يعبر عنه المثل الشعبي القائل : « الغربي فرح لي
قلبي » .

وعلى كل ، ونظرا الى ان الرياح الغربي الصيفي لا يرتبط بأية حركة
سيكلونية ، فهو لا يجلب المطر مطلقاً^(٢٧) .

هذا ويكون جوار البحر في كل عالم البحر الابيض المتوسط غير موافق
لتشكل الامطار الحملانية ، ذلك ان وجود البحر البارد نسبياً يتسبب في تطبق
حراري معاد لتشكل الأمطار .

أما توزيع الضغط الجوي المخالف ، في الشتاء ، فيؤدي لنظام آخر
بكل معنى الكلمة . فبين مركزي الضغط العالي ، أي أنتيسايكلون آسور ،
والأنيسايكلون الاوراسي ، تنساب ابتداءً من الخريف وحتى الربيع ، وعلى
الخصوص في الشتاء ، منخفضات قادمة من الغرب وتعتري كل الحافة
الشرقية للبحر الابيض المتوسط . و« تنشأ معظم المنخفضات في شرقي مالطة
وليس الى الغرب منها » .^(٢٨)

(٢٧) وقد اطلق جاك ويلس على هذا الرياح الغربي الجاف « الموسميات الجافة

(المغرب)

28) W.B. Fisch. Précité. P:97

وتتقنع أقصى سرعة للرياح في الشتاء تحت هيمنة غراديان الضغط ،
وتكون العواصف الشتوية على العموم قصيرة المدة ، وتنفصل عن بعضها
بالعديد من الايام الهادئة الطقس .

وتصدر الرياح الشتوية في أغلب الاحيان من الغرب أو من الجنوب
الغربي . وتكون عادة هي التي تحمل معها الامطار .

ويعرف سكان الجولان بصورة جيدة مميزات مختلف الرياح التي تهب على
منطقتهم . ويقولون عن الغربي « كم من الأنهار سالت بفعلها » وذلك تعبيراً
عن انها رطبة ومطيرة . ويتصف ريح الجنوب الغربي ، او القبلي ، بعنفه
و بمطره فيقولون : « كم خربت من بيوت (لعنفها) ولكن كم املأت من
أكياس (وبالتالي هو الذي يجلب امطار المواسم الطيبة) ، وهب من حين لآخر
ريح قادم من الشرق ، يكون جافاً وبارداً في الشتاء ، يساعد على جفاف
الهواء ، وعلى وجود طقس مخصص للغاية ، ومستقر ، ينجم عنه ،
بالتالي ، تبرّد ليلي مصحوب بانجماد . وهو أكثر انواع الطقس ايداءً
للحيوانات الضامرة وللنباتات الصغيرة التي بدأت بالانتاش ، وبالتالي فإن
الريح الشرقي يشقق البشرة ويسبب الأوجاع ، وهب الريح الشرقي في كثير
من الاحيان في الفترات الانتقالية بين الفصل الجاف والفصل الرطب ، في
الخريف وفي الربيع ، ويكثر ترداده ويكون عنيفاً جداً خلال « الأربعينية »
ويحول ، نظراً لشدة جفافه وقساوة برده ، دون نمو النباتات العشبية في المروج
الطبيعية ويعرض تربيته الماشية لمخاطر شديدة .

ولقد سبق لنا ان اشرنا في موضع آخر الى أن فترة القيقظ الصيفي تظل
شديدة حتى تشرين الثاني ، وهكذا ، وبعد اوائل الامطار الخريفية تنمو
الاعشاب والنباتات المزروعة بسرعة تحت تأثير الحر والامطار . ولكن الشرقي
يأتي على الغالب مبكراً ويجفف النبات الناشئ الذي عليه ان ينتظر حتى
نهاية « الأربعينية »^(٢٩) كي يستأنف نموه وهكذا تكون المحاصيل والمروج
الطبيعية طيبة أو رديئة حسب استمرارية وشدة الشرقي .

(٢٩) ويقصد بها الايام الاربعين الاولى من فصل الشتاء ، وهي ايام الشتاء برداً .

واستناداً الى المثل الشعبي ، الشديد التعبير بالفعل ، والقائل
« الشرقي حطبة » ، فإن جفافه يعمل على برم الأغصان عن طريق تبيسها ،
وهو بارد ، لأنه يتطلب الحطب للحرق أي للاستدفاء .

ويكون الشرقي ، الجاف على الدوام ، حاراً جداً في الربيع ، فيلهب
الهواء ، ويعمل على نضج الثمار والسنابل ، ويضع حداً لخضرة الربيع بسرعة
قصوى . ويهب عادة من الصباح حتى ما بعد الظهر ، كي يجلب مكانه
الغربي بعد الظهر ، مع برودته المنعشة التقليدية ، ولكن مع تبرد ليلى ينتج
عنه الندى .

ويقوم الفلاحون بالحصاد في وقت مبكر حتى الفترة حتى تقوم الشمس
فيها ، بعد شروقها ، بتبخير قطرات الندى التي تبلل سيقان السنابل . وما أن
تتجفف سيقان الحصيد حتى تأخذ بالتهشم تحت الأيدي والمناجل ، وعندها
يتوقف الحصادون كيلاً تتبعثر السنابل . ويباشروا الفلاحون بعد عودتهم للقرى
بممارسة عمل آخر ، وهو الدراس الذي يصبح ميسوراً بفعل التجفف الذي
اعتري الغيار المكدسة فوق البيادر .

غير أن الريح الشرقية لا تكون مناسبة لعملية التذرية ، ولهذا ينتظر
الفلاحون استئناف الريح المنتظم لفترة ما بعد الظهر والذي يهب من
الغربي ، وقد تستمر التذرية أحياناً حتى منتصف الليل .

ولما كانت الريح الشرقية غير مواتمة دائماً للمزروعات وللأشغال
الزراعية فإن الفلاحين يعبرون عن استيائهم منها بقولهم : « انه لا يملأ
سوى الجيوب في حين ان الغربي يملأ العدول » .

ورغم اختلاف صفات ونتائج الريح الغربي والريح الشرقي فأنهما أكثر
الرياح هبواً فوق الجولان .

ويذكر حكماء اليهود أن ريح الشمال « هو الذي يطرد الغيوم ويجلو السماء
بعد ليل مطير » ، فصفاء الجو الذي ينجم عنه أصبح مضرب الأمثال^(٣١) .
وهذه ملاحظة صحيحة جداً على الغالب بالنسبة للجولان ايضاً ، ولكن

الرياح القادم من الشمال أي الشمالي ، يتسبب ، قبل طرد الغيوم ، بسقوط الثلوج كنتيجة لهبوط الحرارة الفجائي الذي ينجم عنه مسبقاً .
ويخشى الفلاحون الرياح الشمالية شتاءً لأنها تقشع الغيوم وتحول دون هطول المطر .

ومن ناحية أخرى فإن رياح الشمال الشتوية تهب بعنف محسوس جداً .
فهي تهب على الجولان عبر جبل الحرمون المغطى بالثلج ، فتتبرد فوق قمم جبل الشيخ ، ثم تنهمر بصورة عنيفة فوق منطقتنا . ذاك هو الفيوهن أو بالأحرى ، هوريج مسترال الجولان . أما بالنسبة لعرب المنطقة « فالشمالي هو غضب من الله لأنه يُبكي الرجال (البرد) ويطيرُ الابناء (لعنفه) » بيد أن هذا الرياح اللطيف والندي غالباً ما يعرف بإسم الشمالي من قبل السكان ، والذي لا يكون بالواقع ، سوى رياح الشمال الشرقي ، أو الرياح الصيفي التقليدي .

أما رياح الجنوب والجنوب الشرقي فهي أكثر الرياح ندرة^(٣١) ، فتكون مشحونة أحياناً بالغبار والرمال لأنها من أصل صحراوي . فهي تعمل على تعقيم السماء بنوع من لون حليبي كثيف^(٣٢) وتؤدي الى ارتفاع فجائي في الحرارة ، مما يعمل على رفع متوسطات الحدود القصوى ولا سيما قيمها المطلقة .

نسيم البحر

إذا كان الحد الأقصى للرياح يقع في الشتاء بتأثير غراديان الضغط ، فإن الصيف يكون ، على خلاف ذلك ، أكثر الفصول رياحاً ، فهناك نسق منتظم من رياح نشيطة يستمر خلاله كما أن الأيام الهادئة تصبح نادرة بـ'جلاء' .

(٣١) القبلي في الجولان هو الذي يهب غالباً من القطاع الجنوبي الغربي .

(٣٢) يرى شيوخ الشراكسة في الجولان أن رياح الرمل والغبار هي نذير شؤم وإشارة

حرب .

« وتكون المركبة الرئيسية لهذه الرياح الصيفية هونسيم البحر . . . ففي البلاد المعتدلة ، يتقدم النسيم المذكور حتى مسافة خمسين كيلومتراً في داخل الأراضي ، أما في سورية ، كما هو الحال في الاقطار شبه المدارية ، فإنه يتوغل لعمق أكبر في اتجاه الداخل »^(٣٣)

ويجس الناس في الجولان بقدومه ، فيما بعد الظهيرة ، على أثر برودة محبة جداً في الصيف ، ويجلب نسيم البحر خلال الليل سحبا وضباباً تتكاثر رطوبتها بتأثير التبرد الليلي ، ولدى تماس السطوح الباردة ، كي تعطي كمية وفيرة نوعاً ما من الندى .

ويتوغل نسيم البحر خلال الصيف باتجاه الداخل حسب سرعة عظيمة (٤٠-٥٠ كم / ساعة حسب فيش) . وتفسر هذه الشدة الفريدة ، لما يبدو أنه نسيم ، بتراكب تأثيري الوضع البارومتري والوضع الحراري لظاهرة النسيم الصرفة . وذلك أن غراديان الضغط يكاد ينطبق تماماً على اتجاه النسيم بحيث يتضافر التأثيران ، « لما كان الريح يجنح في حده الاقصى الى أن يهب حسب اتجاه من الجنوب الغربي تقريباً كما تقضي الاوضاع النظرية للنسيم ، فإنه يشهد على تراكم التيارين . أما أوقات الهدوء الليلي فتفسر ، على العكس ، بتداخل ريح الغراديان مع نسيم البر الخفيف ، وكذلك بجنوح معروف جيداً نحو الهدوء خلال الليل . ويجنح نسيم البحر الى الاستمرار في الشتاء رغم كونه خففاً جداً »^(٣٤)

ويكون نسيم البر الليلي ظاهرة متممة لنسيم البحر . ويكون هذا النسيم أقل وضوحاً وأقل تردداً من نسيم البحر ويتعقد بتداخلات بارومترية ورياح كاتباتية . وتكون رياح البر شديدة في الشتاء .

ولما كانت هذه الرياح مستقلة عن التضريس فإنها تكون شديدة التغير من حيث الاتجاه والشدة من مكان لآخر ، وتبدو حالة قريتي الجوزة والبريقة

W. B. Fisch. préčitép . 107

34.. W.B. Fisch préčitép . 108

شديدة الدلالة في هذا المعنى . وتقع هاتان القرستان على جانبي الكتلة البركانية ، وقرتي بريقة وبير عجم داغلري ، فالاولى تقع على السفح الغربي في حين تقع الثانية على السفح الشرقي .

ويهب الريح الشرقي على بريقة بلطف ولا يخشى السكان اطلاقاً توجيه ابواب بيوتهم نحو الشرق فهذا الريح بعد ان يجتاز قمم الكتل البركانية ينهمر بعنف على قرية الجوزية التي لا يوجه اهلها بيوتهم اطلاقاً نحو الشرق .

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين التضريس والريح ، فقد سبق لنا أن أشرنا الى وجود حاجز جبلي وهو قليل الارتفاع ، على كل حال ، والذي يحجز بين البحر الابيض المتوسط والجلولان ، كما أشرنا سابقاً ، في هذا المجال ، الى الدور الهام الذي تلعبه الفتحات أو الممرات التي تقطع الحاجز بصورة عرضانية مما يمنح بالتالي ، منفذاً لتوغل رياح البحر باتجاه الداخل .

هذا ويجدر بنا التنويه الى ان سرعة الرياح التي تخترق الممرات نريد بالتالي الانضغاط الذي تتعرض له (مفارقة فانتوري) .

٣ - الماء في الجو

يلعب المطر بالفعل ، دوراً من الطراز الاول في كل اقطار الشرق الاوسط حيث يسود جفاف مطلق خلال شطر كبير من العام . وهذا المطر هو الذي ينظم ، في خاتمة المطاف ، حياة الناس شأن حياة الحيوانات والنباتات .

فحيثما كان هناك ماء ، كان هناك رخاء ووفرة ، وحيثما انعدم فهناك ، حالاً ، الصحراء .

الرطوبة والتغيم

تقدم رطوبة الهواء النسبية ، دون ادنى ريب ، اكبر التغيرات خلال المكان والزمان ، بالموازنة مع بقية كل العناصر المناخية . وقد تمّ تسجيل الرطوبة النسبية في كل سورية الجنوبية ، في محافظة دمشق لوحدها اعتباراً من عام ١٩٥١ ، أما بلدة فيق فقد ادمجت لوحدها ضمن شبكة الملاحظات النويّة الجديدة ابتداء من عام ١٩٥٦^(٣٥) .

(٣٥) وهي شبكة دخلت حيز العمل بواسطة قسم الارصاد الجوية . وزارة الدفاع

السورية .

فإلى جانب معارفنا العامة عن الرطوبة النسبية في سورية فإن بعض الاحصائيات المتوفرة تساعدنا في اعطاء صفات هذه الرطوبة في الجولان . ويمكن ابراز تأثير البحر الابيض المتوسط من ناحية ، والاضاع الجغرافية من ناحية أخرى ، على توزيعات الرطوبة النسبية وذلك بمقارنة المتوسطات الشهرية لأربع محطات مختلفة في درجة تعرضها للرياح البحرية الرطبة .

فبق	دمشق	دير الزور	حصص
كانون ثاني	٧٤٧	٧٢	٧٩١
شباط	٦٤	٦٢	٥٣
آذار	٦٦٣	٥٧	٥٧
نيسان	٥٧	٣٨٣	٣٨٧
أيار	٤٦٣	٣٢٣	٣٠٣
حزيران	٤٥	٢٧	٢٢٦
تموز	٥٤٧	٢٥٣	١٤٣
آب	٥٤٣	٣٢٧	٢٠٣
أيلول	٤٦٧	٢٤٣	٢٧
تشرين اول	٤٤	٤٢٣	٣٥
تشرين ثاني	٤٣٧	٤٥٣	٤٤٦
كانون أول	٤٦٧	٦٩	٧٩
المتوسطات	٥٥١	% ٤٣٨	% ٤١٢
			% ٦٢٢

اللوحة الرابعة عن توزيع الرطوبة النسبية على أشهر عام ١٩٥٦ في أربع محطات متباعدة وفي أوضاع متباينة بالنسبة للبحر الأبيض المتوسط .
وتحسب المتوسطات الشهرية استناداً إلى ملاحظات يومية ، تجري في كل يوم ، في الساعة ٨ و ١٤ و ٢٠ حسب التوقيت المحلي . وتوضح اللوحة الرابعة النقاط التالية :

لقد سجلت حمص في ١٩٥٦ رطوبة نسبية أكثر ارتفاعاً من مثيلاتها في فيق ودمشق ودير الزور . وهذا يفسّر بوضع حمص الأكثر تقدماً نحو الشمال ، وكذلك أيضاً لوجود فتحة طرابلس حمص التي تعرّض هذه المدينة لرياح بحرية رطبة .

وتدل الخطوط البيانية على تشابه ملحوظ بين فيق وحمص (فيق = ١٢) مثلاً تدل أيضاً على وجود فترتي انخفاض في الرطوبة تنطبقان على الربيع والخريف . ويفسّر هذا الانخفاض بتواتر رياح جافة شرقية خلال الفصلين الانتقاليين .

وللقنيطرة وضع مماثل لوضع حمص ، فهي معرضة لرياح بحرية تهب من خلال ممر مرجعيون . وإذا كنا نفتقر إلى ملاحظات عن الرطوبة النسبية للقنيطرة على التحديد ، فإن النظر إلى المتوسطات السنوية للتطهات (قنيطرة ٩١٩ مم وحمص ٦١٢ مم) يجعل من الممكن التخمين بأن الرطوبة النسبية في القنيطرة أكثر ارتفاعاً من مثيلتها في حمص .

هذا وتعرض فيق أيضاً للرياح البحرية القادمة من الجنوب الغربي ، فتكون رطوبتها النسبية أكثر ارتفاعاً مما هي في دمشق على الرغم من أن هذه المدينة تحاط بحزام نباتي ، هو الغوطة ، ورغم وفرة مياهها .

ولا يظهر تأثير البحر الأبيض المتوسط على درجة الرطوبة النسبية في حمص وفي فيق بمتوسط سنوي عال فحسب بل يظهر أيضاً ، وعلى الخصوص ، بدرجة عالية من الرطوبة خلال أشهر الصيف . وعلى خلاف ذلك تكون الرطوبة النسبية في دمشق وفي دير الزور ضعيفة إلى حد ما .

ويكون الاختلاف في درجة الرطوبة لأكثر الشهور جفافاً ذا دلالة كافية في هذه الحالة :

المحطات	اكثر الشهور رطوبة	اكثرها جفافاً	السعة
حصص	كانون اول	تموز	٤٨٣ ٣٢٤
فيق	كانون ثاني	تشرين ثاني	٤٣٧ ٣١
دمشق	=	أيلول	٤٧٧ ٢٤٣
دير الزور	=	تموز	٦٤٨ ١٤٣

وهكذا نلاحظ ان لفيق ولحمص سعتين متقاربتين الى حد ما ومتباعدتين كثيراً عن مثيلتهما في دمشق ودير الزور من ناحية اخرى .
وتكون رطوبة الجو النسبية في الجولان مرتفعة نوعاً ما خلال اشهر الصيف بحيث كثيراً ما يكون الهواء قريباً من درجة الاشباع وان التبرّد الليلي الخفيف يكفي لجعل السقوف تقطر ماء في الصباح كما لو كانت قد تعرضت الى طلّ خفيف . ذاك هو التكاثر الخفي والندى والذي سبق ان اشرنا الى اهميته اكثر من مرة .

وعلى كل فإن تكرر حدوث الندى ووفرته في الجولان هما من المميزات التي تتصف بها منطقتنا والاطراف المباشرة . ويمكن اعتبار التغييم ، وذلك بالمائلة مع رطوبة الهواء ، على أنه العنصر المناخي في الهواء الذي يكون له اكبر انطباع على الانسان : ذلك ان ضعف مقداره وشدة الانارة التي تكون نتيجته جزئياً ، هما ابرز مميزات اقطار البحر الابيض المتوسط ، مثلما يكونان اكثر حدة كلما ابتعدنا اكثر باتجاه الشرق»^(٣١)

ومن المتفق عليه ان يشار الى التغييم برقم يمثل الاجزاء العشرية من السماء المغطاة بالغيوم ، فرقم ١٠ ينطبق على سماء محجوبة تماماً والرقم صفر يدل على صفاء السماء تماماً .

بيد ان مصلحة الأنواء الجوية والمناخية تشير الى التغييم برقم يمثل مقدار « اثنان اي ثمن » السماء المغطى بالغيوم . وسنلاحظ في اللوحة الخامسة

الملاحظات المتعلقة بالتغيم في عام ١٩٥٦ في المحطات الأربعة وهي : فيق ودمشق وحمص ودير الزور . وقد تمت الملاحظات يوميا في الساعة ٨ و ١٤ و ٢٠ حسب التوقيت المحلي .

وتشير اللوحة الى ان التغيم الوسطي السنوي يكون عموما ضعيفا في سورية ، وسنرى اجمالا ووسطيا ان ربيع السماء فقط يكون محجوبا بالسحب . هذا ومن ناحية اخرى فإن اللوحة المذكورة تشير بجلاء لوجود تطابق بارز فيما يتعلق بتوزيع حالات الرطوبة الجوية الثلاث وهي التغيم والرطوبة والأمطار (قارن شكل ١٢ وشكل ١٣) . وتتضاءل هذه العناصر الثلاثة في الزمان ، اي من الشتاء الى الصيف ، وفي المكان اي من الغرب باتجاه الشرق .

٥ - التغيم في ١٩٥٦ في المحطات الاربع وهي : فيق ، دمشق ، حمص ، دير الزور

وفي الواقع فإننا نجد في المحطات الاربع ، المأخوذة بعين الاعتبار ، أن فيق هي التي تقدم اكبر قدر من التغيم $\frac{٦٤٥}{٨}$ ثم حمص $\frac{٦٤٥}{٨}$ ثم دمشق $\frac{٦٤٥}{٨}$ واخيراً دير الزور مع $\frac{٦٤٥}{٨}$. وعلى كل فإن درجة التغيم تبدو مستغربة ظاهرياً وذلك على الاقل بين فيق وحمص مع ان هذه المدينة المذكورة كانت عامئذ ذات امطار اكثر من امطار فيق . ويفسر الاختلاف الكمي للأمطار باختلاف الارتفاع بين المدينتين لأن حمص تقع على ارتفاع ٥٠٠ م بينما لا يزيد ارتفاع فيق عن ٣٠٠ م ، ذلك ان ارتفاع حمص يسهل تكاثف بخار الجو الذي تحتويه الغيوم . بيد ان السحب تتفوق فوق فيق دون أن تخسر كل رطوبتها وتتجه نحو الشمال الشرقي كي تسكب امطارها الوفيرة : فتتال القنيطرة الواقعة على ارتفاع ٩٤٥ م مقداراً وسطياً سنوياً يبلغ ٩٣٥ مم .

وهكذا لا يكون صفاء السماء في الشرق عبارة عن اسطورة ، بل يصبح اكثر وضوحاً إذا قمنا ، بدلاً من اخذ السنة بأكملها ، بدراسة القيم الشهرية للتغيم في المحطات الاربع (شكل ١٣) . فالشرق حقاً هوبلد النور ، وسيكون اكثر من ذلك ايضاً ، ولا سيما باستمرار اكبر ، اذا لم تكن السماء مظلمة ، من وقت لآخر ، بصورة متفاوتة ، بضباب اصفر حليبي ناجم عن الرياح الرملية .

الأمطار

ان القاء نظرة بسيطة على خارطة الامطار (خارطة رقم ٩) يبدو كافيا لتبيان العلاقة الوثيقة القائمة بين التهطالات وبين التضريس ، فخطوط الامطار المتساوية تشكل انعطافا ، ويدل التواء باتجاه الجنوب على تناقص التهطالات من الغرب نحو الشرق ومن الشمال باتجاه الجنوب .
ويفسر هذا التناقص من الشمال نحو الجنوب بتناقص الارتفاع في الاتجاه نفسه . وهكذا تنال بلدة بيت جن ، والقنيطرة ، والحشنية وفيق شطائر من المطر السنوي تتناسب بشكل واضح مع ارتفاعاتها :

المحطات	الارتفاعات	الامطار السنوية بالمليمتير
بيت جن	١١٥٠ م	١٠٠٠
القنيطرة	= ٩٣٥	٨٠٠ - ١٠٠٠
الحشنية	= ٧٠٠	٦٠٠ - ٨٠٠
فيق	= ٣٣٠	٣٣٠ - ٤٥٠

ويفسر هذا التناقص الامطار من الغرب الى الشرق ، والذي تشهد عليه خطوط الامطار المتساوية ، والتأثير المزدوج : أي بانخفاض الارتفاع وبالاتبعاد عن التأثير البحري . وهكذا فإن الصنمين ، وهي قرية حورانية تقع الى الشرق من القنيطرة بحوالي ٤٠ كم لا تنال سوى شريحة مطرية تتراوح بين ٢٥٠ - ٣٠٠ مم . ويظهر من مسار خطوط الامطار المتساوية ان مقادير الامطار تتناقص اكثر فاكثر من الغرب نحو الشرق ، مما يؤكد ويثبت تفهقر المناخ في هذا الاتجاه . ويكون هذا الانحطاط على العموم منتظما اللهم إلا في منطقتي جبل الدروز وجبل المانع بسبب التضريس الذي يكون مرتفعا نسبيا . كما ان التضريس المرتفع هو الذي يفسر أيضا كيف ان خطوط الامطار المتساوية تكون متراسة في الجولان وبالتالي تكون ذات قيم عالية .

ويظهر من اللوحة التالية توزيع الهطالات السنوية في كل المناطق
البركانية في سورية الجنوبية

لوحة رقم ٦ : توزيع الامطار السنوية في سورية الجنوبية البركانية

النسبة المئوية بالنسبة للمساحة الكلية	المساحة كيلومتر مربع	الهطالات السنوية الوسطى بالمليمتر	
٠,٥٤	١١٠	١٠٠٠	فوق
٢,٧٣	٥٦٠	١٠٠٠ - ٨٠٠	من
٢,٢٤	٤٤٦	٨٠٠ - ٦٠٠	من
١,٥٣	٢٨٠	٦٠٠ - ٥٠٠	من
١,٧١	٢٩٠	٥٠٠ - ٤٠٠	=
٣,٦٦	٧٥٠	٤٠٠ - ٣٥٠	=
٦,٤٦	١٩٤٠	٣٥٠ - ٣٠٠	=
٩,٦٢	١٩٧٠	٣٠٠ - ٢٥٠	=
٩,٨٠	٢٠١٠	٢٥٠ - ٢٠٠	=
٧,٤٦	١٥٣٠	٢٠٠ - ١٥٠	=
٩,٥١	١٩٥٠	١٥٠ - ١٠٠	=
٤٢,٢٠	٨٦٥٠	١٠٠	دون
٪١٠٠	٢٠٥٠٠	المجموع	

وتدل اللوحة ٦ إذن على ان ٨٪ فقط من المناطق البركانية في سورية
الجنوبية تنال متوسطا سنويا يفوق ٤٠٠ مم من المطر وأن ٨٠٪ ينال اقل من
٤٠٠ مم . وتكون كل النقاط التي تتلقى متوسطا يفوق ٤٠٠ مم واقعة في
الجولان حصراً .

فصل الامطار

تكون امطار الجولان محصورة ، شأن كل مناطق البحر الابيض المتوسط ، في زمرة مستمرة من أشهر محدودة بصورة تقريبية بين شهر تشرين الاول وأيار وعلى كل فإن بعض الامطار النادرة تسقط احياناً منذ نهاية شهر ايلول

ويشير المثل الشعبي الى ذلك الواقع بالقول : « ايلول ذيله مبلول » ، وتكون هذه عبارة عن امطار عاصفية مصحوبة بهرق وصواعق . ويقول الفلاحون ايضاً « مع صواعق بانياس (شمال غرب المنطقة) يسقط المطر في الصباح او في المساء » . ولكن قد تأتي هذه العواصف المطرية من الجنوب الغربي مثلما تأتي من الشمال الغربي .

وقد تسقط امطار ضئيلة ايضاً في تشرين الاول ، بيد ان شهري أيلول وتشرين الاول قد يكونا جافين تماماً كما حدث في ١٩٤٩ - ١٩٥٠ و ١٩٥٠ - ٥١ وفي ١٩٥٣ - ٥٤ . وبما ان الحرارة تظل مرتفعة ايضاً في تشرين الاول ، فإن الشعور السائد هو ان الطقس لا يزال صيفاً ، ولا سيما عندما تنعدم الامطار ، وهكذا يعتبر الفلاحون شهري تشرين الاول وتشرين الثاني صيفاً ثانياً .

هذا ولا تنخفض الحرارة بصورة محسوسة ، ولا يتجلى الفصل الرطب الا ابتداءً من تشرين الثاني . وتكون شهور كانون الاول وكانون الثاني وشباط وآذار اكثر شهور السنة أمطاراً . وابتداءً من نيسان تصبح الامطار نادرة جداً حتى لقد تنحبس تماماً . وينظر الفلاحون نظرة تقدير خاصة لامطار نيسان بالنسبة للمزروعات الصيفية فيقول مثلهم « أمطار نيسان تساوي السكة والفدان » ، واذا ما انقطعت الامطار ابتداءً من هذا الشهر فإن القلق يسيطر على الفلاحين ويبادرون الى صلاة الاستسقاء^(٣٧)

(٣٧) لقد اشتركت في طفولتي شخصياً عدة مرات في صلاة الاستسقاء هذه ، وذلك بجمع عدد كبير من الحصيات ومن ثم يقرأ عليها واحد بعد واحد ، آية من القرآن هي

وابتداءً من أيار يستقر الجفاف رغم هطول بعض المليمترات أحياناً .
ويكون شهر حزيران وتموز وآب عبارة عن اشهر جفاف مطلق ويظهر أثر
الجفاف لأن الحرارة تسجل قيمتها القصوى خلال هذه الشهور الثلاثة .
وتتوزع الحرارة والمطر على اشهر السنة بصورة معاكسة ، وتكون
الخطوط البيانية قوية الدلالة في هذا المعنى (انظر الشكل ١٥ ، ١٦ ، ٢٢
نظام الامطار

لقد سبق وأشرنا فيما سبق ان السنة تنقسم الى فصلين متميزين تماماً عن
بعضهما ؛ الاول رطب وبارد والآخر حار وجاف . ولهذا النظام محذور كبير ،
وهي ان الامطار تنحبس في الصيف عندما تكون الحرارة مرتفعة والنبات في
اشد الحاجة للماء لمواجهة التبخر النتحى .
والواقع تكون الامطار شديدة التمرکز . فقد نالت القنيطرة في شهر
واحد ، هو كانون الاول ١٩٥٠ ، مقدار ٤٤٠ مم من المطر ، أي كمية تفوق

المتوسطات السنوية للمحطات التالية :	المعدل السنوي	متوسط عام ١٩٥٠
درعا	٢٨٣ مم	٢٦٧ مم
دمشق	٢٣٠ =	٣٦٥ =
حماة	٣٧١ =	٢٩٤ =
حلب	٣٩٩ =	٣٤٦ =
دير الزور	١٤٥ = (٣٨)	١٤٦ =

« اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين » (والصحيح دعاء وليس آية) . وبعد ذلك
تلقي هذه الحصيات في الماء بانتظار قدوم المطر . ويتم كل ذلك في خارج القرى ولا يعود
الناس من شيوخ ونساء واطفال الى بيوتهم الا بعد سقوط المطر وتبلل ثيابهم .
ولأبناء الشراكسة طريقتهم في طلب المطر من الله . فهم يصنعون دمية كبيرة ويطوفون
بها من بيت لآخر وهم يرتلون متأهيم الى الله كي يسقط عليهم المطر وتقوم النسوة بسكب
الماء على الدمية الى جانب رش الماء على الاطفال . وفي مقابل ذلك يقدمن لهم البيض
واقراص الجبن وأحياناً الدراهم . وللتركيان من جانبهم طريقتهم الخاصة في الدعاء
لاستدراار المطر .

(٣٨) النشرة الاحصائية السنوية لعام ١٩٥٤ دمشق

المجموع	أيار	نيسان	شباط آذار	كانون ثاني	كانون أول	كانون الثاني	أيلول	أشهر العام	لوحة أشهر و أيام المظفر	
									المحطات	السنوات المظفرية
٤٧	٥	٣	٨	٧	٩	١١	—	—	٢	٥٠-١٩٤٩
٧٨	—	٦	٣	٥	٥	٥	—	—	٦	٥١-١٩٥٠
٤٥	—	٣	٩	١٢	١٠	١٤	١	—	٦	٥٢-١٩٥١
٦٠	—	٤	١٠	٨	٧	٨	١	—	٧	٥٣-١٩٥٢
٦٧	٢	٥	٧	١٣	١٦	٩	—	—	٩	٥٤-١٩٥٣
٥٥	٣	٥	١١	٧	٥	١٠	٢	٢	١٠	٥٥-١٩٥٤
٤٣	—	—	٥	١٠	٧	١٢	—	—	٣	٥٢-١٩٥١
٣٣	—	—	١١	٨	٨	٤	—	—	١	٥٣-١٩٥٢
٤٦	—	٦	٣	١٤	١٠	٩	—	—	١	٥٤-١٩٥٣
٤٥	—	١	٧	٨	٩	١٣	—	—	٢	٥٢-١٩٥١
٨٣	—	٤	١٨	٨	٧	٣	—	—	١	٥٣-١٩٥٢
٥٠	١	٥	٦	١٠	٩	٦	—	—	—	٥٤-١٩٥٣
٣١	٢	٥	٨	١	٦	٥	—	—	—	٥٥-١٩٥٤

السويداء									
٣٥٦١-٥٥	-	١	٨	٨	٨	٧	١٨	٣	١
٤٥٦١-٣٥	-	-	٧	٧	٧	٦	٢	-	-
٥٣-١٩٥٢	-	١	٣	٣	٣	٦	٦١	١	-
٣٥٦١-٥٥	-	-	٨	١	٤	٥	٨	٢	٣
٥٥-٥٥	-	-	٨	١	٨	٨	٣	١	١
٤٥٦١-٣٥	-	-	٨	١	٨	٨	٢١	٢	-
٥٣-١٩٥٢	-	١	١	١	١	٨	٢١	٢	-
٥٣-١٩٥٢	-	١	٥	٦	٣	٦	٥	١	-
١٩٥١-٤٥	-	٢	٥	٥	٥	٧	٢	٣	١
٥١-١٩٥٠	-	٢	٢	٥	٥	٧	٢	١	١
٥٠-١٩٤٩	-	-	١	٥١	٠١	٨	٢	٨	٥
قطنا									
٣٥٦١-٥٥	١	-	٣	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٥٥-٥٥	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٤٥٦١-٣٥	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٥٣-١٩٥٢	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٥٣-١٩٥٢	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
١٩٥١-٤٥	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٥١-١٩٥٠	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٥٠-١٩٤٩	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
درعا									
٣٥٦١-٥٥	١	-	٣	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٥٥-٥٥	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٤٥٦١-٣٥	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٥٣-١٩٥٢	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٥٣-١٩٥٢	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
١٩٥١-٤٥	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٥١-١٩٥٠	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣
٥٠-١٩٤٩	-	-	٢	٧	٢	٢	٧	٥	٣

تابع الجدول

هذا وان مقدار ٤٤٠ مم في الشهر المذكور أنفا قد سقطت خلال ١٣ يوماً فقط ، اي بمتوسط يومي مقداره ٣١٧ مم . ويسقط المطر عادة على شكل زخات قوية جداً أحياناً ، وفي مقابل ذلك فإن عدد ايام المطر يكون ضئيلاً . وتبين اللوحة رقم ٧ عدد الايام الماطرة خلال اشهر السنة ، وذلك في بعض المحطات . وتظهر هذه اللوحة ذاتها ان مجموع ايام المطر في العام لا يتجاوز في أية محطة ٦٠ يوماً . ولكن هذا لا يمنع من ان تكون المتوسطات السنوية المطرية مرتفعة نوعاً ما .

ولكي نفهم بصورة أفضل نظام التهطال يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار توزيع الامطار من حيث الكمية بين أشهر العام أو بالاحرى بين أشهر الفصل الربط .

لوحة ٧ أشهر وأيام المطر

أيلول : ويكون المطر فيه عبارة عن استثناء ويهطل غالباً في آخر الشهر . تلك هي عواصف الشمال الغربي أو الجنوب الغربي التي تحملها . وعلى كل فان شطائر المطر تكون هزيلة . ففي عام ١٩٥٤ - ٥٥ نالت القنيطرة ٥ ميليمترات في يومين .

تشرين الأول : وكما هو الحال في الشهر السابق تظهر اوائل المطر على شكل وابل عاصفي ، سيلى ، محدود جداً ، ولا يغطي أكثر من قسم الجولان ، ويكون غالباً متبوعاً بأيام طويلة من الصحو . وعلى كل فان شظيرة الامطار الهاطلة لا تتجاوز ٤ - ٥ مم .

تشرين الثاني : ويرتفع عدد أيام المطر في هذا الشهر الى ٩ أو ١٠ أيام مثلما تزداد كمية المطر الهاطلة تبعاً لذلك . وقد تلقت القنيطرة في تشرين الثاني ١٩٥٣ شظيرة من المطر بلغت ١٦٧ مم في ٩ أيام . ولكن أمطار هذا الشهر تتميز بذبذبات مخلوطة واليكم الذبذبات الكمية التي حدثت خلال أربعة اعوام في القنيطرة بالنسبة للشهر المذكور :

السنة المطرية	الامطار بالملييمتر في تشرين ثاني	الايام المطرية
١٩٥١ - ٥٢	٣٤	٦
١٩٥٢ - ٥٣	٥٢ر٥	٧
١٩٥٣ - ٥٤	١٦٧	٩
١٩٥٤ - ٥٥	٩٠	١٠

ويطلق على امطار ايلول وتشرين الاول وتشرين الثاني تسمية « الامطار الباكورية » وتلعب دوراً عظيماً على مصير المحاصيل الشتوية (شتوي) ويكون استمرارها احيانا اكثر اهمية من كميتها .

كانون الاول . ونكون هنا في قلب الشتاء ، فتحصل زوايع حقيقية بين زمر من ايام الصحو التي تتطابق مع سيطرة هواء قاري آسيوي والرياح الشرقي وفي هذا الشهر يبلغ المطر احيانا مداه الاقصى أي الاوج . وقد نالت القنيطرة في شهر كانون الاول ١٩٥١ مقدار ٤٤٤ مم في ١٤ يوماً مثلما تلقت فيق في الفترة ذاتها ١٩٥ مم (شكل ١٥ و ١٨) ولكن المفارقات بين عام وآخر تكون عظيمة (شكل ١١) .

كانون الثاني : على الرغم من التبدلات الكبرى فان هذا الشهر ينال وسطياً كمية كبيرة من الامطار السنوية . وقد يتساقط الثلج خلاله اكثر من مرة

واليكم توزيع الامطار في شهر كانون الثاني ١٩٥٣ بين بعض المحطات :

المحطة	الامطار بالملييمتر	عدد الايام الممطرة
القنيطرة	٢٩٥	٧
فيق	١٧٣	٧
أزوع	٨٥ر٥	٧
درعا	٨١	٩
قطنا	١٣٨ر٥	٦
السويداء	٧٨ر٥	٧

وقد كان شهر كانون الثاني من العام ١٩٥٣ غزير الامطار وكان يمثل متوسطه الشهري الحد الاقصى لذلك العام في اكثرية المحطات .
وفي ١٩٥٥ كان الشهر ذاته اقل امطارا بكثير في الشهر ذاته :

٥	٨٠	القنيطرة
١	١٢	أزوع
٢	٨٨	درعا
٣	٧	قطنا
١	٧٥	السويداء

انظر الشكل ١٤ - ج ، و ٢٤ ، و ٢٠ ، و ١٩ - آ و ١٧ (آ)

وتكون الفوارق من حيث كمية التهطل ، ومن حيث عدد أيام المطر ، بارزة جداً بين ١٩٥٢ و ١٩٥٣ بالنسبة لشهر كانون الثاني .
واليكم الفوارق التي يقدمها كانون الثاني بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٥

المحطة	الفوارق في كمية المطر بالمليمتر	الفوارق بين عدد أيام المطر
القنيطرة	١٨٥	٢
فيق	١٧٣	٧
أزوع	٣٧٣	٦
درعا	٧٨٢	٧
قطنا	١٣١٦	٣
السويداء	٧١	٦

ولكن ما يبدو مستغرباً حقاً هو الجفاف المطلق في شهر كانون الثاني ١٩٥٥ في فيق إذ لم يسقط على هذه المحطة أية قطرة ماء (شكل ١٩ آ) .
شباط : وهو أكثر الشهور شهرة بشدة تقلبه ، إذ يتبدل الطقس فيه بصورة مشوشة للغاية فيتعاقب الصحو والطقس الماطر على فترة قصيرة ، وبصورة متسارعة جداً . وتكون الأمثال الشعبية معبرة جداً « شباط ماعليه رباط » ويرمون هذا الشهر بافتقاره للنظام . وقد يكون أحياناً أكثر أمطاراً من شهر كانون الثاني . آذار : وقد تصبح فيه الحرارة متقلبة ، ويتقهقر البرد بعد أيام هادئة دافئة . وتكون أمطاره غزيرة حتى لتمثل أحياناً الحد الأقصى السنوي كما في ١٩٣٣ (شكل ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٢ ب) كما يكون عدد الأيام الماطرة فيه مرتفعاً .

وتعتبر أمطار كانون الاول وكانون الثاني وشباط وآذار أمطاراً « في أوانها » أما أمطار نيسان وأيار فهي امطار مؤخرة الفصل « خيرية » أي أخيرة .
 نيسان : وفيه تصبح الايام الباردة أكثر فأكثر ، ولكن عاصفة مطرية واحدة او اثنتين تبدو قادرة على تقديم كمية كبيرة من المطر خلال بضعة ساعات . وتتقارب امطار نيسان في اكثر الاحيان مع أمطار تشرين من شحها وعدم دئتها . وتقع خاتمة الامطار في هذا الشهر .

أيار : من العسير حسابان هذا الشهر من عداد الشهور المطيرة ، ولا يرد للدكتور شفيق صفدي في الامطار الاخيرة فيه أي مدلول هيدرولوجي ، لأن الشريحة المتسربة في الأرض تكون عديمة الأهمية .

بيد أن لهذه الامطار ، ان تساقطت ، أهمية عظمى للنباتات والفلاحين لأنها . « تساوي السكة والفدان » فتأخرها أو انعدامها يدفع الفلاحين الى القلق والقنوط وبالتالي الى أداء صلاة الاستسقاء المعتادة .

وفي الواقع فان هذه الامطار المتأخرة توائم أو تؤذي المحاصيل الشتوية بشكل خطير ، كما ان المحاصيل الربيعية (الصيفي) تتعلق بها بصورة وثيقة .

هذا ولا تكتثر دراسة النظام المطري بالزخات النادرة العابرة التي قد تحدث من عام لآخر خلال الفصل الجاف فهذه الزخات المحدودة الفعل ،

تكون عبارة عن شذوذات تتخذ احيانا أبعاد حدث تاريخي .
ونستشف من خلال توزيع الامطار بين شهور عام ١٩٥٤ صفات النظام
المطري العام وصفات المطر الذي يسقط عرضياً في شهر أيار (انظر
اللوحة ٨) .

أما من وجهة النظر الزراعية فان للتوزع المنتظم على الشهور اهمية تفوق
كمية المطر السنوية . فقد يتعرض الموسم الزراعي الى اضرار خطيرة إذا كانت
الأمطار الأخيرة ، أو أمطار نهاية الفصل ، معدومة ، حتى لو كان ذلك بعد
شتاء كثير الامطار ، كما ان شح مطر كانون الاول يؤدي الى تأخير البذار أو
يقضي على البذار المنثور على الارض ، ذلك لان الحشرات والطيور المهاجرة
التي تأتي بأعداد كبيرة تنقر حبات البذار .

وعلى خلاف ذلك قد تؤدي وفرة الامطار المبكرة الى إغراق الحبوب
المنثورة على الارض المحروثة قبل المطر « بذار العفير » ، ذلك ان كثرتها تعيق
عملية الحرارة التي يجب ان تتم بسرعة بعد تشبع التربة بالرطوبة . هذا
ولا تكون تأثيرات الامطار على الصعيد الزراعي متماثلة في الجولان وحوران .
ففي حوران حيث تكون التربة سميكة جداً فان كمية المنطر هي التي تكتسب
هذه الاهمية الاولى ، ذلك ان تمركز الوابل الغزير في فترة قصيرة لا يؤدي الى
أي أضرار ، كما لا يؤدي انعدام انحسار الارض لتخريب التربة أي
انجرافها ، كما أن انقطاع الامطار خلال فترة طويلة جداً لا يشكل أي خطورة
اطلاقاً . لان التربة السميكة تستطيع الاحتفاظ بالرطوبة ، بعد تشبعها ،
بصورة طيبة حتى استئناف تساقط المطر من جديد .

اما في الجولان حيث تكون الترب رقيقة وفوق انحسار شديد احياناً فإن
الزخات الطويلة قد تؤدي لتخريب التربة الزراعية فوق المنحدرات والى
تغريق المنحدرات في القيعان ، وفضلاً عن ذلك فان هذه الطبقة الرقيقة من
التربة تتجف بسرعة ويجب ان تتعاقب الامطار على فترات متقاربة والا فان
على النبات ان يتعرض الى مصاعب جمة .

وينسب الفلاحون الحصيفون ، من ذوي الخبرة في المؤثرات المناخية ،
ينسبون لتوزيع الامطار في الزمان ولمقدارها ، جودة العام الجاري في الجولان او

في حوران ، فيقولون : ان هذه السنة جولاية ، أي ستقدم موسماً طيباً
ومحاصيل وفيرة في الجولان أو عكس ذلك .

جدول ٨ النظام المطري لعام ١٩٥٤

الشهر	قنيطرة	فيق	ازرع	دعرا	قطنا	دمشق	السويداء
كانون ثاني	٢٧٦	١٧٣	٥٥	٦٦	٦٨	٧١	٧٤
شباط	٢٩١	٧٣٥	١٦٩٥	١٥٤٥	٨٥	٥٥	١٢٥
آذار	٧١	١٤٣	٢٤	١٥٥	٨	١٧	٤٣
نيسان	٩٨٥	—	٣٢٥	٥٦٥	٤٩٥	٢٧	٤٦٥
أيار	٥٥	—	٣	—	٢	٢	—
حزيران							
تموز							
آب							
أيلول	٥	—	—	٨٥	—	٦	—
تشرين اول	٢	—	—	—	—	—	—
تشرين ثاني	٩٠	٦٣٥	٣١	١٣٥	٦٢٥	٦٦	٧٥٥
كانون اول	٣٠٤٥	١١٥٥	٤٧١	٣٦٢	٩٣	٥٤	٤٩٥
المجموع	١١٤٣٥	٥٦٨٥	٢٦٢	٣٥١	٣٦٨	٢٦٩	٤٣١٥
عدد شهور	٩	٥	٧	٧	٧	٨	٦
المطر							
المتوسط	٩٣٣	٤٥٧	٣٠	٢٩٢٥	٣٠٧	٢٥	٣٦٩
الشهري							
متوسط	١٢٧	١١٣٧	٥١٧	٥٠	٥٢٧	٣٧٣	٧٢
الاشهر							
المطيرة							

المتوسّطات السنوية للأمطار :

لا تختلف الأمطار في سورية بصورة عظيمة بين محطة وأخرى فحسب ، بل أيضاً من عام لآخر في المحطة ذاتها وتدل أرقام الأمطار المسجلة في مختلف محطات سورية الجنوبية بصورة واضحة على التوزع متفاوت للأمطار خلال هذا العام الزراعي عام ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .

٤٤٣	أزرع	١٠٨٩	القنيطرة
٣٤٩	قطنا	٦٢٩	ليق
٤٣١٥	السويداء	٤١٧٥	درعا

وتستطيع الخارطة المطرية رقم ٩ ان تعطينا فكرة عامة عن التوزع العادي للأمطار ، ذلك ان شكل خطوط المطر المتساوية يذكرنا لأول وهلة بخطوط الحرارة المتساوية . ولكن تظهر قيم خطوط الأمطار المتساوية أن توزع الأمطار يكون على عكس توزع درجات الحرارة . فالمطر يتناقص من الغرب الى الشرق ومن الشمال للجنوب ، أما الحرارة فتزداد في كلا الاتجاهين العكسيين . وتوجب المتوسّطات السنوية بالطبع الفروق الكبرى التي تكون شديدة الأهمية كلما كانت التهطلات غويرة (انظر الخطوط البيانية) .

هذا ولا تمثل المتوسّطات الشهرية أكثر من قيم مجردة ، كما تكون خداعة أكثر من ذلك ، شأنها في المناطق الأخرى شبه القاحلة في مجال البحر الأبيض المتوسط ، إذ تخفي توزيعاً متفاوتاً بين أشهر السنة ذاتها وبين عام وآخر . وفي الحقيقة تختلف القيمة الوسطى من مكان لآخر بالنسبة للعام ذاته وحسب العوامل التالية .

- التضاريس .
- البعد عن البحر .
- الاضطرابات الجبهية المحلية .

وتظهر من المنحني البياني الدال على تبدلات نظام المطر السنوي في المحطات الاربع أي : القنيطرة ، درعا ، قطنا ، دمشق خلال فترة ١٩٣١ - ٥٤ ، أقول يظهر ان الفوارق تتبع بصورة تقريبية ، الاتجاه نفسه في كل مكان . ولكن القنيطرة تقدم اشد التذبذبات حدة كما لو كانت على علاقة نسبية بالمتوسطات السنوية المرتفعة لهذه المحطة (شكل ١١) .

وتكشف اللوحة التالية عن الفوارق القصوى لكل من هذه المحطات الاربع وهي : دمشق ، قطنا ، درعا ، والقنيطرة .

المحطة	المتوسط السنوي العام	المتوسط الأقصى	المتوسط الأدنى	الوزن المتوي للزيادة	الفروق المتوى بالنقص	الحدود القصوى
دمشق	٢٣٠	٤٠١	١٣٠	٥٣	٤٣	٣
قطنا	٢٨٢	٤١٨	١٣٩	٤٨	٥٠	٣
درعا	٣٠٠	٤١٤	١٦١	٣٨	٤٦	٢٦
قنيطرة	٩١٩	١٣١١	٤٢٦	٤٢	٣٥	٣٠٧

وقد حسبت هذه الفروق بالنسبة للمتوسط العام لكل محطة خلال فترة معينة^(٣٩) . فكانت بالتالي ايجابية بالنسبة للحدود القصوى وسلبية بالنسبة للحدود الدنيا . كما يلاحظ ان الفوارق في السنوات ذات الامطار القصوى تتراوح بين + ٣٨٪ و + ٥٣٪ وان دمشق تستحوذ على الفارق الكبير الايجابي ، أما سنوات الامطار الدنيا فتتراوح بين - ٤٣٪ الى - ٥٣٪ وتقدم القنيطرة اكبر فارق سلبي

ويختلف مدى التذبذبات بين ٢٦ الى ٣٠٧ ، وتختص درعا بأول رقم في حين يخص الثاني محطة القنيطرة ، فهذه المدينة هي التي تتعرف إذن على اكبر التذبذبات في كل سورية الجنوبية .

(٣٩) - وهي الفترة الواقعة بين ١٩٣٦ و ١٩٤٨ ومن ثم حدث انقطاع في الملاحظة استمر بضعة اعوام .

وهكذا تقدم لوحة الفروف إذن ذبذبات مطرية كبيرة المدى . ويكون
هذه الذبذبات بالفعل مدلول هام في المجال الهيدرولوجي ، لأنها تؤثر على
مستويات الأغشية المائية الباطنية وكذلك على نظام الينابيع وبالتالي على
مسارات الشبكة النهرية ، مثلما تؤثر أيضاً على المحاصيل ، وتتعلق جودة
المحاصيل ، او المواسم ، أوردائها بهذه الذبذبات بصورة متفاوتة .

وعليه هل من الحذر في شيء محاولة العثور على قانون لتعاقب السنوات
المطيرة والسنوات الجافة ؟ فلقد حاول المهندس صبحي مظلوم في بحثه
الرائع « حول تحولية الامطار في الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط »
ان يستنبط قانوناً لتعاقب السنوات الجافة والرطبة . ولقد سمحت له طرائق
الحساب المختلفة ان يتوصل الى مركبات من ٢ ، أو ٣ ، و ٤ ، و ٦ ، و ١١ ،
و ٢٢ سنة ، وان يستشف مركبات اخرى تمتد على فترة أكثر طولاً (٦٠ سنة
تقريباً) . غير ان الملاحظات المناخية لا تغطي سوى فترة قصيرة نوعاً ما
(١٩٣٤ - ١٩٥٤) ، كما ان الزمر العديدة الملحوظة في حوران وفي الجولان
لا تسمح أبداً بصياغة دورات ذات ديمومات طويلة (دورات عظمى) .
وتسمح هذه الزمر لنا بأن نلاحظ وجود فترات كانت الامطار خلالها أكثر ارتفاعاً
من الاخرى ، وقد يحدث ان تقع سنة شديدة الجفاف في قلب زمرة رطبة او
العكس من ذلك . ولكن تظهر هذه الدورات المزعومة ، بالفعل ، الطابع
العشوائي للمناخ الذي نحن في معرض الكلام عنه ، أكثر من نظام دوري
يسمح بالتنبؤ عن الطقس لفترة طويلة المدى .

وقد حاول شفيق الصفدي ان يقارب الساعات المتباعدة عن المعدل في
زمر محطتين هما دمشق ودرعا الواقعتين على بُعد يبلغ مسافة ١٠٠ كم الواحدة
عن الاخرى شمالاً وجنوباً .

وقد استنتج الكاتب من المقارنة تداخل دورات متفاوتة في مقادير
أمطارها ، والتي كان ديمومتها غير منتظمة ، ولكنه استنتج أيضاً تشابه
الانظمة المطرية السنوية في المحطتين ولاسيما خلال السنوات المطيرة وهي
١٩٣٩ - ٤٠ و ١٩٤٢ - ٤٣ و ١٩٤٣ - ٤٤ ، و ١٩٤٧ - ٤٨ .

ولما كان الاستاذ شفيق الصفدي مهندساً هيدروليكياً يهتم قبل كل شيء

بهيدرولوجية المناطق البركانية في سورية الجنوبية ، ورغبة منه في تحقيق الانسجام ضمن النظام المطري في كل المنطقة ، فقد أهمل بصورة اعتباطية التهطلات العاصفية في نيسان باعتبار أن هذه الأمطار تكون محلية وغير ذات جدوى من وجهة النظر الهيدرولوجية . أما بالنسبة لنا فإن هذه التهطلات لايجوز اهمالها إذ سبق أن أشرنا أكثر من مرة الى اهميتها من وجهة النظر الى المحاصيل الزراعية ولاسيما بالنسبة للمزروعات الربيعية .
والواقع تقدم الامطار المذكورة كمية مياه منتظمة فقد نالت مختلف محطاتنا في نيسان ١٩٥٤ المقادير التالية :

القنيطرة ٩٨٥ مم	درعا ٥٦٥ مم
فيق ٤٩٥ مم	قطنا ٤٩٥ مم
أزرع ٣٢٦ مم	السويداء ٦٤٥ مم

وبعد أن صحّح الاستاذ الصفدي المتوسطات السنوية قدم حصيلة الدورات المطرية التالية :

الدورات	عدد السنين	السمات الوسطى المثوية في المتوسط السنوي	نوعية المطر
		- +	
١٩٣٠ - ٣٤	٤ -	٣٥	ردئية
١٩٤٣ - ٣٥	١	١٧	جيدة
٣٥ - ٣٦	١	-	ردئية
٣٦ - ٣٩	٣	٣٠	جيدة
١٩٣٩ - ٤٤	٥	-	هزيلة
١٩٤٤ - ٣٥	١	٥٠	جيدة جداً
١٩٤٥ - ٤٧	٢	-	ردئية
١٩٤٧ - ٥٠	٣	٢٥	جيدة
١٩٥٠ - ٥١	١	-	ردئية
١٩٥١ - ٥٤	٣	٣٣	جيدة

ويظهر من هذه الحصيلة تعاقب عشر دورات مطرية جيدة وريثة خلال مدة ٢٤ سنة ، وان مدة الدورة تراوحت بين سنة واحدة وخمسة أعوام ، وكانت تتوزع بصورة غير منتظمة . وسنحاول استخلاص دورات المطر للمعدلات السنوية الحقيقية للأمطار أي دون حذف أواخر الفصل الماطر ، والتي تغطي فترة عشرين سنة بالنسبة للمحطات الأربع وهي : القنيطرة ، قطنا ، درعا ، دمشق . ويمكن ان نستنتج من اللوحة رقم ٩ النتائج التالية :

١ - وجود دورات مطرية جيدة وريثة تتناوب بصورة غير منتظمة في المحطات الاربع المأخوذة بعين الاعتبار .

٢ - لا يكون عد الدورات متماثلاً بالنسبة للمحطات ذاتها خلال الفترة المدروسة ، فهناك ١١ دورة لدمشق وقطنا و٩ دورات تخص كلاً من القنيطرة ودرعا .

بيد أن تطابق الدورات عديداً في محطتين لا يجوز أن يخذعنا لأن مدة الدورة تختلف من محطة لأخرى . ففي عام ١٩٤٠ - ٤١ بدأت دورة جافة في درعا وفي القنيطرة ، ولم تستمر أكثر من عام في القنيطرة في حين استمرت ٤ سنوات في درعا .

ترى ألا يمكننا ان نعز ونسق تعاقب الدورات في دمشق وقطنا الى مناخهما القاري ؟

٣ - تختلف مدة الدورات من عام واحد الى ستة ، وأطولها تخص درعا ولاسيما القنيطرة . ترى ألا يعكس ذلك نوعاً من نظام قابل لأن ننسبه الى مؤثرات بحرية ؟

٤ - وأمام عدم الانتظام في الدورات الملحوظة وعدم كفاية فترة الملاحظة فإننا نرى مع الاستاذ الصفدي بأن من المستحيل علينا تقديم قانون واضح عن تعاقب الدورات المطيرة والجافة في سورية الجنوبية .

لوحة رقم IX - دورات السنين ذات نوعية الامطار الجيدة والردية

النورات	عدد السنين					ساعات + أو -		نوعية الامطار	
	دمشق	قطنا	درعا	القيطرة	دمشق	درعا	قيطرة	قطنا	دمشق
٣٥-١٩٣٤	١	١	١	١	+	+	+	قطنا	دمشق
٣٦-١٩٣٥	١	١	١	١	-	-	-	هزيلة	هزيلة
	١	١	١	١	-	-	-	ردية	ردية
	١	٢	٤	٤	+	+	+	هزيلة	هزيلة
	٣	٤	٤	١	-	-	-	ردية	ردية
	١	١	١	٢	+	+	+	جيدة	جيدة
	١	١	٣	١	-	-	-	ردية	ردية
	١	١	٢	١	+	+	+	جيدة جداً	جيدة جداً
	٢	٢	١	٦	-	-	-	ردية	ردية
	٢	٣	٣	٣	+	+	+	جيدة	جيدة
	٢	١						ردية جداً	ردية
٥٤-١٩٥٣	٢	٣			+	-	-	جيدة جداً	جيدة

التغطيات الثلجية :

نفتقر للملاحظات الرسمية تماماً بالنسبة للثلج في الجولان .
غير أن هذه المنطقة معروفة بشتائها القارس وثلوجها الغزيرة نسبياً . ويتراوح مستوى تساقط الثلج وسطياً بين مرتين وثلاث مرات حسب نظام عشوائي . وفي الواقع يتساقط الثلج عادة في كانون الثاني ، ولكن يسقط أيضاً في شباط وحتى آذار . ففي الشتاء تخضع البلاد أحياناً لرياح قادمة من الشمال ، ناتجة عن أنتيسايكلون مستقر فوق جنوب شرق أوروبا أو فوق الأناضول ، وفي مثل هذا الطقس ذي الرياح الشمالية تحدث أهم تساقطات الثلوج . وتحدث مثل هذه التساقطات الثلجية في الجولان ، وتكون بالطبع أكثر تواتراً في أكثر المناطق ارتفاعاً ولا تستقر إطلاقاً فوق المناطق التي يقل ارتفاعها عن ٤٥٠ أو ٢٠٠ م . ومن الممكن أن نعثر على اختلاف بين شمال الجولان وبين جنوبه في صدد التحدث عن الثلج فيه . فالشمال هو الذي يتعرض لتساقطات ثلجية تتكرر عدة مرات خلال العام . فالي الجنوب من القرية الشركسية « الحشنية » يكون الثلج نادراً وقليل الغزارة . ولكن جبل الشيخ هو الذي ينال أكبر كمية تتراكم على شكل ثلج مرصوص في الحوضات الواقعة في القمة ، وتستقر هذه الكتل الثلجية مدة طويلة جداً ويغذي ذوبانها الصيفي ينابيع السفوح ولا سيما الأنهار والأودية السيلية التي تنشأ في جبل الشيخ . وتحتفظ بعض هذه الأقماع بالثلج على مدى العام كما في جبل الشيخ الذي تظل ثلوجه ماثلة للعيان في الصيف من مسافة بعيدة جداً من جنوب القنيطرة وتوصف أحياناً بأنها ثلوج خالدة .

هذا ويحمي الغطاء الثلجي التربة من الانجماد ويوائم بالتالي النبات العشبي ، كما أن تطاول أمد الثلج يقضي على فئران الحقل واليرقات والحشرات الضارة بالمزروعات . وعلى خلاف ذلك قد يؤدي تطاول أمد الثلج إلى إلحاق الأذى الشديد بتربية الماشية البدائية في المنطقة ، ذلك أن الغطاء النباتي العشبي ، هو مصدر الغذاء الوحيد ، يظل مقنعاً تحت الثلج لعدة أيام ، مما يؤدي إلى هلاك الحيوانات التي أضناها البرد وفقدان الأعلاف .

ويعتبر عدد أيام الثلج وعدد الأيام التي يغطي خلالها الأرض عناصر جوهرية في دراسة المناخ ، ولكن لا تكون هذه الأمور ملحوظة ، في الجولان ، لسوء الحظ ، بصورة رسمية .

هذا وعلى الرغم من البراهين المتعددة عن الفائدة الجغرافية المتعلقة بدراسة التهطالات الثلجية ، ومدة بقاء الثلج ، على الأقل فإنها تكون مجهولة لدينا ، في خطوطها العامة ، في الجولان .

« ويكون البرد ، الذي يتلف في كل عام نواح عديدة في فرنسا ، يكون نادراً في سورية ، إذ لا نجد سوى البرد الناعم والذي يكون أحياناً على قدر لا بأس به من الكبر ، ويتساقط غالباً ، وليس حصراً ، في عواصف شباط ، لأن أذار سيكون شحيحاً بها^(١) . ولا يكون الانجماد نادراً في الجولان ، ولا سيما في الشمال ، وقد اعتاد السكان على ان يجدوا في صبيحة ليلة قارسة البرد لوحاً من الجليد فوق المياه الراكدة على الخصوص^(٢) . وتتجمد قطرات الندى التي تنساب من فوق الاسطحة على شكل نوازل حقيقية ويجد الاطفال متعة كبيرة في اقتلاعها وقضمها بأسنانهم أحياناً .

ويكون الجمد ، وعلى الاخص تعاقب الجمد والاعلال ، ضاراً بالنباتات . فهو يمنع الحيوانات من الرعي ، وذلك على الاقل في الصباح قبل ان يتم انحلال الجمد .

الندى أو التكاثفات الخفية

لقد أشرنا في معرض كلامنا عن الرطوبة النسبية الى ان لهواء الجولان درجة رطوبة نسبية مرتفعة نوعاً ما بتأثير الرياح البحرية التي تتعرض لها المنطقة . وقد لاحظنا أيضاً كفاية التبرد الليلي لتكثيف بخار الماء الموجود في الهواء مما يوفر للتربة اكثر من لتر واحد من الماء لكل متر مربع . ويكون الندى وفيراً مما يكفي لانسياحه من فوق اسطحة المنازل ولتشكيل خيط من الماء عند فتحة الميازيب .

40.. Ch. Combier, précité, P.326

(٤١) - لا توجد احصاءات تتعلق بعدد أيام الانجماد في الجولان .

وينظر الناس الى الندى على أنه خير وبركة على خلاف الحمد ، إذ لولاه لكانت ترب الجولان اكثر قحولة كما ستكون المزروعات الصيفية ، وعلى الخصوص الكرمة ، مزروعات أقل انتاجاً نوعاً وكماً . ويكون الندى غزيراً كلما كان الاشعاع الليلي أكثر حدةً ، ذلك ان هواء البحر الرطب يطلق شطراً من بخار مائه عند التماس مع السطوح المتبردة .

ويصطدم الضباب ، بل وحتى السحب الليلية ، بالمخاريط البركانية ، رغم ضآلة ارتفاعها ، وتحجب قممها حتى بزوغ الشمس التي تعمل على تبديدها . ومن هذا جاءت شهرة تل ابو الندى والندى هو الذي منحه اسمه .

وتكون قطرات الندى شديدة التبدد اذ تتبخر بمجرد بزوغ الشمس . ويسارع الفلاحون في الصباح للقيام بالحصاد قبل تجفف القش المبلل بالندى . ويعتقد الفلاحون ان الندى يسهل تكاثر بعض انواع الحشرات من آكلات الاعشاب والضارة بالمحاصيل كما ينسبون اليها اسوداد الثبن وقش اسطحة الاكواخ والخضار^(١)

ويقول آبل أن الاحبار يعرفون الندى المؤذي الذي يسود الثبن وسقوف اكواخ القش ، بيد أن زعمهم يستند في هذا الموضوع على وقائع اسطورية^(٢)

الجفاف وقرينة القحولة

تري كيف يعتبر الجولان بلداً جافاً مع متوسط سنوي يبلغ ٩١٩ مم من المطر في القنيطرة و ٤٤٤ مم في فيق ؟

١ - نظراً الى كون المناخ هو من نمط متوسطي (رومي) فهذا يفسر الجفاف المطلق لعدة شهور من السنة .

٢ - ان الحر الذي لا يهادن خلال ٦ شهور متعاقبة يسهل تبخر المياه مباشرة ، أو بصورة غير مباشرة ، وذلك بتنشيط التبخر التحي لى النباتات .

(٤٢) - وهي ملاحظة صحيحة في قرى فتحة حمص طرابلس (المعرب)

43.. Abel. précite P.134

٣ - ان عدم انتظام التهطال يوائم على التبخر* ، فهطول مطر شديد وعاصفي متبوع بريح شرقية يكون أقل مواءمة للارض بكثير من مطر هاديء مصحوب بطقس معتدل البرودة وغائم .

٤ - وأخيراً فإن نفاذية الصخور البركانية تسمح بتسرب سريع وبذلك يقتنص المياه السطحية . وهكذا تكون الارض عرضة للقحولة . ولكن ما هي درجة القحولة في الجولان ؟

ويحدد عمانوئيل ديمارتون قرينة قحولة المناخات بصيغة مستندة على العمل المتضافر لعاملين مرتبين ومحققين ، وهذه الصيغة كما نتذكر هي التالية

$$Q = \frac{T}{T + 10}$$

Q = قرينة القحولة . T = متوسط الامطار السنوية بالمليمتر . ح = الحرارة الوسطى بالدرجات .

واستناداً الى هذه الصيغة استطاع شفيق الصفدي ان يحسب قرينة القحولة في ست محطات لفترة ١٩٤٣ - ٥٤ :

دمشق ٨٦ ، قطنا ١٠٢ ، درعا ١٠٥ ، أزرع ١١٥ ، قنيطرة ٣٥ .
وقد اعطت حساباتنا الخاصة قرينة قحولة مقدارها ٣٧ بالنسبة للقنيطرة . ويعود هذا الاختلاف الى عدم تطابق المصادر الاحصائية . وهكذا نلاحظ ، اذا اتفقنا مع ديمارتون في أن حد الجفاف هو قرينة ٢٠ ، ان المناخ هو قاحل في كل المناطق البركانية في سورية الجنوبية ، باستثناء الجولان الذي يعتبر رطبياً نسبياً .

خامساً : تبدلات المناخ

تعتبر تبدلات المناخ مؤكدة خلال البليثوستوسين في الشرق الاوسط العربي . ولا يمكن نكران تأثيرها في مختلف مشاهد هذه المنطقة . « أن القول بأن المناخ كان احياناً أكثر رطوبة ، وربما اقل حرارة ، فهذا ما لا يمكن نكرانه ، ولكنه لا زال من العسير اقتراح استنتاجات عامة » (درش) .

(٤٤) لقد تم قياس شدة التبخر فقط على ضفة بحيرة مسعدة . وقد انبسطت مهمة قياس ذلك الى معلم مدرسة القرية وكانت النتائج مغلوطة . .

وفي الحقيقة يسلم الجميع بأن الأوضاع المناخية قد تغيرت ، ولكن ن . شالم ينكر حتى وجود « عصور مطيرة » ويذهب في القول الى ان التحولات الملحوظة خلال البليثوستوسين لا تفسر الا بحركات الارض ، وتطور التضريس والهيدروولوجيا ، وتأثير الانسان ، ويمكننا ان نفهم من حججه بأن الاوضاع النوئية العامة لم تتعرض لتحولات عميقة ، ولكن ليس بمقدورنا أن نستخلص منها بأن المناخ ظل ثابتا دونها تغيير .

زقد امكن التعرف ، في سائر الامكنة ، على « مطيرين » على الاقل مهما كانت الاسباب ، تناوبا مع فترتي جفاف ، وتناوبات في الحرارة ايضاً ، كانت على العموم اكثر حراً ، ولكنها احيانا اكثر برودة . (١٠)

وتكون الحجج التي تدعم نظرية التبدلات المناخية عديدة ، ونستطيع ان نقدم عنها الحجج التالية :

١ - لا يمكن تفسير التحيزات العملاقة في الاودية الرافدة لنهر الاردن مثل وادي السمك ، ووادي المشبك ، نهر اليرموك ، وادي الرقاد ، ووادي العلان بانخفاض مستوى الاساس فحسب ، إذ يقتضي الامر وجود ماء اكثر للقيام بحفر مثل هذه الاودية .

ومن ناحية اخرى فإن الجلاميد الكبرى المستديرة التي تظهر في السريبر الاصغر في سافلة وادي النيم والأودية الاخرى لا يمكن اعتبارها على انها منقولة بالمياه التي تجري فيها حالياً حتى في فترات الفيضانات ، ذلك ان شكلها يشهد ايضاً على انها منقولة من مسافات بعيدة .

٢ - ان الاشكال الكارستية الموجودة في جبل الحرمون ، رغم بساطتها ، والتي لم تحظ حتى الان بدراسة دقيقة ، لا يمكن تفسيرها دون اقتراض وجود مناخ قديم اكثر رطوبة .

٣ - كما تبدو الفرضية ذاتها ضرورية لتفسير تفسخ صخور البازلت الميوسينية والبليوسينية في حين لا زال البازلت الرباعي سليماً مثل لابات « الوعرة » كما ان التربة الكستناوية العميقة في منطقة الزوية ، وهي مستحاثات بلاريب ، هي

من جملة الشواهد على فترة رطوبة من المناخ القديم .
 ٤ - هناك عدة باحثين يعتقدون بأنهم عثروا على اشكال من حث جهودي في جبل لبنان وحتى في جبل الشيخ وهذا لا يفترض وجود فترة مطيرة ، بل وجود فترة مطيرة كانت باردة .
 ٥ - في المناطق ذات التضريس الجسيم كان من الضروري ان يكون للأودية حتى القليلة الأهمية ، قدرة على النقل وكذلك حمولة اكبر بكثير ، وذلك عندما تتأمل مخاريط الانقراض المتراكمة .

وهكذا تبدو بعض السفوح وكأنها مستحاثات جزئيا عند قاعدتها ، وهذا ليس بالنسبة لوادي الاردن وحده بل كذلك في الاودية الرافدة .
 ٦ - ولقد كان الجولان حتى عهد قريب منا مستورا بغابة لا بأس بكثافتها والتي تسمح بقيائها باستعادة تصور الغابة البدائية . ولا تعود الاشجار المقطوعة للإنبات من جديد ابداً تحت المناخ الحالي ، أو تعود أصغر حجماً من سابقتها . ولقد نمت الغابة الاصلية تحت مناخ مختلف ، وبالتأكيد أكثر رطوبة .
 ٧ - دلت الأبحاث التي تمت في منطقة الازرق ووادي السرحان على ان مستوى الاغشية المائية الباطنية قد هبطت بنحو ستة اقدم منذ العصر الروماني^(٤٦)

ويعود هذا الانخفاض الى جنوح المناخ نحو الجفاف
 ٨ - وقد افترض بعض العلماء ايضا ان المناخات « المطيرة » قد امتدت حتى فجر الازمنة التاريخية . فوجود اطلال المدن والقرى ومشاريع الري والآبار الجافة مثل : نعران ، كفر نفاخ ، قنيطرة الخراب ، في أمكنة مهجورة ساعد على دعم بعض الحجج .
 ويعتقد الاستاذ ج . ابراهيم مع كويتاني cuetani ان الانسان بتخريبه الغابة عمل على استفحال يجفاف المناخ .

(٤٦) م . ح . ابراهيم . «مناخ البلاد العربية بين الماضي والحاضر» مجلة المعلم العربي . دمشق .

٩ - ويفسر المؤرخون تعدد هجرات القبائل العربية الجنوبية في حقبة ما قبل الاسلام باتجاه الشمال بجنوح المناخ نحو القحولة ولا سيما في جنوب شبه جزيرة العرب .

ومع ذلك فإن م . شالم قد برهن بأن المناخ لم يتبدل في فلسطين ، على الخصوص ، منذ الالف الثالث . وهذا يمكن تعميمه على المناطق المجاورة لفلسطين بما في ذلك الجولان .

ولقد أشرنا في معرض كلامنا عن المخاريط البركانية ذات الرماد في آخر مرحلة بركنة ان الرياح التي وضعتاكداس الرماد هذه وحددت اتجاه انشداق البراكين لا تزال تهب على منطقتنا دون تغيير في اتجاهها :

الفصل الخامس هيدرولوجية الجولان

١ - أهمية الماء في الجولان

من السهل فهم الأهمية القصوى التي يتبوأها الماء في البلدان الحارة والجافة في الشرق الأوسط العربي ، كالجولان ، الذي تشويه الشمس ، وذلك على الأقل ، خلال الفترة الجافة والحارة من العام .

بيد أنه رغم أهمية الماء الحاسمة والمصاعب الخطيرة التي تنجم عن عدم كفايته في العديد من الأمكنة المأهولة في سورية ، ولاسيما في حوران ، فإن الدراسات الهيدرولوجية لم تبدأ إلا في تاريخ متأخر جداً

ولكن في عام ١٩٣١ فقط أخذ ف. فرولو Frolov بزمام المبادرة للبحث عن المياه الباطنية في حوران فأجرى ثلاث وأربعين عملية سبر ولاحظ معظمها بنفسه ، من أجل تحديد السطح المعصاري (البيزومتري) ، وبرهن على وجود علاقة وثيقة بين الشبكة الهيدروغرافية وبين السطح المعصاري ولاسيما في النطاق الواقع إلى الغرب من نهر الأهرير والممتد حتى قدم جبل الشيخ .

وقد اهتم لويس دوبرتريه من خلال دراسته للمناطق البركانية في حوران وجبل الدروز وديرة التلوه بهيدرولوجية هذه المناطق البركانية . وفي عام ١٩٣٣ قدم أثناء معالجته « هيدرولوجية وهيدروغرافية سورية ولبنان في علاقاتها بالجيوولوجيا » وصفاً موجزاً عن نمط استقرار المياه الباطنية في حوران وابتداء من عام ١٩٥٢ بدأت الدراسة الهيدرولوجية المفصلة والمنهجية في حوران بجهود د. ج. بوردون ومعاونيه شفيق الصفدي . ولما كان الأول

) L. Dubertret. Rev. de géol. Phys et de géol. dyn. vol.. Fasc.4. Dec 1929

2) Ibid. vol. 3. fasc.4. 1933

جيولوجياً في المياه الباطنية من منظمة التغذية الدولية (فاو) فقد نشرت دراسته بواسطة المنظمة ذاتها التي يقع مقرها في روما . أما الثاني فقد توج دراسته وتجاربه الميدانية بأطروحة رائعة قدمها لكلية العلوم في باريس عام ١٩٥٦ بقصد الحصول على دبلوم مهندس دكتور .

٢ - الموارد الهيدروليكية ودرورة الماء

تبدو الموارد الهيدروليكية في سورية متعددة وذات ثراء لا محدود ويتمثل اهمها بالمياه الجوية التي تهطل على شكل مطر وثلج وندى . غير ان تقدير هذه الثروة ذات الاصل الجوي قد جرى بصورة مختلفة فيقدرها صبحي مظلوم بمقدار ٥٠ مليار متر مكعب في عام ذي امطار متوسطة في حين يقدرها محمد السيد ايوب بحوالي ٤٣ مليار متر مكعب في عام متوسط . .

غير ان ايوب^(١) يرفع الرقم الذي يمثل الثروة الهيدروليكية العامة بعد حساب الموارد الهيدروليكية الاخرى في سورية الى ٥٥ مليار متر مكعب في العام . ترى ماهي حصة الجولان من هذه الثروة ؟

ويجب ان نشير ، منذ البداية ، الى ان المورد الوحيد تقريباً يكون هنا ، هو الماء الجوي ، اذ لم يمكن بعد قياس الماء الذي تقدمه ينابيع الجولان المختلفة سنوياً . وقد سمحت لنا حساباتنا بتقدير الماء الجوي الذي تتلقاه منطقتنا في خلال عام ذي امطار متوسطة بمقدار ١٢ مليار متر مكعب . وهكذا تكون حصة الجولان هامة اذن ، لانه يتلقى فوق مساحة تعادل واحد ن تسعين من مساحة البلاد مقدراً من الماء يعادل واحداً من ٤٢ من تهطلات هذا القطر . غير انه لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الماء المتوفر لاستعمال السكان فان منطقتنا تبدو شديدة الافتقار للماء .

٣ - شفيق الصفدي . سبق ذكره

٤ - محمد السيد ايوب « المياه الباطنية في سورية » ٨ - ١١ أيلول المؤتمر الثالث

للمهندسين العرب .

ولتفسير هذه المفارقة يجب ان نعرف ماهو مصير الماء الجوي عند بلوغه سطح الارض ، وهذا يعني ان علينا ان ندرس دورة الماء .

دورة الماء في الارض :

ان كل الماء الذي يصل الى الارض لا يخضع للنتائج ذاتها فهناك قسم يتبخر ويعود للجو ، وقسم ثان يتسرب في الصخور المنفذة ، وقسم ثالث ينجو من الظاهرتين السابقتين كي يأخذ طريق السبلان السطحي . وهكذا يكون علينا ان ندرس هذه الظواهر الثلاث ، كلاً على حدة وتوزع الماء فيما بينها .

١ - التبخر :

تستأثر هذه الظاهرة ، بتأثير عديد من العوامل وتأثير أشكال مختلفة ، بنسبة عالية جداً من التهطال . وتكون الحرارة هي العنصر الرئيسي في هذه الظاهرة . ولن مهما كانت اهمية التبخر الكموني فان كل الماء لا يتبخر لأن نشاط هذه العملية يظل مكبوحاً لأن التهطالات تكون مركزة شديدة وتحدث في فصل بارد نسبياً ، والواقع يتم التبخر حسب طرائق ثلاث :

أ) التبخر المباشر :

وهنا تلعب الحرارة الدور الرئيسي ومن ناحية اخرى فان هناك ثلاثة عوامل تكون ايضاً مؤثرة لذلك :

- التغميم : قيم ضعيفة ، كما قد تكون معدومة خلال بضعة اشهر من السنة .
- الرياح : أوبالاحرى ، سرعته ، وتكون هذه مرتفعة لدرجة كبيرة خلال الفصل الماطر .

- تعمق المجاري المائية في سافلة بعض الاودية : مثل الرقاد والعلان واليرموك . فالتعمق يحول عموماً دون التبخر ولكن المياه تكون غرضة للتبخر في عالية هذه الاودية ذاتها وكذلك في الاودية الثانوية الاخرى .

ب) التبخر المباشر :

- ونقصد بها المياه التي تصعد نحو السطح بتأثير الحرارة والخاصة الشعرية . وفي الواقع تجد هذه الظاهرة في مناطقنا شبه المدارية شروطاً طيبة .
- فالمتوسط السنوي مرتفع .

- كما تكون بنية وطبيعة الترب موائمة لتساعد المياه الباطنية بالخاصة الشعرية .

- تنتشر الاغشية البثرية Phraefique على مساحة كبيرة وعلى عمق قريب نوعاً ما .

جـ (التبخر النتحي النباتي :

يلعب النبات دورين متناقضين ، فمن ناحية يمنع بواسطة ظله التسخين النهاري للتربة ، ومن ناحية اخرى يسبب خسائر كبيرة بتعرقه ذاته . وتكون حصيلة هاتين الظاهرتين المتنافستين عسيرة التقدير للغاية .

ويوضح د . ج بوردون أهمية التبخر النتحي باعطاء قيم عديدة . فتبلغ النسبة لعامة في حوض اليرموك قرابة ٨١٪ من التهطالات ، وتختلف هذه النسبة من مكان لآخر ، ففي مساحات مغطاة بلابة فوضوية رباعية وعديمة الصرف « مساحات ذات صرف ناقص النمو » يهبط الى ٨٠٪ وفي المناطق ذات الصرف المحجوز 'bloque الى ٧٧٪ وفي مقابل ذلك تصعد النسبة الى ٨٢٪ في مناطق الصرف الحر في حوض اليرموك او Open drainage . ويجدر بنا ذكر الاختلاف الكبير بين نسب التبخر لدى كل من بوردون ومظلوم حيث تكون ٨١٪ / ٨٠٪ من ناحية وبين النسبة لدى ايوب ٢٥٪ من ناحية اخرى .^(٥)

٢ - الجريان :

ان شطر الماء الذي يبقى بمنجى من التبخر ومن التسرب لباطن الارض هو الذي يجري . وتكون العوامل التي توائم السيلا ن عديدة وسنذكر البعض منها :

- نظام الامطار : يكون المطر احياناً شديد التمرکز في الزمان ويسقط على شكل زخات عنيفة تأتي بكمية كبيرة من المياه التي يبدأ قسم منها في الجريان

(٥) لايعطي أيوب معلومات كي يمكن التثبت من حسابه .

(المترجم) لايمكن بحال من الاحول قبول رقم ٢٥٪ ربما يعود هذا لخطأ مطبعي

تتاب يزخر بالكثير من أمثال هذه الغلطة .

فوراً ، فتتهمر خيوط الماء ومسيلاته الصغيرة من المرتفعات باتجاه النقاط الواقعة في الاسفل .

- الحرارة : يكون المتوسط العام على العموم مرتفعاً نوعاً ما ، لكنها تنخفض بشدة في الشتاء ، فصل الامطار ، ويستفيد الجريان من ذلك على حساب التبخر .

- نفاذية الصخور : وتتألف هذه في معظمها من صخور البازلت ، وتكون صخور الحرمون منفذة لدرجة كبيرة بسبب التشقق الذي يعتري هذه الصخور الكلسية . وهذا ما يساعد التسرب على حساب الجريان .

- الطبغرافية : وتكون هذه عاملاً مساعداً على الجريان وتتجه المياه بسرعة سالكة المنحدرات الشديدة الى حد ما باتجاه الغرب وشرق وجنوب الجولان .
النبات : تكون الاجزاء الحراجية محدودة بالموازنة مع مساحة الجولان ، كما يكون الغطاء العشبي ميثاً اوقليل النمو خلال القسم الاعظم من فصل المطير . وفي مثل هذه الحالة لا يعترض النبات عملية الجريات بصورة تستحق الذكر .

وما يجدر ذكره ان هذه العوامل تكون موائمة للجريان في الوقت الذي تكون فيه غير موائمة للتبخر والتسرب والعكس بالعكس .

ويكون معدل الجريان لكل حوض اليرموك في حدود ٩٪ من التهطالات استناداً الى تقدير بوردون ، بيد أن النسبة العامة تختلف من منطقة لأخرى حسب طبيعة الصخور وحسب طبيعة الصرف . وهكذا سنحصل على النسب التالية :

- ١٧٪ من الامطار في المساحات المؤلفة من صخور رسوبية والتي يكون صرفها متجهاً نحو الخارج .

- ٨٪ من الامطار في المساحات المؤلفة من البازلت والتي يكون الجريان فيها مغلقاً او محجوراً .

وتهبط النسبة الى الصفر في المساحات الفوضوية فوق اللابات الرباعية حيث لم يتشكل بعد أي جريان منتظم كما في منطقة « الوعة » .

وينعدم الجريان لأن برودة السطح الفوضوي لا تساعد على تجمع الماء واتجاهه في الاتجاه ذاته . ونرى في هذه المنطقة مع ذلك خيوط الماء وهي تسير بصورة انفرادية دون ان تتمكن اطلاقاً من التجمع . وهكذا يرقد قسم كبير من الماء في حوضات صغيرة تكون قيعانها كتيمة نسبياً لوجود جزيئات تسد الشقوق . وتكون هذه المياه الراكدة معرضة للتسرب بنسبة ٢٠٪ وللتبخير بنسبة ٨٠٪ . وتبقى هذه البحيرات الصغيرة احياناً حتى نهاية الربيع وتكون عديدة ومرئية في الوعرة قرب سعسع ، وعلى طريق الفينطرة - دمشق .

٣ - التسرب :

لقد ذكرنا في معرض الجريان معظم العوامل التي تؤثر على التسرب ، ونعني بذلك الحرارة ونظام الامطار ونفاذية الصخور والطبغرافية والنبات . غير اننا سنعالج هنا عاملين :

- سقوط وذوبان الثلوج : يتساقط الثلج في منطقتنا سنوياً عدة مرات ولا سيما في القسم الشمالي وجوار جبل الحرمون . ويكون استمرار الثلج على درجة من الاهمية لا تقل عن الكمية الساقطة ، فالمياه التي تصدر عن ذوبها البطيء تتسرب بصورة اكثر نفعاً . وتغذي الذوبان السريع اساساً المسيلات الصغيرة وسيول الاودية .

ويعرف الفلاحون ذاتهم ، بشكل جيد ، ان الينابيع ستتغذى بصورة افضل اذا تناول امد الثلج .

- نفاذية الصخور ، « تناسب الترب التي تغطي الهضاب البازلتية ظاهرة تسرب المياه ، لان هذه الترب ، رغم كونها غضارية ، تفتقر للتأخذ ، فهي تتبلل كأنها اسفنجية وتمسك بالماء فوق الشقوق مما يسمح بتسرب بطيء . وتتدخل مخاريط الخبث في الاتجاه ذاته . ويقود البحث عن مناطق التسرب ، التي تغذي ينابيع كتلة جبل الدروز ، يقود دائماً الى هضاب مغطاة بالترب او الى مخاريط الخبث »^(١)

6. L.Dubertret. Etude des régions volcaniques. précite: P:305

بيد ان جريان الماء باطنياً يصبح بطيئاً لان المياه ذاتها تجلب غضاريات وعناصر اخرى دقيقة « فتسطم » بالتالي ، شقوق البازلت . وتبلغ النسبة العامة للتسرب في حوض اليرموك ١٠٪ من التهطالات ، وهذا حسب تقدير بوردون وتهبط الى ١٪ في مناطق الصخور الرسوبية وذات الجريان او الصرف المفتوح ، ولكنها تصعد الى ١٥٪ في المناطق البركانية ذات الصرف المحجوز والى ٢٠٪ في المساحات الفوضوية المؤلفة من مسكوبات حديثة رباعية .

٤ - الحصيلة الهيدروليكية :

إن هدف إقامة هذه الحصيلة هو تحديد مقادير ماء التسرب في الارض للاتحاق بالاحتياطات المخزونة في الاغشية البثرية Phraétiques . وهو حساب يستند مبدئياً ، على المتوسط السنوي من ناحية ، وعلى ثلاث ظاهرات رئيسية وهي : التبخر والجريان والتسرب من ناحية أخرى . ويرى صديقنا شفيق الصفدي : ان إقامة حصيلة كهذه هي مسأله حرجة للغاية بالنسبة لخوران ويجب توقع هامش سلامة اكبر للتوصل الى نتائج مقبولة .

بيد أننا سنعمد الى إقامة هذه الحصيلة الهيدروليكية وذلك بالاستناد على حساباتنا الخاصة وبواسطة معدلات مختلفة قدمها الدكتور بوردون . وقد قدّمنا في مكان آخر قيمة الثروة الرئيسية للجولان من الماء الجوي في عام ذي امطار متوسطة أو ١٢ مليار متر مكعب ، يفقد منها مقدار ٩٧٢ مليون متر مكعب بالتبخر . وإذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى مياه الجريان والتسرب القابلة للاستعمال من قبل الانسان مباشرة او بصورة غير مباشرة ، فان الثروة السنوية من المياه المتوفرة تكون بحدود ٢٨٨ مليون متر مكعب من الماء . ولما كان التّموين الفردي بالماء بمعدل ١٠٠ لتر يومياً^(٧) ولما كان عدد السكان ١٠٠٠٠٠ نسمة ، فان تموينهم يتطلب ٣٦٦ مليون متر مكعب من الماء سنوياً او ٣ بالالف فقط من الثروة العامة أو ١٪ من الماء المتوفر .

ويتطلب ري هكتار واحد من الارض وسطياً ١٢٠٠٠ متر مكعب من الماء في العام (عن مظلوم) . ولو كان حجم الماء المتوفر disponible مخصصاً

(٧) تقدير مدير القوى المائية والري بدمشق

للزراعة فان ذلك سيسمح بري مساحة تبلغ ١٨٦٦٦ هكتاراً . غير ان المساحة المروية في الوقت الحاضر لاتتجاوز اطلاقاً ١١٥٠٠ هكتاراً في كل الجولان .

وهناك واقع يجب ان نتذكره وهو ان المناطق البركانية في سورية الجنوبية تبدو ، ضمن الوضع الحالي للأمور ، فقيرة بالمياه القابل للاستغلال ، وهكذا تجري محاولة لاستغلال الموارد المائية المتوفرة على الشكل الافضل . وهكذا يكون من الضروري ان نعرف بادية ذي بدء الاوضاع المناخية والجيولوجية المتحكممة في تخزين مياه التهطالات .

ثالثاً- العلاقات بين المناخ والجيولوجيا والهيدرولوجيا

١- الشروط المناخية :

هناك ميزة جوهرية للمناخ الرومي وهي انقسام السنة الى فصلين متفردين كثيراً ، الاول حار وجاف ، والآخر بارد نسبياً ورطب . وهكذا لا تتركز الحياة كلياً خلال نصف العام ، وحياتاً خلال ربعي او ثلاثة ارباع السنة ، على المياه الجوية ، بل على احتياطي باطن الارض بالمياه . والواقع يكون الصيف فصلاً غير موثماً اطلاقاً للمياه الجارية والينابيع وللآبار ، وذلك نتيجة الحرارة المرتفعة والتبخر الشديد . وقد قاس لوريس دوبرتريه في ٢٥ آب ١٩٢٨ في حوض مفتوح ، واقع على ارتفاع ١٣٠٠ م ، على السفح الجنوبي لجبل الدروز ، قاس مقدار التبخر اليومي البالغ ٨ ملمترات . ويشير هذا الرقم المنعزل لشدة التبخر في هذه البقاع والجفاف الذي ينجم عنه . وهكذا تنقطع مجاري الماء ذات الصبيب الضعيف . اما تلك التي لها صبيب اكثر قوة فتكون في حالة الشح ، وتكون عالية نهر الرقاد جافة تماماً ، ويحتفظ القطاع الاوسط ببعض الحوضات المنفصلة المليئة بالمياه ، ولكن يجري خيط من الماء ضئيل الاهمية في السافلة فقط .

وعلى العموم ينخفض صبيب الينابيع وينضب معين العيون الضعيفة وتطرح مشكلة مياه الشرب بالنسبة لعدد من القرى التي يقصد سكانها القرى

المجاورة طلباً للماء . وينخفض مستوى المياه في الآبار ويعتمد الناس أحياناً لتعميق آبارهم أكثر . ولكن هذا التعميق لا يقود دوماً الى الماء . وتقع الفترة الحرجة بالنسبة للهيدرولوجيا في نهاية الصيف وفي بداية الخريف . وابتداءً من ايلول تصبح رطوبة الجو مرتفعة نوعاً ما وتتجلى على شكل ندى سخي يبلل سطح التربة والاعشاب اليابسة . ويأتي الندى بالواقع لنجدة الحيوانات الجائعة والظمأى والتي تستغي عن الماء بقضمها الاعشاب والقش النديين وفي الوقت ذاته يزداد صبيب الينابيع الدائمة نسبياً . ولكن لتذكر المثل الشعبي الذي يقول : « بين تشرين وتشرين صيف ثان » الذي ينطبق على أزمة هيدرولوجية ثانية . ولحسن الحظ لا تدوم هذه الفترة الحرجة الثانية مدة طويلة هذه المرة لان الامطار تأتي من نهاية تشرين الثاني لوضع حد لهذه الفترة . وابتداءً من بداية كانون الأول ، حيث تكون في قلب الفصل المطير ، يتساقط الثلج بضع مرات ويغطي مساحات هامة . ويغذي ذوب الثلج الينابيع على نطاق واسع .

والواقع تصبح مجاري الماء من الآن فصاعداً مليئة بالمياه . فنهز الرقاد مثلاً لا يعود ابداً شبيهاً بواد جاف في الصيف . ويفيض في الشتاء ويسكب كتلاً ضخمة من الماء التي يجمعها من السفوح الجنوبية والجنوبية الشرقية لجبل حرمون ومن الخاضرة الشرقية للجولان . وينقل بفضل موجاته القافزة جلاميد صخرية كبيرة جداً ويحملها حتى مجراه الاوسط . بيد ان الينابيع لا تعود لصبيبتها الا في وقت متأخر لأن خزانات المياه المتفرغة خلال الصيف لا تمتلئ بعد اوائل الزخات ، كما يحتاج تسرب المياه البطيء ، لبعض الوقت كي يدرك نقاط تدفقه من جديد .

ويحصل الصبيب الاقصى في الحقيقة ، في بداية الربيع ، ويرشح الماء من كل مكان على هيئة ينابيع وقتية . وتنحبس الامطار في نيسان ولك يستمر الندى مع ذلك . وابتداءً من أيار يصبح الصحوسائداً ، ويستفحل الجفاف ، وبذلك نكون في قلب الصيف . ونستطيع ان نستنتج مما تقدم وجود علاقة وثيقة بين نظام المياه وبين نظام الامطار ويستدعي كل منها الآخر . فيتطابق الصبيب الاقصى مع الفصل الماطر وفترة الفيضان الوحيدة ، باستثناء

الرفاد الذي يشهد فترة زود ثانية تنطبق على ذوب ثلوج جبل الشيخ . ولكن الصيف ، على العكس ، هو الذي يتعرض للصيب الأدنى ، وبالتالي ، لفترة الشح ، الوحيدة طبعاً^(٨) . هذا ولا تكون العلاقة بين نظام الامطار وبين مستوى الاغشية البثرية أقل وضوحاً . وتكون الذبذبات الفصلية لهذا المستوى ملحوظة بشكل جيد ، وذلك حتى من جانب الفلاحين ، لان منسوب آبارهم العامة والخاصة ينخفض بشكل كبير في فصل الصيف .

هذا وتخضع الاغشية المائية الباطنية فضلاً عن تلك الذبذبات الفصلية ، الى ذبذبات أخرى ، سنوية أو بين فترة زمنية طويلة واخرى ، والتي لا تكون في الواقع اكثر من انعكاسات لذبذبات تتصف بها تهطالات منطقتنا .

ويصعد مستوى المياه الباطنية باتجاه السطح خلال سنة واحدة او اوعدة سنوات ذات امطار طيبة ، ويمكن ادراك مستواها بسهولة من جانب الذين يحفرون آبارهم في تلك الفترة ، واذا تدخلت فترة امطار شحيحة تنضب الآبار ذاتها . واذا عمد البعض الى تعميق آبارهم بقصد اللحاق بمستوى الماء المنخفض ، واذا لم يكن لدى الآخرين الوقت والوسائل لحفر المزيد في آبارهم ، فان هؤلاء الاخيرين يجدون آبارهم مليئة خلال الفترة التالية ذات الامطار السخية . ويجدر بنا اتمام هذه اللمحة الموجزة عن العلاقة بين المناخ والهيدرولوجيا ببعض الاشارات الى الطبيعة الليتولوجية للسطوح المروية ، وبشكل ادق ، الى درجة نفاذيتها .

وباستطاعتنا ان نميز ، في هذا المجال ، مناطق الصخور البركانية عن مناطق الصخور الرسوبية لأن الميزات الهيدرولوجية لهذه ولتلك ، وكذلك سلوكها تجاه المياه ذات المنشأ الجوي لا تكون هي نفسها اطلاقاً .

(٨) الشح ويقابل كلمة efiag بالفرنسية او التحاريق في مصر والصيهود في العراق ، اي المنسوب الأدنى للنهر .

٢ - الشروط الهيدرولوجية في مناطق الصخور الرسوبية

ينحصر ميدان دراستنا من الشمال ، كما سبق وعرفنا ، بسفحي حرمون الجنوبي والجنوبي الشرقي ، ذلك الجبل المؤلف أساساً من كتلة هائلة من صخور رسوبية ، وتكشف هذه أيضاً في بقاع مختلفة في شمال وفي شمال غرب الجولان ، وكذلك في الأودية ولا سيما في وادي اليرموك . وتلعب هذه الصخور الرسوبية المختلفة دوراً محدوداً في هيدرولوجية الجولان ، وكذلك الدور الذي لا يجوز التغاضي عن أهميته ، وقد سبق ان اشرنا الى جبل الحرمون كمستودع خزان لمياه كل المناطق المحاذية .

وتلعب القاعدة الرسوبية الكريتاسية الايوسينية ، حتى في الجولان البركاني أساساً ، تلعب دوراً هاماً جداً فيما يتعلق بالتسرب وبالاغشية البثرية وبالينابيع .

وهكذا نضطر للتعرف على هذه الصخور لمختلفة وتصرفاتها تجاه المياه :
- التشكلات الرباعية والبليوسينية وتتألف من ترب ومن غضاريات متبقية ومن لحقيات . . ولكنها لا تحتل سوى مساحات ضامرة .
- وتتصرف الترب بقدرتها على تشرب الماء وكأنها منظمات للسيلان وللتسرب .

- دور الغضار المتبقية محدود اكثر .
- وتستطيع الترب المنفذة كثيراً ان تكون كتيمة مختلطة بغضار .
- تكون صخور المشبك البليوسينية أحياناً منفذة ولكنها تكتسب نوعاً من كتامة عندما تكون ذات ملاط يحولها الى تجمع متماسك .
- تكون التوضعات البحرية على العموم منفذة ، عندما تكون كلسية ورملية ، كتيمة وعندما تكون مارنية .

- الميوسين : ويكون بيئة لظواهرات هيدرولوجية متباينة ، ولكن يكون على العموم مؤلفاً من تشكلات منفذة

- الايوسين ، ويتمثل بصخر كلسي منشقق وبصخور بريش كلسية متشققة أيضاً وتمتص مقادير هامة من المياه تردها على شكل ينابيع انبجاسية تظهر في انكشافات الطبقات السفلى .

- السينوني : وهو تشكل حواري ومارني اساساً ، ويكون كتيماً في حالته البدائية . ولا يتكشف إلا على مساحات ضئيلة جداً في الجولان ، ولكنه يؤلف الاساس الذي ترقد فوقه اللابات البركانية . ويلعب دوراً هاماً في الهيدرولوجيا الباطنية للمنطقة . وتكون الصخور السينونية « كتيمة تماماً من النمط الحواري على الماء (الصفدي) » وتختلف سماتها من مكان لآخر اذ قد تصل الى ٧٠٠ م .

بيد ان السطح يكون فاسداً احياناً ، ويتجلى هذا الفساد بمنظومة من تشققات صغيرة متفاعمة قادرة على اختزان مقادير محدودة من المياه فوق المستوى السليم . وتكون سافات الصوان المتطبقة ضمنها ، والتي تكثُر في هذا التشكل ، متشققة . احياناً . غير ان التسرب لا يستطيع ان يكون عميقاً لأن المارنيات السينونية تعتبر حاوية على الماء aquifuges بصورة كاملة .

بيد ان السينوماني يعتبر ، على العكس ، احد خزانات الماء الرئيسية في كل سورية . فتكون هذه الكتلة السميكة من الكلس المتشقق منفذة على نطاق كبير . وهكذا يمتص السينوماني حجوماً كبيرة من الماء يعيدها عن طريق ينابيع عديدة انبجاسية résurgences ذات صبيبات عالية نوعاً ما . وتقع هذه الينابيع بجوار خط التماس بين السينوني والألياني وأهم هذه الينابيع هي :
- عين مسعدة التي تنبثق من انكشاف في قاع بحيرة مسعدة ، وهي بحيرة بركانية (كراتر) .

- عين سَعَر وتقع في ضواحي مجدل شمس .

- المركب الالباني - الأبي - النيوكومي ، او الكريتاسي الاسفل ، ويضم تعاقباً معقداً من مستويات خرسانية ، مارنية ، ومن سافات كلسية . ويكون دوره الجوهري في تشكيل حاجز كتيمة بين الضخور الكلسية المتشققة السينومانية والجوراسية ، من ناحية ، فيوقف مياه التسرب القادمة ويؤدي لظهور الانبجاس ، من ناحية اخرى ، ذلك انه يغلف الجوراسي بغطاء سميك يحتبس المياه ويحول دون عودتها للظهور في الحضيض .

- ويشكل الجوراسي خزاناً سميكاً يكون دوره جوهرياً ، وتكون انكشافاته الرئيسية في المناطق المرتفعة ، الكثيرة التهطال حيث تتسلل المياه ضمن

الصخور الكلسية المشققة .

وهكذا يبدو انه يشكّل في الجوراسي تخزين مائي ضخم يحول الغطاء الكريتاسي الحجوز ، اي الكتيم ، احياناً دون انبثاقه على السطح ، عند خواصر الجبل وفي الحضيض . والواقع لا يطلق هذا الخزان ، الذي تقتصر تغذيته حصراً على القمم ، لا يطلق الماء الا بواسطة اكثر التقاوير انخفاضاً في غلافه الكريتاسي ، وكأنها ينابيع طفحية ، او بفضل كسور تجتاز هذا الغلاف .

٣ - الاوضاع الهيدروولوجية في الصخور البركانية :

يتألف الجولان البحث اساساً من صخور ذات أصل باطني انقذت من البراكين فوق السطح . وتشتمل هذه المواد الداخلية المنشأ على عناصر مختلفة ، متباينة الصفات ، بازلت متكتل ، بازلت فقاعي ، خبث ، حصويات ، رماد ، وتكون مندمجة احياناً مع مواد مختلفة المنشأ من تشكيلات موضعية éluviaux ولحقية .

ترى ماهو إذن سلوك العناصر المختلفة ؟ أوبالاحرى ماهو سلوك هذا المركب من المواد تجاه المياه الجوفية ؟

١ - المواد النارية المنشأ الفرطة :

« وتكون على العموم منفذة فيما عدا بعض الاستثناءات . ويشكل الخبث والحصويات والرماد ، من بين هذه التشكيلات ، اكداساً من طبقات ذات امتداد على قدر لا بأس من الاهمية . أما القنابل والنصال والجلاميد فتكون متناثرة بصورة عشوائية ضمن هذه المواد فلا تلعب ، بالتالي ، اي دور هيدروولوجي جوهري »^(٩) .

وتصبح اكداس الخبث ، وهي منفذة بسبب التجاويف المتواصلة التي لا تحصى ، وبسبب شقوق التراجع ، أقول تصبح بعد فسادها منفذة بصورة متناقصة تدريجياً . وتكون نفاذيتها متعلقة بعمرها .

(٩) شفيق الصفدي . سبق ذكره .

وتكون الحصويات Lappili ، من بين هذه المواد النارية المنشأ الفرطة ، هي التي تتصف بأكبر نفاذية . بيد ان مياه التسرب تستطيع ان تربطها بملاط ، بواسطة ظاهرة تحول الصخر diagenése او نشوؤه Lithogenése التي تساهم في جعل هذه العناصر متصفة بكتامة نسبية . وللرماد قدرة احتباس مائي ملحوظة بسبب دقة عناصره . وتختلف هذه القوة باتجاه معاكس لحجم الجزيئات وتستطيع بذلك ان تتفوق تماماً على قوة التسرب . وفي هذه الحالة يصبح الصخر حاوياً على الماء تماماً^(١٠) . ويحوي سهل القنيطرة ، المؤلف من رماد ومن حصويات ، متوضعة على شكل طبقات رخوة متناوبة ، وجيدة التطبق ، يحوي كل حدود التنوعات الحجمية لهذه العناصر . ويساهم وجود طبقات ذات قدرة احتباسية كبيرة ، لاسيما في قاعدة الزمرة ، يساهم اساساً في تشكل غشاء جيد حاوٍ على الماء . واخيراً علينا ان نشير الى تأثير مورفولوجية الصخور على الهيدرولوجيا . وتستطيع منتجات الفساد ان تبقى محلياً او تنجرف بمياه السيلان حسب قيمة درجة الميول . ولكن مادور هذه المنتجات المذكورة في نفاذية الصخور ؟ استناداً الى رأي شفيق الصفدي يكون بقاء هذه المنتجات في مكان ما غير موائم للتسرب « ففي التكوينات المنبسطة تراكم هذه المنتجات الى ما لا نهاية فتعمل على تقليص حجم الفراغات » . ويرى دوبرتريه غير ذلك فيقول : « يكون تسرب الماء ناشطاً بفضل الترب التي تغطي الهضاب البازلتيية ، فهذه الهضاب على الرغم من كونها غضارية ، تفتقر الى التماسك وتبلل كاسفنجية ، وتحتفظ بالماء فوق الشقوق ، وبذلك تسمح بالتسرب . ويضيف المؤلف « ان البحث عن مناطق التسرب التي تغذي ينابيع كتلة جبل الدروز تقود دوماً الى هضاب مغطاة بالتربة أو بمخاريط الخبث . »^(١١) .

(١٠) شفيق الصفدي . سبق ذكره .

L. Dubertret .précité. Etude des régions volcaniques du Hauran.etc.

ثانياً - البازلت :

لا تكون هذه الصخور منفذة لولا التشقق الاقصى الذي يعترى البازلت بسبب تراجعها في فترة التبرّد بعيد تدفقها . والواقع هناك منظومة كثيفة من شقوق تجعل صخور البازلت منفذة على مقياس كبير . وهناك جزء من صخور بازلت منطقتنا فقاعي بشكل كبير يلفت الانظار الى عامل اضافي للنفاذية . وتكون هذه الفقاعات في الواقع منعزلة ودون اي اتصال فيما بينها . وهكذا يدين البازلت بنفاذيته للتشقق حصراً . ومما تجدر الاشارة اليه أن هذه الشقوق تظل مستقرة وسليمة بصور متفاوتة ، لأنها لا تخضع لمفعول التحلل بمياه التسرب . فالبازلت هو صخر متكتل وقاس ، وفضلاً عن ذلك فإن المياه الباطنية لا تكون في هذه المناطق ، استناداً الى فحص فيزيائي كيميائي ، عدوانية على العموم .

بيد أن شفيق الصفدي لاحظ على اسطوانات « جزرات » بعض اعمال السبر الظواهر التالية :

- وجود قشرة رقيقة من الكلس في بعض الامكنة فوق جدران الشقوق .
- امتلاء مستمر للشقوق الكائنة فوق المستويات الترابية الموضعية الواقعة بين مسكوبات البازلت ، بتوضعات الغضار الاحمر والتي جلبتها مياه التسرب على ما يعتقد . وتلعب ظاهرة كهذه بالتأكيد ، دوراً رئيسياً في الهيدرولوجيا ، لأنها تجعل الجريان الباطني بظيئاً أكثر فأكثر . بيد أنه ليس لكل صخور البازلت في المنطقة ذات الصفات الفيزيائية في مقطع عمودي ، لأن الصخور في الأعماق ، والتي تبردت بهدوء ، لا تكون بمثل تشقق صخور السطح ، فتكون بالتالي أقل نفاذية من اللابات السطحية .

وهكذا نجد ان الدايك dykes المائلة والمتقاطعة ، ضمن التكوينات النارية المنفذة ، تكون قليلة التشقق وتلعب دوراً كبيراً في الجريان الباطني . فهي تعترض مسيرة مياه التسرب وتخلق بالتالي تعقيدات مختلفة والتي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار في معرض دراسة المياه الباطنية .

ثالثاً - التشكلات الموضعية éluviaux المتطبقة بتناوب بين مسكوبات بازلتية من اعمار مختلفة :

لا يكفي تحديد الصفات الفيزيائية في البازلت للسماح بالتنبؤ عن مصير المياه التي تتسرب من خلال المسكوبات البركانية . وفي الحقيقة لا يكون غطاء اللابات ، الذي انساح فوق ارضية رسوبية ، من عمر واحد . فقد أمكن التثبت ، في الجولان ، من وجود ثلاثة مراحل للنشاط البركاني منفصلة عن بعضها بفترات راحة . وهكذا يكون من الميسور تصور ان كل مسكوبة كانت تحت تأثير التجوية خلال الفترة اللاحقة من الراحة . وقد تغطت منتجات فساد هذه الفترة بمسكوبة مرحلة النشاط البركاني التالي ، وهكذا دواليك . وهكذا تقوم هذه التناوبات من الموضعيات المستحاثية اذن بعرقلة تجانس واستمرار المسكوبات وتلعب دوراً جوهرياً في هيدرولوجية المياه الباطنية لمنطقتنا .

ترى ماهي طبيعة وعدد ومفعول التناوبات اذن في الاصل ؟ انها ترب غضارية يعود نشوؤها الى مختلف فترات الراحة التي فصلت بين فترات احتداد النشاط البركاني . ولما كانت هذه الترب المبكرة هي نتائج تكوين تربة حقيقي قد تغطت من جديد بمسكوبات بازلتية اصبحت التالي مستحاثية ومشووية بسخونة اللابة الشديدة . بيد أن هذا « الطبخ » لم رب بنيتها البدائية تماماً .

وقد تكشف دراسة عينات منها عن وجود العديد من العروق الصغيرة بعثرة في هذا الغضار . ويختلف قطر هذه العريقات . فقد يكون شعرياً كما يبلغ بضعة ملليمترات . ترى هل تشهد هذه العريقات على وجود جريان ، وبالتالي على النفاذية ؟ ومهما كان عليه الأمر فإن هذا التراب الغضاري هو على العموم متأخذاً ويتخذ مظهر صخور غضارية argillite كتيمية . ولهذا يكون من المقبول بأن هذه التشكلات كتيمية من نمط ضئيل النفاذية aquelude ان الماء يتسلل من خلاله ببطء شديد . وتلعب هذه التناوبات الغضارية المسكوبات البازلتية دوراً عظيماً في هيدرولوجية المياه الباطنية في الجولان . ي تعترض طريق مياه التسرب وتتشرب بها . تلك هي « طبقات حاملة ماء » حسب قول لويس دوبرتره . ويطلق الفلاحون الشراكسة في المنطقة ، من الذين يمتنون حفر الآبار ، تسمية « جلاتين الآبار » على هذا التراب

الحامل للماء ، والذي يعتبر في نظرهم اشارة منذرة عن وجود الماء . بيد انه لا يكون لهذه الطبقات الترابية الحاملة للماء السكاسة ذاتها في كل الامكنة ، اذ قد تنعدم تماماً في بعض الأمكنة . ويتتاب الفلاحين من هذه الفقدان القلق لان هذا يعني ان عليهم ان يحضروا المزيد في آبارهم كي يبلغوا الطبقة الثانية الترابية الحاملة للماء والتي تكون اكثر عمقاً . والواقع يمكن العثور في الجولان على ثلاث طبقات من هذا النوع وقد اشار الى ذلك ف . فرولو بالفعل خلال عمليات السبر في حوران في عام ١٩٣٠ .

وأعق هذه الطبقات هي اكثرها أهمية بالطبع لأنها تتركز على السطح الحثي الذي يكشف طبقات القاعدة الرسوبية . وهذه الطبقة الترابية المتشكلة سابقاً عند قدوم السلاسة هي غضارية أيضاً لأنها نتجت عن تأكس décalcification صخور الكلس الايوسينية وعن فساد صخور الحوار السينونية . وهناك تناوب غضاري ثان بين مسكوية بازلتية B2 وبين المسكوية الثالثة B3 . اما الطبقة الغضارية الثالثة فتقع بين البازلت الثالث B3 وبين آخر مسكوية رباعية B4 وتكون الطبقة الثالثة الحاملة للماء اقلها انتشاراً وأهمية ، اذ تقع فقط تحت المسكوية الرباعية التي لا تغطي اكثر من مساحات محدودة .

رابعاً - التشكلات اللحيقة المتنضدة فوق المسكويات البازلتية والتراب هناك لحقيات من اصول سيلية ونهرية يمكن التعرف عليها بين الكتل البركانية في الجولان وجبل الدروز . وتكون على العموم مشربة بالماء وتنتج عنها ينابيع ذات صبيبات محدودة . وتكون هذه اللحيقيات ، وهي تشكلات جديدة احياناً ، منفذة عملياً . ولكن يحدث ان منتجات متبقية غضارية ناتجة عن فساد صخور البازلت ، تقوم بسطم هذه الفراغات القائمة بين عناصر هذه اللحيقيات .

ولا يؤدي هذا « التكتيم impermeabilisation » شبه كامل بل الى تعويق ملحوظ في التسرب ، ولهذا يمكن تقريب هذه اللحيقيات من النمط شبه المانع للتسرب المائي subaqualude حيث يتسرب الماء ببطء شديد

وتكون ترب الجولان ، شأن ترب حوران وجيل الدروز ، غضارية اساسية . وتكون بنيتها حبيبية ، وتكون مساميتها بالتالي غير مرتفعة . وعلى هذا الاساس يمكن اعتبار هذه الترب ايضاً من النمط شبه المانع لتسرب الماء .

خامساً - المياه الباطنية في الجولان

١ - أهمية الثروة المائية الباطنية :

لايستفيد الجولان كثيراً من ثروته الهيدروليكية الكامنة . ولقد رأينا سابقاً ان ٨١٪ من التهطالات تضيع على شكل تبخر نتحي ، واكثر من النصف الباقي ، اي ١٠٪ تتسرب بالعمق كي تلحق بالمياه المخزونة في الاغشية البثرية phréatique و٩٪ فقط هو الذي يجري على السطح . ويمتد الفصل الحار والقاحل على اكثر من نصف العام ، ويجب ان نعتمد اساساً على مخزونات باطن الارض من المياه والتي تتلقى سنوياً مقدار ١٢٠ مليون متر مكعب من الماء الجوي . بيد ان مياه الخزانات الباطنية لا تستغل لعدة اسباب .

- يكلف حفر آبار عميقة تخترق الصخور الشديدة القساوة ، اي البازلت ، نفقات يعجز الفلاحون الفقراء عن تقديمها . وتكون الاغشية المائية القديرة على تأمين صبيب هام ومنتظم ، على الغالب ، عميقة مما يزيد نفقات عمليات الحفر .

- لا يكون نظام المشاع الذي لا يزال قائماً في اكثر القرى موافقاً لاستغلال المياه العميقة .

ويتم حفر بئر عالي الكلفة ، في ارض لا تخص الفلاح نهائياً ، يبدو عملية يستحيل تصورها ، وتطرح المشكلة بالصورة ذاتها امام الفلاحين المؤاجرين (الشركاء) الذين يعملون في مجال الملكيات (الحيازات) الكبرى ، الكثيرة فعلاً في الجولان .

ولما كان الشريك لا يستفيد من نظام الملكية الفردية فهو لا يهتم بالقيام بتحسينات مفيدة في سبيل الري . هذا كما يجهل الفلاحون كيفية استغلال مياه الينابيع ، اذ يقوم الاستغلال المثالي لمياه الينابيع على حفر خنادق تتقاطع

مع الطبقة الترابية الحاملة للماء وذلك بصورة محسوسة حسب خط التسوية وتفرغ في ساقية حسب الميل الاعظم (لويس دبرتريه) .
- ويكون الجولان اكثر المناطق البركانية في سورية الجنوبية امطاراً ، ولكن اقتصاده يستند دائماً على تربية الماشية ، ولكنها تربية واسعة وبدائية تعتمد حصراً على عشب المروج الطبيعية التي تزهر بصورة عفوية بعد سقوط أوائل الامطار بكمية كافية . وتتوفر الموارد طبعاً من المياه الراكدة في البرك او في احواض (حاووظ) أو من الينابيع .
ولا يمنح السكان اهمية كبيرة للمزروعات ، ولا سيما المروحة منها ، كما لا يهتمون باستنباط المياه التي ترقد فوق خزانات عميقة في باطن الارض عن طريق عمليات حفر عالية الكلفة .

١ - الصفات العامة للأغشية المائية الباطنية

تسمح الكميات الكبيرة من المياه الجوفية التي تهطل سنوياً فوق اراضي الجولان من ناحية ، ونفاذية ترب وصخور البازلت ، ووجود طبقات غضارية ضعيفة النفاذية فيما بين مسكوبات البازلت ، من ناحية اخرى ، تسمح لنا بالتنبؤ ، دفعة واحدة ، عن وجود طبقات مائية باطنية وبالسواقع لا يكون ذلك عبارة عن مصادفات عرضية . فأعمال السبر التي اشرف عليها ف . فرولو في ١٩٣١ والدراسات التي تقدمت ، فيما بعد في شمال اللجاة وعلى الخاصرة الشرقية للجولان ، قادت الى تحديد صفات الاغشية البثرية لهذه المناطق .

وقد اضافت الدراسات التالية التي نشطت من عام ١٩٥٢ على يد الدكتور بوردون والدكتور شفيق الصفدي ومهندسي الري السوريين الآخرين تفاصيل تكميلية الى الدراسة التمهيدية التي قام بها ف . فرولو . وفي مثل هذه الحالة ستمكّن من اعطاء الصفات الهامة للاغشية المائية الباطنية في منطقتنا :

١ - تساق مياه الامطار فوراً في سرر المسيلات الصغيرة التي تتجفف في وقت مبكر جداً كي تظل جافة خلال القسم الاعظم من العام مما يدل على عدم وجود أي غشاء حائي قريب جداً من سطح الارض في الجولان .

اما بعض بروزات الينابيع الدائمة في مختلف نقاط الجولان فهي شحيحة جداً مما لا يسمح لها باكتساب أية أهمية في الري . بيد أن آبار سهل القنيطرة الصغير قد برهنت على وجود مياه وفيرة غير بعيدة عن سطح الارض بين طبقة بازلت قليلة التشقق كانت شقوقها مسطومة ، وبين طبقات جيدة التطبق من السينيريت المتوضعة في وقت متأخر . ويمكن التنبؤ عن وجود مياه غزيرة في باطن الارض . ويبدو انها صادرة عن « خزانات ماء » جبل الحرمون وتتجه نحو منخفض الحولة ونهر الرقاد .

٢ - ولقد اشرنا مسبقاً لظهور ماء على مستويين مختلفين ينطبقان على طبقتين ترابتين حاويتين على الماء بين المسكوبات البازلتية . وتنسجم ملاحظتنا هذه مع الملاحظات التي أجراها ف . فرولو الذي يؤكد ، فضلاً عن ذلك ، ان اول دفعة مائية تكون شحيحة . ويبدو ان هذه هي أول شريحة متسربة من الامطار السنوية التي تنضم للطبقة السفلى المخزونة من خلال وقت متفاوت في طوله .

٣ - ولما كانت التربة منفذة وكذلك حال البازلت المصاب بتشقق كثيف فان تغذية أغشية الماء تتم في كل مكان بصورة شبه منسجمة .

٤ - ويكون جريان المياه الباطنية بطيئاً نوعاً ما ، وهذا نتيجة حصانة شقوق صخر قاس جداً ، وهو البازلت ، تجاه مياه متسربة ليس لها أية صفة عدوانية » وينتج عن ذلك ان حركة الماء في البازلت تكون مختلفة عن حركة المياه في الصخور الكلسية وتقترب الى حد ما من حركتها في الصخور المنفذة على مقياس صغير ، مثل الصخر الرملي واللحقيات الخ .

وهكذا تكون هيدرولوجية صخور البازلت الحورانية من نمط فريد ، وسيط بين هيدرولوجية الطبقات المنفذة على نطاق واسع وبين هيدرولوجية الصخور المنفذة على مقياس ضيق ^(١١) .

(١) دكتور شفيق الصفدي . اطروحة : ويطلق المؤلف اسم حوران على كل الجزء البركاني من سورية الجنوبية .

٥ - هناك عدم انتظام واضح في منحى هذه الاغشية . فقياسات غراديان الاغشية التي قام بها الصفدي تأتي لتدعم هذه الفكرة ، ويعود هذا الانتظام بالاساس الى القاعدة الرسوبية المبثورة بسطح حتي متموج عملت الاغشية البركانية على قوّلبته . ويستطيع عامل آخر ان يدخل في الحسبان ، ذلك ان التناوبات الترايبية الموضعية يمكنها ان تبدل في الاتجاه النظري للغشاء المذكور تماماً . وفي الواقع سبق لنا وأشارنا الى عدم انتظام هذه التناوبات ذاتها : فثخانتها تختلف من نقطة لأخرى وأحياناً قد تختفي تماماً مما يؤدي لانقطاع المستويات الحاملة للماء وعدم استمرارها .

هذا ويمكن أيضاً أن نشير الى الدور المشوّش المحتمل للدايك ، كالأسوار البازلتية القليلة التشقق ، وذات الوضعيات المختلفة من عمودية ومائلة ومتصالبة الخ ، مثلما تلعب الدايك دوراً لا بأس به في عدم انتظام المياه الباطنية في المنطقة التي نحن بصدددها .

وتقدم لنا هيدرولوجية جبل بريقة وبير عجم مثلاً طيباً عن ذلك . فهناك قريتان شركسيان هما الجويزة وبريقة يحتلان السفح الغربي لهذه الكتلة . فتكون القرية الاولى غنية بالعيون التي تنبع عفواً والتي يكفي ماؤها لسد حاجات القرية وحتى تأمين حاجات القرى المجاورة .

أما بريقة ، فعلى العكس ، فتعيش دوماً في حالة من القلق بسبب ضعف صبيب بئرها العام الوحيد الذي ينضب ، رغم عمقه . خلال السنوات ذات التهطلات الضعيفة . فيضطّر سكانها ومواشيهم الى البحث عن المياه عن قرية الجويزة . نرى كيف يمكن تفسير هذا الوضع ؟

تتألف هذه الكتلة البركانية اساساً من مواد بركانية مختلفة ، فهي اذن منفذة . وهكذا سرعان ما تتشرب مواد هذه الكتلة الصخرية بمياه الامطار الهاطلة عليها ، غير ان المياه المتسربة لا تتوزع بصورة متعادلة بين القريتين اللتين تحتلان نقطتين متناظرتين نوعاً ما بالموازنة مع قمة الكتلة اي بالنسبة لنطاق التسرب .

والواقع تصادف المياه المتسربة داخل المواد الصخرية المنفذة في مستوى غير بعيد عن السطح « دايك » مائل باتجاه الغرب . وتمر النهاية الغربية لهذا

الدايك من تحت موقع الجوزة قرب السطح الطبغرافي مباشرة . وعلى العكس فإن نهايته الشرقية تتكشف على السطح لشرقي هذه الكتلة مما يؤدي لإيجاد درجة تحتل قرية بريقة قاعدتها السفلى .

وتكون بريقة محرومة من الينابيع لأن السطح العلوي من الدايك يستقطب الماء المتسرب في هذه الكتلة البركانية على حساب هذه القرية ولمصلحة الجوزة التي تكون ينابيعها عديدة وذات صبيب قوي وتظهر كينابيع انكشاف . وتأتي السهولة التي يمكن الوصول الى الماء من فوق الدرجة المؤلفة مكن الدايك فوق البريقة لدعم ماقلناه .

٦ - ولقد المحنا فما سبق الى الذبذبات التي تتتاب بين فترة واخرى أو بين فصل وآخر ، مستوى الاغشية ، وهي ذبذبات مرتبطة بكل دقة بالتقلبات المماثلة التي تميز نظام امطار الشرق الاوسط الرومي ، وبوسعنا هنا ايضاً الكلام عن ذبذبات يومية . فابتداءً من شهر آب تقريباً تصبح كل الينابيع شحيحة على العموم بسبب نضوب المخزونات وبالتالي لانخفاض مستواها .

وتعتبر التبدلات اليومية خلال هذه الفترة الخرجة من العام عن تبدلات مستوى الاغشية المغذية . ففي خلال يوم تسود فيه الرياح الشرقية الجافة والحارقة ، تنضب الينابيع المصابة سلفاً بالهزال ، بصورة تامة ، كنتيجة لاستنفاح التبخر . وبعد حلول الظلام وتوقف الرياح الشرقية تحمل الرياح الغربية مكانها وهي رياح ندية وباردة تقريباً ما ، ونظراً لتوقف التبخر طيلة الليل فان مستوى الاغشية يرتفع قليلاً ونجد في الصباح ان الينابيع وقد استأنفت جريانها .

٧ - هذا وقد امكن تحديد السطح المعصاري piézométrique للمياه الباطنية في حوران بتسوية اعمال الحفر التي تمت في هذه المنطقة بجهود ادارة الجمهورية السورية وتحت اشراف ف . فرولو .

واستناداً الى رأي الباحث هذا تثير خطوط المستوى المعصاري ، وذلك في المنطقة الواقعة الى الغرب من نهر الهريبرما في ذلك الجولان الى نوع من موازاة أكيدة مع السطح . وتفسر هذه الموازاة بأسباب عديدة . - طبيعة الصخور التي تتشكل منها المواد البركانية الهشة الفرطة .

- وجود غشاء القنيطرة المائي الباطني الواسع والذي يستطيع تغذية جريانات باطنية باتجاه الشرق او باتجاه الغرب .

- ضعف نمو الشبكة الهيدروغرافية على سطح الارض .

٣ - طرائق استقرار المياه الباطنية

يمكننا ان نفكر ، بعد ان رأينا ، فيما سبق ، الصفات العامة للاغشية المائية ، بأن هناك طرائق لاستقرار المياه الباطنية وليس طريقة واحدة . أما فيما يتعلق بالهيدرولوجيا الباطنية لكل المناطق البركانية في سورية الجنوبية فيجب ان نميز بين اغشية الهضاب وأغشية الجبال التي تكون لوحدها هي الهامة بالنسبة للقسم الشمالي من الجولان ، أي المنطقة التي تطلق عليها الادارة الحكومية اسم قضاء « القنيطرة » وبين الاغشية التي تميز الجزء الجنوبي التي يشار اليها ادارياً تحت اسم « قضاء الزوّة » .

أغشية الجبال : وتنقسم هذه الاغشية أيضاً الى زميتين فرعيتين :

١ - أغشية معلقة : وتكون مخزونة في اكداش المواد البركانية الهشة ،

ولا سيما اللحقية وذلك ضمن اكداش مختلطة . ولهذا تكون هذه الاغشية بالتالي عدسية وعديمة الانتظام للغاية . وتكون هذه الاغشية مخزونة في الصخور البازلتية التي اصبحت كتيمة بامتلاء الشقوق . ويعطي الغشاء الذي يرقد تحت السهل الصغير الذي يحيط بالقنيطرة مثلاً طيباً على ذلك . وسنعطي الآن بعض التفاصيل عن هذا الغشاء الذي يكون بلا ريب اكثرها اهمية في منطقتنا .

فقبل آخر مرحلة من مرحلة من النشاط البركاني ، الذي تولدت عنه مخاريط الخبث التي تحيط حالياً بهذا السهل ، مثل تل ابو الندا ، تل العرم ، تل المخفي ، والتلال الاخرى الصغيرة دون اسماء ، كان يوجد في موقع

السهل ذاته ، حوضه كبيرة كانت تتجمع فيها مياه السيلان . وكان القاع البازلتي لهذه الحوضه قد سبق له واصبح كتياً لان المياه الي سطمت كل شقوق القاع بجزيئات صغيرة سبق لها ان جرفتھا ، اذن كان عبارة عن بحيرة كبيرة كانت تشغل مكان سهل القنيطرة الحالي .

ولقد تميزت الفترة النهائية من الفعالية البركانية ، كما نعرف ، بكثرة الانفجارات ، وبالتالي انقذاف مواد ثورانية مفتتة ، وبتشديد مخاريط انقراض من نمط سترومبولي ، ومن نمط فولكاني ، ولا سيما في المنطقة ذاتها ، مثل تل ابو الندا ، وتل العرام ، وكلاهما من نمط فولكاني ، اما الرماد والحصويات التي انقذفت من مركزي الانطلاق ، أي من موقعي ابو الندا ، وتل العرام ، والتي نقلتها الرياح الغربية والشمالية الغربية . فقد تساقطت في البحيرة التي كانت تمتد الى الشرق من هذين البركانين . وقد عملت هذه المواد على ردم البحيرة تماماً وفي فترة كان المناخ خلالها أكثر جفافاً والتهطالات أقل غزارة . ويمكن اليوم التعرف بسهولة على هذه التوضعات البركانية . فقد توضع الحصويات في البداية واحتلت القاع دون تطبق واضح ، بيد ان المستوى العلوي يظل افقياً بكل دقة ، وتوضعت فوق هذا المستوى ذاته اكداس الرماد . ويرتصف الرماد بالفعل على شكل سافات ، افقية ، رقيقة ، ذات الوان مختلفة ودقيقة التطبق ، مما يدل على تأثير اكيد للمياه في ترسيب هذه المواد . وتعتبر هذه السافات العصيات البحرية Varves الحقيقية بيد انها لا تسمح بتأريخ رمي بسبب قصر فترة ترسيبها .

وقد تمخضت البحيرة بعد انطماش معالمها كلياً عن نشوء سهل القنيطرة الصغير الحالي والذي يكون سطحه الطبغرافي افقياً بشكل كامل . ولا يزال هذا السهل حتى اليوم حوض استقبال للمياه السيلية الشتوية التي تنساب من مختلف الارتفاعات المحيطة (انظر خارطة ١٠) . وعند وصول المياه الى السهل تختفي بسرعة مدهشة إذ تسرب في اللحيات البركانية وتغذي الغشاء البشري تحت السهل المذكور . ولا يقدم هذا الغشاء اي نبع لضواحي القنيطرة المباشرة . ولبلوغ الماء يجب حفر آبار متفاوتة في عمقها . ولكنها على العكس تنخفض عن ينابيع غزيرة ومعلقة في شرقي المدينة ، وتغذي هذه الينابيع وادي الرقاد الاعلى .

ويستغل هذا الغشاء حالياً بواسطة الآبار والضخ لتموين القنيطرة والمنصورة ، وهي قرية شركسية غرب القنيطرة ، بمياه الشرب وبعض فرق الجيش . غير ان التزايد السريع المستمر في عدد سكان المدينة من ناحية ، وشح الغشاء المائي خلال الفصل الجاف وفي السنوات العجاف ، وبسبب قوط الاستغلال من ناحية اخرى ، قد جعلت المسؤولين يفكرون بمشاريع مختلفة لتأمين ماء الشرب بطريقة كافية . ويقوم آخر مشروع على جرمياه ينابيع بيت جن وهو مشروع قيد التنفيذ .

٢ - أغشية الشبكة : وتظهر على سفوح الكتل الجبلية ، وحيث تتكشف شقوق البازلت . ولا تقوم اية علاقة مع أكذاس الانقراض البركانية وتكون غزيرة نسبياً وتذكرنا ، الى حد ما ، بمياه الكتل الجبلية الكلسية (انظر شكل ٢٥) . وفي الواقع لقد تعرضت الكتل البركانية لتصدعات نتيجة اواخر الثورانات الانفجارية ، وهكذا نشأت شبكات من شقوق فاعرة بصورة متفاوتة وعميقة . وهكذا تستطيع المياه المتسرية في المقذوفات البركانية الهشة السطحية ان تظل محفوظة لوقت ما ولأسباب مختلفة . ولكن تستطيع هذه المياه ، بالواقع ، ان تتسرب من جديد من خلال تصدعات الكتل البازلتية كي تظهر من حديد فوق المنحدرات على مستويات مختلفة جداً ، على شكل ينابيع متدفقة .

أغشية الهضاب : وتكون هذه محدودة مكانياً في جنوب الجولان ، اي في قضاء الزوية ، حيث يكون السطح الطبغرافي وكذلك النبية المائدية توحيان بمفهوم الهضبة . ويجدر بنا هنا ايضاً ان نوجد تمايزاً بين نموذجين من الاغشية : أغشية الاساس والاغشية المعلقة .

١ - غشاء الاساس : ويقع فوق أساس مجموع المسكوبات وفوق السطح العلوي للقاعدة الرسوبية الكتيمة . ولما كان السطح الحثي يتر الاساس المتموج فان اهمية كمية المياه المخزونة تختلف من نقطة لاطرى . فتكون كبيرة في الامكنة المحفورة بعمق بفعل الحق والتي تتجه نحوها مياه التسرب . وتعود مياه هذه الاغشية للظهور بصورة واضحة وعلى شكل ينابيع معلقة ، في كل الأودية التي قطع حفرها الخطي الطبقات الترابية الحاملة وعند بلوغها القاعدة الرسوبية .

وهكذا نرى استناداً الى القائمة أعلاه ان المساحة المرواة قد تضاعفت خلال سبعة اعوام . ولكن القسم الجنوبي من الجولان هو الذي سجل اكبر تقدم ، ولكن مع انعدام في الانتظام صارخ ، وتراجع عظيم في ١٩٥٦ . ويكمن مستقبل الجولان في توسيع مجال زراعة الاشجار المرواة لان الاشجار المثمرة تزدهر بصورة مذهشة في المجالات المرواة .

وقد جرت تجارب زراعة التفاح من النواعيات الامريكية في مجدل شمس وفي القرى الدرزية الاخرى في الشمال وكپن النجاش كاملاً ومجزياً وكان لذلك اتجاه عام نحو زراعة الاشجار حيثما امكن التوصل للماء بطريقة اوبأخرى . والواقع لقد اصبحت العوائق الاجتماعية والمالية ، التي كانت تقف حتى الآن في وجه استغلال كثيف وعقلاني للمياه الباطنية مذلة بعد ان امكن التغلب عليها من الآن فصاعداً .

١ - يظل الافتقار الى المال لدى الفلاحين دوماً هو العائق الاكثر صعوبة . وتستطيع المعونة الحكومية والاسلوب التعاوني ان تحل هذه المشكلة
٢ - ويقع على عاتق الحكومة ايضاً وجوب تقديم ادوات الحفر والتعليقات التقنية عن جر مياه الينابيع .

٣ - كما اصبحت نظام ملكية المشاع ، المعادية لاي استغلال نشيط للمياه الباطنية ، اصبحت يسير الآن في طريق التراجع والتفتت . ويلجأ الفلاحون ، بالاتفاق ، الى اقامة نظام ملكية فردية .

اما فيما يتعلق باملاك الدولة والملكية الكبرى فهي ايضاً في طريق التفكك الى ملكيات فردية . ومن ناحية اخرى أخذ كبار الملاكين يهتمون ، منذ عهد قريب ، من جانبهم ، باستغلال اكثر عقلانية للماء الباطني بسبب المضاربة بالطبع .

٢٠ المياه السطحية أو الهيدروغرافيا

خامساً

لا تتجاوز دراسة هيدروغرافية سورية ولبنان ، والتي انتظمت منهاجياً من وقت قريب ، لا تتجاوز مرحلة الوصف . ولكن اذا كانت صفات الانهار لم تحدد بعد نهائياً ، فإنها أخذت بالوضوح مع ذلك ، وبصورة تدريجية . والاسباب الرئيسية التي تحدد مميزات الهيدروغرافيا السورية هي : التضريس وتفاوت توزع الامطار في الزمان وفي المكان ، وأخيراً بالطبيعة الليتولوجية وبنية باطن الارض . وتلعب الزمرة الجبلية الساحلية العالية دور حاجز حقيقي في وجه الرياح البحرية المحملة بالرطوبة ، وهكذا تتكدّس هذه الرطوبة ويحفظ بها الجبل على حساب حرمان الهضاب الداخلية التي تكون قليلة الامطار . وهكذا تتعاقب ، ابتداء من الساحل ، باتجاه الداخل ، نطاقات مناخية تتزايد قحولتها وهي الجبال الساحلية ، والهضاب المزروعة في الداخل والسهب الصحراوي والبادية ، وفي مقابل ذلك يقدم كل من هذه النطاقات المناخية نطاقاً هيدروغرافياً خاصاً نوعاً ما .

أما فيما يتعلق بمنطقتنا ، اي الجولان . فان المركب الجبلي لا يلعب ، كما رأينا في الفصل المخصص للمناخ ، دور حاجز . فالتهطلات فيه تكون ممثلة ، مع بعض النواحي ، لأمطار الساحل ذاته .

وهكذا نرى ان تفاوت توزع الامطار في المكان ليس له هنا دور حاسم . بيد ان تفاوت التوزع في الزمان يلعب دوراً رئيسياً ، وهو الذي يحدد الذبذبات الفصلية والسنوية لصبيب الينابيع وبالتالي نظام المجاري المائية . غير ان الوضع الحالي للهيدرولوجيا الجولانية يبدو مستغرباً بالنسبة للتهطلات الغزيرة في المنطقة هذا اذا لم ندخل في الحسبان العوامل الاخرى ، أي الطبيعة الليتولوجية للأرض ومنظومة السفوح والتبخر الشديد .

والواقع يفسّر طابع الهيدرولوجيا الخاسر ، وتفاوت توزيع الينابيع بين المناطق الرسوبية والبركانية ، يفسّر في معظمه بتفاوت النفاذية ، وتسهل شدة نفاذية الصخور عموماً تسرب الماء بسرعة كما تسهل منظومة الميول الشديدة مع الودية الكبرى الهامشية ايضاً التصريف السطحي والباطني للمياه . والواقع يكون

الجريان نشيطاً جداً بسبب القيمة المرتفعة للانحدارات وسرعان ما تجف السيول بعد ان تكون قد سكبت صبيباتها في الاودية الرئيسية وهي الرقاد واليرموك والاردن . وهكذا يتضافر التبخر والتسرب والجريان فوق السفوح الشديدة كي يميز الهيدروغرافية بعدم الانتظام وبالعجز . والعنصر الذي يعمل في اتجاه معاكس هو الينابيع .

١ - الينابيع : وهي تلعب دوراً جوهرياً وذلك فقط كعنصر وحيد في استمرار الجريان بل ايضاً كمصدر للماء الذي لا غنى عنه في الحياة اليومية للناس والحيوانات ولبعض النباتات .

شروط تدفق الينابيع في الصخور الرسوبية

ان المنطقة التي تهمنا هي الحرمون ، اوعلى وجه الدقة ، سفحاه الجنوبي والجنوبي الشرقي . ونلفت الاذهان مرة اخرى الى الاهمية العظمى لهذه الكتلة الخازنة . وتفسر شدة انتشار الصخور الكلسية في منطقة الحرمون وشدة تشققها سهولة تسرب الماء الجوي الذي يسقط بغزارة فوق القمم والسفوح المعاكسة للرياح البحرية . ويستدعي كل هذا وجود جريان ومخزونات من المياه الباطنية . غير ان شروط تدفق الماء تكون متنوعة :

١ - تتدفق اكثر ينابيع الصخور الكلسية على مستوى معين ، في الزمر الكلسية ، في سرير المسيلات اوعلى طول تماس الطبقة الكلسية مع طبقات اقل نفاذية عند حضيضها .

« ليست القاعدة الكريمة هي التي تقود الماء نحو السطح لأن الصخور المتشققة تستمر في الأعماق تحت مستوى الينابيع . فالتدفق ينجم عن اشباع الكتلة الكلسية في الأعماق ، أوعندما ترفض امتصاص المزيد من الماء ، وقد دعيت هذه الينابيع عيون الطفح »^(١١) وباستطاعتنا اعطاء بعض الامثلة في هذا المجال .

11) L.Dubertret Notice de la carte géologique au 1/200.000. Feuille de Beyrouth.

١ - الينابيع المتغذية من الصخور الكلسية الجوراسية .
في جبل حرمون : ينابيع شبعاء التي تتدفق في قاع وادي شبعاء ، ونبع
بانياس . وتتدفق عين تل القاضي من حضيض قبة الحرمون على حافة سهل
الحولة .

٢ - الينابيع التي تتلقى تغذيتها من الصخور الكلسية السينومانية .
وتظهر في سرير الحاصباني عند حافة سهل الحولة وقرب الحدود السورية
اللبانية .

٣ - ينابيع تتغذى من الصخر الكلسي الايوسيني : ينابيع دربل وبيت
جن .

ب - وترد الطبقات السينومانية التي فقدت قاعدتها المارنية الألبانية الماء
من اطرافها عند قاعدة الصخر الكلسي ويكون التدفق هنا مشروطاً بوجود
تناوب من طبقة منفذة سينومانية مع طبقة أخرى كثيفة عند القاعدة وهي
الألبانية .

ج - ينابيع على علاقة بكسر : وتكون العيون الرئيسية هذه مصحوبة
بدفقات كبيرة من المياه : وهذا ما نجده في شبعاء في الحرمون ، وكذلك الحال
في العديد من نقاط الكسر اللبناني السوري ، والصددع هو السبب الأصيل
لتدفق الماء من عين كفر حارب . واجمالاً تكون كل هذه الينابيع على علاقة
بكبر أو صغر مساحة الطبقات المنفذة المكشوفة بفعل الحت والتي تستطيع
التهطالات الجوية ان تتسرب فيها .

هذا كما تكون على علاقة بثخانة هذه الطبقات المنفذة أي بمقدرتها
على احتباس الماء . اما بالنسبة لمجموعة الصخور البركانية فإن الينابيع ،
تكون على الخصوص ، على علاقة بدرجة تقدم الحت الذي يجب ان يكون
قد توصل الى كشف المستوى الكثيم الاسفل .

شروط تدفق الينابيع في الصخور البركانية :

على الرغم من اختلاف طبيعة الصخور الكلسية والمارنيات فان صخور
البازلت والطبقات الترابية فيما بين مسكوبات البازلت تحوي وضعاً وشروطاً
لتدفق الينابيع مماثلة الى حد ما . والواقع فإن البازلت المنفذ بفعل التشقق

يمائل الصخر الكلسي كما ان الطبقات الحاوية على الماء والمتناوبة تلعب دوراً مماثلاً لدور المارنيات والتشكلات الكتيمة في الكريتاسي الأدنى . وهكذا نجد ان شروط تدفق الينابيع تستطيع ان تكشف عن بعض المماثلة مع شروط الصخور الرسوبية .

- ففي كتلة بازلتية تمتلىء فيها شقوق التراجع ، والشقوق الناتجة عن الانفجارات التالية ، بالماء المتسرب . ويتدفق هذا الماء على طول سرير السيل على شكل ينابيع الطفحان . وينجم التدفق ، كما هو الحال في الصخور الكلسية ، عن اشباع الكتلة البازلتية وبالتالي ترفض امتصاص المزيد من الماء (أغشية شبكية)

- ويؤدي اختلاف النفاذية بين مسكوتين بازلتين متعاقبين الى وجود نوع ثان من الينابيع . فالمسكوبات الرباعية التي يحول سطحها الفوضوي دون اي جريان سطحي تمتص ٢٠٪ من الامطار . بيد أنه لم يأت أي ذكر لتدفق مائي فوق السطح الفوضوي ذاته . فالينابيع تظهر على اطراف التماس بين مسكوتين حديثين وبين مسكوبات ناتجة عن فترات سابقة .

- وتلعب الطبقات الترايبية الحاملة للماء دور مستوى كتيمة يمسك بالمياه ، وحيثما تكشفت فإن الماء يصاحبها . وقد ينجم انكشاف هذه الطبقات عن الحت ، كما في سرير السيول وأودية الأنهار أو بواسطة الانسان باللجوء الى الحفر .

- ويكون ظهور الاساس الرسوبي مصحوباً بانبثاق ينابيع تنطبق على أغشية الاساس (انظر شكل ٢٥) .

وفي المواقع فان وادياً محزوزاً بعمق من خلال مسكوبات بازلتية والى مادون خط التماس مع الاساس ، كما في وادي التيم نلاحظ نيز الماء على ثلاثة مستويات مختلفة ، فالمستوى السفلي ينطبق على انكشاف الاساس اما الآخران فعلى الغضاريات الواقعة بين المسكوبات البازلتية ، ولما كان سفحاً هذا الوادي عموديان فان المياه الراشحة تتساقط نحو القاع على هيئة شلالات حقيقية ولكن على مقياس ضامر .

التوزع الجغرافي للمياه التي تقدمها الينابيع .

يجب ان يقوم هذا التوزع على تحديد حصة كل دائرة قروية من الماء الذي تقدمه العيون . ولكن المصاعب عديدة في هذه المجال :

- لا تكون الخرائط المتوفرة ، وهي خرائط تشير الى تقدم أشغال المساحة العقارية والخرائط التي صنعتها القوات الفرنسية الحرة على مقياس ١/٥٠٠٠٠ لا تكون متطابقة دوماً ، فهناك قرى ولاسيما المزارع غير واردة في هذه او تلك من الخرائط . كما لا تكون يناابيع القرى غير الواردة على الخارطة المذكورة ، وبالتالي لانجدها على بطاقات المساحة العقارية (الكادسترو) .
- وهناك صعوبة اخرى لا تزال قائمة حتى بالنسبة للقرى المسجلة على الخرائط والتي تكون يناابيعها مسجلة على بطاقات المساحة العقارية ، إذا لم يتم تعيير الصبيب الآ بالنسبة لعدد محدود من الينابيع .

ومن مجموع مقداره ١٧٠ قرية^(١٢) فان يناابيع ثلاثين قرية قرية فقط كانت هدفاً لدراسة من طرف مهندس ري^(١٣) . وهكذا وتجاه الافتقار الى المعايير فإننا سنكتفي بالإشارة الى عدد الينابيع فوق الخارطة أو بشر كل قرية في المنطقة (انظر خريطة ١١ و ١١ مكرر) . ويسمح لنا التدقيق في الخارطتين المتعلقتين بالتوزع الجغرافي للينابيع باستخلاص الملامح العامة لهذا التوزع .
١ - يلاحظ تكرار الاسماء ذاتها في شمال المنطقة وفي جنوبها مثل رزانية ،

كفر نفاخ الخ .

٢ - ويشار ايضاً الى تفاوت توزع الينابيع ، فلا تتغذى كل القرى من الماء بنفس الوفرة ، فبعض القرى يكون محظوظاً في حين يشكو البعض الآخر دوماً من شح الماء .

- هذا ويبرز غنى قرى القسم الشمالي الغربي من الجولان بالينابيع بجوار حرمون ، وهو خزان مائي ضخم . وبالواقع تكون قرية عنجر ،

(١٢) استناداً الى خرائط اشكال الكادسترو في قضاء القنيطرة وفق وقطنا .

(١٣) م . ج . روماني : تقرير عن المياه المتوفرة في قرى جنوب سورية . مديرية

الري والقوى المائية ١/٨/١٩٥٤

بانياس ، مجدل شمس هي الاحسن حظاً في كل منطقتنا . كما يكون السفح الجنوبي الشرقي للحرمون أيضاً محظوظاً من وجهة النظر الهيدرولوجية . فتجد فيه العديد من الينابيع الكبيرة الصبيب وكذلك مجارٍ مائية دائمة مثل نهر سبراني ، نهري بيت جن ، واخيراً النهر الاعوج ، الذي يجمع كل مياه هذا السفح تقريباً . غير ان المعلوم ان هناك قرى فقيرة بالمياه بل وفقيرة جداً به :
- حينة : فقيرة نسبياً لوقوعها فوق صخور بازلتية ثلاثية .

- حرفا وطرنجة : وهما قرىتان فقيرتان جداً بالمياه لانها تقعان فوق المسكوبة الفوضوية اي الوعرة ، مما يفسر فقرهما .

- ويفسر فقر بعض القرى الأخرى في شمال الجولان ، مثل عين فيت ، زعورة ، جب الميس ، يفسر أيضاً بموقعها فوق لابات رباعية انطلقت من تل احمر .

- ويفسر الفقر النسبي في مجموعة أخرى من القرى مثل كفرلما ، حجلة ، بيت عزة ، كوية بموقعها في قمم سفوح الوادين الكبيرين وهما الرقاد واليرموك . ويقوم هذان النهران بتصريف مياه التسرب باطنياً وتعود هذه المياه لتظهر من جديد في الوادي ، في قاع او فوق السفوح على شكل ينابيع معلقة . ومن هذا يكون تشكل الينابيع السطحية عسيراً .

- هناك قرى واقعة عند حضيض كتل بركانية تجد نفسها في حالة فريدة ، اذ يمكن تفسير فقرها احياناً بتأثير الدايك ، كحالة العدنانية وبريقة ، وقد فسرنا في مكان آخر ، مع بعض التفاصيل ، الحالة الفريدة لهذه القرية .

- ولكن يكون عدد العيون هو الذي يحظى بالاهمية بل أهمية صبيها واستمراريته ، لان للعديد من القرى ينابيع عديدة ولكنها ذات صبيبات ضعيفة جداً ولا تجري خلال كل العام .

٣- ولكن هناك واقع يجب التوقف عنده مع ذلك وهو فقر قرية ما بالماء في الجولان لا يكون له أكثر من مدلول نسبي . ففي بعض القرى يكون مجهود الانسان لاستغلال الماء منعدماً ، ويكتفي السكان باستخدام الماء الذي ينسكب عفواً . تلك هي حالة القرى التي يسكنها اشباه المستقرين العرب او

التركيان القدامى او اسكي تركمان ، مثل كنعابة ، كراحطة ، الكوم ،
القادرية ، مغاير ، رزانية الخ . . .

٤ - أما القرى المحرومة من ماء صالح للشرب والتي تتمون بالانابيب
فتكون قليلة : المنصورة ، جباتا الزيت ، مجدل شمس ، الحشنية ، بقعاتا ،
حينة .

٥ - واخيرا سيكون من المفيد إعطاء الأرقام المتعلقة بالصبيات السنوية
لعدد من مجموعات الينابيع :

٩ عيون بين وادي العلان ووادي الرقاد	١٠٧٦ مليون متر مكعب
٩ عيون بين وادي الرقاد وخط تقسيم المياه	== = ٢٨٠
٦ عيون في منطقة الحمة في اليرموك	== = ٦٣٠٧
١٧ عين في رقعة الصرف المغلق	== = ١١١٨
١٣ عين في رقعة الصرف المفتوح في شمالي حوران	== = ٢٦٧
المجموع	== = ٩١٤٨

وهكذا نلاحظ في هذه المناطق البركانية ، المغلقة على العموم ، ان
الماء لا يكون موجوداً في كل مكان ولا تحت تصرف الجميع . واذا كانت بعض
القرى محظوظة من وجه النظر الهيدرولوجية ، فان معظمها اقل سعادة وقد
تعرض للمشقة ، وذلك على الاقل بصورة وقتية مما يسبب ازمات كارثية على
تربية الماشية وعلى الزراعة ، ونظراً للافتقار الى الادوات والتقنية فان حفر
الآبار وجري مياه الينابيع يكلف نفقات مرتفعة بسبب قساوة البازلت وعمق
الاعشبة المائية .

ينابيع الحمة الحارة

قبل ان نفرغ من دراسة الينابيع علينا ان نقوم بدراسة خاصة للينابيع الحارة التي تتدفق في وادي اليرموك . فعلى الضفة اليمنى لهذا النهر ، وعلى مستوى ١٢٠ م تحت سطح البحر ، وقبل خروج النهر من الوادي المتعمق ، وفوق اراضي قرية الحمة الصغيرة ، تتدفق بعض عيون حارة مع رائحة الكبريت و SH2 . وتظهر للعيان توضعات صغيرة كبريتية بجوار العيون . وتثير ينابيع الحمة اهتمامنا لسببين :

- يكون اصلها ، المتعدد التفاسير ، مرتبطاً بالتاريخ الجيولوجي والتكويني للمنطقة .

- تعتبر الحمة محطة مائية حرارية للاستشفاء وللعلاج والتي يقصدها عدد كبير من المرضى لمعالجة امراض مختلفة .

أصل الينابيع :

بعد ان قام ل . لارتيه L. lartet برحلة استكشافية الى البحر الميت ، وإلى البتراء ، وعلى الضفة اليسرى لنهر الاردن كتب في عام ١٨٧٧ مستنتجاً ما يلي : « لقد نتجت اللابات التي تواكب قاع اودية في ضواحي بحيرة طبرية والبحر الميت عن ظاهرات بركانية ، ربما كان الانسان شاهداً عليها » .

ولقد استأنف دوبرتريه منذ وقت قريب دراسة هذه المناطق البركانية ذاتها ودعم رأي لارتيه . واستناداً الى هذين المؤلفين فإن أصل هذه الينابيع يكون مرتبطاً بالبركة وهي تشهد على مرحلتها النهائية .

وانطلاقاً من فكرة اساسية مشكوك فيها ينسب الدكتور شفيق الصفدي اصلها الى الزلازل وليس الى البركة volcanisme وتكون نقطة انطلاقه هي ان انهيار «الحفرة السورية» كان ناتجاً عن البركة وبالتالي يكون الانهيار المذكور تالياً لجريان مسكوبات اللابة .

وهكذا لا تبدو الجروف البازلتية المتباينة ، التي تؤلف جزءاً من المستوى السفلي للشرفتين المتدرجتين في اليرموك والرقاد ، في نظر الصفدي ، سوى رزم « انزلاق » في هذه المنطقة التي تعرضت للزعزعة وتكون حجته هي انه كان

في عام ١٩٥٢ شاهدنا على مثل هذا الانزلاق في وادي الرقاد . ويقول ان مسكوبات الوادي غير مقبولة لانه لا يوجد اي رماد انبعاثي في وادي اليرموك . ويتساءل ايضاً لماذا « هذه المصاطب البازلتية تكون كثيرة وبمتدة بشكل خاص في قطاع الحمة » . والواقع ترتبط هذه الينابيع الحارة بالنشاط البركاني ودون ادنى ريب وهي تشهد على المرحلة النهائية كما هو الحال في المناطق البركانية الاخرى في العالم وتبدو حجج الصفدي بالواقع عرضة للدحض :

- « فالانزلاق » الذي كان شاهداً عليه في عام ١٩٥٢ لم يكن ناتجاً عن أي زلزال ، بل كان انهياراً وتحديث الانهيارات في هذه الأودية المتعمقة بين فينة واخرى حسب الطرائق البسيطة لتطور سفوح الاودية .

- تنتسب القطاعات المتباينة من الكورنيش جميعاً على مستوى واحد ، وان نظام ارتصاف كهذا لا يمكن ان ينتج عن « انزلاقات » . ويكون سمك الجرف السفلي اكبر من سماكة الجرف العلوي .

- كما ان غياب بؤر انبثاق بركانية على طول اليرموك لا يكون ايضاً حجة كافية لنكران مسكوبات الوادي . فقد نفذت هذه المسكوبات في اليرموك ، قادمة من الشمال وسلكت وادي الرقاد وهذا ما يفسر مظهر الشباب الواضح جداً على هذا الجرف ولاسيما في قطاع الحمة . وقد تعرضت مسكوبات اللابات الحديثة هذه ، بعد أن احتلت قاع وادي اليرموك القديم ، الى التقطع بفعل نهر اليرموك ذاته ، وذلك حسب آلية ولأسباب سبق تفسيرها في معرض كلامنا عن مورفولوجية هذا الوادي . وتعود شدة ارتفاع حرارة ماء هذه الينابيع الى الغرايان الحراري الارضي . « ويعتبر اليوم ان الينابيع الحارة تتغذى في معظمها من مياه قادمة من تكاثف بخار الماء المنطلق من الماغما (ماء بكر) والذي تسفل كي يصل الى السطح ، في كسور وفي شقوق الطبقات العليا من القشرة ، وشحن بالمواد المعدنية » .^(١١)

والواقع فان هذه المياه الساخنة ، القادمة من الاعماق ، تلعب ، بعد مرورها من خلال الاساس الحواري الكلسي ، دور مرجع على الأنهدريت SO_4Ca المتناوبة في تطبقها وتشحن بالتالي بكبريت و SH_2 .

وهكذا اظهرت التحاليل ان مياه هذه الينابيع كبريتية ، وكلورية ، صوديّة ، ومفرطة الحرارة او مشعّة على مقياس اصفر . ويمثل ماء النبع الساخن والصغير والمنعزل على الضفة الشرقية لبحيرة طبرية ، بين نقيب العرب (عين كيف) صفات مماثلة ليناابيع الحمة .

وقد جذبت هذه الينابيع الساخنة انتباه الناس منذ القدم ، ويقصدها العديد من الناس الذين يشكون من امراض مختلفة ، ابتداء من نيسان لقضاء بعض الوقت في الحمة ، وفي معظم الجالات يأتي هؤلاء المرضى دون اية استشارة طبية مسبقة .

كما قد يقصدها اناس سليمون للمتعة ، وهناك قطار يدعى « قطار الزهات » يقوم برحلة بين دمشق والحمة مرتين في الاسبوع حسب الفصل .

وصفات استشفائية لهذه الينابيع الحارة :

لهذه المياه خاصة شافية تجاه بعض الاوجاع والامراض حسب دراسة الدكتور آ . بريز نسكي :

الروماتيزم . لقد اشير الى نجاعة هذه المياه تجاه الآلام الروماتيزية منذ القدم . وتعود هذه النجاعة الى ثلاث خصائص استشفائية هامة هي : الكبريت ، تركز الاملاح ، حرارة مرتفعة بصورة طبيعية .

امراض نسائية : وتكون هذه المياه فعالة تماماً في المجال النسائي بفضل طبيعتها المزدوجة الملحية والكربيتية .

أمراض جلدية : لقد عولجت امراض الجلد في كل الازمنة بنجاح : الاكزيما ، داء الدامل ، حب الشباب الخ . .

الزهري : يستطيع ماء الحمة ، شأن معظم انواع المياه الكبريتية ، ان يكون مساعداً فعّالاً في المعالجة الزئبقية لمرض الزهري .

امراض الجملة العصبية : يبدو ان الامراض العضوية في الجملة العصبية المركزية والهامشية تؤلف فرعاً هاماً من وصفات مياه الحمة الكبريتية

واذا كانت الصفات الفيزيائية الكيماوية والشروط المناخية موائمة بصورة طبيعية ، فإن تقنيات المعالجة ، ورقابة هيئة طبية مختصة ، والرفاه والمتعة ، تعتبر جميعاً بحكم المعدومة تماماً .

٢ - الشبكة الهيدروغرافية

يصاب المعتاد على رؤية اوقراءة النهر التقليدي كما هو معرّف لدى جغرافي الاقطار الرطبة والمعتدلة ، يصاب بالدهشة امام انهار أوبالاحرى أمام الشبكة الهيدروغرافية في سورية . فلا يكون في هذا القطر المتوسطي القاحل اتجاه جريان منتظم ودائم كل العام وينتهي به المطاف الى البحر . فاتحاد مجموعة كثيفة وكثّة ، من مجاري مياه ، ضمن شبكة متسلسلة ، هو امر لا يتحقق في هذه المناطق . والواقع يعمل تقطع التهطلات وقحولة المناخ ونفاذية السطوح المرواة ؛ بالامطار على تلاشي مفهوم الصبيب المناسب مع رقعة الحوض الذي يصرف ماؤه وتساهم في تكبير دور الينابيع . وهكذا نجد انفسنا هنا في منطقة يجب ان نستعيز فيها عن مفهوم « الحوض السفحي » . بمفهوم « الكتل الخازنة » فالكتل الخازنة والينابيع التي تغذى منها هي التي تحقق ، خلال الفصل الحرج ، وجود صبيب شح ، وبالتالي استمرار الجريان على مدى العام .

والحقيقة فان ضعف النسبة المثوية من المياه التي تجري بعد سقوط الامطار - ٩٪ فقط - لم تكن لتقوى على تأمين جريان حقيقي اكثر من فترة قصيرة جداً لو لم تتقدم الينابيع لنجدتها في الوقت المناسب . ويتم الجريان على طرفي خط تقسيم مياه واضح جداً ، يتمثل بالارتصاف الرئيسي لمخاريط البراكين وحسب اتجاه تقليدي من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي . وهكذا يتجه قسم من الماء نحو وادي الرقاد وشرطي آخر نحو نهر الاردن .

ويظل خط تقسيم المياه السذي يبدأ من تل عمورية ، عند قدم الحرمون ، يظل واضحاً وصحيحاً حتى تل الفرس حيث يصبح خط تقسيم المياه من بعده غامضاً ، ويتم الجريان من هذه المنطقة في ثلاثة اتجاهات : نحو الشرق ، نحو الغرب ، ونحو الجنوب . وتصب المياه التي يجمعها الرقاد في نهر اليرموك الذي ينقلها بدوره لنهر الاردن . وهكذا يصرف هذا الاخير مياه كل

الجولان مباشرة بواسطة اودية تنحدر من السفح الغربي للجولان وبصورة غير مباشرة بواسطة الرقاد واليرموك .

وهكذا يكون دور كتلة الحرمون الخازنة هاماً ، فهو الذي يتمخض عن ينابيع تغذي الانهار مثل : نهر بناس ، والدان والحاصاني ، وهي الانهار الثلاثة التي يتشكل منها الاردن . وبعد ان كان تأثير الحرمون على نهر الرقاد في الماضي جوهرياً أصبح ضئيلاً نوعاً ما بفعل المسكوبة الرباعية التي تؤلف الوعة التي حولت مياه سفح الحرمون الجنوبي الشرقي نحو الشرق ، اي نحو الهيجانة ، على حساب نهر الرقاد .

والواقع كانت مياه الاعوج الحالي تابعة لنهر الرقاد ، وبالتالي لنهر الاردن . ويفسر جفاف عالية نهر الرقاد في الصيف اذن باقطاع ينابيعه الرأسية بمسكوبات الوعة البازلتية الرباعية التي غطت مساحة ٢٣٠ كيلومتر مربع محرومة من اي جريان سطحي ، او الرقع ذات الصرف الضامر .

ولا يكون نظام انهار الجولان ، كما هو الحال في كل سورية ، موائماً لتطور متقدم . ولما كان هذا النظام مرتبطاً بنظام الامطار كما نعرف ، فهو لا يوائم الحث الا في خلال فترة قصيرة من العام وخلال القسم الاكبر الجاف من العام تصاب المجاري المائية « بفقر دم » او « أنيميا » ولا تمارس تقريباً اي حث خطي .

والحقيقة يشهد الشتاء فيضانات عنيفة مع مقادير عظيمة من المياه القادمة من الاحواض السفحية وناجمة عن الزخات ، وعلى العكس ينقطع الجريان نهائياً خلال الفصل الجاف .

فوادي الرقاد ، المعروف بفيضاناته الكارثية في الشتاء ، ولا سيما في الربيع ، على اثر ذوبان ثلوج الحرمون ، ينكمش صيفاً ليتحول الى بعض مستنقعات منعزلة في مجراه الاوسط والى خيط من الماء ذي صبيب ضعيف في السافلة . وتشتمل الشبكة الهيدرغرافية في الجولان ، والتي أشرنا الى صفاتها العامة فيما تقدم ، على ثلاثة انهار رئيسية تستخدم كحدود طبيعية للمنطقة . وهذه الانهار هي الاردن واليرموك والرقاد .

فالاول هو الشريان الرئيسي أما الآخران فليسا اكثر من رافدين مباشرين

لأول . وهكذا تجمع هذه الانهار الثلاثة وتصرف كل مياه سطح المناطق
البركانية في سورية الجنوبية .

الأردن :

انه احد انهار الاخدود الاوسط السوري الفلسطيني ، وذلك حسب
التعريف التقليدي . واذا تركنا جانباً الاعتبارات السياسية والحدود الطبيعية
فان الاردن عبارة عن نهر جولاني من حيث المنشأ . فجل الحرمون هو الذي
يغذي ينباعه الغزيرة الانهار الثلاثة الرئيسية التي تشكل الاردن وهي : نهر
بانياس ، نهر اللدان ، نهر الحاصباني .

وقد كانت كل هذه الينابيع في الجولان حتى عام ١٩٢٨ عندما قامت
السلطات المنتدبة الفرنسية بتعديل الحدود كي تمنح دولة لبنان الكبير ينابيع
الاردن الرئيسية . ومن ناحية اخرى فان الروافد الرئيسية القادمة من الجولان
وحتى حوران ، لا سيما اليرموك ، تجلب اليه ايضاً كمية عظيمة من المياه ،
فاليرموك يقذف لوحده كمية من المياه تعادل صبيب الاردن ذاته . وهناك ينابيع
لا تحصى ومجموعات من عيون ترتصف عند حضيض النشز الشرقي « الشفا »
لنخفض الحولة وتساهم في تغذية شبكة كثيفة جداً تؤلف نهيرات صغيرة
متفاغمة تكون تابعة للاردن .

واذا كان نهر الاردن يستمد ينباعه عملياً من بحيرة الحولة ، فذلك لان
كل مياهه القادمة من عالية البحيرة تتجمع فيها . ولا تتحد هذه المصادر المائية
عملياً في تيار واحد الا بعد خروجها من بحيرة الحولة .

ويتجه نهر بانياس ، بعد ان يجمع مياه وادي كانيا ومياه ينابيع بانياس ،
يتجه الى الجنوب الغربي كي يصب في منخفض الحولة مع صبيب يبلغ
٢٠ متر مكعب ثانية^(١٥) . وبعد ان يقطع مسافة ١٠ كيلومترات يلتقي بنهر
اللدان « الافضل تغذية »^(١٦) من بين الفروع الاربعة التي تشكل الاردن .
ويصادف هذا المجرى الموحد ، على مسافة ليست بعيدة عن المقرن ، رافداً ،

15.. Abel. précité: tome 1.P.162

16..J. Dresch précité P:273

آخر أيمن ، هو نهر الكاروني . ويأتي نهر الحاصباني وهو الأكثر طولاً من الانهار الاخرى ، ليلتقي بالاردن جنوب القرن السابق بحوالي ٦٠٠ م .
بيد ان اجتماع هذه الانهار لا يستمر لمدة طويلة ، اذ ينشطر المجرى الموحد الى فرعين قرب قرية الصالحية ويتخذ الفرع الغربي ، لأول مرة ، اسم الاردن ، بينما يشار الى الفرع الشرقي باسم نهر التورة . ويلتقي الفرعان الآخران ببحيرة الحولة ، بصورة منفصلة ، بعد ان اجتاز منطقة مستنقعية واسعة . ويأتي وادي البراغيث من غرب نهر الاردن ووادي الكالي من شرقه ويسيران موازيين له كي تضيق مياههما في المنطقة المستنقعية ويعجز عن الوصول الى بحيرة الحولة (انظر خارطة رقم ١٢) .

ومما يجدر ذكره انه تم تخفيف معظم هذه المنطقة المستنقعية مؤخراً واصبحت افضل جرياناً في قنوات محدودة ، بفعل الصهانية ، ذلك من اجل استغلال الارض للحقبة الخصبة ، اي ارض الحولة ، وللتخلص من البرداء الضارة بالسكان . ويقع هذا الغشاء من الماء العذب ، اي بحيرة الحولة ، على ارتفاع ٧٠ م وقد حجزتها لاباب الجولان ، وتتخذ شكل مثلث يقع رأسه في الجنوب حيث ينطلق منها نهر الاردن . وتكون ابعاد هذه البحيرة صغيرة فلا يزيد عرضها عن ٥ كيلومترات مقابل ٦ كيلومتر طوياً تقريباً ، ولا يزيد عمقها عن ثلاثة الى خمسة امتار عند قدم السد البازلي . ولا تلعب الحولة بالتالي دوراً تنظيمياً ذا بال . ويكون نظامها كنظام روافدها ، متصفاً بحد اقصى في شباط (٥٠م / ٣ / ثا) والذي يحذره ذوب ثلوج الحرمون ، وبحذ ادنى يدوم مدة اطول في حدود خمسة امتار مكعبة في الثانية فقط . وبعد ان يخرج الاردن من الحولة بمسافة ٣ كيلومترات يبدل مظهره الهادئ كي يتعمق ابتداءً من جسر بنات يعقوب ، وينهمر في خانق حقيقي محزوز في اللابات البازلتية حيث تحتجب مياهه تارة بفعل التعمق وتارة اخرى لوجود رواق من اقصاب او من صفصاف ودفلة .

وهنا يأخذ نهر الاردن عملياً اسمه الاصلي : « ياردن »^(١٧) الذي يعني

بالعبرية « الذي ينزل » أو اسمه العربي « الاردن »^(١٨) ومعناه الذي ينهمر .
ويطلق العرب على الاردن اسماً آخر في هذه القطع ذاته وهو الشريعة .

وقد استطاع نهر الاردن ان يحفر ، بين الحولة وبين بحيرة طبرية ، التي تبعد ١٧ كم جنوب الاولى والتي تقع على ارتفاع ٢٠٨ أو ٢١٢ م^(١٩) تحت مستوى البحر ، اقول استطاع ان يحفر ، بسبب هذا الفارق العظيم في المستوى ، خانقاً ضيقاً في صخور البازلت حيث يكون انحدار خط قاعه بحدود ١٢ بالالف . وعلى مسافة كيلومتر واحد فقط جنوب علمين ، يصبح سرير الاردن على مستوى سطح البحر . ويتعمق اكثر فاكثراً باتجاه الجنوب كي يبلغ ارتفاعاً مساوياً لارتفاع بحيرة طبرية ، اي - ٢٠٨ م . وعلى مسافة كيلومتر واحد من مصبه في بحيرة طبرية يغير الاردن ملامحه ، فلم يعد نهراً سليماً متوحشاً ذا ضفاف قائمة كما كان بعد خروجه من بحيرة الحولة . ولسهل البطيخة الصغير (خارطة رقم ٧) الواقع على ضفة البحيرة مظهر سهل مستوى اساس حقيقي حيث يترشح النهر على شكل اكواع ويؤلف شبكة متفاغمة من قنوات صغيرة وجداول .

ولبحيرة طبرية شكل بحيرة الحولة ذاته ، ولكن على مقياس اكبر فيبلغ طولها ٢١ كم من الشمال و ١٢ كم في اكبر عرض لها . وتبلغ مساحتها ١٤٤ كيلومتر مربع ويختلف مستواها حسب الفصول والسنوات بين ٢٠٨ و ٢١٢ م دون مستوى المحيطات ويتراوح عمقها بين ٤٢ و ٤٨ م نحو الوسط ونحو الشرق . وتكون مياه البحيرة عذبة مع ملوحة خفيفة على المذاق . وتنظم بحيرة طبرية الصبيب الذي يرتفع بفجائية نوعاً ما بين كانون الاول وآذار حيث يبلغ ٦٠ متراً مكعب ثانياً كي يهبط بعدئذ بهدوء الى ٢٠ متر مكعب/ثا . ومنذ ١٩٣٢ حتى ١٩٤٨ كان تنظيم صبيب الاردن بواسطة

(١٨) شاكر مصطفى . جغرافية البلاد العربية . دمشق ١٩٥١

(١٩) وهو المستوى المتوسط لمياه بحيرة طبرية في كانون الاول ١٩٣٧ استناداً الى

خارطة روشينا مقياس ١/٠٠٠٠ .

البحيرة يرتبط بالواقع بالخزان الذي كان يشكل جزءاً من المركز الكهربائي لشركة كهرباء فلسطين . وكان للخزان سدّ أقيم عند نقطة مقرن اليرموك مع الاردن » ولكن خلال النزاع العربي - الاسرائيلي في عام ١٩٤٨ تخربت هذه المؤسسات «^(٢٠)

ولا يدخل الاردن في مجال اهتمامنا بعد خروجه من بحيرة طبرية . وسنذكر باختصار فيما يلي روافد الضفة اليسرى لنهر الاردن :
وادي العسل : وينشأ في الحرمون قرب الحدود اللبنانية السورية ، الى الجنوب من شعبا (خارطة ٦) ويسلك هذا المجرى في صدع شعبا مما يمنحه مساراً مستقيماً نوعاً ما ومتعمقاً في بعض الامكنة . ويمر الى الغرب من بانياس ويلتقي بنهر بانياس في سهل الحولة .
- وادي الخشبي : ويهبط من حرمون ويلتقي بنهر بانياس في هذه القرية ذاتها .

- وادي السعرة : وينشأ في جنوب شرق مجدل شمس ويهبط نحو الجنوب حتى مسعدة . وحيث يتغير اسمه واتجاهه ، ويتخذ اسم وادي كانيا ، ويتجه نحو الجنوب الغربي ثم تقسره مسكوبات تل احمر الحديثة على ان يتجه نحو الشمال الغربي في وادي عميق ويلتقي بنهر بانياس بالقرب من القرية والى الغرب منها قليلاً .

وبين بانياس شمالاً وحتى جوار سكيك وخان السمان تكون الضفة اليسرى للاردن شبه محرومة من اي جريان قد يرفد الاردن بسبب المسكوبات البازلتية الحديثة التي توجد في هذه المنطقة « رقعة صرف ضامر » . ولكن مقابل ذلك تعود المياه التي تتسرب بنسبة كبيرة في السطح الفوضوي للظهور عند قدم الجرف على شكل ينابيع عديدة .

والى الجنوب من هذه المنطقة المحرومة تظهر الاودية من جديد ، متوازية فيما بينها ، ومتعامدة مع نهر الاردن :

(٢٠) صبحي مظلوم « حول مشورع جونسون » مجلة الجندي . دمشق حزيران

- وادي الدفيلة : ويستمد منبعه من قرب السماقة ، ويمر من جنوب زعرتة ويهبط في منخفض الحولة قرب برجيات .
- وادي غرابة : وهو شبه مواز للسابق ، ولكنه اكثر طولاً وأفضل تغذية بالينابيع . وينشأ الى الشرق من واسط ويتعمق في صخور البازلت من الجرف الشرقي للريفت Rift .

- اما وادي الدبّوس ، ووادي الهندال ، ووادي الناشف فهي اصغر ابعاداً من الاودية السابقة وتصب في مستنقعات شمالي الحولة .
- لكن وادي الحسينية ، ووادي دبورة ، وادي جليبية الكبير ، ترفد بحيرة الحولة مباشرة (انظر خارطة ١٢) واكثر اودية الجولان هي التي ترفد بحيرة طبرية : وهي وادي الهوا ، وادي الصفا ، وادي الدفيلة ، ووادي شيش علي التي تصب في بحيرة البطيحة وتنتهي في بحيرة طبرية (انظر خارطة رقم ٧) . ويعتبر وادي السمك احد اكثر اودية الجولان أهمية ، وهو آخر رافد لبحيرة طبرية .

والى الجنوب من وادي السمك يصبح جرف الريف مستقيماً الى حدّ ما حتى وادي نهر اليرموك وهو اكبر رافد لنهر الاردن . وفي الواقع تلعب هذه الاودية رغم ضعف صبيبها دوراً هاماً في نشاط السكان الانتاجي . فلا تضيع قطرة ماء عثاً ، اذ تستخدم هذه المياه بعناية في ري المزروعات ، ولا سيما في زراعة الرز التي توسعت في منطقتنا منذ خمسة عشر عاماً فقط .

اليرموك :

وهو الذي يصرف مياه اكبر جزء من المناطق البركانية في سورية الجنوبية . ويمتد حوضه على ٧٥٨٤ كيلومتر مربع . ويجمع اليرموك بالفعل مياه المساحة الكبرى بواسطة بضعة روافد سورية و اردنية . ولن نهتم في هذا المجال بغير روافد الضفة اليمنى وإهمها هي : الهرير ونهر الرقاد . ويجلب الاول لنهر اليرموك مياه حوران ومياه السفح الغربي لكتلة جبل الدروز ، اما الثاني فيأخذ على عاتقه تصريف مياه سفح الجولان الشرقي ، ونهر العلان الذي يدعى وادي العلاك في الشمال وهو الرافد الثالث لنهر اليرموك ويجري موازياً لوادي الرقاد في المنخفض ذاته .

وفعلاً يبدأ نهر اليرموك بمسيل مزيريب الذي يشكل رأس اليرموك .
ويكون هذا النهر ، او بالأحرى الشبكة الهيدرغرافية التي تتعلق به ، يكون
في حالة ركود شبه كامل . ففي الرواقد التي يجري فيها الماء باستمرار يكون
الصبيب هزياً للغاية ، لان صبيب وادي الهرير يبلغ ٣٠٦ لترات / ثانية عند
طاحون الديلي . وابتداء من غرب المقارن ، المؤلف من تلاقي ثلاثة جداول
وادي الميدان ، وادي الهرير ، وادي علان ، يصبح اليرموك نهراً جولانياً ،
وعلى الرغم من ضعف صبيه فانه يتصف بانتظام الجريان خلال الفصل
الحار .

ويعبر الخط البياني لصبيب اليرموك في وادي خالد^(٢١) ، عن طريق انتظام
صبيبات الشح ، عن اتساع الشبكة الباطنية التي تغذي ينابيعه . ومن ناحية
اخرى فان فجائية واهمية الفيضانات الصيفية تدل على ان المنطقة البازلتية
لا تكون منفذة للغاية وان الحوض السفحي لليرموك واسع جداً^(٢٢) .
وهذا يفسر ان لليرموك صبيباً مماثلاً تقريباً لصبيب الاردن حتى في سافلة
بحيرة طبرية « اذ يجلب اليرموك للاردن حوالي ٤٨٠ مليون متر مكعب في
العام ، اي لا اقل من الاردن ذات عند خروجه من بحيرة طبرية ، أي
٤٥٠ مليون متر مكعب »^(٢٣) .

ويعكس نظام اليرموك السنوي ، مع ذلك ، نظام الامطار ، ويكون
الاختلاف بين صبيبات الشتاء وبين مثيلاتها في الصيف ضخماً . ويكون
صبيه الشتوي أكثر بكثير من ١٠٠ متر مكعب / ثا او عشرة اضعاف الصبيب
المتوسط^(٢٤) او ٢٠ ضعف الصبيب .

(٢١) وادي خالد : محطة قطار الى الغرب من افتراق اليرموك بنهر الرقاد .

22.. L.Dubertret: L'hydrologie et aperçu sur l'hydrologie de syrie et du Liban dans
leur relation avec la géologie. P:443. Rev de géog.phys et géol dyn.

23..J.Dresch, précite P:275

(٢٤) تنظيم الموصل : مسألة المياه في سورية . بالفرنسية ص ٦١

الرقّاد

بعد انقطاع ينابيع الرقّاد العليا بفعل انسياحات البازلت عند حضر وتشوّه مساحة كبيرة محرومة من الجريان « الوعرة » لم تعد عالية الرقّاد سوى منخفض واسع ، قليل العمق ، يستخدم بتفريغ مياه الامطار الشتوية ومياه ذوب الثلوج القادمة من الحرّمون في بداية الربيع نحو الجنوب .

أما في الوضع الحالي للأمورفان المجري الاعلى للرقّاد ليس أكثر من سيل حقيقي يكون حوض استقباله واقعاً بين خان أرينبة ، عوفانية ، جباتا الخشب ، مسعدة ، وبقعاتا .

وتتوّحد المياه التي تتجمع في هذا الحوض في سرير متفاوت في وضوحه الى الغرب من الاحمدية . ويتم الجريان باتجاه شمالي جنوبي . وعند اقترابه من قرية الرقّادية يسترد السرير مظهر منخفض واسع يصل عرضه الى ٣-٤ كيلومترات . غير انه من الممكن ان نميز في هذا المنخفض ذاته مسيلات منفصلة حيث يجري الماء دون ان يتمركز في سرير واحد . غير انه خلال الفيضانات ، ولا سيما الربيعية مها ، يستطيع الماء ان يوحد عدداً من هذه المسيلات في سرير أعظم .

وقد رسبت مياه السيول الوحشية في هذا المنخفض العريض طبقة سميكّة نوعاً ما من الحقيّات ، ومن هذا تشكلت تربة خصبة يخصّصها الفلاحون لزراعة الصيفي .

وفي هذا الغطاء اللحقي تظهر الينابيع ذات الصبيب المتفاوت في أهميته مثل عين الباشا ، نبع الصخر الخ . . ولا تستطيع هذه الينابيع ، رغم ديمومتها ، ان تحقق جرياناً مستمراً خلال الصيف ، لكونها تؤمّن الماء للقطعان والري المحدود الرقعة . وهكذا ينكمش الرقّاد ، بعد تفريغ مياه الامطار وذوب الثلوج ، الى زمرة من الغدران المنعزلة المبعثرة على طول السرير . وتلعب هذه الغدران دوراً هاماً جداً للرعاة البدو ، إذ يجدون فيها مورداً طبيعيّة لماشيته .

ويستمر الرقّاد ونهر العلاك (عالية وادي العلّان) في سيرهما الثنائي في المنخفض ذاته حتى قرية غدير البستان . وينحرف الرقّاد ابتداء من هذه القرية

نحو الجنوب الغربي حيث حدث أسر لمصلحة وادي التيم . وابتداءً من غدير البستان يصبح مجرى الرقاد تياراً دائماً رغم ضعف صيبه ، ويفسر هذا الاستمرار بكثافة امتداد الشبكة الباطنية الرافدة بسبب تقدم الحت .

هذا ويجب ان ندخل بالحسبان الفيضانات التي تأتي بمقادير عظيمة من الماء على شكل موجات مزججة ، والتي تصبح عند تجاوزها السرير ، واغراقها طريق القنيطرة الشيخ مسكين (قرب 'جسر الرقاد') ، تصبح مخيفة وكارثية . ويكون الانحدار ضعيفاً بين غدير البستان وجسر الرقاد القديم^(٢٥) فتكون بحدود ١ بالالف لهذا تظل الجلاميد الصخرية متركمة بصورة فوضوية .

ويلعب جسر الرقاد القديم دوراً أصيلاً على مياه الفيضانات فهذه المياه عند مرورها من تحت قناطر الجسر الثانية ، تصدم دعاماته وتزود بالتالي بحركة دوامية ذات محور عمودي آدي لحفر قدور كبيرة بواسطة الحصى والحصباء التي تدور حسب آلية دعاها غ . ك . جلبرت eversion^(٢٦) . وقد تم اقتلاع غشاء من مسكوبة وتظهر أخرى أكثر تماسكاً في قاع قدر الجبابرة .

ويغير وادي الرقاد فجأة من صفاته على مسافة غير بعيدة من هذا الجسر القديم ، ذلك ان انقطاعاً عنيفاً في الميل في المقطع الطولاني ، يؤدي لنشوء شلال على رمية تزيد عن ٦٠ متر . وابتداءً من هذا الانقطاع في الميل يغير الرقاد اتجاهه واسمه ومظهره ، ويتخذ اسماً جديداً هو وادي التيم ، ويتجه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي ويشكل زاوية أو انعكاساً مع المجرى القديم ويتحول الى خانق حقيقي ويختلف جذرياً مع الرقاد الحقيقي . ويفسر ذلك بحدوث أسر . والواقع لقد كان وادي التيم رافداً ثانوياً لليرموك ومستقلاً عن الرقاد . فعلى إثر حدوث انخفاض حديث في مستوى الأساس لسبب مناخي أو انكباس ، حدث حث تراجع عنيف انطلق من نهر اليرموك وروافده ، باستثناء الرقاد الذي كان جافاً تقريباً بعد أن خسر رأس ينابيعه بسبب انسياح مسكوبات الوعرة الحديثة

(٢٥) جسر قديم مصري تم بناؤه أثناء احتلال ابراهيم باشا لبلاد الشام .

26.. J.Bourcart: le mécanisme de l'érosion. 1ce partie.P:49

ومنذ أن أخذ وادي التيم يرجع برأسه نحو الشمال الشرقي استطاع أن يلتقي بالرقاد وأسر ساقية الماء التي كانت تجري فيه . وبشكل العكس الذي يصنعه وادي التيم مع الرقاد وكذلك الوادي المهجور حيث تتعاقب قنوات العكس ، غير واضحة المعالم ، حتى المصب القديم ، يشكلان قرائن كبيرة على الأسر .

والواقع يعتبر خائق التيم من صنع الحت التراجعي كما أن رأسه المؤلف من شلال لا يكون أكثر من النقطة التي توقف عندها الحت التراجعي الذي انطلق بفعل انخفاض مستوى الأساس ولنهوض الجولان بالتعويض . ويتم التواصل بين الوادي الظافرو وبين الوادي المأسور بواسطة هذا الانقطاع الفجائي في الميل ، لأن صبيب الرقاد ضعيف ومتقطع .

البحيرات : يمكن اعتبار كلاً من بحيرة الحولة وطرية سوريتين ، هذا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الشروط الجغرافية وذلك بالنصف على الأقل . ولكن البحيرة الأولى تقع كلياً في إسرائيل ضمن الوضع الحالي للحدود السورية - الفلسطينية ، أما فيما يتعلق بالثانية فإن ما يخص سورية هو جزء من الضفة الشمالية الشرقية ، وبالتحديد هو القطاع الواقع بين مصب نهر الأردن (الحاصل) والنقب العربي . وهكذا سنقتصر على بعض المعلومات المقدمة عن هاتين البحيرتين بمناسبة دراسة نهر الأردن فيما يتعلق بأبعادهما وعماقهما . والبحيرة الوحيدة التي تكون جولانية هي بحيرة ران أو مسعدة ، وهي بحيرة تستقر في فوهة بركانية قديمة ، إنها إذن من نمط بحيرات 'maare' .

ويبلغ طولها ٨٥٠ م مع عرض ٣٥٠ م ولا تغطي بحيرة ران سوى خمسة هكتارات من المساحة . وهكذا فإن التسمية المحلية وهو « بركة ران » هي أكثر دقة من عبارة بحيرة . وقد تمتعت هذه البركة الصغيرة التي كان اسمها بحيرة فيالا phiala بشهرة قديمة تحتوي على نظرة أسطورية تقول بأن الأردن يدين بمياهه إلى عين فيالا «^(٣٧)» . وفي أيامنا هذه تبدو بركة ران عجيبة وحافلة بالالغاز ، وهذا ما حدا بقائم مقام سابق في القنيطرة في عام ١٩٥٢ إلى طرح

مشروع تزويد القنيطرة والقرى المحرومة من مياه الشرب من مياه هذه البركة .
وقد عهد الى مهندس سوري ، في المناسبة ، بتحضير تقرير حول
طبيعة مياه البحيرة هذه وأصلها . وقد دلّ التقرير المذكور^(٢٨) ان الماء في وضعه
الحالي لا يصلح للشرب اطلاقاً ، وان للينابيع التي تغذي البحيرة صيباً
ضعيفاً وبالتالي يبدو المشروع غير ممكن التحقيق . والواقع تعتمد بحيرة ران في
تغذيتها على ينابيع صغيرة . ويعود معظم مائها لأصل مطري . هذا
ويخضع مستواها لتبدلات فصلية محسوسة جداً . وهكذا يبدو ان المياه المخزونة
في فوهة الكراتير هذه تعود ، في معظمها ، من حيث الاصل لركود مياه
الامطار . وما ان امتلأت هذه البركة حتى احتفظت بمستواها المتوسط لأن ما
تخسره بالتبخّر الطبيعي يتعوض بالامطار الغزيرة في هذه المنطقة ، ومن دعم
محتمل من بعض الينابيع . ويأتي لون وكثافة الماء لدعم مثل هذه الفكرة .

سادساً - الماء والانسان

لا يمكن التحدث في معرض كلامنا عن منطقتنا ، اي الجولان
البحث ، عن مشكلة مطلقة ووحيدة . وإذا ما وجدت هذه المشكلة حقاً فانها
تطرح مع ذلك بطرائق ومقاييس مختلفة حسب الأمكنة المدروسة . فعندما
نتكلم عن عوز أو عدم كفاية ماء الشرب الضروري للسكان فإن المشكلة لا
تطرح الا بالنسبة لعدد محدد من القرى ، كالقرى المتباعدة عن الينابيع
لاعتبارات دفاعية مثل جباتا الزيت ، ومجدل شمس والقرى الدرزية الأخرى
أو عبارة عن قرى سكنها البداءة المستقرون منذ عهد قريب ممن لا يعرفون طريقة
البحث عن مياه باطن الارض ، ويرون أنه من الأسهل الذهاب للبحث عن
الماء حيث يظهر عفوياً على السطح . وبدولنا ان مشكلة كهذه المشكلة هي
نسبية ، إذ يمكن التوصل للماء مع أقصر جهد وبأكثر التقنيات بساطة .
وتكون المشكلة أكثر جدية بل وحتى مطلقة ايضاً عندما يتعلق الأمر بمقادير
كبيرة من المياه الصالحة للاستعمال من أجل ري مساحات كبيرة بقصد انشاء
مزروعات جديدة . وتكون التقنية أقل ضماناً أمام هذه المهمة ، فالحفر والضخ

(٢٨) م . العمري : تقرير عن تزويد القنيطرة بالمياه من بحيرة ران ١٩٥٢/١/٢٨

لا يوفران احياناً بل غالباً ما يكفل مياه الشرب للقرى التعيسة .
ونطرح مشكلة المياه أيضاً على مستويات مختلفة :

- على مستوى العائلة : فعلى العموم يجب القيام بنقل الماء الضروري للحياة اليومية من العين أو من البئر العام يوماً فيوماً . وترجم هذه المشكلة المستديمة في الحياة الريفية بالضرورة المرهقة اي نقل الماء اليومي .

- على مستوى الحي : ففي القرى ذاتها ، يمكن ان يكون احد الأحياء محروماً من الماء وعلى سكانه أن يذهبوا لجلب الماء من الحي الذي فيه العين العامة . وعلى هذا المستوى تظل المشكلة شبه مستديمة .

وهكذا فان الترحمان في قرية الجوزية يقصدون حي الجراكسة لنقل الماء حيث تكون ينابيع العامة عديدة .

- على مستوى القرية : قد تكون قرية برمتها محرومة تماماً من الماء هذا في حين ان قرية أخرى . بجوارها ، تملك ينابيع ثرة حتى في السنوات العجاف . ويذهب سكان الاولى للتزود بالماء من القرية الثانية . ولا تكون مشكلة الماء ، على هذا المستوى ، نادرة .

على مستوى مجموعة قرى : هناك عدد معين من القرى تضطر للقيام سوية في البحث عن الماء . وتلك هي حالة القنيطرة ، الاحمدية ، جباتا الخشب ، طرنجة ، حضر ، وبيت جن . فكل هذه القرى التي تعاني من التزود بالماء ، تجد ينابيع غزيرة الى الشمال من بيت جن ، وهي المصدر الوحيد القادر على تأمين حاجاتهم من الماء .

- على مستوى المنطقة وحتى على مقياس يتجاوز الجولان وذلك عندما تواجه تقنيات استغلال وتنظيم هيدروليكي ، فاستغلال القوة الهيدروليكية لشلال تل شهاب لا يمكن ان يتم إلا على مستوى سورية الجنوبية ، وحتى لاكثر من ذلك وهناك مهندس يقدم مشروعاً لنقل التيار الكهربائي حتى دمشق لمواجهة الحاجات المتزايدة تدريجياً بتأثير تصنيع هذه المدينة . وهكذا تلعب هذه المادة الحيوية في المرتبة الاولى ، دوراً أكيداً ، ولكن تحت مظاهر مختلفة ، في حياة المجموعات البشرية في منطقة الجولان .

١ - مشكلة المياه وظاهراتها في حياة المجموعة البشرية

تتجلى أهمية الدور الذي يلعبه الماء في حياة الجولان البشرية والاقتصادية على شكل بضعة مظاهر مختلفة ومحسوسة . فموقع القرى والساكنين يفسر بعدد من العوامل من تاريخية واقتصادية وحتى قومية ولكن الماء يعتبر العامل الحاسم اكثر من سواه . وفي الحقيقة كان اختيار مواقع العديد من التجمعات الريفية مفروضاً بوجود الماء . فقد قامت القنيطرة نفسها ، وهي المركز الاداري للقضاء الذي يحمل الاسم ذاته ، على أيدي المهاجرين الشركس في القرن التاسع عشر في موقعها الحالي بسبب الماء . فوجود نبع يجري منه شريط من الماء هو الذي شد انتباه هؤلاء الأغراب الذين كانوا يهيمنون على وجوههم في بلد مجهول . ونلاحظ خلال العملية الحالية لتوطين البدوان الماء هو الذي يلعب الدور الجوهري في اختيار موقع استقرار التجمعات الجديدة .

ويبدو دور الماء أيضاً أكثر من ذلك في حياة البدو . فلا نجد إطلاقاً خياماً أو مداشر بعيداً عن مصادر الماء . ولا نريد ان نتوصل بالطبع الى حتمية الماء : فوجود الماء في موقع لا يؤدي بالقوة لنشوء قرية . بيد ان وجود الماء يظل مع ذلك شرطاً موائماً بل ضرورياً دون ان يكون كافياً .

ويلعب الماء أيضاً دوراً عظيماً في شكل المسكن الريفي الذي يبدو عموماً منضماً في قرى متفاوتة في أبعادها . ولا يكون الماء بالطبع هو العامل الوحيد في هذا التجمع ولكنه الأكثر بروزاً . ولما كان الفلاحون او البدو يجهلون أية تقنية هيدروليكية ، وبجدران من التجهيز الضروري للتوصل الى الماء ، فهم يتجمعون بالتالي حول النقاط التي يبتثق منها الماء عفواً أو حول النقاط التي يكون فيها من السهل بلوغه عن طريق الحفر . فقرية البريقة التي يسكنها ٤٨٤ نسمة تبدو مجتمعة حول بئر وحيدة ومشاركة من أصل روماني والتي تنضب خلال سنوات الجفاف المستفحل . كما ان البحث عن الماء هو الذي يفسر أخيراً حركية سكان الشرق الاوسط العربي ، حركية تتجلى بقطاع عريض من البدو . ويكون البدو في الجولان كثيرين ويتجلى نشاطهم الرئيسي في البحث الدائب عن الماء وصاحبه أي العشب .

وقد تراءت حركية هذه الاقوام خلال التاريخ على مقياس كبير . ويدلو أنه من التقليدي المؤلف اعتبار الجفاف كسبب لاجتياحات الهلال الخصيب من طرف الجحافل التي كانت تأتي للبحث عن الماء وما يتفرع عنه . وفي الحقيقة كان التضاد بين الحضر والبدو ، او بالاحرى ، بين نمطي حياة مختلفتين ، كان يميز ، حتى عهد قريب منا ، تاريخ منطقتنا . وفيما عدا البدو المحليين ، كانت هناك قبائل جمالة ، ولاسيما من عنزة ، كانت تقصد الجولان قادمة من شبة جزيرة العرب لرعي ماشيتها في حصيد وفي مراعي هذه المنطقة . وكانت إبلهم لا تكتفي بالعشب بل تستنزف العديد من احتياطات القرى من المياه ، وهكذا جرت اشتباكات عديدة بين شراكسة المنطقة وبين بدو عنزة المغيرين وتعرض الجانبان ، بالتالي ، لخسائر جسيمة .

ويكون هذا التنافر في أيامنا هذه ، ظاهرياً أكثر منه حقيقياً . فقد اصبحت العلاقة حميمة وودية بين البدو والفلاحين ، وتبدو البداوة أكثر فأكثر على شكل اثر موروث . فالبدو يستقرون حيثما وجدوا امكانية للعثور على الماء مع بعض قطع من الارض حولها . وما ان يحصلوا على مبلغ من المال السائل حتى يشترون الاراضي مهما صغرت مساحتها وتدنّت نوعيتها ، اي ان هناك هجمة حقيقية بدوية نحو « الارض » . وذكر ويلرس weulersse في عام ١٩٤٦^(١) ، ولكن هذا الرأي غير مقبول ولا مبرر في أيامنا ، ما يلي : « ان تفوق البدو وما يكافئه من احتقار للحضر ولاسيما المستقر الفلاح ، قد اصبحت ردود الافعال الاساسية لنفسية الشرق الادنى » .

وتتجلى مشكلة المياه بوضوح في الحياة اليومية في الجولان . فعلى مقياس العائلة ، يمتص عبء جلب الماء شطراً من نشاط الأفراد ، ولاسيما جهد المرأة عندما يكون عليها ان تجلب الماء من بئر القرية ، ولكن جهد الرجل أيضاً عندما يكون عليه ان يبحث عن الماء في القرى المجاورة (انظر صورة XII ، رقم ١ و ٢)

29..J. Weulersse: paysans de syrie et du proche Orient. P:67

والواقع ان ويلرس مات قبل ذلك بعام واحد اي في سنة ١٩٤٥ في دكار عاصمة السنغال .

والواقع يثير الماء حركة مستمرة لدى السكان طيلة اليوم . وتحتاج الحياة اليومية لكل أسرة كمية كبيرة من المياه الضرورية ، إذن يجب توفير كمية من المياه الكافية يوماً فيوماً لمواجهة حاجات عديدة ، للشرب ، لأن الماء البارد هو الشراب الوحيد المشروع ، ولا سيما لدى المسلمين ، وللقيام بالطبخ ، وللأعمال المنزلية ، وللوضوء الخ . . وتعتبر الحيوانات كأعضاء من الأسرة ، ولا سيما صغار الحيوانات التي تقتسم مع الأشخاص الماء المجلوب ، مما يجعل مهمة نقل الماء عبئاً قاسياً جداً . كما يقيم في القرى السعيدة ، أي الغنية بالماء ، وذلك امام العين العامة المشتركة : مورداً خاصاً للحيوانات التي تأتي للورد في اية ساعة من اليوم (انظر صورة لوحة XII - ٣) .

وتكون الإبل والخيول أعز من الحيوانات الأخرى ويقدم لها من الماء في وعاء لكل رأس على حدة (صورة لوحة XII ، ٢) .

وتعج القرية بالحركة ولا سيما في الصباح وفي المساء ، بحركة حقيقية نسائية ، لان المرأة هي التي تتكفل ، مبدئياً ، بعبء جلب الماء . فالمرأة التي تحمل الجرة على رأسها أو التنكة (صحيفة سعتها ٢٠ ليتر) أو السطل باليد (الدلو) هي المشهد المألوف في كل الشرق الأوسط .

ويظل ينبوع هو الموضوع المفضل في الشعر الجاهلي والاسلامي والذي يتغزل بالخضرة ، ونداوته وخبريره ، وهو في الوقت ذاته مكان التقاء العشاق ، سواء في البلاد المنبسطة كما هو الحال في الجبال^(٣٠) .

هذا ويمكن عمل تركيب عن كل هذه التظاهرات ، عملياً ، في المكان ، وكأنها ترابط متبادل بين توزيع الماء وبين توزيع السكان . أما على مقياس سورية فإن مقارنة الخارطة المطرية مع خارطة الكثافات الكيلومترية السكانية تدل على ترابط حقيقي مع المصادر الهيدروليكية وبين الكثافات البشرية .

وتجاء نسبة الامطار العالية في « جولاننا » تقوم بالفعل كثافة كيلومترية مرتفعة نسبياً تبلغ ٤٧ نسمة في الكيلومتر المربع في حين ان الكثافة الوسطى في

(٣٠) نظوم موصلي . سبق ذكره ص ٣٧

كل سورية^(٣١) لم تكن تتجاوز في العام ذاته ٢١ نسمة في الكيلومتر المربع .
وتظل العلاقة بين الموارد الهيدروليكية وبين كثافة السكان حقيقية
وواضحة على مقياس الجولان الاقليمي فيضم خطا المطر المتساوي
٨٠٠ و ١٠٠٠ مم أقل من نصف مساحة الجولان الكلية ، ولكن على
العكس ، نجد أن بين هذين الخطين المطرين يتكدس أكثر من ٧٠٪ من عدد
السكان الكلي في منطقتنا

(٣١) استناداً للاحصاءات الرسمية عن الكثافة في الجولان .

الفصل السادس

جغرافية الجولان الحيوية

يلعب موقع سورية عند ملتقى قارات العالم القديم الثلاث ، من ناحية ، وبين البحر الابيض المتوسط والصحراء ، من ناحية أخرى ، يلعب دوراً على قدر من الاهمية ، على جغرافية هذه المنطقة الحياتية ، وبالتالي على المنطقة المذكورة أي على الجولان .

وفي الواقع تتميز جغرافية هذه المنطقة إجمالاً بالملامح التالية :

١ - لا تتمتع سورية بشروة نباتية كبيرة حيث « لا يمكن الكلام إطلاقاً عن نبات محلي صرف في حالة سورية . ومن المحتمل جداً أن نعزول سكان العصر الحجري الحديث المشهد العاري الذي تتصف به البلاد »^(١)

٢ - يقدم نبات سورية ، ولا سيما الغابة ، أشكالاً متقهقرة والأسباب متعددة ، والسبب الرئيسي هو تقهقر المناخ المتوسطي الى مناخ قاري من « النمط السوري » وحتى الى مناخ آخر من « نمط صحراوي »

ويكمن السبب الثاني في واقع يعود لعامل بشري ، ونقصد بذلك التخريب الذي مارسه الانسان منذ اكثر الحقب توغلاً في التاريخ ، وحتى قبل الفترات التاريخية . وينسب السبب الثالث الى عامل بيديولوجي ، فكثيراً ما ينسب انحطاط الزراعة عموماً في المناطق القاحلة من الشرق الأوسط الى حت التربة النباتية في اعقاب سوء استغلال الارض .

وفي الواقع فإن رداءة استغلال الارض قد يؤدي في الترب لنتائج مماثلة لتلك التي يتسبب فيها اقتلاع احراج المنحدرات . غير ان كل شيء يحملنا على الاعتقاد بان هذا الحث هو اقدم من الفترات التاريخية واننا نتجاه حث جيولوجي « فالمناطق الجبلية من جبال لبنان الشرقية لم تكن تحمل منذ عصور

(1) Dr Van Liere, Rapport preliminaire sur la pedologie de la syrie.

ما قبل التاريخ اكثر من نبات شديد التبعر مؤلف من شجيرات . ومن زيتون وحشي ، وبطم الخ «^(١)» ، وهذا يتعارض مع الوثائق التي يوردها الاب اتيان دوفوماس .

٣ - ييدو موقع سورية موثماً لتسلل نباتات وافدة من اقطار مختلفة : أوروبا ، تركيا ، القفقاس ، بلاد ما بين الرافدين ، ايران ، فلسطين ، وافريقيا الشمالية .

ولقد استقبلت سورية فعلاً نباتات متنوعة من هذه الاقطار ، بيد أن سورية لا تحوي ، شأن مجمل الاقطار العربية ، سوى نبات فقير نوعاً ما . والذي يعجز عن مماثلة النبات المداري الفياض ، ولا مع الثراء الهاديء في اقطار اوروبا .

٤ - ويتحكم المناخ اساساً في توزيع التشكلات النباتية . فيمدد خط المطر المتساوي ٥٠٠ مم التخيم بين التشكلات الغابية وغير الحراجية .

٥ - ويكون الوحش البري فقيراً جداً ويمكن تفسير ذلك بفقر الموارد النباتية ، ولكن على الخصوص ، بطول استغلال الارض سنوياً من جانب الانسان . وهكذا كان على الانسان ان يستأنس الانواع المفيدة وان يبيد الاخرى .

الجغرافيا النباتية في الجولان

١ - تأثير وضع الجولان

اذا كان لسورية نقطة وضع تلاقي بالنسب للقارات الثلاث في العالم القديم ، فإن الجولان يتمتع ، من جانبه ، بوضع مماثل بالنسبة لمختلف اقطار الشرق الاوسط .

وهكذا يحوي نبيت الجولان ، كما سنرى ذلك تفصيلاً ، العناصر المتسللة وار سادمه من ساحل البحر الابيض المتوسط البحت ، ومن السهب ، ومن فلسطين ، وحتى من افريقيا الشمالية .

(—) ibid

٢ - العلاقات بين التربة والنبات

١ - اذا كان من الممكن تفسير الانواع بالتاريخ الجيولوجي فان السحنة النباتية تفسر ، على خلاف ذلك ، بالمناخ والتربة ، ففي الجولان تختلف صفات كل من التربة والمناخ من الغرب نحو الشرق .
وفي الواقع يصبح المناخ عند الجانب الشرقي ، أي عند مشارف السهل الحوراني ، أكثر قحولة ، كما ان التربة تكون غير التربة ، وبالتالي تختفي الغابة .

٢ - وتكون بنية التربة هامة في هذا المجال اذ يجب ان تكون موائمة للنباتات .
فالكدرات التي تحدّد بشكل أفضل مسامية التربة هي عبارة عن فتات غضارية متماسكة ، وسنرى ان ترب الجولان تحوي نسبة عالية من الغضار . بيد ان مسامية التربة لا يجوز ان تزيد عن درجة معينة ، ففي الرمال تكون المساحات شديدة السعة بالنسبة للجريان الشعري ، مما يجعل من العسير تغذية النباتات بالمياه ، لأن الماء يصعد ، في الفصل الجاف ، بموجب ظاهرة الخاصة الشعرية ، من الغشاء المائي الباطني حتى الجذور .

وهكذا لا تزدهر النباتات في سهل القنيطرة الا اذا توفر لها ماء الري على فترات متقاربة . وفي الواقع تحدّد الحصويات البركانية والانقاض البركانية الاخرى درجة المسامية العالية نسبياً ويقضي هذا على تصاعد الماء الشعري رغم ان الغشاء الباطني المائي لا يكون عميقاً . ويلجأ السكان الى الري بواسطة آبار ومضخات رحيمة .

٣ - تحدّد ثخانة التربة نمو المنظومة الجذرية التي يتعلّق بها استمداد الماء وقامة النبات . فمنظومة جذرية قليلة النمو تعجز عن مساندة نبتة كبيرة ، ولا تجاه ضرورة التغذية ، ولا تجاه الرياح والعواصف .

وفي الواقع يكون من الممكن مقابلة التشكل العشبي بالتشكل الحراجي ، في الجولان . فلقد استقرت الحراج فوق الكتل البركانية المؤلفة من جلاميد الخبث ومن انقاض بركانية أخرى تستطيع الجذور ان تتسلّل من خلالها بسهولة . أما الترب الغضارية الناجمة عن تفسخ المسكوبات البركانية فتكون مجال غطاء عشبي شديد السماكة ، أو مرج حقيقي .

٤ - لكل تربة نباتاتها الخاصة وذلك حسب منشئها الليتولوجي ، ولكي نضل دوماً ضمن إطار الجولان ، فإننا نشير لوجود نباتات نادرة من البازلت ، في حين تكون أخرى ، على العكس ، محبة للبازلت بشكل وثيق وترتبط بالتربة البازلتية . ويعطي ب . موترد عدة امثلة عن ذلك مثل *Astragalus vexillaris* و *linaria Damascena* و *Minuarita Formosa* (٣)

وعلى خلاف ذلك نلاحظ ان النباتات الكلسية المنبتة *Calicole* تنمو في جبل الحرمون . ومن الممكن تركيب كل هذه العلاقات بين التربة والمناخ والنبات ضمن مفهوم الكيماكس . الذي يكون مستقراً ما دامت شروط التربة والمناخ دونما تغيير

وفي الحقيقة فإن أي تغيير يشير على انقطاع في هذا التوازن المسمى كيماكس ، وهذا ما ينطبق على حالة الجولان . فما ان يتم تخريب الغابة بأية وسيلة كانت حتى تصبح عودتها لسابق حالها مستحيلة ، أو تكون عودة تشكيلها بطيئة للغاية فلا تعطي سوى احراشا منحطة جداً .

٨ - ترب الجولان من وجهة النظر البيدولوجية

أ - ترب الاراضي البركانية : لقد عرفت ترب الجولان استناداً الى الوانها ، فهي ترب كستناوية وسمراء فاتمة ، وتتميز عن ترب حوران السمراء . ويعتبر اللون نتيجة وجود اكاسيد الحديد . فالأوكسيد من نمط الهيماتيت يعطي لوناً مائلاً للحمرة في حين يعطي الليمونيت لوناً اسمر . ويجب ان نقوم ضمن الجولان نفسه بتمييز استناداً الى اللون وعمر ودرجة تطور التربة وأصلها الليتولوجي .

١ - اللون : تتجمع الترب الكستناوية حصراً في شمال الجولان أي في قضاء القنيطرة حيث تكون الترب بنفسجية بشكل واضح فوق مخاريط الانقراض البركانية وخاصة على السفح المعرض لرياح الغرب والجنوب الغربي . وتصبح هذه المخاريط نادرة أكثر فأكثر باتجاه الجنوب .

(3) P.Mouterde: La flore du Djebel Druze. Beyrouth, 963 P.32

ونجد الترب السمرء في جنوب الجولان ، ولا سيما في قضاء فيق أو الزوية .

٢ - العمق : يختلف عمق التربة بصورة واضحة من الشمال الى الجنوب ، فأكثر الترب عمقاً هي التربة السمرء في الجزء الجنوبي الغربي من منطقتنا . ويفسر هذا الاختلاف في السماكة ، كما سنرى ، باختلاف العمر والتطور ولكن كذلك ايضاً بتأثير الميل . وقد تكون ترب الجنوب سميقة بسبب ضعف الميل ، فهي تتركز بالواقع ، على سطح مائدي ، وتكون التربة بالتالي بمنجى من الحت ، في حين تكون ترب الشمال منجرفة بسهولة بسبب شدة قيمة الميل .

٣ - عمر ودرجة التطور : لا يكفي مجرد اختلاف قيمة ميل الارض بين الشمال والجنوب لتفسير اختلاف سماكة الترب ، اذ يجب اخذ اعمارها ودرجات تطورها البيدولوجي بعين الاعتبار . ففي الشمال تكون الترب حديثة جداً ، وقد نتجت عن مسكوبات بليوسينية وفي بعض الامكنة ، عن رباعية . أما التربة التي نجمت عن مسكوبات ميوسينية فقد اصبحت مستحاثات تحت مسكوبات تالية .

أما في الجنوب فان التربة قد نشأت انطلائاً عن مسكوبات موسينية كما ان المسكوبات الاحداث لم تنتشر اطلاقاً فوق الهضبة بل انساحت ضمن الأودية .

وهذا نجد ان تربة الجنوب تتطور منذ الميوسين وفوق المنحدر اللطيف مما يسمح بالقول بأنها بلغت درجة النضج . ولا نجد ابدأ في هذه التربة العميقة انقاصاً بازلتية خشنة ، حتى ان الحصى تكون نادرة وهنا نعثر على اجمل حقول القمح .

وعلى العكس تكون ترب الشمال منحجرة بل قد تكون هيكلية ، اذ تتناثر فوق الحقول جلاميد بازلتية لا تحصى مما يجعل عمليات الحراثة عسيرة . غير انه يظهر ان هذه الحجارة قد لعبت دوراً كبيراً في حماية التربة من الحت وفي الحفاظ على شطر من رطوبة التربة في فترة متطاولة نسبياً .

وستتاح لنا الفرصة لإيضاح هذا الاختلاف في التطور البيولوجي بين ترب الشمال وترب الجنوب وذلك في معرض كلامنا عن التحليل الميكانيكي والكيمائي لهذه الترب .

٤ - أصول الترب : لا تزال المسكوبات الرباعية حتى الآن شبه عارية من التربة . فقد تمخضت المسكوبات الميوسينية عن ترب سمراء ، متطورة وعميقة في جنوب الجولان . أما المسكوبات البليوسينية فقد أعطت ترباً كستناوية قليلة العمق ، وبالتالي محجرة .

هذا ويتفسخ الرماد البركاني وأشكال الخبث بسهولة نوعاً ما . وتنتج ترباً خاصة غالباً ما تكون بنفسجية .

ب - الصخور الرسوبية في الحرمون

١ - الترب الهيكلية او الترب الصخرية : ونجدها في امكنة الصخور الكلسية القاسية ذاتها وتحوي سطحاً صخرياً . وتشغل سائر سطحي الحرمون الجنوبي والجنوبي الغربي .

٢ - ترب الراندين المؤتكلة : وترتبط هذه بالحوار الطري . ويضم مقطع هذه الترب على السطح تربة سوداء ترقد فوق صخر أسفل أبيض اللون . وتدين التربة السوداء السطحية بلونها للدبال الناتج عن تفسخ الاعشاب . وغالباً ما تكون هذه التربة السطحية محتوتة ، شأن البلاد الاخرى حول البحر الابيض المتوسط ويتكشف باطن الارض الابيض الذي يعطي سحناً بيضاء نموذجية .

وتتألف ترب الراندين ، في الحقيقة ، من كربونات الكلسيوم المختلطة بقليل من الدبال . ويمكن اعتبارها كنموذج من تربة هيكلية ذات صخر طري تستطيع الجذور ان تنفذ من خلاله بسهولة . وتكون الهالة الكريتاسية التي تتألف من صخور حواريه وكلسية طرية نسبياً ، والتي تطيف بنواة الحرمون الجوراسية من اسفلها ، هي مجال ترب الراندين .

ويخصص الدروز الذين يقطنون في قرى صغيرة متناثرة على خواصر

الحرمون تربة الراندين ، ذات القيمة الهزيلة لزراعة الكرمة .

ج - الترب الحقيقية : وهي ترب فتية لا يقدم مقطوعها أي ميزة معينة . ولقد تشكلت على المقياس التاريخي وتحتل قيعان الاودية الرئيسية . ويقدم منخفض الحولة أفضل مثال عنها . ولكل من وادي اليرموك ووادي الرقاد وتوضعاته الحقيقية الخاصة ولكنها لا تشغل اكثر من مساحات ضامرة .

الخصائص الكيماوية لترب الجولان : خصوبتها

تعرف الترب ذات الاصل البركاني ، عموماً ، بخصوبتها . بيد ان مفهوم الخصوبة يظل غامضاً ما لم نحدد العناصر المخصبة ، عن طريق التحليل . ولم يؤخذ من الجولان البحث سوى عدد محدود من عينات التربة النموذجية ، التي جرى تحليلها في مخبر وزارة الزراعة السورية ، هذا فضلاً عن عينات أخرى من مناطق بركانية في حوران وفي جبل الدروز . وتستطيع هذه التحاليل ان تقدم لنا ، بشكل تقريبي ، دلائل عن وجود العناصر المخصبة ونسبتها المثوية في ترب منطقتنا .

وتكون العناصر المخصبة هي التي تتدخل في تركيب المادة الجافة في نبتة ما ، وتكون ضرورية لتراكم البروتينات وعلمى النبتة ان تستمدّها من التربة . النيترات : من المتعارف عليه ان الآزوت هو العنصر المخصّب الاكثراهية . ففي الاراضي العذراء يكون غنى الارض بالآزوت عالياً نسبياً اذا كانت مستورة بغطاء نباتي عشبي ، ويفسر هذا بمفعول الدبال الذي يتفسخ ويعطي النيترات .

وفي الواقع فإن مراعي الجولان التي تحولت الى حقول حبوب تكون مشهورة بخصوبتها وبالتالي بمردودها المرتفع . بيد أن استغلال هذه الحقول باستمرار يجعل استنزاف النيترات في أراضي الجولان مبكراً .

غير ان تناقص معدّل المحتوى الآزوتي من اراضي الجولان العذراء لا يكون مماثلاً لترب الاقطار الاخرى . ففي شمال الولايات المتحدة يستنزف الآزوت خلال قرن واحد ، وفي أوروبا الغربية خلال فترة تتراوح بين ٢٥ و ٥٠ سنة ، وفي سورية تكفي بضعة اعوام لوقوع ذلك . غير ان مردود الاراضي المزروعة بالقمح والشعير منذ امد طويل يظل مستقراً مما يشهد على

ان محتوى الترب الجولانية من الآزوت ثابت .
ويحافظ الفلاحون على هذا المحتوى بممارسة البور . وفي الحقيقة يعادل البور ، والحالة هذه ، لتوضّع الآزوت . ويعتبر سهاد المزرعة مصدراً طيباً للآزوت ولكن الفلاحين لا يردونه اطلاقاً الى حقولهم ، لأنه الوقود الرئيسي لدى فلاحي الجولان .

وتكون الاسمدة الكيماوية حتى الآن مجهولة في منطقتنا . وقد أظهرت التجارب التي تمت في المحطات الزراعية أن إضافة الاسمدة الآزوتية تضاعف مردود حقول الحبوب .

الفوسفات : تكون الفوسفات هي التي تتميز بأكثر أهمية في تقديم العناصر المخصّبة في الجولان ، وذلك بعد المنتجات الآزوتية . ويصدر الفوسفات ، على خلاف الآزوت ، عن الصخور الرسوبية لأن صخور الجولان البركانية لا تحوي منها إلا نسبة مئوية ضعيفة . ومن ناحية أخرى لا تكون درجة PH في ترب الجولان ، التي تبلغ ٨.٣ درجات ، موائمة لامتناس النبات للفوسفور .

وفي الواقع فإن الفوسفور الناجم عن تفسخ الفوسفات الموجود في التربة لا يكون صالحاً للتمثل دائماً . وتختلف النسبة المئوية التي تمتصها النباتات حسب درجة PH التربة . وهكذا فإن ترباً مختلفة ، ذات المحتوى نفسه من الفوسفور ، تستطيع ان تشتمل على كميات مختلفة من الفوسفور المتوفر ، وفي حالة درجة PH تقارب ٨ تكون هذه الكمية زهيدة جداً . ويكون فوسفور ترب الجولان محجوزاً bloqué في معظمه ، وهذا هو السبب الذي يجعل استخدام الأسمدة الفوسفاتية ذا مفعول محسوس .

وقد اعطى تحليل العينات النتائج التالية :

مكان أخذ العينة	نسبة او محتوى P2O5
القيطرة	٣٦٠ جزء من مليون جزء من التربة
فيق	٤١٠ جزء من مليون جزء من التربة
أزوع	٦٩٠ جزء من مليون جزء من التربة
درعا	٨٠٠ جزء من مليون جزء من التربة
الجوخدار	١٤٠٠ جزء من مليون جزء من التربة
السويداء	١٥٥٠ جزء من مليون جزء من التربة

غير أن العينة التي أخذت من محطة السويداء الزراعية لا تمثل التربة الكستناوية بصورة صحيحة كما يظهر ، فالمحتوى من البوتاس والفوسفات يكون فيها أكثر ارتفاعاً مما هو عادة في هذه المنطقة . وربما كان السبب « هو أن هذه المحطة تقع في واد ضئيل المساحة » فان لير .

ومن المفيد مقارنة المحتويات المذكورة اعلاه مع تحاليل حلب التي تبلغ ٦٧٢٠ بالمليون

البوتاس : ويحتل المرتبة الثالثة بين العناصر المخصبة الضرورية للنبات . ويكون في بعض اقطار العالم محجوزاً ، شأن الفوسفور ، ولكن ولحسن الحظ لا تنطبق هذه الحالة على سورية .

ويسمح فحص العينات في المخبر بملاحظة الامرين التاليين :

- ١ - ان أفقر العينات بالبوتاس هي التي تصدر عن تربة بازلتية حديثة .
 - ٢ - يبدو ان تربة المناطق الأكثر رطوبة تحتوي على العموم نسبة أقل من البوتاس مما يظهر للعيان دور الغسل الذي تقوم به مياه الامطار .
- ولا تكون الملاحظة الأخيرة مقبولة الا بالنسبة للمقاطع السليمة او بالنسبة للتربة التي لم يسبق لها ان اختلطت بعناصر صادرة عن صخور ما تحت التربة .

وتؤكد نتائج التحليل ما سبق وقلناه

مكان أخذ العينة	المحتوى السنوي للامطار ١٩٤٥ - ٥٥	البوتاس القابل للمثل في معادل الالف في ١٠٠٠
السويداء	٢٤٢٤ مم	٢٢٥
درعا	١٥٠ مم	١٥
أزرق	١٦٩٨ مم	١٣
فيق	٢٨٤٥ مم	٦
القيطرة	٧٥٩٥ مم	٥

وهكذا نرى ان محتوى ما تحت التربة من البوتاس يكون متناسقاً بصورة معكوسة مع متوسط الامطار السنوي مما يدل على ان اكثر الترب غسلاً هي الاقصر بالبوتاس ، وتقع محطة السويداء بالموازنة مع كل المناطق البركانية في سورية الجنوبية ، في حالة استثنائية والتي اعطينا السبب عنها في معرض كلامنا عن الفوسفات .

الكربون : لا تدل عينات المجموعات الكبرى للترب عن تبدلات ملحوظة فيما يتعلق بالمحتوى من الكربون الذي يكون على العموم ضعيفاً ، ويكون حوالى ٠.٤٪ في الارض الكستناوية ويرتفع الى ١.٦٪ في الرماد البركاني الحديث . وفي ذلك اختلاف هام بالمقارنة مع الترب الكستناوية الحقيقية ومع ترب التشرنوزيوم « ربما يعود ضعف محتوى الترب القائمة في سورية الى شدة الجفاف المتطاوّل خلال الصيف والذي يستطيع أكسدة كل الدبال تقريباً » . فان لير .

العناصر القليلة العدد : يتجلّى الافتقار الى الحديد في الجولان على شكل يرقان كثيراً ما يصيب الكرمة حيث تصفر اوراقها وتساقط في وقت مبكر جداً مما يعرّض عناقيد العنب لنشّمس شديد وضار . ويؤدي العوز الى الزنك ليرقان اكثر وضوحاً اذ يكثر عندها الحطب اليابس في الاشجار ، وهي حالة كثيرة الحدوث جداً وشديدة الضرر في الجولان .

كربونات الكلسيوم : تكون النسبة المئوية في كربونات الكلسيوم عملياً معدومة في الترب الكستناوية . وتكون العينات المأخوذة من ترب ذات أصل بازلي ، والترب ذات المنشأ الكلسي أو الحواري ، تكون جميعاً حاوية على النسبة ذاتها من الكربونات .

درجة الحموضة PH : تبلغ درجة PH في حدها الامثل في الجولان لأنها تبلغ حوالى ٨.٣ ولا تقل عن ٧.٣ حتى في الرماد والانقاض البركانية الحديثة .

العلاقة بين محتوى الترب من الغضار والشوارد القابلة للتبادل لا تكون الخصائص الكيماوية كافية لوحدها لتحديد خصوبة تربة

معينة ، بل يجب ان نأخذ الخصائص الفيزيائية ايضاً بعين الاعتبار . ويبرز الشكلا ٢٦ رقم ٢٧ ، ان ترب الجولان غضارية وان الشوارد القابلا للتبادل في التعادلات الالفية ، والمتوفرة في التربة ، تكون على علاقة مباشرة مع المحتوى المرتفع من الغضار .

ثالثاً : العلاقات بين المناخ والنبات

يهارس مناخ الجولان ، وهو نمط رومي متميز بتبدلات فصلية صريحة ، يهارس تأثيراً كبيراً على النبات ، ولا سيما على المورفولوجية وعلى الدورة الانباتية وعلى نسق حياة النبات وتوزعه الجغرافي .

وليس هناك من حد اقصى لكمية المطر التي تستطيع النبتة تحملها على شرط الا تكون التربة مختنقة . وعلى العكس تطرح المسألة الحادة عندما يصبح المطر غير كاف ، وهناك حد ادنى لكمية المطر الضرورية لمختلف التشكلات النباتية . ويتحقق الحد الامثل عندما يكون الجورطباً جداً في الوقت الذي تكون فيه التربة رطبة بصورة معتدلة ، غير ان هذا الحد الامثل هو أبعد من ان يتحقق في الجولان بسبب نفاذية الصخور من ناحية ولاقطاع الامطار خلال فترة متطاولة خلال العام أمن جهة أخرى . فكثيراً ما تكون التربة شديدة الجفاف وتشقق خلال الصيف ، وباستطاعتنا استناداً الى المتطلبات المناخية ان نميز بين شكلين نباتيين متنافرين بصورة متفاوتة ، وهما الشكل الغابي والشكل غير الغابي .

وفي الواقع تنمو الغابة او الحرش في شروط مثلى في التربة والمناخ فوق المخاريط والكتل المعرضة بصورة مناسبة للرياح الغربية والجنوبية الغربية ، وهكذا يقدم خطر المطر المتساوي ٥٠٠ مم في العام ، بصورة تقريبية ، الحد الذي لا تستطيع الاشجار المقطوعة ان تعود لسيرتها الاولى اطلاقاً .

بيد ان الشروط المناخية التي سبق لها ان ساعدت على نشوء غابة الجولان قد تعرضت للتغيرات . فالاحراش تعيش في نوع من عطالة حتى في الاماكن التي لا تنال ابدأ مقدار ٥٠٠ مم من المطر في السنة ، وهذا ما يفسر سرعة عطب هذه الحراج .

وفي الحقيقة تعطينا غابة الجولان الحالية مثلاً طيباً عن كليماكس غير مستقر . فالغابة لا تعود لحالتها الاولى اطلاقاً بعد تخريبها ، اذ تنشأ فوق مكانها تشكيلات من نمط منحط ومروج تضم انواعاً عشبية . ويتجلى تدهور النبات في الوقت ذاته مع المناخ على رقعة الجولان من الغرب نحو الشرق . وهكذا فان مؤثرات البحر الابيض المتوسط التي تنفذ الى داخل البلاد ترك فيه بصمة واضحة هي النبات المتوسطي « الرومي » . فقد عثرب . موتردي في أزرع ، وهي في شرق الجولان ، على نبتتين مألوفتين على الساحل وهما :

Synelcoscalidium Carmel و *Scaliosa Prolifera* ومهما كان هذا التأثير خفيفاً فهو يتطلب التفسير كما يقول « من المحتمل ان نميل للاعتقاد ، لأول وهلة ، ان فتحة سهل مرج ابن عامر كان بالنسبة لجبل الدروز ، كما هو الحال بالنسبة لشمالي شرق الاردن ، الطريق الرئيسي الذي سلكته تلك المؤثرات . وتجنح خارطة الامطار والرياح الى جعلنا نقبل بأن المؤثرات المذكورة قد سلكت من طول كرم الى عجلون جنوباً ، ومن الناقورة والقنيطرة شمالاً ممرات أخرى حاسمة ، إذ نجد غير بعيد من أزرع والسويداء منطقتين تتصفان بتهطلات قوية وهما عجلون ٧٠٠ مم والقنيطرة ٩٨٠ مم .

وقد جاءت من هذين الخزانين ، المتصفين بغناهما المتفاوت ، انواع النباتات المتوسطية ، ولا سيما من الشمالي ، الذي جاءت منه بالتأكيد النباتات^(٤) المتوسطية التي أشار إليها المؤلف في جبل الدروز وفي أزرع . بيد ان المناخ المتوسطي « الرومي » يكون قليل المواءمة للنبات الذي يكون عرضة لصعوبتين هما الجفاف المتطاوّل في الصيف وبرد الشتاء . والواقع لا يتلاءم نبات الجولان لوحده مع المناخ كي يستطيع تحمل هذا المحذور المضاعف بل كل نبات سورية .

وتكون طرائق هذا التواء متعددة ، وتكون غابة الجولان مختلطة . فهناك عدد من الاشجار التي تفقد اوراقها خلال الفصل البارد ، وهي

(4) P.Mouterde. précite

الاشجار النفضية ، وهناك اشجار ذات اوراق دائمة غير ان نشاطها الحيوي لا يكون فعالاً طيلة العام اطلاقاً كما قد يتلشى خلال شطر من السنة ، فلا تنعرق الاوراق الا فيما ندر ويكون سطح الاوراق ضامراً مما يقلل من مفعول التبخر بالموازنة مع حجمها ، وتكون بشرتها سميكة مما يقضي تماماً على التبخر التنحي الأدمي ، اي نسبة الى البشرة . وأخيراً تعمل الأوراق على غلق مساماتها خلال شهور عديدة كي توقف التبخر التنحي والتركيب الضوئي ، وافضل مثال عن ذلك هو السنديان .

- هذا وتتواءم الكرمة بطريقة اخرى ، فهي تنمي منظومتها الجذرية التي تغوص لبعيد في أعماق التربة كي تستمد الرطوبة من باطن الارض خلال الفصل الجاف .

- ويعمد الزعرور ، الذي تزخره احراش الجولان ، الى تقليص منظومته الورقية . وتحمل الاشواك محل الاوراق وتثبت الرطوبة « حيث يعمل بوزها Pointe أوراسها على تأمين الهواء مما يسمح بتكاثف بخار الماء ، ولهذا ينمو العشب الأخضر تحت الأشجار لأن الاشواك تسمح بنضح قطرات الماء^(٥) وفضلاً عن ذلك تكون الأوراق مغطاة بالأوبار .

- ويحتفظ الصبار الذي يزدهر في غرب الجولان ، وفي جنوبه الغربي ، بمقادير كبيرة من المياه في ساقه وفي اوراقه الضخمة ، أي راحاته^(٦) العصارية كي يستخدمها خلال الفصل الجاف .

ونجد في مجال التشكل النباتي غير الشجري اشكالاً أخرى من التواءم مع الصعوبات المناخية .

- يتواءم عدد كبير من الانواع من المناخ بدورة انباتية مختصرة للغاية ، فيتلاشى تماماً ابتداءً من اواخر الربيع تاركة مهمة تجديدها للبذور التي تمكث في الثرى

5) P. Birot: chimatologie, Biogeograph, Ayrologie. U.G.F.L.1957 2?Fas.P.53

(٦) جمع راحة اوراق الكف لان ورقة الصبار تدعى بالفرنسية راقطة raquette المأخوذة من كلمة راحة العربية لذا يجب القول لعبة كرة الراحة وليس كرة المضرب أو الطبطابة كما دعت في المجامع العربية (المترجم)

تنتظر المطر كي تنمو من جديد . . . مثل النجيليات والبقوليات الخ . . .
 - ونعمل انواع اخرى على ابطاء نسق حياتها خلال الفصل البارد ، فيتلاشى
 الجهاز النباتي السطحي تماماً وتنحصر المياه في الحزمورات او البصيلات
 الباطنية بمنأى عن الجفاف والبرد المتطرفين ، هذا كما ان محراث الفلاح
 لا يطلها ، وتعود لتنبث في العام التالي ، مثال ذلك العيصلان .
 - ويعمل شوك الجمل أو Chibrige ، الكثير الانتشار في الجولان ، على تحويل
 قسم من اوراقه الى اشواك وتغوص جذوره لبعيد كي تمسك بالرتوبة
 الباطنية .

- ويكون العديد من النباتات مغطى بالأوبار التي توجد طبقة هواء عازلة تخفف
 بالتالي من سرعة التعرق النتحي اذ تخلق نوعاً من جو محلي ، بجوار جهازها
 النباتي ، ذاتاوتر بخار ماء خاص بها وتمنع التجدد السريع لبخار الماء المنتوح
 بتأثير الريح ، وهكذا تتغطى النبتة ، التي لم تفرغ بعد من دورتها النباتية خلال
 الفصل المطير ، بأوبار بصورة آلية ، وهذه الأوبار ذاتها هي التي تمنح اوراق
 بعض نباتات المناطق الجافة مظهرها الاشيب ، مثال ذلك اوراق الخزامى
 الرومية^(٧)

أما القنداليا « الكعوب أو العكوب » أو « السلبين » الذي ينمو في كل
 مكان تقريباً خلال الفصل الماطر ولا يستطيع ان يتم دورته الانباتية قبل قدوم
 الجفاف والحر ، فيتغطى بأوبار متراسة جداً ، وتكون القنداليا Gaudalias
 مألوفة جداً في الجولان ويأكل السكان المحليون كميات كبيرة منها^(٨)
 وفي آخر الصيف تقدم هذه النباتات ، المنفصلة عن جذورها ، حزمة
 اوراقها القاسية للرياح وتندحرج فوق الارض العارية الى ان تتكدس بعد
 اصطدامها بحاجز أو تسقط هاوية في حفرة ما .

7) P.Birot: Biogéographie des Continents. C.D.U. 1954.P.14.

(٨) يجلب البدو ، ولاسيما النساء ، ارومات الكعوب لبيعه في القنيطرة ، وهي نبتة
 ذات نسخ ابيض بني يجمعه الاطفال المحليون ويحولونه بعد غسله وتجفيفه الى نوع من
 لبنان .

- ولما كانت نباتات المنطقة الرومية عطرية غالباً فقد جرى تفسير ذلك على انه اسلوب لكبح التعرق النتحي ، فالجوا المضمخ بالعطوري يكون في الواقع اقل ناقلية للحرارة مما يخفف التبخر بالتالي .
وتكون هذه النباتات العطرية معروفة جداً في الجولان ويعتقد السكان انها تنمو فوق اوبجوار اضرحة « الأولياء » حسب التعبير المحلي . وعلى كل من يمر بجوار هذه الامكنة ان يضع قطعة حجر مع التوقير والورع المناسب .
وقد كان لهذه الخرافة ، صدفة ، نتيجة خيرة على بعض المواقع . فقد جرى تنظيف الدرب المحجر ، بين قريتي الجوزة والبريقة ، من الحجارة على قطاع طويل منه .

غير ان هذه الاشكال من التواؤم تبدو غير كافية ان لم يكن هناك تواؤمات أخرى وثيقة اكثر تكون آليتها مجهولة تقريباً . غير ان المعروف أن بروتوبلاسم « وذفة » النباتات المتوائمة مع الجفاف تكون قادرة على الاحتفاظ بالماء ضد قوى التبخر النتحي وضد التبخر وقادرة على امتصاص الماء حتى ضد الضغط التناضحي .

رابعاً - تأثير الانسان على نبات الجولان

لا يمثل كل نبت الجولان الشجري ونبات سائر سورية تشكلاً اصيلاً متعلقاً بشروط بيئية الفيزيائية وبحالة توازن مع هذه الشروط .
والواقع نحن تجاه تشكل شجري موروث لم يستطع الاستمرار في الحياة الا بعد فترة طويلة من تخريب مارسه الانسان منذ اكثر القرون توغلاً في تاريخ الشرق الاوسط .

وينسب الدكتور فان لير تخريب غابات هذه البلاد الى فترات ما قبل التاريخ فيقول : « لا يمكن الكلام عن نبات محلي بكل معنى الكلمة في حالة سورية . ومن المحتمل جداً بأننا نستطيع ان نعزول سكان العصر الحجري المشهد العاري الذي تظهر فيه البلاد » .

ويمكننا ان نستنتج ، استناداً الى دراسة الوثائق المصرية والآشورية والبابلية ، والتوراتية والاغريقية الرومانية التي عرضها إتيان دوفوماس ، أن

جبل لبنان ولبنان الشرقي وحرمون كانت مغطاة بغابات كثيفة ، وقد استغلت غاباتها حتى لقد اتلفت في معظمها من قبل ملوك مصر وبلاد ما بين النهرين . ولم يكن من الميسور التعرف على بعض أسماء الاشجار التي تتكرر في النصوص القديمة . وتروي لنا هذه الوثائق في الواقع القصة المريعة حول تخريب الغابة ولكنها لا تروي لنا أي شيء موثق عن النبات ذاته . بيد انه لا يجوز ان نطلب من اناس كتبوا قبل بضعة قرون قبل تاريخنا ان تكون لديهم البحوث النباتية الدقيقة التي يمكن ان نطلبها في الوقت الحاضر . فقد خلطوا بين اشجار كان لها نفس المظهر والتي كانت لأخشابها خصائص مماثلة ذاتها مثل الذي يصنعه فاحص غير مختص في الوقت الحاضر^(٩) . بيد ان التوراة تقدم في المقابل توضيحاً هاماً اذ تجعل من الارز شجرة مميزة لجبل لبنان ، والعرعر في جبل لبنان الشرقي وحرمون ، في حين يخصص البلوط ببلاد باسان^(١٠) .

نوحى يا بلوطات باسان

لأن الغابة التي كانت لا تخترق قد ابيدت^(١١)

وينطبق باسان حسب رأي اتيان دوفوماس وآبل على حوران الحالي . وقد اخطأ آبل عند قيامه بالتحقيق عن تسمية منطقة الجولان . ولقد دحضنا في الفصل الاول التفسير المغلوط الذي أتى به آبل وأشرنا الى التشويش الذي ارتكبه منشئو التوراة عن عمد .

ويبدو لنا ان باسان الخصب الذي تذكره التوراة ليس هو بالواقع سوى الجولان الحالي الذي لا يزال يحتفظ بأعداد لا بأس بها من اشجار البلوط في حين لا تحوي حوران أية شجرة من هذا النوع .

لقد تم في الواقع تخريب غابة الجولان بفعل العديد من الأقوام الذين تعاقبوا بعد بعضهم بعضاً خلال تاريخ هذه المنطقة الطويل . وقد كان

(٩) اتيان دوفوماس . اطروحة غير مطبوعة . فصل ٣ ص ٣٢ E. de Vaumas Liban

Liban.

(١٠) المصدر نفسه .

(١١) زكريا . ١١ - ١ - ٢ عن فوماس فصل ٣ ص ٣٤ .

التركمان القدامى ، والبدو من السكان الحاليين ، وهم اكثر الاقوام ضراوة في حريمهم الشعواء ضد الغابة . وتسرد لنا اشجار السنديان المتبقية كأثر عن الغابة الغابرة ، والتي اسعفها الحظ بالبقاء بجوار المزارات والاولياء وتحت « حمايتهم » لنا قصة القضاء على الغابة المحزنة ، وتسمح لنا من جهة اخرى باستعادة وتصور رقعة الغابة المحلية^(١٢) .

ولا يزال هناك العديد من الكتل البركانية التي لا تزال تحمل اسم شعف « شعف السنديان » الذي يعني الغابة ، وقد فقدت هذه الكتل غاباتها بتأثير الانسان الهدام غير انها احتفظت بإسمها .

وقد كان اهتمام شراكسة المنطقة دائماً الاحتفاظ بغابات اراضي قراهم ودافعوا عنها في وجه البدو والحوارة الذين كانوا يأتون لقطع الاخشاب لحاجاتهم المختلفة . والواقع كانت الغابة محمية بصورة لا بأس بها فوق اراضي الشراكسة . أما الان فان دائرة الحراج هي التي تؤمن حماية الغابة ضد الانسان والحيوانات بفضل خفرائها . بيد ان مصلحة الحراج تسمح بعد ترخيص مسبق تمنحه باستغلال الغابة بصورة منتظمة وخاضعة للرقابة .

خامساً : التشكلات والانواع النباتية

مدخل : لقد سبى وراينا ان الغابة السورية قد خضعت لتخريب عنيف ومتطاوّل الامد من قبل السكان . وقد عمل كل من التبدلات المناخية ، ولا سيما الجفاف ، وتخريب الترب في اعقاب ابادة الغابة السابق ، أقول

(١٢) لقد كنت في القادسية ، وهي قرية تركمانية ، وكنت أتأمل بتعجب البلوطات الكبرى الثلاث التي تطلّ ضريح الولي الذي منح اسمه لهذه القرية عندما تقدم شيخ هرم تركماني مني . وروى لي ان الولي استطاع ان ينقذ الاشجار الثلاثة المذكورة بعد ان كانت هناك غابة واسعة كانت تستر اراضي قرى التركمان التي جرى اتلافها دون رحمة ، وأضاف العجوز ان الاولاد كانوا يستمتعون بالذهاب من قرية الى قرية منتقلين من اغصان شجرة لأخرى دون ان تكون هناك حاجة للهبوط الى الارض . وأدعى الرجل انه كان شاهداً على هذه الغابة التي تلاشت حالياً .

عملت على اختلال التوازن الفيزيقي - البيولوجي السابق ، اي الكليماكس ، ولم تسترد الغابة مشهدها الغابي الأصلي إطلاقاً .
 بيد ان فقر سورية النسبي بالثروة الغابية لا يستدعي إطلاقاً فقراً بالانواع النباتية . وفي الواقع فإن « تنوع المناخات والتكوينات الجيولوجية والارتفاع يبرر غنى المنطقة اللبنانية السورية من وجهة النظر النباتية ، التي تحوي من النباتات الظاهرة الالقاح والخفية الالقاح لوحدهما حوالي ٣٥٠٠ نوعاً وان كان الكثير منها لا يوجد ، بالفعل ، إلا في حالة نادرة ومشتتة . وتمثل هذه الانواع ١٢٧ عائلة و ٨٥٩ صنفاً^(١٣) .

ويتم توزيع التشكلات والانواع النباتية جغرافياً من الغرب الى الشرق حسب الاوضاع المناخية وعليه يمكن تمييز ما يلي :
 الساحل : مع نبيتة المتوسطي « الرومي » البحث
 الجبل : الذي يضم رغم الفروق الطفيفة ، جبل لبنان ولبنان الشرقي والحرمون

ونجد القسم الاعظم من النباتات ، المستوطنة في لبنان ، في جبل لبنان الشرقي ، ولا يرى غومبو Gombault أي سبب جدي يدعو للفصل ، من وجهة النظر النباتية ، بين لبنان والحرمون أو بين هذا ولبنان الشرقي ذلك لأن التشكل النباتي في هذه الكتلة الجبلية يكون غائباً أساساً .

وتتمدد في شرق هذه الكتل الجبلية ، وعند اقدامها ، والتي تنتصب بمحاذاة البحر الابيض المتوسط ، تتمدد سهول وهضاب متباينة في الارتفاع وفي العرض الجغرافي .

وتكون الامطار السنوية فوق الهضاب . والسهول الداخلية ضعيفة وشديدة التفاوت بين سنة وأخرى وتحتفي التشكلات العارية كي تترك المكان بالتالي لتشكلات غير غابية . ونفتقد ضمن نبات المناطق الداخلية في البلاد

13.. R. Gombault: Aperçu sur la de la syrie et du liban et de la région d'Antioche (Notes et memoires. P.123).

اكثر من عشرين عائلة من تلك العائلات المذكورة في القائمة النباتية السودانية في المعنى العريض . وتضم اكثريتها انواعاً جبلية ، والبعض الآخر ونباتات تكون الرطوبة الدائمة بالنسبة لها امراً لا غنى عنه^(١٤)

تري ما هو موقع جولاننا بين مختلف هذه المناطق النباتية في سورية ؟ إنه عقدة طرق حيث تأتي لتلتقي فيه مختلف النباتات التي تنسب ، في الاصل ، لبيئات مناخية مختلفة .

وفي الحقيقة يتمثل النبات الرومي « المتوسطي » في الجولان بالبلوط وفي الاس ذي الثمار السوداء وفي الغار وفي الزيتون الوحشي في الأودية . ويتمثل نبت الجبل العالي بالملول *Quercus Aegilop.* والسماق *Rhus Loricata* وبالأجاص البري ، وبخوخ الدب ، التي نجدها فوق هضبة الجولان وكذلك في الحرمان وفي لبنان الشرقي ، والنبات السهمي في هضاب الداخل وفي سهوله العديد من النباتات الموجودة هنا ومعظمها من الحوليّات .

وتفسّر وشائج القربى بين النبات الجولاني وبين نبات فلسطين بالجوار المباشر لهذين البلدين . ويمثل السدر أو *Zyzyphus Spina Christi* الذي تدعى ثمرته الصفراء الحمراء « الدوم » والصبار ، النبات المداري في الجولان ، في حين يمثل الزيزفون *Tilia Euopoea* نبات المناطق المعتدلة ، وهو ذو أوراق فضية صغيرة لامعة ، وذات زهور مائلة لصفرة ورائحة عطرية زكية ، ونصادف الزيزفون بحالة وحشية في الجولان وعلى الخصوص في وادي الأردن ، هذا ونصادف في غابة هذا الوادي الرواقية حور الفرات « الغرب » القادم من الشرق . ويعود الياسمين . وهونبات عطري ، في التحت غابة ، الى آسيا الوسطى من حيث الاصل . وعلينا ان نكمل مفهوم عقدة الطرق هذا بين مختلف مجالات نباتية بسهولة التواءم التي تقدمها الاوضاع المناخية في الجولان للنباتات التي ادخلها الانسان .

وهناك قائمة كاملة من الاشجار جلبت الى منطقتنا من أقطار مختلفة . فهناك الازدرخت *Malea Azardarch* والجوز ويعود اصلها الى بلاد فارس . ودخل

منذ عهد قريب الكينا او « الكافور » *eucalyptus resinafera* قادما من استراليا
ويزرع بقصد تنقية هواء الأراضي الرطبة ويزدهر في كل مكان تمت زراعته
فيها . أما الرمان الذي يكثر في جنوب الجولان فقد جرى استقدامه من افريقيا
منذ عصور قديمة . كما جاء التوت الابيض من الهند في حين وفد التوت الأسود
او التوت الشامي من بلاد ما وراء القوقاز .

وتجود الحمضيات في وادي اليرموك وخاصة في الحمة ، وقد جاءت الى
الشرق الاوسط ، كما يروي المؤرخ العربي السعودي في عام ٣٠٠ هجرية
قادمة من الهند .

١ - التشكل الغابي في الجولان : الغابة

تكون الغابة ، شأن كل غابات البحر الابيض المتوسط ، عبارة عن
غابة قمية اذا ما قورنت مع غابة المناطق الاستوائية وبالطابقا أو مع غابة
النطاقات المعتدلة .

وتكون اشجار هذه الغابة صغيرة القامة ولا تتجدد إلا ببطء أقصى
ولكنها تتميز ، على نقيض ذلك ، بقدرة كبيرة على مقاومة مصاعب الحياة
التي تكون عسيرة خلال شطر كبير من العام . ويكون الفصلان الانتقاليان ،
اي الخريف والربيع ، مناسبين لحياة ميسورة بالنسبة للنبات . ولكن
الحياة تصبح شاقة خلال الفصلين الرئيسيين ، أي الصيف والشتاء ، لأن
الشتاء يتعرض لدرجات حرارة منخفضة ، بل وقاسية ، كما يتعرض الصيف
لجفاف مفرط متطاوّل نوعا ما . ويكون مفعول البرد على الاشجار هو التأثير
ذاته الذي يسببه الجفاف وينعكس ذلك على الجهاز الورقي وعلى نسق
الحياة .

هذا ويكون لبعض الاشجار اوراق دائمة مثل السنديان أو كرمس
والذي تعمل قامته وبشرته على تخفيض التمثل والتبخر النتحى ، مما يخفف
بالتالي من تسارع نسق حياتها . وهكذا تكون هذه الاوراق قادرة على مقاومة
برد الشتاء وجفاف الصيف في آن واحد . وتكون هناك اشجار اخرى مثل
البلوط متوائمة بشكل افضل مع الجفاف الصيفي بفضل الجذور الطويلة التي
تستمد الماء من الاعماق ، ويكون الشتاء بالتالي هو الفصل غير الموائم . وفي

الواقع تتعرّى هذه الاشجار من الاوراق الموقته في الشتاء كي تخفف من نسق حياتها الى أقصى حد وتعيش على حساب الاحتياطات المتراكمة خلال الفصل المناسب . وهكذا تكون الغابة في الجولان من نمط مختلف ، وتكون الاشجار في معظمها من ذوات الاوراق المؤقتة .

ويفسر هذا الاختلاط من الأشجار ، اي من ذوات الاوراق المؤقتة وأخرى من ذوات الاوراق الدائمة ، وفي المكان ذاته ، يفسر بظروف محلية يستطيع فيها تعرض السفوح للشمس وللرياح الرطبة ، اي يختلف من نقطة لأخرى . وهكذا نجد فوق المخاريط البركانية بقعة من سنديان ذي اوراق دائمة ، وعلى مسافة ضعيفة بقعة أخرى من بلوط ذي اوراق مؤقتة (الملول) . وتكفي ضآلة الاختلافات الطبوغرافية في الواقع لتفسير هذا الخليط من ناحية وتفوق صنف على آخر من ناحية أخرى .

وتشبه غابة الجولان غابة المجال الرومي الرطب ، وغابة السواحل الشمالية من البحر الابيض المتوسط في اوروبا .

وفي الواقع تكون هذه الغابة الشمالية متميزة شأن غابة الجولان « باختلاط البلوط ذي الاوراق الدائمة كالسنديان . . . وبلوط ذي اوراق مؤقتة كالبلوط الازغب الذي نعرف أنه هو الافضل مواءمة مع الجفاف بالموازنة مع كل انواع البلوط ذي الاوراق المؤقتة »^(١٥)

وتتألف احراش منطقتنا اساساً من البلوط الذي يكون « تصنيفه عسيراً بشكل خاص ، لتوزعها على انواع عديدة تكون متجاورة مع بعضها البعض ومتباينة »^(١٦) وهكذا تؤلف انواع البلوط مصدر « بؤس » علماء النبات وبالتالي الجغرافيين ، على الخصوص ، اكثر من سواهم .

واكثر الانواع انتشاراً في غابتنا هي السنديان أو البلوط *Quereus ilex* وبلوط كرمس أو السنديان *Quercus Coccifera* والملول *Quereus Aegilops* والعفص أو *Quercus Lusitanica* والتي تكون ثمراته مرغوبة في صناعة الدباغة

15. P.Birot. Biogéographie des continents C.D.U.1945.P.148

16.. E.de Vaumas. Thèse ch. P.13

التقليدية . أما الاشجار الاخرى المختلطة في الغابة مع البلوطيات فهي البطم
أو Pistacia Terbenthus والزعرور أو Crataegus Monogyna والأجاص البري أو
Pyrus Bover Steud وخوخ الدببة أو Purunus Ursina والمشمش الوحشي ذو الثمار
الصفراء « بلقوق » واللوز الوحشي أو « البربور » .

وتجذب ثمار هذه الاشجار ، على رداءة انواعها ، السكان المحليين
الذين يستغلونها بشراسة . ولكي تتساقط ثمارها ترمى الاشجار بالحجارة مما
يؤدي لت هشيم الافنان الصغيرة والى تلف الاوراق . وقد تظل قطع حجرية
كبيرة عالقة بالاغصان .

وقد لاحظ اتيان دوفوماس شجرة اجاص وحشية تحمل مثل هذه
الحجارة في جبل لبنان الشرقي . وقد عزا بقاء واستمرار هذه الشجرة الى خرافة
بقوله : « ربما يجب ان نفكر بأن هناك خرافة ترتبط بها ، لاننا نرى دوماً حجارة
كبيرة نوعاً ما متشعبة عند تفرغ اغصانها » . والواقع ليست هناك اية خرافة لان
السكان المحليين لا يحتفظون بهذه الاشجار لان الاسلام ينهي عن قطع
الاشجار المثمرة ، بل لانهم يستفيدون من ثمارها .

ويقوم البدو ، ولا سيما نساؤهم ، بقطع كميات كبيرة من الثمار ،
وعلى الخصوص ثمار الزعرور وينقلونها على ظهور الحيوانات الى حوران
لمقايضتها بالقمح ، حجم بحجم . أما في الاودية العميقة حيث يكون الشتاء
اقل قساوة مما هو على الهضبة فإن الغابة تضم اشجاراً أخرى : كالزيتون
الوحشي ، والغار والاقصاب . ونجد في بعض الاودية اشجار تين وبعض
الدوالي بحالة برية ، ترى هل هي عبارة عن مزارع قديمة مهجورة ؟ .

وتحتل الغابة بصورة تفضيلية الكتل البركانية حيث تكون الشروط
المناخية والبيدولوجية أمضل تحقّقاً ، وتنال امطاراً وفيرة بسبب الارتفاع والتربة
البركانية ذات الخث والتي تسمح للجذور بالامتداد لعمق كبير . غير انه من
الممكن رؤية بقايا ضامرة من الغابة في اي مكان في الجولان الذي يقع كله
تقريباً في داخل التخم المطري للغابة ، وهو الحد المتمثل بخط المطر المتساوي
٥٠٠ مم في العام .

توزع الغابة الجغرافي

وهي عبارة عن مزق متبقية ، مبعثرة في كل مكان . وهي غابة مشتتة تتناثر فيها رقع مفتوحة يستغلها الفلاحون كحقول زراعية . ويغطي مجموع هذه البقايا ١٨١٢٥٠ دونماً اي ١٨١٢٨ هكتاراً و ١٨١ كيلومتر مربع تقريباً أو ما يعادل ٩٪ من المساحة الكلية للجولان .

ويدل توزع الغابة بصورة واضحة جداً على التأثير المناخي . وهكذا يكون السفح الشرقي من الجولان عارياً بالموازنة مع السفح الغربي المفتوح الصذر لرياح الغرب والجنوب الغربي والشمال الشرقي والتي تأتي من البحر والتي تعطي الامطار بالتالي .

ويكون القسم الاكثر ارتفاعاً في الجولان جيد التعرض للرياح الرطبة . وهكذا نجد فوق كتلة جبل بريقة وبير عجم ان الغابة تغطي ٣٥٠٠ هكتاراً في حين تتلاشى الغابة في شرقي هذه الكتل ، وحتى في حوران ، وجبل الدروز ذاته ، تماماً .

أما على السفح الجنوبي الشرقي من الحرمون^(١٧) فإن الغابة تغطي ٢٠٥٠ هكتاراً ولا سيما في الاراضي التابعة للقرى التالية :

مجدل شمس	٧٠٠ هكتار
حرفا	٢٠٠ هكتار
جباتا الخشب	٢٠٠ هكتار
جباتا الزيت	٧٠٠ هكتار
طرنبجة	٧٠ هكتار

هذا فضلاً عن مساحات أخرى منكشمة ومبعثرة

(١٧) تكون الانواع الموجودة في نهاية سفوح الحرمون مماثلة تماماً لتلك التي نجدها في الجولان نفسه .

وتغطي الغابة فوق مجموع اراضي القنيطرة ، عين زيوان ، عدنانية ، قحطانية ، غسانية . جوية ، بير عجم ، بريقة ، المنصورة ، عين الحجل ، عين عائشة ، ودلوة: رقعة ٢٣٦٠ هـ ، هكتاراً وإلى الجنوب من بانياس نجد مساحة ١٠٠٠ هـ و ٦٠٠ هـ فوق اراضي قرى قراطة ، مويسة ، سكيك ، وواسط ، ١٨٢٠ هـ فوق مجمل اراضي اليعربية ونوانية وجميزة . وتصيح الغابة في اتجاه الجنوب مفتوحة مبعثرة اكثر فأكثر ، كما ان المساحة الكلية للغابة في مجمل قضاء الزوية لا يتجاوز اطلاقاً ٢٥٠٠ هكتاراً أي ٤١٪ من مجمل مساحة القضاء ، في حين ترتفع النسبة المئوية الى ١١٪ في قضاء القنيطرة وإلى ٩٪ في مجمل الجولان . هذا وتنمو الغابة في قضاء الزوية بشكل خاص فوق اراضي فيق ووادي مسعود في اراضي قرية كفر حارب ، وفي وادي الدفيلة ووادي جرامايا في اراضي كسفين ووادي الهوا وارضى قريتي الشجرة ومعربة .

ويرغب الفلاحون في الرقع الشاغرة التي تفتح ضمن الغابة لزراعتها بالحبوب المتنوعة . ونعيد للذاكرة لآخر مرة سرعة عطب هذه الغابة وهشاشتها ، فهي حساسة بالرعي الجائر ، كما يستطيع فأس الانسان ان يستأصلها نهائياً لأن نزع الغابة يتلف ترب المنحدرات بفعل الحت التي ما ان يتم انجرافها حتى لا يكون هناك أدنى امل في عودتها لحالها السابق .

٢ - التشكلات « غير الغابية » .

يظهر الغطاء العشبي مستمراً ويحتل مكان الغابة حيثما تلاشت هذه بسبب عدم كفاية الأمطار أو بسبب استئصالها . ويضم هذا الغطاء العشبي مجموعة كاملة من النباتات المترامية على بعضها بعضاً والتي تنمو بحيوية عظيمة بحيث يتحول الجولان خلال بضعة اسابيع من فصل الربيع الى مرج حقيقي وحيث يرتفع العشب في السنة الطيبة ، طبعاً ، حتى ارتفاع ٥٠ سم

ويعمد فلاحو الجولان ، ولا سيما الشراكسة منهم ، الى حش العشب الاخضر ابتداءً من نيسان ويجففونه محلياً وينقل الى القرية ويحفظ هذا العشب

اليابس على شكل بيادر من التبن (انظر لوحة XIII رقم ١ ، ٢ ، ٣) .
ويجعل هذا الغطاء العشبي الغني من الجولان منطقة متميزة لانتشار المراعي
ولتربية الماشية .

ويهتم السكان كثيراً بهذا العشب ، من حيث حصده ، وتجميعه
« رجاء » وصنع بيادر التبن ، تلك الاعمال التي تشكل مشاغل الفلاحين
ابتداءً من نيسان حتى نهاية أيار .

ويضم التشكل النباتي ، غير الغابي ، في الجولان عدداً كبيراً من
انواع لم تكن اطلاقاً هدف دراسة .

أما أخفيات اللقاح فهي التي نملك أقل المعلومات عنها ، ونوع
الفطريات هو الأكثر انتشاراً وينمو بصورة عفوية خلال الشتاء . ويجني البدو
منها بمقادير كبيرة ويبيعونها في القنيطرة على الخصوص ، وهي صالحة
للاستهلاك ومرغوبة جداً لدى السكان الحضر . وهناك انواع اخرى سامة
 ويعرفها البدو تماماً نتيجة الخبرة والتجربة . وهناك انواع تنمو فوق جذوع
الصفصاف وتكون سامة بدورها . أما النوع الذي ينمو في الاودية على شكل
وحدات منعزلة ، ولكن بحجم كبير جداً ، يدعى القلحة ، فيكون مرغوباً
وصالحاً للاستهلاك .

وتنتشر الحزازيات أيضاً في الامكنة الرطبة وفوق الجدران القديمة .
وتكون كل الانواع حطبية وتساهم في تكوين الغطاء العشبي
المخفض مثلما تكون حساسة جداً بنزوات المناخ .

هذا وتصادف الانواع النباتية الأخرى غير الحطبية Ligneuses صعبوبة
مناخية مزدوجة وهي برد الشتاء وجفاف الصيف ، وتتواءم مع هذا المناخ ذي
الفصول المتنافرة حسب طرائق متنوعة . ويقع فصلها الانباتي الشديد القصر
عموماً في فصلين ملائمين نسبياً ونقصده بهما الربيع والخريف .

واستناداً الى طريقة تلاؤم هذه النباتات مع المناخ سنعمد الى تصنيفها

في الاصناف المتميزة التالية :

آ - الحوليات Therophytes : وتتواءم مع الجفاف بدورة انباتية غاية في القصر
لا تتجاوز مدتها من الحبة الى الحبة سوى ثلاثة او اربعة شهور وذلك حسب

السنين . وهنالك الحوليات الربيعية على الخصوص التي تنمو في بداية هذا الفصل وتجنف في بداية الصيف . وتتألف هذه المجموعات من عائلات عديدة وقد استطعنا احصاء الانواع الاتية :

النجيليات : وتتألف من Phleum Pratense, Festuca Pratensis, Dactylis Glomresata

البقوليات : وتضم النفل Trifolium Panonicum, Trifolium Hybradium, trifolium Repens

(بابونج « Trifolium Pratense الذي يكثر انتشاره ويستعمل مشروباً كمنقوع و Pisum Humile, Trifolium Filiformis والتمس البري .

الخبازيات : ويكون ممثلها الرئيسي نبات الخبازة التي تحتل في الربيع مساحات كبيرة . ويستهلك الفلاحون والبدو الكثير منها على انها احدى الخضار الصليبيات : وأكثر افراد هذه العائلة انتشاراً هو نبات حب الرشاد ثم نبات الحرف ذاته وكلاهما صالحان للأكل .

المركبات : وتتألف على الخصوص من الكعوب (السلبين) ومن نباتات اخرى شوكية ذات اوبار .

المظليات : يتصف عدد من المظليات الكبيرة مثل الختليت Ferule أو الشمرة Fernula Communis.L بهيمنة كبيرة في الجولان أو على ضفاف بحيرة طبرية بحيث تصبح عنصراً مميزاً في المشهد^(١٨) وبأمكننا ان نذكر منها الكمون البري الذي ينمو في الجولان كنبات تحتغابة .

وتنمو نباتات الازهار بكثرة بين نباتات الغطاء العشبي مما يحول الجولان في الربيع الى روضة حقيقية (انظر صورة لوحة XIV ، ١) وتتسبب هذه النباتات الزهرية الى عدد من العائلات .

البنفسجيات : وينمو البنفسج بأعداد كبيرة منذ بداية الربيع ويكون احد تبشير الربيع .

المركبات : ولا سيما الاقحوان البري .

الشقاريات : واكثرها شهرة شقائق النعمان

ب - النباتات الارضية : وهي الفئة الثانية من النباتات المتلائمة مع فصل جفاف ، بل وحتى مع عدة سنوات عجاف بفضل جذموراتها وبفضل بصيلاها . وتوفر لها هذه العضويات الباطنية استمرارية الحياة لانها تنجمن أشد تأثيرات التبخر ضراوة .

ويظهر الجهاز النباتي لدى هذه النباتات الأرضية في بداية الخريف ، وهو الفصل الثاني الملائم نسبياً للحياة النباتية بسبب رطوبة جوية مرتفعة ، وبعض الامطار المبعثرة من ناحية وبسبب حرارة تظل مرتفعة من ناحية أخرى . ويكون العيصلان أفضل مثل لنباتات الجولان الارضية . وهناك نباتات اخرى ذات بصيلا تنسب الى اسرة الزنبقيات وذات أزهار بنفسجية بديعة . أما البصل البري *Allium Sindjéreuse* فيتنسب ايضاً بدوره الى هذه الفئة .

ج - القننات الدائمة : وتتنافر مع القننيتين السابقتين ، لأنها عبارة عن نباتات معمرة يكون لجهازها النباتي السطحي حياة مستمرة مع كونها بطيئة .

وتتواءم هذه القننات الدائمة مع الجفاف بنمو خارق ، مفرط ، للجذور الافقية أو العمودية . وتمثل في الجولان بنات *Alfa Stipa Tenacissima* التي هي عبارة عن نجيلية معمرة ، وبواسطة شوك الجمل التي تغوص جذورها حتى عمق قد يبلغ ستة امتار كي تنتج المياه الباطنية .

د - ويمكن تصنيف عدد من النباتات في فئة محبات الماء . وتعيش هذه النباتات في الماء عائمة او ثابتة ، وأشهر هذه وأكثرها انتشارا هونبات القرّة *Cresson* (الحلو والشنيع) والننغ المائي .

هـ - وأخيراً نجد بين الانواع المختلفة التي تؤلف الغطاء العشبي عدداً من النباتات الضارة للحيوانات مثل الزيوان أو *Cristo Galli* ، والعصيلان والحنظل .

ويمكن المأخذ الاكبر لدى هذا الغطاء العشبي في شدة قصر حياته . فابتداءً من نهاية نيسان أو بداية أيار ، وذلك حسب استمرار أمطار الربيع ، يصبح الغطاء النباتي مصفراً أكثر فأكثر ويتلاشى بسرعة . وتتهشم الاعشاب الجافة بتأثير الجفاف والحرو تحمل الرياح الخريفية بقاياها كي تنضم للغبار في

حركات دوامية . والواقع تصبح الارض عارية تماماً (صورة ولوحة XIV ، ٢)
وتكون المفارقات في المشاهد بين الربيع والخريف شديدة .
وتتأثر الحيوانات ، من جانبها ، بهذه التبدلات التي تطرأ على الغطاء
النباتي فبعد ان كانت شديدة السمنة مكتنزة ، وذات الوان ناصعة في الربيع ،
تصبح هزيلة ، كالحة اللون ، في الخريف . واذا انحبست امطار الخريف في
الفترة المناسبة فإن الموت على شكل مجازي يصبح امراً لا مفر منه .

سادساً : الوضع الحقوقي للغابة وامكانية تحسين النبات الطبيعي
تتطلب الغابة السريعة العطب ، وسرعة زوال الغطاء النباتي ،
بالفعل ، تدخل الانسان بقصد تأمين الحماية الضرورية ضد الذين يسيئون
استغلالها ، وتحقيق التحسين الممكن فيها ، وزيادة فائدتها ومردودها ،
بالتالي . والواقع تتم حماية الغابة من جانب دائرة الحراج ، ولكن لم يتم شيء
حتى الآن في اتجاه التحسين ولا في مجال الغابة ، ولا في مجال المروج .

١ - الوضع الغابي السوري^(١٩)

يحتاج الفلاحون الى الاعتماد على الغابة من اجل الحصول على الوقود
ولصنع ادواتهم من محراث ونير الخ ، وبضع ادوات اخرى يستخدمونها في
الحياة الريفية اليومية . وكان المستفيدون من الغابة ، وهم بجهلة ، وعلى غير
دراية ، يفرطون في استغلالها وكانت الاشجار تتلاشى اكثر فأكثر وكانت الثروة
الوطنية تتناقص نتيجة ذلك باستمرار . وأمام وضع كهذا كان على التشريع
القانوني الغابي ان يكون صريحاً في تعريف العناصر المؤلفة للغابة وكذلك
بالنسبة للاستغلال المجال الحراجي .

وفي الواقع يشير بند ٢ تحت اسم الغابة الى العناصر التالية :

- ١ - كل شجرة والشجيرات والاعشاب التي توجد في مجال الغابة .
- ٢ - الجذور والثمار والمنتجات الأخرى التي قد تنتجها نباتات الغابة .
- ٣ - الحجارة والتربة ، والرمل والخامات المعدنية والأسمدة الموجودة في الغابة .

(١٩) وقد نص عليه قانون ١٩٥٣/٩/٢١ .

ويوضح البند الخامس ان كل الاراضي الحراجية تنضوي في املاك الدولة .

وتسمح الفقرة العاشرة باجلاء القرى والمزارع التي قد تقوم في الغابة أو حولها اذ ثبت ان سكانها قد اتلفوا الغابة . وتراقب دائرة الحراج استغلال الغابة لتأمين استمراريتها وتحسينها في الوقت ذاته .

هذا ولا يجوز قطع اية شجرة الا بترخيص ممنوح مسبقاً وخلال مهلة خمسة اشهر ابتداء من اول تشرين الاول حتى نهاية شباط (بند ٢٣) ، بيد ان المشرع اعترف بحق المستفيد من سكان القرى الذين لا يبعد مكان سكنهم عن خمسة كيلومترات عن الغابة وتنحصر هذه الحقوق فيما يلي :

١ - استغلال الحطب اليابس والثمار الساقطة على الارض
٢ - استغلال الخشب اللازم لصنع الادوات الزراعية ولتشديد المساكن واصلاحها

٣ - استخدام الخشب كوقود منزلي .
وقد تحدد مقدار الاستهلاك السنوي لكل شخص من الحطب من قبل مديرية الحراج في مختلف اجزاء الجولان :

٥٠ - ١٠٠ كغم في قضاء الزويرة (فيق)

٥٠ - ١٥٠ كغم في قضاء القنيطرة .

٥٠ - ٢٢٠ كغم في قرى سفح جبل الشيخ الجنوبي والجنوبي الشرقي .

ونلاحظ ان الحصص تتناقص من الشمال باتجاه الجنوب .. ولقد روعيت ،

في الواقع ، عند تحديد معدل الاستهلاك من الحطب الاعتبارات التالية :

- المساحات الحراجية التي تتناقص من الشمال باتجاه الجنوب

- قساوة الشتاء التي تتناقص بالتالي في الاتجاه نفسه

٤ - استغلال عشب ما بين الغابات لمصلحة المواشي (حق الرعي) باستثناء الماعز والابل .

ويتطلب البند (٤٨) تصفية قطع الماعز عن طريق البيع . والواقع هو

ان الدولة تواجه تنفيذ برنامج مزدوج : حماية الغابة الحالية واعادة تجميع المساحات المعرّة .

هذا وتمنح المديرية العامة للحراج بالمجان البذور والشتلات للذين يرغبون في إعادة تحريج اراضيهم (بند ٨٩) . وقد تم بالفعل تحريج مساحات قليلة الرقعة بالفعل ، وذلك فوق اراضي القرى التالية : مسعدة ، جبانا الزيت ، عرنة ، وقلعة جندل .

ولتحقيق عملية تحريج منهجية يجب على الدولة ان تتدخل بفعالية اكبر ، لان الفلاحين يجهلون اية طريقة كما ان المساحات المحرّجة لا تنمو الا بصورة بطيئة للغاية ، كما ان المساحات الحديثة التي تركت تحت رحمة الطبيعة تلاشت في معظمها .

والواقع لقد لوحظ في الجولان ان عدد أشجار البلوط لا تزيد اطلاقاً في ظل الاوضاع الطبيعية الحالية : « بحيث يمكننا القول ، مهما كان ذلك مستغرباً لأول وهلة ، بأن من بين كل ثمرات البلوطات التي تنتجها شجرة البلوط خلال حياتها الطويلة ، تكون واحدة منها ضرورية »^(٢٠)

وتجاه وضع كهذا لا يجوز ان يظل وضع وموقف الانسان منفصلاً ، اذ من الميسور والتحرك بصورة مفيدة . فإذا امكن تأمين نمو ثمرة بلوط واحدة من بين تلك التي تعطيها كل شجرة بلوط في الغابة ، فإن من الممكن ، دون الحاق اي اذى بالغابة ، استغلال الاشجار الهرمة ، ومن ناحية اخرى من الممكن ادخال اشجار جديدة اكثر نفعاً ، وقد اعطت تجربة مسعدة نتائج مشجعة طيبة . فقد نمت زراعة نوع Pinus Pinea على مساحة ٢٠٠ هـ وتبدو هذه الغابة في اوج ازدهارها .

ويستطيع الانسان ان يتدخل ايضاً في اتجاه آخر اذ يمكن تطعيم كل اشجار الغابة الجولانية . وقد تمت هذه التجربة على الصعيد الفردي وكانت النتائج مرضية . ويمكن تطعيم البطم بالفسق والزعرور بالتفاح أو الأجاص ، والخوخ ، والأجاص البري بالعديد من الاشجار المثمرة .

تحسين المروج الطبيعية

وهو مشروع هام جداً بالنسبة للجولان لأن تربية الماشية هي إحدى أنشطة السكان الرئيسية . وتمارس تربية الماشية بصورة بدائية ومتخلفة جداً ، لأن الحيوانات كثيراً ما تكون دون مأوى ، وتضطر لأن تقنع بما تقدمه الطبيعة من غذاء . وهكذا كان لتلاشي الغطاء النباتي العشبي أحياناً ، ولا سيما في الشتاء ، نتائج مشؤومة . وهكذا تهزل الحيوانات وتصبح حساسة تجاه مختلف الأمراض أمام عدم كفاية الغذاء من ناحية ولقساوة البرد من ناحية أخرى . والواقع تكون الاختلافات الكبيرة في الإحصائيات المتعلقة بأعداد القطعان انعكاساً للاحوال الموائمة أو غير الموائمة للمراعي الطبيعية في الجولان . ولعلاج عدم استقرار ووقتية المروج الطبيعية ، وهي نتائج طبيعية ، فعلاً ، يجب تنمية المزروعات العلفية والحبوب الثانوية : ولكن يمكن تحسين الغطاء العشبي بإدخال أعشاب خضراء معمرة كي تصبح المروج سنوية عوضاً عن أن تكون فصلية . وفي هذا المجال يمكن الاستفادة من التجارب التي تمت في أقطار أخرى كأفريقيا الجنوبية وأستراليا والولايات المتحدة والهند ، وذلك تحت مناخات قاحلة بل أكثر قحولة من الجولان :

١ - وفي الواقع يرمي البرنامج العام لتنمية سورية اقتصادياً لإدخال الأنواع النباتية التالية :

Eragrostis Lehmannia, Lehman Lonegrass التي هي عبارة عن

نجيلية . وقد زرعت بنجاح كبير في الولايات المتحدة وفي جمهورية جنوب أفريقيا . وتتميز هذه النبتة بأوراق كثة وبكمية كبيرة من البذور مما ييسر تكاثرها .

والواقع تكون فوائد هذا النوع من النجيليات عديدة :

- تتواءم بسهولة مع كل أنواع الترب .
- تقاوم الجفاف بنجاحة .
- تتكاثر بسهولة وبغزارة .
- تظل خضراء مدة لا بأس بطولها .
- يكفي كيلو غرام من البذور لزراعة هكتار واحد بصورة كاملة .

وتكون اذن صالحة للزراعة وذلك حتى في شروط اقل مواءمة بالموازنة مع النجيليات العادية في بلادنا .

٢ - *Eragrostis Chloromala* وهي نجيلة اخرى تعرفت على نجاح كبير في نيومكسيكو ولاسيما عندما زرعت مع نباتات أخرى مثل *Eragrostis Lehmanni* ad .

وتتميز هذه النجيلة بنمو سريع .

٣ - *Eragrostis Curvula* وهي ايضاً نجيلية وتكون جزيلة الفائدة لانها تظل خضراء طيلة العام وتحول دون انجراف التربة نظراً لمنظومتها الجذرية النامية جداً .

٤ - *Bouteloua Gracilis*, *Cynodon Dactylon*, *Buchloe Dustyloides* وهي انواع تعطي أوراقاً علفية مرغوبة جداً وتقاوم الجفاف بنجاح .

٥ - *Artiplex Capensis*, *Artiplex Nummaluria*, *Salt Bush Speeles* .

و *Artiplex Semi Baccala* وهي شجيرات اعطت نتائج مرضية في استراليا وفي افريقيا الجنوبية .

وقد كان السيد آ . جيب هو الذي اقترح على الحكومة السورية في تقرير لعام ١٩٤٧ حول التنمية الاقتصادية في سورية ادخال الانواع المذكورة اعلاه .

والواقع لم يتحقق شيء حتى الآن في مجال المروج .

القسم الثاني

جغرافية الجُولان البشريّة

الفصل الاول الجولان في التاريخ :

. . . تحقيق الهوية التاريخية :

اقليم الجولان الذي يشكل وحدة جغرافية بحدود طبيعية معروفة لم ينحصر دائماً ضمن هذه الحدود . فقد تقلص هذا الاقليم او تجاوز حدوده الطبيعية تبعاً للظروف التاريخية وحلت محلها حدود إدارية مطابقة لحدود السياسية الدولية . فاصطلاح الجولان « ليس له حالياً »^(١) سوى مدلول اداري ، يعني القسم الشمالي من الاقليم وحسب . وهو قضاء الجولان التابع لمحافظة دمشق . اما القسم الجنوبي فيشكل قضاء الزوّة الذي يتبع محافظة حوران^(٢) . لكن النية تتجه الى جعل هذين القضابين في محافظة واحدة مقرها القنيطرة . وفي زمن الحكم العثماني كانت الحدود الادارية لقضاء الجولان اكثر مطابقة لحدوده الطبيعية ، وكانت القنيطرة مركز القضاء وتتبعه مديريتان إحداهما في الشمال ، مديرية الشعرة ومركزها مجدل شمس ، والأخرى مديرية الزوّة في الجنوب ومركزها فيق .

(١) في العام ١٩٥٣ عدلت التسميات الادارية لبعض المناطق والمراكز في سورية واطلقت التسميات التالية : قضاء القنيطرة بدلاً من الجولان ، قضاء فيق بدلاً من الزوّة ومحافظة درعا بدلاً من محافظة حوران
(٢) محافظة درعا .

ولم يكن الجولان يتبع وقتئذٍ ولاية الشام^(١) مباشرة ، وذلك عن طريق سنجق حوران .

وقد عرف اسم الجولان في العصور الكلاسيكية ، اي العصر الروماني^(٢) بنفس الاسم « Goulanitide » وقد تأرجحت حدود الاقليم بين التوسع والانكماش ولهذا نجد في غربي حوران قرية سحم الجولان . وفي القرن الاول للميلاد امتد اقليم الجولان إدارياً لتشمل منطقتي الحولة وبحيرة طبرية وليصبح محاذياً لإقليم الجليل^(٣) . ولا يميز بعض المؤلفين غالباً ما بين الجولان وحوران وذلك لسبب بسيط هو ان الاقليمين يسترهما كليهما غطاء بركاني . ولكن ربما كان السبب الاهم في هذا الالتباس هو تصرف كتاب اسفار التوراة الذين اطلقوا اسم باشان على كل الاراضي المحيطة بمملكة عوج ملك باتانيا (حوران) .

ولقد وضحننا في مفتتح هذه الدراسة أصالة الجولان التي لا جدال فيها . وإنه ليس من الصعب الكشف عن الاضافات التي لحقت بالتوراة . فبعض المقاطع المتفرقة التي تصف باشان لاتتقصد أرض حوران بل الارض المعنية هي أرض الجولان .
فارض باشان الخصيبة المغطاة بغابات السنديان المكثيفة التي يصعب اختراقها تطابق في مواصفاتها أرض الجولان لا حوران .
للدلالة على ذلك نقدم البيانات التالية :

(١) اي ولاية سورية ، الشام هي الاسم العربي لسورية عند الجغرافيين العرب .

(المترجم)

(٢) بين القرن الاول ق . م . والقرن الرابع الميلادي . والتسمية اللاتينية أنت

توكيداً للتسمية العربية الدارجة قبل ذلك بقرون . (المترجم)

(٣) ولكن في أواخر القرن الاول للميلاد الحقت منطقة الجليل وكل فلسطين بولاية

سورية الرومانية . (المترجم)

- ١ - اننا لا نرى في حوران حالياً شجرة سنديان واحدة فمناخ الاقليم يتجه الى الجفاف من الحقب الجيولوجي الرابع وهو لا يساعد على تكوّن الغابات .
 - ٢ - نظراً لعدم توفر الخشب الصالح للبناء يستخدم حجر البازلت في حوران بدلاً عنه . وقد استطاع المهندسون في العصر الاغريقي - الروماني تنفيذ كل مشروعاتهم العمرانية في الاقليم بتطبيق الحجارة ببساطة ودون استخدام الملاط .
- وكان الحجر هناك كافياً لسد كل الحاجات المعمارية ، لبناء الجدران والعوارض والقباب والابواب والنوافذ . ولم يكن للحجر نفس الدور في الجولان لأن الخشب الصالح للعمارة كان متوفراً .
- ويشير الكاتب التوراتي بوضوح الى غنى الجولان المراعي والقطعان والاشخاب المتينة :
- «تأكلون لحم الجبابرة وتشربون رؤساء الأرض كباش وحملاًن وأعتدة وثيران كلها من مسمّات باشان»^(١)
- وفي رثاء صور : « صنعوا من بلوط باشان مجاذيفك »^(٢) بيد ان هذا لا يمكن مقارنته مع حوران التي كانت دائماً أرضاً زراعية معروفة بانتاج الحبوب ، اما الجولان فقد عرف بالمروج والمراعي والقطعان وهكذا فان الالتباس بين الجولان وحوران لم يفقد اقليم الجولان شخصيته التاريخية المميزة المستندة الى أساس جغرافي مكين . فعلى مر عصور التاريخ المتغير والمضطرب في الشرق الادنى ورغم تعاقب الدول والامبراطوريات فإن اسم اقليم الجولان لم يغيب بل بقي غالباً محتفظاً بوجوده كوحدة جغرافية إقليمية . ففي عصر الرومان كان اقليم الجولان متميزاً عن اقليم باتانيا . وكان يشمل المنطقة الجبلية غربي باتانيا بمحاذاة الاردن مشرفاً على بحيرتي الحولة وطبرية .

(١) سفر حزقيال الاصحاح ٣٩ : ١٨

(٢) سفر حزقيال الاصحاح ٢٧ : ٦

أما العرب قبل الاسلام وبعده فإنهم لم يخلطوا بين الجولان و حوران . فاسم الجولان يتردد في آثار الأدب العربي قبل الاسلام . ولهذا دلالات تاريخية بالغة الاهمية بالنسبة لتاريخ الجولان كله .

فالأمرء الغساسنة وعلى رأسهم الحارث الغساني ، كانوا يحكمون الجولان ضمن الاقاليم التي كانت تحت حكمهم في جنوبي سورية بما فيها شرقي الأردن آنذاك . وهكذا كان هذا الاقليم عربياً قبل الدولة العربية الاسلامية بقرون عديدة .

٢ - تأثير موقع الجولان على تاريخه .

لقد أثر موقع الجولان على مفرق طرق بشكل واضح على تاريخه كما أثر على جغرافيته .

فلعوامل مناخية كان الشرق الأدنى من اول مهد الحضارات القديمة . وعلى الصعيد البشري تتصف تلك الحضارات بتحرك دائم للشعوب على شكل هجرات او غزوات او رحلات تجارية مما ادى الى تمازج مستمر بين الاقوام والشعوب في كل المنطقة .

وقد انعكست هذه الهجرات على اقليم الجولان الذي يعتبر بحق مفترقاً للطرق وممراً للعبور بين كل الجهات الشرق والغرب ، والشمال والجنوب . ولهذا المفترق مميزات نظراً لوجود منافذ منه نحو الغرب تخترق الحواجز الجبلية العالية التي تفصل ما بين الاقاليم الساحلية والداخل وهذه المنافذ يتجه احدها شمالاً الى مرجعون في جنوب لبنان ، والثاني الى مرجع ابن عامر في شمال فلسطين عن طريق جسر بنات بعقوب على نهر الاردن .

وتوضح لنا مصورات شبكة الطرق القديمة الدور الذي استأثر به الجولان في العلاقات ما بين شعوب الشرق الأدنى القديم .^(١) هذا الموقع الذي كان مشجعاً على المرور في كل الاتجاهات لم تكن له آثار إيجابية دائماً

(١) انظر المصور في :

poldébard, le lim romain dans le desert de syrie, Bevrouth 1933.

Dussaud, la Topogwyhie luslorque de la syrie auditne et mrdévale 1927.

بالنسبة للأقليم ، بل على العكس ، كانت له نتائج سلبية وغير طيبة . فعن هذا الطريق مرت جيوش الفراعنة المصريين وملوك آشور وبابل وفارس واليونان . ولم يعرف اقليم الجولان الاستقرار الا عندما جاء الرومان على انقاض الممالك المنهارة . لكن الهدوء مالبث حتى تلاشى عندما نشب الصراع بين إمارتي الغساسنة في الشام والمناذرة اللخمين في العراق بتحريض من الروم ومن الساسانيين .

وفي الجولان كانت المعركة الفاصلة على اليرموك عام ٦٣٦ م التي انتهت بانتصار العرب على جيوش امبراطورية الروم التي تراجعت وتركت سورية بين ايدي القادة العرب وعلى رأسهم أبي عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد .

ولكن الغزوالاوريي الصليبي ثم الاجتياح المغولي للمشرق العربي الاسلامي جعل من ارض الجولان من جديد ارض معركة وجبهة صراع . وفي عصرنا الراهن بعد ان اصبحت الجولان مجاورة بصورة مباشرة لاسرائيل التي قامت على ارض فلسطين العربية كان عليها ان تحتل اكثر من اية ارض سورية أخرى نتائج الصراع العربي الصهيوي .

٣ - الجولان عبر التاريخ :

ليس في نيتنا تقديم دراسة تاريخية مفصلة عن هذا الاقليم . فلا يعنيا هنا من التاريخ الا ما يساعد على فهم المظاهر البشرية في الجولان . ولذا فاننا سنكتفي بعرض لمحة تاريخية مختصرة نبن فيها كيف تعاقبت الموجات البشرية عبر الاجيال في هذه المنطقة من سورية . ولكن الامر لا يبدو هنا سهلاً نظراً لقلّة الدلائل الاثرية الظاهرة . وأبرز هذه الآثار الباقية هي التي ترجع الى عصر الصراع الذي نشب في البلاد بعد الحملات الاوربية الصليبية .

وأهم المواقع التاريخية التي نجد فيها آثاراً باقية : فيق ، العال ، خسفين ، كفر حارب ، مومسية ، صرمان . أما أهم بقايا الحصون التي بنيت زمن الصراع العربي - الاوربي الصليبي وماتزال تحتفظ حتى اليوم بأسس بنيانها ومعالمها فهي قلعة الحصن التي تسيطر على بحيرة طبرية

وقلعة الصبية او النمروود قرب بانياس .^(١)

ان اختفاء معظم آثار الجولان يمكن تفسيره بالوقائع التالية :

١ - ان منطقتنا هي الآن كما كانت في الماضي مقر حياة بشرية ريفية بصورة مطلقة فالفلاحون والرعاة الذين عاشوا في المنطقة لم يهتموا أبداً ببناء القصور والمعابد ، بل اكتفوا بالاكواخ والبيوت الريفية .

٢ - نظراً لوفرة الخشب الصالح للبناء ، لم يكن السكان مضطرين ، كما هو الأمر في حوران الى استخدام الحجر وحده من اجل البناء . ولما كانت السقوف الخشبية غير قابلة للصمود ، فإنها سرعان ما كانت تتساقط ، والمباني القديمة كانت بالتالي تتداعى وتختفي بينما صمدت المباني الحجرية في حوران حتى أيامنا هذه .

٣ - وبدون الظواهر المناخية العنيفة ، الرياح والأمطار . . كانت من العوامل التي أثرت في سرعة تدهم تراث الجولان العمراني .

٤ - بالإضافة الى هذا فإن السكان انفسهم من فلاحين ورعاة لا يقدرّون قيمة هذا التراث القديم ، وقد اسهموا في اتلاف البقايا التاريخية القديمة في الاقليم . وقد استخدموا حجارة المباني القديمة المنحوتة في بناء مساكنهم وبيوتهم الخاصة . وهكذا فإن قرية الرمسانية ، وهي من العصر الروماني ، قد دمّرت في مطالع الخمسينات ، بينما عمل سكان قرية نعران على اتلاف مساحات واسعة من الموزاييك الذي كان يغطي سطح الارض برسوم ونقوش رائعة وكانت في ذلك خسارة فادحة للبحث التاريخي . .

٥ - وبالإضافة الى العوامل المناخية وما قام به الانسان كان للهزات الارضية المريعة دور خطير في تدمير مناطق واسعة بكاملها ، ومدن وقرى . وهكذا « كانت تزول من الوجود مظاهر العمران والحياة وتنتفح الارض لتبتلع الناس وهم في مساكنهم ثم تغلق عليهم »^(١)

(١) ذكرت هذه المواقع الاثرية كذلك بتوسع في المصادر العربية . (المترجم) .

(١) انظر ن . بورون ، المصدر السابق ص ٤١ N. Bouron P.41 .

وبالواقع فإن العديد من القرى المدمرة تدميراً كاملاً ، والمتروكة منذ زمن طويل ، تبدو آثارها ماثلة حتى الآن على أرض الجولان وبخاصة في الجنوب مثل : قنيطرة - الخراب . ومنصورة - الخراب^(١) . ولم تجر حتى الآن دراسات أثرية في هذه القرى القديمة .

فمن هذه المعطيات يمكن ان نقدم فيما يلي خلاصة بعن تاريخ اقليم الجولان .

« ان الثروات الطبيعية التي تتوفر في أرض باشان (الجولان) : الغابات والمروج وحقول القمح والحبوب والمواشي ، وحجارة البناء . وطرق المواصلات التجارية التي تتجه من دمشق الى العقبة (أيلة) تفسر لنا كثافة وتوزع السكان في هذه المنطقة ، وتقدم لنا اسباب التنافس بين مصر (الفراعنة) وبين الامورين المنتشرين في كل بلاد الشام^(٢) . وما بين المصريين والحثيين ، ثم ما بين فراعنة مصر وملوك بلاد الرافدين . وهذا التنافس بين قوى المنطقة للسيطرة على هذا الاقليم بقي مستمراً في العهد والعصور التي تلت . وكان على الجولان وأهله احتمال نتائج النزاع الحربي والسياسي بن الدول .

أما أقدم الوثائق التاريخية التي تشير الى اقليمنا ، فهي مراسلات العمارة المكتشفة في مقر الفرعون امنحوتب الرابع (اختانون) في صعيد مصر ، وهي تعود الى القرن الرابع عشر ق . م .

- فبعد حروب طويلة بين المصريين والحثيين توصل الطرفان الى وضع حد للنزاع وتم التوقيع الى معاهدة للسلام والتحالف أشهدت عليها الآله وجبل لبنان وجبل سيريون - حرمون^(٣) .

وبالواقع استطاعت معاهدة التحالف (عام ١٢٧٢ ق . م) بين حاثوشيلي

(٢) وهي ليست القنيطرة مركز محافظة القنيطرة . وهناك المنصورة ايضاً قرية مأهولة بمواطنين من الجراكسة .

(١) آبل ، المصدر السابق ج ٢ ، ص ١١ . (بالفرنسية) abel .

(٢) جبل سورية (جبل الشيخ) (المترجم) .

الثالث ملك الحثيين ورعمسيس الثاني ان تخلق جواً من التفاهم بين الطرفين ، ان الجولان كسائر سورية الجنوبية والوسطى فقد كان من حصّة الفرعون المصري .

وبعد قرن واكثر من التفاهم بين مصر والحثيين انهارت الامبراطورية الحثية تحت ضربات موجات الشعوب الايجية التي غزت الشواطىء الشرقية للمتوسط ، وهي الشعوب التي عرفت بالوثائق المصرية باسم شعوب البحر .

لقد شجع اختفاء الامبراطورية الحثية في القرن الثاني عشر ، ظهور الآشوريين على مسرح الأحداث في المنطقة حتى اصبحوا القوة الرئيسية منذ القرن التاسع وبخاصة في القرنين السابع والثامن ق . م . وقد هاجم الملك الآشوري تكلات فلاصر الاول (القرن الثاني عشر) مدن الساحل (الفينيقية) وكذلك فعل شلمناصر الثالث ولكن آشور اصطدمت بمصر وحلفائها في المنطقة ، في باشان أي الجولان وهوران .

أما في القرن الخامس فإن الملوك الفرس (كورش ، وقمبيز وداريوس) استطاعوا السيطرة على بلاد سورية من الخابور الى الليطاني ، ومن الاردن الى العاصي . وعندما هزم الفرس امام الاسكندر المكدوني (٣٣٣ ق . م .) ترك الفرس سورية لليونانيين وحلفائهم ، الاسرة السلوقية التي ورثت معظم امبراطورية الاسكندر وممتلكات الفرس السابقة في آسية .

وكان الاسكندر في مسيرته الطافرة من سورية الى مصر قد اخضع الساحل السوري والقبائل المنتشرة في الجولان وبثانيا (باشان) اي منطقة الحوض الشمالي للاردن . وقد حكم السلوقيون سورية من ٣١٢ حتى ٦٤ ق . م . وقد تميزت هذه المرحلة على الصعيد الداخلي بشدة الاضطرابات والتهادي في العنف . مما زاد في حدة الفوضى قدوم قبائل بدوية عربية اخرى من اليمن والحجاز . واستمر الوضع في التدهور حتى قدوم الرومان في القرن الاول ق . م .

كان للسلوقيين مراكز كثيرة في الجولان إلا ان المركز الوحيد الذي بقي

محتفظاً باسمهم هو قريّة سلوقية^(١) .

وفي العام ٦٤ ق . م . استطاع القائد الروماني بومبيوس ان يهيئ المملكة السورية السلوقية وان يجعل سورية كلها تحت الحكم الروماني . وقد قسمت البلاد الى أربع وحدات إدارية : إيتوريا ، تراخونيتيد ، حوران ، وبثانيا . وفي العام ٣٦ ق . م . ألحقت فلسطين ولبنان وإقليم الجولان بعرش ملكة مصر كليوباترا ولكن هذا العهد لم يطل إلا بضع سنوات وانتهى بانتصار أوكتافيوس الحاسم في معركة أكتيوم (٣١ ق . م) التي أدت الى مصرع انطونيوس والى انتحار كليوباترة .

وفي العام ٢٣ ق . م . انتزع أوكتافيوس (أوغسطس) من عبادة الثالث ملك الانباط إقليم حوران وبثانيا وتراخونيتيد ووضعها تحت إمرة هيرود الإدموي ملك اليهودية . ومع قدوم الرومان أضحت بلاد فلسطين كلها تحت سيطرة الرومان الذين جعلوا الملوك من أسرة هيرود تحت سيطرتهم المباشرة . وقد عاشت البلاد بسلام لفترة من الوقت تحت ظل الهيمنة الرومانية وعاد اليها ازدهارها وغدت واحدة من أجمل بلاد العالم .

وكان لانقسام الامبراطورية الرومانية تأثير سلبي على الأوضاع في سورية كلها وأعقب ذلك فترة من الاضطرابات والغزوات . واضطرت الامبراطورية البيزنطية التي حلت في الشرق بعدئذ الى خوض غمار صراع متصل مع الامبراطورية الفارسية الساسانية .

ومنذ القرن الثالث للميلاد اندلع نزاع عنيف بين الساسانيين والبيزنطيين واستطاع الفرس في عام ٣٥٠ ايقاع هزيمة كبرى بالجيش البيزنطي وقائده بليزارايوس . وتمكن الفرس من البقاء في أرض حوران مدة خمسة عشر عاماً . ولكن هذه الفترة لم تترك اي اثر شاهد عليها . وفي هذه الفترة تقدمت قبائل عربية كثيرة في سورية الجنوبية وكان هذا التحرك قد بدأ بقوة منذ العصر السلوقي . واستقر بنو جفنة ، الغساسنة في

(١) Selucie في العصر الهلنستي وهي شبيبي حسب التسمية الكنعانية - الامورية

ورد ذكرها في نصوص العمارة ، انظر ف . بيتري رقم ٥٦ ، ٥٧ . (المترجم) .

اقاليم الجولان وفي شرقي الاردن . بينما توجه التنوخيون الى جنوبي العراق وحوض الفرات . وقد صار الغساسنة حلفاء بيزنطة بينما غدا التنوخيون حلفاء للفرس . وهكذا كان النزاع ينشب بين الإمارتين العربيتين لمصلحة الدولتين المتنازعتين على النفوذ في الشرق القديم .

لقد طبع تاريخ سورية الجنوبية حتى النصف من القرن السابع للميلاد بالنزاع بين امبراطوريتي المشرق ولم يتوقف هذا النزاع حتى دخول العرب المسلمين الى سورية في ٦٣٦ م . لقد دخل العرب المسلمون الى سورية عن طريق الجولان . وقد وقف أمراء الغساسنة إلى جانب الروم البيزنطيين في مواجهة جيوش الفتح العربي^(١) في معركة اليرموك .

وتقدم العرب المسلمون بعد انتصارهم على البيزنطيين وحلفائهم نحو دمشق وبقية مناطق سورية . لكنهم اتخذوا أراضي الجولان الغنية بالمياه والمراعي منازل لهم ومعسكرات لجيوشهم . وغدا الجولان المركز الرئيس للفعالية العربية واتخذت قرية الجابية المعروفة منذ القديم كمقر مهم للغساسنة معسكراً رئيسياً للجيش العربي واحتفظت بأهميتها خلال القرون الثلاثة الاولى^(٢) . وقد قام الخليفة عمر بن الخطاب بزيارة الجابية في السنة السابعة عشر للهجرة وهناك التقى بامراء المسلمين في الشام قبل ان يتوجه الى القدس . وفي الجابية ، ترأس أمير المؤمنين المؤتمر الذي تقرر فيه بالإجماع ترك الارض الزراعية بأيدي المتفعين بها .

وفي السنة التالية ، في السنة الثامنة عشرة للهجرة ، عمّ بلاء الطاعون الريب ، المعروف بطاعون عمواس ، وقتل تقرر انتقال الجيش من مواقعه في الجنوب الى منطقة سليمة هي الجابية .

(١) انظر عزت النص ، سورية اوبلاذ الشام ، اطروحة متممة ، للدكتوراة في

الآداب ، باريس ١٩٥١ ، ص ١٦٥ .

(٢) تهدمت الجابيه منذ زمن طويل . وكانت القرية قد بُنيت عند تل الجابية الى

الشرق من منخفض الرقاد - علان وتعني كلمة الجابية بلغة البدو : المشرب ، مورد الماء .

وفي العصر الاموي إنعقد في الجابية المؤتمر الذي قرر مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . وفي الجابية نفسها اوعلى مقربة منها بدأ تنظيم الحركة السرية التي كانت تعمل لنقل الخلافة الى امام من آل البيت .

فالجولان بما له من موقع مهم الى مفترق الطرق وعلى مقربة من الاماكن المقدسة ، تلقى ضربات قاسية زمن الحروب الصليبية (بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر) . وفي تلك المرحلة كان للقلاع القائمة في المنطقة وأهمها : قلعة الحصن وقلعة الصبية ، عند بانياس ، أهمية كبيرة في السيطرة على الطرق وفي مراقبة المنطقة . وفي العام ١١٠٥ - ١١٠٦ تقدم الفرنجة حتى موقع العال وبنو هناك حصناً ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ به طويلاً . وقد وجد في إحدى الوثائق الصليبية اسم قرية الى الجنوب الشرقي من القنيطرة واسمها صُرمَان .

وقد كانت طبرية ، بوصفها مقراً صليبياً ، تتلقى حتى معركة حطين العظيمة (١١٨٧) . جزءاً هوعلى العموم مقدار النصف من عائدات السلط والبلقاء والجولان والمناطق المجاورة حتى حوران (١) . وهو مايدل على ان النفوذ الصليبي كان قد امتد الى هذه المناطق .

وتلقى اقليم الجولان النتائج المريعة للغزو المغولي الثاني في مطلع القرن الخامس عشر بقيادة تيمورلنك .

ولكن اعتباراً من العام ١٥١٦ بدأ عصر جديد في تاريخ الشرق الاوسط تميز باحتلال الاتراك العثمانيين للبلاد وحلولهم في سورية محل سلطنة المماليك . قد دام هذا الاحتلال التركي أربعة قرون حتى الحرب العالمية الاولى في مطلع هذا القرن العشرين .

وقد شهدت هذه الفترة الطويلة من السيطرة التركية سلسلة من الاضطرابات عمت البلاد وكان أشدها خطراً اجتياح قوات الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا البلاد في الثلث الاول من القرن التاسع عشر . ومن بقايا آثار تلك الحملة المصرية على سورية جسر الرقاد القديم وطريق يدعى الطريق المصري .

(٢) انظر . دوسو : طبغرافية سورية ص ٣٨٢ (بالفرنسية)

لقد جعلت الادارة العثمانية من الجولان قضاء يطابق في مساحته تقريباً الامتداد الجغرافي للجولان . لكن السلطة الفرنسية المتدبة هي التي قسّمت اقليم الجولان إلى قضائين . اما القضاء الجنوبي فربط إدارياً بمحافظة حوران . وهذا التقسيم بقي مرعياً الى حين صدور هذا الكتاب .

والى هذه اللوحة التاريخية ينبغي ان نضيف الوقائع التالية :

١- على عكس ما يمكن ان يخطر على البال ، فإن الجولان لم يرث من ماضيه البعيد شيئاً كثيراً . فالآثار والمعالم التاريخية نادرة وقليلة الاهمية . لأن السكان المعاصرين ينتمون الى أصول مختلفة ويعتقون مذاهب دينية مختلفة وهم لا ينحدرون مباشرة من الجذور القديمة للسكان ممن عرفتهم المنطقة .

٢- فباستثناء العرب الذين يرتبطون بأرض الإقليم منذ آلاف السنين فقد قدمت حديثاً الى الجولان مجموعات من السكان واستقرت فيه واختارته وطناً الى جانب العرب السوريين . فالعرب وحدهم سواء أكانوا من الفلاحين ام من البدويين اعتبرهم من السكان الاصليين وهم ينحدرون من تلك القبائل العربية العريقة والقديمة التي نزلت أرض الجولان من عصور بعيدة سبقت ميلاد السيد المسيح عليه السلام .

٣- أما توطين هذه المجموعات البشرية غير العربية الاصل في الجولان فتفسره الى حد كبير سياسة الدولة العثمانية الداخلية ، وما يتفرع عن هذه السياسة من مواقف الدولة تجاه الطوائف والمذاهب . وهكذا فإننا نجد مسيحيين ودروزاً وعلويين قد التجأوا الى اماكن معينة على السفوح الجنوبية والجنوبية الشرقية من جبل حرمون حيث أقاموا قراهم وشيدوا بيوتهم بعيداً عن رقابة السلطة العثمانية المستبدة الغاشمة .

الفصل الثاني

الجغرافية الاثنولوجية في الجولان .

١ - المشكلة العرقية في سورية وخاصة الجولان .

انها مشكلة كثر عليها الخلاف ولم يتطرق المؤلفون اليها بشكل موضوعي ومتجرد وغالباً ما جعلوا من سكان سورية شعباً غير متجانس وبلا اصل . وهم كثيراً ما رددوا بل أفرطوا في ترديد هذه الصيغة : بأن سورية موزاييك اثني .

ان انصار النظرية القائلة بأن سورية هي « كتلة من الاجناس » هم كثر وينظرون الى هذا البلد كأنه بوتقة انصبت فيها شعوب عديدة دون انقطاع فانطلاقاً من هذه النظرية ، يكون السوريون في أيامنا هذه احفاد المتخلفين من كل الغزوات التي تعاقبت على هذا البلد خلال تاريخه الطويل .
أما ما يطرح المسألة العرقية فهي الاكثرية التي تتكلم اللغة العربية .
وإذ لم يكن كل هؤلاء الذين يتكلمون العربية عرباً فماذا يكونون اذن ؟ هل يمكن الكلام عن عرق او جنس سوري ؟

إذا كان بعض المؤلفين قد رأى ان يجعل من شعب سورية قطعة من موزاييك ملونة ، فإن بعض المؤلفين الآخرين يرون في هذا الشعب ، ومن المؤسف أن يكون كذلك لهدف بعيد عن الروح العلمية ، عرقاً يدعونه « العرق السوري » ، ومن هؤلاء المؤلفين هـ . لامنس^(١) .

وفي العام ١٩٣٩ ، تصدى ج . فوليرس الى معارضة لامنس بقوله « ان الشرق الادنى تجاوز منذ زمن بعيد مرحلة العروق النقية »^(٢) . ولكنه بعد سنوات يناقض فوليرس نفسه رأيه السابق بطرح نظرية أخرى يقول فيها ان

(١) الأب هـ . لافنس ، سورية . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٢١ ص ٥ .

(٢) ج . فوليرس . J.Verulersse. le des Alaoiles, Tours (940. P.45

الأكثريّة الساحقة من سكان الريف في سورية لم تتأثر بالغزوات التي تعاقبت على البلاد . وإن الكتلة الكبرى من فلاحي الشرق تعود بأصولها إلى جذور بعيدة وأصلية أما الغزوات المتعاقبة لشعوب مثل الحثيين ، والآراميين والآشوريين وشعوب البحر والمصريين والفرس فلم تكن سوى غزوات عابرة . ولربما أدت إلى تغيير العواصم أو إلى تعديل اللغات والعادات ، لكنهم لم يؤثرُوا أبداً على السكان الريفيين المرتبطين بالأرض ارتباطاً شديداً^(١) . ولكن فوليرس لم يذكر لنا بوضوح ما كان يقصده من حديثه عن الأصول البعيدة التي ينتمي إليها برأيه معظم سكان الريف السوري .

الآن الجغرافي السوري عزة النص عيّن بوضوح أصول الشعب السوري بقوله : « إن الأساس المتوسطي (العربي) السامي القديم لسكان سورية لم يتأثر إلا جزئياً وبصورة متفرقة وسطحية بالغزوات التي تعرضت لها البلاد »^(٢) . فـ شعب سورية كما يرى عزة النص ينحدر من عرق عربي سوري ، ليس هو سوى الأصل المتوسطي السامي (العربي) ، وهذا الأصل تنحدر منه شعوب أخرى عاشت في سورية منذ تاريخها القديم كالآراميين . وللاستدراج . دريش رأي آخر يعلن فيه مؤكداً وخلافاً للاعتقاد العام الشائع بأنه لا يوجد ما يدعى « عرق » أو « نموذج » سامي أو عربي ولا يهودي . فالبذوهم في أكثرهم متوسطيون . ولكن يمكن أن يوجد على أطراف الصحراء أرمنيون وكنعانيون ، وفينيقيون وآراميون يعيشون حياة البداوة ولكنهم تعربوا ، أي أصبحوا عرب اللسان وبخاصة بعد التوسع الإسلامي . أما اليهود فقد يكونون من البدو من أصول أرمنية قدموا من الشمال على عدة دفعات خلال الألف الثاني ق . م . ولكننا نجد يهوداً من ذوي الأجسام الكبيرة والشعر الأشقر من النموذج الشمالي ، كما أننا نجد يهوداً من النموذج الإيراني^(٣)

(١) ج . فوليرس , Paysans du syrie et du Proch.

(٢) I. Nouss The Complémentaire. P.286 عزة النص

(٣) ج . دريش . 299 J. Dresch, préface

فمن هذا العرض الموجز للوضع العرقي في سورية وللآراء المتعارضة حول الموضوع تبدولنا درجة الصعوبة التي تعترض حلّ مثل هذه المسألة . فالمسألة العرقية تبرز أماناً في الجولان ايضاً من وجه النظر الجغرافية البشرية ، ولكن هنا على الصعيد المحلي الاقليمي . ومن أجل تفهم المسألة على هذا المستوى يمكن تقديم الوقائع الأساسية :

- فالأكثريّة الغالبية من السكان تنتمي الى عرق واحد . وهي تمثل بالحقيقة السكان الاصليين في الاقليم ، وهي التي تسربت الى البلاد منذ قرون قبل الميلاد . وهذه الاكثريّة الغالبة تتمثل في أيامنا في الناس الذين لهم نفس الملامح ونفس اللغة وذات التقاليد . إنهم العرب سواء أكانوا بدواً أم مستقرين من الحضر . وهذه الاكثريّة ينبغي ان تعتبر ممثلة لعرق يدعى العرق العربي وذلك للأسباب الآتية :

١- فمن الناحية التاريخية ، من المؤكد انهم من الجزيرة العربية ، من بلاد العرب . فقبائل غسان ، والازد ، ولخم جاءت من اليمن واحتلت هذا الاقليم قبل الاسلام بقرون . اما قبائل طي فقد استوطنت ارض الجولان بعد الاسلام . وإذا ما عدنا الى النساين العارفين بانساب القبائل فإن قبيلة الفضل وهي قبيلة كبيرة تحتل الآن القسم الشمالي الغربي من الجولان وتقيم فيه ، ترجع بأصولها الى الفضل بن عباس أحد ابناء عم الرسول محمد بن عبدالله (ﷺ) .

٢- ان مختلف القبائل من الجنوب الى الشمال تنتشر بينها لغة عربية صافية ، ولكن بلهجة خاصة بينهم ليس فيها أي تأثير غريب .

٣- لم يختلط عرب الجولان بالعناصر غير العربية الاصل ، وهؤلاء يميلون عدة الى حياة منعزلة لأسباب مختلفة .

٤- ولا يمكن تمييز عرب الجولان عن عرب آخرين يعيشون في داخل الجزيرة العربية ، لابلالملاح ولا باللسان ولا بالعادات .

ومع ذلك فان المجتمعات التي تنتمي الى اصول عرقية اخرى ، والتي توضع واستقرت الى جانب السكان وبينهم لم تكن غير قابلة للتفاعل المتبادل وان المصالح المشتركة لهذه التجمعات الانسانية المتعايشة قربت فيما بينها

اما الشروط الطبيعية السائدة في البيئة فقد فرضت أكثر واكثر اشكالا من الحياة مختلفة ولكنها محدّدة . وهكذا حل محل الموزاييك العرقي موزاييك اجتماعي واخيرا هناك حقيقتان اساسيتان لابد من تسجيلهما :

(١) استطاعت الاكثرية العربية من سكان الجولان ان تفرض لغتها وتقاليدها الشعبية وعاداتها على الاقلية المهاجرة .

فالتركمان لا يتكلمون الا لغة تركية اصابها الفساد . فالمفردات المستخدمة في الحياة اليومية هي اكثرها مفردات عربية . اما الأجيال الجديدة من الجراكسة واليورك فانهم يتكلمون العربية الى جانب لغتهم الأم . ومهما كانت المدة التي أعقبت الاستقلال قصيرة فقد كان التعريب خلالها سريعا وعميقا . وقد كان التعليم هو الوسيلة الناجعة لتحقيق هذا الهدف . والملابس التقليدية الخاصة بالمجموعات السكانية اختفت تماما . واضحى اللباس يرتبط بنوع العمل ، فالفلاحون الى اي اصل انتموا لهم زي واحد .

(٢) اما الوسط الطبيعي فله دور مهم في تحديد الخصائص الطبيعية للناس . فالاختلاط بين عناصر السكان بلغ حداً أدى الى ضياع الخصائص العرقية لبعض السكان الذين ينحدرون من اصول غير عربية ، كالتركمان الذين ينتمون العرق المغولي ، والجراكسة الذين يعتبرون من الهندوآوريين . فالتركمان في الجولان لا يمكن تمييزه من العربي شبه الحضري ، إن من حيث الخصائص الطبيعية او اللغة او اللباس ، حتى ان المعيشة عند هؤلاء واولئك هو واحد تقريبا . اما الخصائص الطبيعية التي تنسبها الأنسة برو Proux للجراكسة في الجولان فإنها تصبح بالتدريج اقل وضوحاً . ومع ذلك فانه من المستبعد ان نعر على نفس الخصائص الطبيعية عند افراد انتموا الى مجموعة عرقية واحدة . وهنا يحسن أن نذكر بما سبق ان كتبه فيدال دولابلاش (Vidal de la Blache) : « عندما يحاول المرء ان يميز بالاستناد الى الدلائل الانثروبولوجية ، مهما كانت مشهورة بثباتها ، العناصر التي يتألف منها التركيب السكاني ، ليس في قطر كبير وحسب بل وفي اقليم صغير اقل اتساعاً ، يمكن للمرء عندئذ ان يتأكد

من شيء بسيط جداً من الأشياء بأن غياب التجانس هو القاعدة
السائدة»^(١)

٢ - العرب في الجولان :-

لا يمكن ان نحدد بدقة متى بدأ تسرب العرب الى الجولان .
فالمؤرخون الذين عثروا على آثار الوجود العربي في الجولان منذ ألفي سنة
قبل الميلاد يلاحظون ان التدميرين والانبساط الذين اضحى لهم دور مهم
جداً في العصرين السلوقي والروماني كانوا من العرب . فالملوك الانباط
كانوا يسيطرون بالواقع على أراضي الجولان وحوارن قبل ان تنتقل البلاد
الى ايدي الرومان . وان الامبراطور الروماني اوغسطس هو الذي أحل
هيرود الإدمي محل عبادة الثالث في العام ٢٣ ق . م . ومهما اختلفت
تفاصيل الاحداث فان الحقيقة المؤكدة هي ان الجولان كان عربيا قبل
الفتح العربي الاسلامي .

فالسادة الجدد الذين حلّوا في الجولان بعد الاسلام واقاموا على ارضه لم
يكونوا ليختلفون عن المقيمين السابقين ، الغساسنة الآ في أمر واحد هو
العقيدة الدينية . فالعرب الغساسنة اتخذوا المسيحية ديناً لهم حتى قبل ان
تصبح المسيحية ديناً معترفاً به عند الرومان ، وبنوا كنائس في حوارن وجبل
الدروز . ولكن عند انتصار المسلمين في الشام انتشر الدين الجديد بينهم على
نطاق واسع . وهكذا بعد فترة وجيزة من الفتح الاسلامي كان التركيب
السكاني في الجولان يتميز بالانسجام الشديد : نفس الخصائص
الاثروبولوجية ، ونفس اللغة ونفس الدين .

ولكن ضمن هذا الانسجام السكاني ظهرت اختلافات من نوع
اجتماعي . فجزء من السكان ارتبط بقوة بالارض الخصبة وبخاصة في الجنوب
الغربي من البلاد وهناك يمكن ان نجد حالياً الفلاح النموذجي في الجولان .

(١) ف . دولابلاش . Vidal de la Blache, Principes .

de la géographie Humaine, collection Armaui colui..Paris 1922,P.11

ولكن جزءاً آخر من السكان بقي مرتبطاً بنمط المعاش الاصيل عند العرب ، البداوة ، ولكننا نجد ايضاً اشكالاً انتقالية ، نصف الحضر ، ونصف البدو . ومع ذلك فمن حيث الانساب المرعية عند القبائل العربية ينتسب عرب الجولان الى اربع قبائل هي : الفضل ، العيم ، الويسية والرفاعية وستتناول هذه المجموعات بالدراسة في فصل خاص فيما بعد .

اما الدروز فهم اتباع المذهب الدرزي وقد طرحت مسألة أصلهم ومنشئهم وجهات نظر متضاربة خاصة عند المؤلفين الاجانب^(١) . وتقيم بعض المجتمعات الدرزية حول جبل الشيخ . وهذه المجتمعات لئن كانت مستقرة إلا أن العلاقات فيما بينها تنظمها تقاليد عشائرية .

وإذا ما طرحنا جانباً الآراء المتضاربة والغريبة التي يقدمها المؤلفون الاوربيون الذين اعدوا دراساتهم في فترة الانتداب الفرنسي عن البلاد ، فإن الرأي الأرجح لدينا هو ان الدروز ينحدرون من قبائل عربية يمنية الاصل . وقد استقروا أول الأمر في لبنان متخذين ملاجئ لهم في القلاع الطبيعية الحصينة في وادي التيم . اما المذهب الدرزي فليس سوى احد المذاهب المنشقة عن الشيعة ومؤسسه هونختكين درازي الذي يدوبأنه كان متأثراً بالافكار الدينية والفلسفية المعروفة في عصره وهي بقايا معتقدات دينية فارسية قديمة . وقد التجأ الدروز الى الجبال الطبيعية في فترة ساد فيها التعصب الديني والنزاع بين الطوائف الذي كانت تحرض عليه السلطات التركية المملوكية في مصر وسورية ، ثم العثمانية . وبسبب المداهمات والمهاجمات التي تكررت بعنف في القرن الرابع عشر تحركت هجرة الدروز الى سفوح جبل الشيخ وإلى جبل حوران الذي عرف بعدئذ باسم جبل الدروز . وقد اختار الدروز لاستقرارهم قرى ذات موقع دفاعي وهم يعيشون جنباً الى جنب مع مواطنين آخرين مسيحيين وسريان . وبحسب قيود الاحوال المدنية يقيم ما يقرب من احد عشر الف مواطن سوري من الدروز في قرى حرمون الجبلية . وهم يتوزعون حسب الجدول التالي :

نسمة	٣٧٨٠	مجدل شمس
=	١٤٠٢	بقعاتا
=	١١٤٩	عين قنية
=	١٠٠٠	قلعة جندل
=	٩٥٠	عرنة
=	٦٠٠	حرفاء
=	٤٠٠	بقعاسم
=	٤٠٠	عين الشعرة
=	٣٥٠	ريمه
=	٢٠٠	حينه
=	١١٥	شيتا
=	١٢٠	خربة السوداء
=	٣٠	مزرعة المقروصة
نسمة	١٠,٥٩٦	المجموع

ولكن هذه الاقام تعتبر رسمية اكثر منها حقيقية . فان هناك افراداً كثيرين ليسوا مسجلين في سجلات الاحوال المدنية ، وهناك آخرون هاجروا وتركوا قراهم منذ زمن طويل ما يزالون مسجلين في سجلات الاحوال المدنية للدولة .

٢ - الجراكسة :

يعتبرون من حيث الأصل ، ومن حيث اللغة الام هند واوريين . تسربوا الى سورية قادمين من القوقاز مباشرة او بصورة غير مباشرة . وتعود اقدم موجة هجرة جركسية الى سورية الى عصر المماليك ولكن المنحدرين

من هذه الموجه تعربوا بصورة تامة .^(١)

ولكن الجراكسة المقيمين في الجولان جاؤوا الى سورية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين ، وهم مسلمون وقد اندمجوا بسهولة وبسرعة في الاكثرية العربية . ومن الجدير بالذكر ان السلاطين المماليك (الجراكسة) الذين حكموا مصر وسورية مدة تزيد على القرنين حتى مطلع القرن السادس عشر كانوا يرغبون دائماً ان ينتسبوا الى اصل نسب عربي . هكذا نجد آخر السلاطين المماليك قانصوه الغوري ، الذي سقط في معركة مرج دابق ١٥١٦ شمال حلب امام الجيش العثماني الذي كان يقوده السلطان سليم ، كان هذا السلطان المملوكي يصرح بان الجراكسة ينحدرون من نسل الامير الغساني جبلة بن الاهيم الذي اعتنق الاسلام ولكنه ارتد الى المسيحية والتجأ الى القسطنطينية^(٢) .

في آخر القرن التاسع عشر اي مقابل ١٣١٦ للهجرة ، نشرت رسالة لمؤلف مجهول بناء على طلب الأمير رضوان بك . ففي هذه الرسالة التي تتألف من ثلاث وعشرين صفحة نجد الرواية التالية لمسألة تفسير أصل الرواية : « اثناء أحد المهرجانات أفلت من « أكسة بن عكرمة » وهو زعيم قبيلة عربية قريشية هي قبيلة بين عامر ، سهم أصاب عين عربي آخر من قبيلة اخرى . وعندما شكوا المصاب أمره للخليفة عمر ارسل يستدعي المتهم ليدينه ويعاقبه . وكانت العقوبة المنتظرة هي العين بالعين حسب قانون الجزاء القرآني .

ولكن « كسّة » وجد انه من المستحيل القبول طوعاً بعقوبة من هذا النوع فخرج ليلاً مع قبيلته وتوجه الى بلاد الروم (بيزنطة) . وفي صبيحة اليوم التالي كان الناس يرددون « ساركسة » وهو ما يعني بالعربية ان ذلك

(١) انظر بهذا الصدد أطروحة عزة النص .

(٢) انظر ابن اياس ، مؤرخ من مصر من العهد المملوكي بدائع الزهور في وقائع الدهور (مجلدان) القاهرة ، بولاق ١٣١٢ هـ (بالعربية) ؛ انظر مجالس السلطان قانصوه الغوري ، تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزّام .

الرجل مضى في سبيله ، وهكذا تطور من هذه الكلمة اسم السراكسة او الجراسكة والشركس بعدئذ . وهناك مؤلف هو إيتك ناميتوك يجعل من الجراسكة والألبان والاكراذ ثلاثة فروع تعود بأصولها الى ثلاثة أمراء اخوة من بلاد العرب . وبما هو أكثر غرابة ما يتردد على افواه الناس في هذا الصدد أن قبائل العنزة المشهورة بأنها من قبائل الجمالة ، وهي تأتي عادة الى مراعي الجولان وتنزل على أرضه في سمي الجفاف تزعم بان الجراسكة والعنزة ينحدرون جميعاً من اخوين : عزجد العنزة وعزجد الجراسكة .

والمهم ان كل هذه الشروح المرواة والمتداولة عن اصول الانسان واتصالها وإن كانت غير مقبولة عند الأنثروبولوجيين فإن لها الفضل مع ذلك في ابراز ما بين الجراسكة والعرب سكان الجولان من صلات بسلوكولوجية عميقة . وفيما عدا هذا فإنه يكاد يكون بحكم المؤكد ان الجراسكة هم في الاصل هندواوريون/ينحدرون من الشعوب الجبلية الشمالية كالحثيين الذين كانوا سيطروا مدة طويلة خلال التاريخ القديم على بلاد الاناضول وسورية الشمالية .^(١)

«والجراسكة مشهورون بجمال عرقهم : طوال القامة ، وامتداد القوام والجهة البارزة ، والأنف المستقيم والتقاطيع المشكّلة بصورة سليمة ، واللون الصافي والشعر الاملس او القليل التجعيد ، والعيون البنية او الزرقاء ، كل هذه الصفات تفرض تصنيف الجراسكة بين الشعوب الهند واوربية»^(٢)

ولكن هذه الخصائص الطبيعية تصبح بالتدريج اقل وضوحاً . ولاشك ان ما طرأ على الخصائص العرقية من تغيير انما يعود الى الشروط الطبيعية القاسية التي احاطت بهم وكذلك الى النظام الغذائي الذي يتوفر

(١) يوسف عزت باشا ، تاريخ القفقاس ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٣٣

(٢) الأنسة برو ، المصدر السابق الذكر .

لهم حالياً . فالجراكسة كانوا اغنياء يملكون المواشي في موطنهم الاصلي في قفقاسيا وكانوا يكثرون من تناول اللحوم في غذائهم . لكنهم في ظروفهم الحالية يتغذون بدرجة ادنى مما سبق . فأكثريتهم فقيرة ولذا فانهم يكتفون بتغذية قليلة التنوع وغالباً ما تكون بسيطة . فهم يتناولون الحليب ومشتقاته ، والشاي والجبن وكثيراً من الخبز . ولانه لمن المؤكد ان الانسان المقيم في منطقة الجولان المعرضة للرياح وذات الشتاء القارس يحتاج الى وجبات غذائية تشمل طعاماً مغذياً من أصناف اللحوم . والمستون يحتفرون عادة الخضار كمواد غذائية ويعتبرونها صالحة لتغذية المواشي ١ : : وان الطول الملحوظ في اعمارهم هو برهان على الدور الذي يؤديه النظام الغذائي على فعالية عضوية الجسم وبالتالي على العرق .

إن جراكسة الجولان الذين يبلغ تعدادهم الآن ١٣٥٠٠ نسمة لم يأتوا مباشرة من بلاد القفقاس الى الجولان . فانهم بعد طردهم من قبل القياصرة الروس ، استقبلهم الباب العالي العثماني وقام بتوزيعهم على بعض انحاء الدولة . في الروملي الشرقية وفي الشمال الغربي من كردستان وجرجم في الاناضول . وكانت الحكومة العثمانية تأمل في ان تضم الجراكسة في مستوطنات عسكرية لتستخدم الافراد في قمع الثورات التي يمكن ان تندلع في بلاد البلقان التابعة لها . وهكذا أغرق الجراكسة المجندون من الروملي الثورات التي اندلعت ضد الدولة في بلاد اليوغسلاف والبلغار في بحر من الدماء . وقد حارب الجنود الجراكسة القوات القيصريّة في الحرب الروسية التركية (١٨٧٥ - ١٨٧٧) بضراوة حتى ان الروس في مؤتمر برلين (١٨٧٨) طالبوا بادخال بند في المعاهدة ينص على منع الجركس من الاقامة في بلغاريا وسائر دول البلقان .

وهكذا فان المنفيين اللاجئين المقيمين في الروملي منذ ١٧٦٤ كان عليهم أن يأخذوا طريق الهجرة مرة اخرى . ووعندما دفعوا الى آسيا الصغرى وجدوا فيها عدداً كبيراً من أبناء جلدتهم جاؤوا اليها بدورهم من القفقاس بعد ان اضطروا الى مغادرة وطنهم فراراً من الاضطهاد .

اما الدولة العثمانية التي كانت تواجه مصاعب على حدودها وبعض الاضطرابات في بعض ولاياتها فإنها وزعت المهاجرين على الاراضي السورية على طول خطوط المعمورة بين الفرات ونهر الاردن . وما أن وصل المهاجرون الي سورية حتى وُجِّهَ معظمهم نحو الجولان . أما هدف خطة الادارة التركية من العمل على استقرار الجراكسة في الجولان فهو ان يجعل منهم في هذه المنطقة المضطربة الحراس الساهرين على الأمن والنظام .

وقد اوكل اليهم بذلك مواجهة دروز جبل الشيخ الذين يتحكمون بالمعابر والمواصلات بين حوران والجولان ، ومواجهة عرب الرولة من قبائل العنزة الذين اعتادوا منذ قرون عديدة على رعي قطعان إبلهم في مراعي الجولان . وقد استقبل استقرار الجراكس في الجولان بشيء من الخشية وبقليل من الترحيب من سكان المنطقة القدماء . وقد اندلعت المنازعات طوال عقود من السنين بين هؤلاء القادمين وبين اولئك الذين يعتبرون انفسهم كالملاكين الشرعيين للأراضي بحق أوليّة الانتفاع .

وقد تجمع المهاجرون الجراكسة في قرى اوفي احياء قبائلهم الرئيسية : الداغستان ، جاجان ، ابازا ، أباطة ، قبرة ، بجدوع ، قوشحة . . وكان اول مركز تجمع فيه الجراكسة هو القنيطرة . بينما أنشئت القرى الاخرى حول القنيطرة نفسها او المناطق الجنوبية من الجولان . وفيما يلي مناطق تجمع الجراكسة في الجولان :

اسم القرية	عدد السكان	القبائل الرئيسة فيها
القنيطرة	٤٠٠٠	مختلفة
المنصورة	١٦٧٠	اباطة - بزيدوغ
صرمان (العدنانية)	١٣٤٥	بزيدوغ
مدارية (القحطانية)	١٩٣	كابردى
عين زيوان	١٢٧٠	أباطة
مومسية (الغسانية)	٣٣٥	أبازا
الجوزية	٦٥٠	أباطة - كابرداي
بر عجم	٧٠٣	أباطة - كابرداي

أباطة	٨٤٨	بريقة
ابازا- اباطة- كابرداي قره شاي	١٩٣٦	الحشنية
أباطة	٣٤٦	الفحام
قوشعة	٥٠	فزاره
بزيدوغ - كابرداي	٧٠	روحينه
قوشعة	٣٠	مزرعة الفرج
[تركنا للعرب	—	الحميدية
	—	سنديانة
نسمة	١٤٥٥٦	المجموع

وقد اوجدت هذه التجمعات البشرية الصغيرة في ازمة مختلفة . فالهجرات ظلت تتوالى على الاقليم منذ عام ١٨٧٨ وحتى ١٩٤٧ . اما الفوج الاول من المهاجرين فقد وصل ما بين ٨٧٨ - ١٨٨٧ . اما الفوج الثاني فقد حمل سكان الحشنية الذين جاؤوا في ١٨٩٧ . اما الذين قدموا في ١٩١٢ فقد استقروا في قرية الفحام ثم الذين اتوا في ١٩٢٢ أقاموا في الحميدية . ومن الدفعات الأخيرة من القادمين ، ثمان عائلات وصلت عام ١٩٣٠ الى القنيطرة بينما وصل في عام ١٩٤٧ خمسون رجلاً .

وقد برزت هذه التجمعات السكانية الجركسية كجزيرت اثنية ضمن المحيط العربي متميزة بلغتها وبتراثها الشعبي . ولكنها لم تبق مجموعات منعزلة ، لانها سرعان ما اخذت تندمج بطريقة اوبأخرى بمن حولها :

١- فاللباس الوطني المميز اختفى تماماً حتى لباس الرأس ، القلبق ، وهو العلامة المميزة للرجل لجركسي حل محله لباس الرأس العربي الكوفية والعقال . أما اختفاء هذا اللباس فيعود الى الاسباب التالية :

- يكلف غالبا .
- يشد على الجسم فيصبح غير مريح للعمل . فهو لباس يصلح للفرسان لكنه ليس لباساً للريفيين والفلاحين .
- وعندما جعلته سلطات الاحتلال اللباس الرسمي للوحدات الجركسية المسلحة العاملة بامرة سلطات الانتداب الفرنسية فقد اضحى لهذا اللباس ذكرى سيئة عند المواطنين وبخاصة منذ الثورة السورية العامة (١٩٢٥ - ١٩٢٧) .
- ٢- اللغة الجركسية تختلف تماماً عن اللغة العربية ولذا فانها لا تصلح مطلقاً كلغة للتعامل مع السكان . وقد ادت الصلات المباشرة وبخاصة التعليم الى نتائج مهمة ووضحت العربية لغة متداولة بين الجراكسة الذين تعلموها ويتكلمونها بطلاقة .
- ٣- للأسلام دور اساسي في اندماج الجراكسة بغيرهم من المواطنين العرب السوريين . فالاسلام يؤاخي بين المؤمنين كما جاء في القرآن . وبالتالي فان الأذان والصلاة وتلاوة القرآن ، كل ذلك يتطلب معرفة جيدة باللغة العربية .
- ٤- للعرب مكانة عالية عند شعوب القفقاس وهم مشهورون بالنبل والكرم والفروسية ، ويلتقي الجراكسة بالعرب في قيم كثيرة فلهم جميعاً مفاهيم مشتركة عن الشرف والضيافة والشجاعة في ميدان القتال ، ويتشابهون في الثأرو في رعاية حق الجار .
- ٥- وحتى في العهد الذي عملت فيه سلطة الانتداب الفرنسي (١٩٢٠ - ١٩٤١) على تشجيع المحافظة على التقاليد والتراث الشعبي وعلى حماية اللغة الجركسية فإن عدداً كبيراً من رجل وابناء الجراكسة انضم علانية الى صفوف الحركة الوطنية السورية في سبيل الاستقلال وأعلن ضرورة الاندماج الطوعي في المجتمع العربي .
- وقد أدى الصدام المسلح الذي وقع في القنيطرة في ٩ أيلول ١٩٣٦ بين الجراكسة المؤيدة للعروبة والآخرين الذين أيّدوا سياسية الانتداب الفرنسي في الوقت الذي تولى فيه الوطنيون الحكم في دمشق ،

الى تغيير حاسم في الاتجاه السياسي للمجتمع الجركسي وفي موقفه من القضية الوطنية . فمنذ ذلك الوقت انتصرت العروبة في صفوف الجراكسة في الجولان وانضوا تحت لوائها بولاء وبطيب خاطر .

٣ - التركمان :

عند الحديث عن السكان الذين ينحدرون من اصل تركي يجب التمييز بين طائفتين مختلفتين : التركمان القدماء والبيروك .

التركمان القدماء : لا يمكن ان يعرف بدقة تاريخ دخولهم الى

الجولان ولكن يمكن التأكد بأنهم كانوا موجودين في المنطقة منذ ما لا يقل عن ٤٠٠ سنة . وإذا كان من الممكن التأكيد على أنهم من عرق طوراني فإن المعلومات غير كافية عن تاريخهم وهناك تساؤلات عن موطنهم الأصلي وعن سبب قدومهم الى الجولان . وبهذا الصدد نجد انفسنا امام ثلاث فرضيات :

- ١- ان يكونوا منحدرين من القبائل التركية الشهيرة ، السلاجقة . وقد سكن هؤلاء التركمان لفترة من الوقت في فلسطين في سهول مرج ابن عامر ثم هاجروا الى الجولان لاسباب ما تزال مجهولة .
- ٢- يدعي التركمان انهم عثمانيون نقلوا الى الاقليم من تركيا ، وكانوا يتألفون من اربعائة عائلة من الارستقراطية التركية ، من اجل تمدين البدو في المنطقة .

٣- وهناك فرضية : اخرى محتملة ومفادها : انهم من العناصر التي زحفت مع القبائل البدوية التركية المخربة التي غزت المنطقة في عهد تيمورلنك ، وتبدولنا هذه النظرية اكثر احتمالاً من سواها لان هؤلاء التركمان ما يزالون حتى الآن في مستوى لين البداوة والحضارة . اما لغتهم فقد دخلتها مفردات عربية كثيرة ، لكنهم يتحدثون العربية بطلاقة وغدوا مستعربين وتنتشر قراهم على الطريق الواصل بين القنيطرة وجسر بنات يعقوب ، المعبر الذي يربط فلسطين والجولان . ويبلغ عدد التركمان في الجولان ٤٠٠٠ اربعة آلاف نسمة منهم ٢٦٥٠ فقط مقيدون في قيود الاحوال المدنية .

واستناداً الى مركز الاحوال المدنية في القنيطرة (.آب ١٩٥٥)
توزع التركمان بحسب الجدول التالي :

القرية	العدد
حفر	٤٢٣
كفر نفاخ	٤١٥
سنديانة	٣٧٤
رزانية	١٤٣
غادرية	٢٩٧
حسينية	١٠٨
العلقة	١٧٢
مغاير	٣٠٠
داية	١١٣
نعران ودير الراهب	٢١١
أحمدية	٨٤
المجموع	٢٦٥٠ نسمة

ويعيش في هذه القرى الصغيرة عدد من البدو الذين يعيشون الى جانب التركمان . بينما تعيش عائلة من اصل تركماني وهي غنية جداً في القنيطرة، وقد جاءت هذه الاسرة من دمشق لكي تمارس التجارة في هذه المدينة الصغيرة.

اليوروك : لا يختلفون من حيث الاصل عن التركمان القدماء . لكن مجتمعهم مايزال كأنه لم يمس ولم يصبه إلا تطور ضئيل . لقد قدم هؤلاء من تركيا حيث كانوا يعيشون هناك حياة بدوية يقضون الصيف على مقربة من أسكي شهر ويمضون الشتاء على مقربة من أزمير . وقد دفعت المنازعات العنيفة التي اندلعت بين مختلف قبائل اليوروك البعض منهم إلى الهجرة اعتباراً

من العام ١٨٧٠ . وقدم المهاجرون الى الجولان بعد ان نزلوا بجوار آضنة في كيليكية وفي أنطاكية ثم انحدروا جنوباً الى مناطق حمص ثم دمشق حتى بلغوا اراضي الغور في فلسطين وهناك فقدوا ثروتهم بفقد قطعانهم من الماعز ومن الإبل وهي حيوانات بسنامين . وعندئذ غادروا الغور والتجأوا الى ارض الجولان . ولما كان هؤلاء التركمان من البدو حقيقة فإنهم يتوجهون كل سنة لتمضية الشتاء في الغور ويعودون الى قراهم في بداية شهر نيسان وهم يعملون في التحطيب نظراً لغزارة الخشب في المنطقة ويبيعونه في الجولان كما يجمعون القصب وهو وفير في الغور ويبيعونه حيث يستخدم هناك في تغطية السقف .

وقد عاد اليوروك بعد الحرب العالمية الثانية الى تركيا ولكنهم لم يجدوا النظام الكمالي الذي اقيم هناك على انقاض الدولة العثمانية موثقاً لهم فعادوا عندئذ الى الجولان . وكانوا قبل عودتهم الى تركيا قد باعوا أراضيهم ولكنهم بعد عودتهم الى الجولان وجدوا اكوأخهم البسيطة بينما فقدوا أراضيهم نهائياً . وهم يعيشون حالياً من عملهم في اراضي الجراكسة والعرب .

أما مركز تجمعهم الرئيسي فهو قرية عين عائشة وهي تركمانية بكاملها ويقوم فيها ٧٤٠ نسمة

الجوزة ويقوم فيها ٢٨٨ نسمة مع اكرية جركسية

موسمية ويقوم فيها ١٠٠

المجموع ١٠٤٠ نسمة .

وبم تتأثر هذه المجموعة التركمانية من سكان الجولان بالمحيط العربي الأ قليلاً من حيث تعريب اللغة ولكنهم شديداً التعلق بالاسلام من جهة اخرى .

٤ - المجموعات السكانية الأخرى :

تعيش في الجولان مجموعات سكانية أخرى أقل عدداً : الارمن والاكراذ والمغاربة والتلاوية والزنوج .

يبلغ عدد الارمن ٤١٩ نسمة يعيشون جميعاً في القنيطرة . وهم يمتنعون عدداً من المهن اليدوية والحرة : التصوير ، تصليح الساعات ، الصياغة ، طب الاسنان ، الصيدلة .

والمجتمع الارمني غير قابل للذوبان في غيرهم . إذ انهم يختصون بمدرسة خاصة بهم ، ولهم كنيستهم وهم يحتفظون بنظامهم الوطني في التعليم ويحافظون على لغتهم الارمنية التي هي لغة الكنيسة والعبادة . وهكذا فالأرمن لا يهتمون بتعلم اللغة العربية حتى ان حديثي السن منهم لا يحسنون اللغة العربية ولا يتكلمونها بصورة مرضية ، ويمكن التعرف عليهم بسهولة من لهجتهم الخاصة .

أما الاكراد فعددهم قليل جداً ولكن ينبغي التمييز ضمن الأكراد بين الفئات التالية :

- (١) الاكراد الذين تعربوا تماماً . فهم لا يتكلمون إلا العربية . وهم يعيشون في البدوة ويشبهون البدو العرب . ويدعوهم العرب آغا وهولقب كردي قديم يطلق على السادة ، وهو كل ماتبقى من أصلهم البعيد .
- (٢) الاكراد القرويون والمقيمون في المدن . ففي القنيطرة يوجد عدد محدود حوالي ٥٠ شخصاً تقريباً . وهم يمارسون التجارة الصغيرة ولهم علاقات طيبة مع البدو . ويمتثل الاكراد في عدد من القرى مهنة البقالة او الجزارة .
- (٣) الاكراد الملاكون الكبار ، وهؤلاء لهم ممتلكات واسعة يجري استثمارها بواسطة وكلاء ومرابحين في الجولان ، ولكن الملاكون يقيمون في دمشق وهم أكبر ملاكي الأراضي في الجولان . ويكتفي ان نشير الى ان ثلاث عائلات منهم تمتلك وحدها ٤٥٢٩٢٥ دونماً .
- المغاربة : يتجمعون في قريتين تقعان في اقصى جنوبي الجولان وهما عابدين ومعرباة ، وهؤلاء القادمين من افريقيا الشمالية يدعون مغاربة . وقد جاؤوا الى المشرق بعد احتلال فرنسا للجزائر في القرن الماضي . وقد تملكوا الأراضي الواسعة ومنهم الامير سعيد عبدالقادر الجزائري ، حفيد الأمير عبدالقادر الذي يتبع واحد من اكبر ملاكي الأراضي في الجولان . وهو يقيم في دمشق ولكنه باع جزءاً كبيراً من أراضيه .
- التلاوية : ويتألف هؤلاء من قبائل تتكلم اللغة العربية ، ويعيشون في سهل البطيحة الصغير على الضفة الشمالية الشرقية لبحيرة طبرية .

أما هؤلاء التلاوية فلهم ملامح وخصائص طبيعية يشبهون فيها الافريقيين من ذوي البشرة السوداء ، لكنهم أقل سواداً من الزنوج . وهم يعيشون على اراضٍ غنية بالطمي الشديد الخصوبة منذ أجيال عديدة . ومع ذلك فهم ليسوا بملاكين للارض . وهم أسوأ حالاً من كل ملاك الجولان . فأراضيهم التي كانت ملكاً لهم في الماضي انتقلت في ظروف غامضة الى ايدي باشا كردي الأصل من وجهاء دمشق .

يبلغ عدد التلاوية ٨٠٠٠ نسمة منهم الثلث فقط مسجل في قيود الدولة وسجلات الاحوال المدنية ، وفي تلك البقعة كان يعيش اجدادهم . ولكنهم بعد ان تزايد عددهم احتلوا السهل بأجمعه . وقد ظلّوا يعتبرون غرباء عن المنطقة ، لأن أصلهم البعيد غير معروف ، وتعرضوا نتيجة لذلك لمضايقات البدو العرب بصورة مستمرة . وعندئذ طلبوا مساعدة الباشا الكردي (وهو عبد الرحمن باشا) الذي كان يتلقى تأييد الباب العالي ودعمه . وعندئذ تمكن هذا الباشا ان يسجل اراضيهم على اسمه الشخصي وهكذا انقلب الفلاحون المساكين من التلاوية وبصورة غريبة الى مرابحين على أراضيهم التي فقدوا ملكيتها .

السود : يعيش على ارض الجولان عدد محدد من الافريقيين السود . وهم يتكلمون العربية لكن العرب البدوي دعونهم بالعبيد . ويتجمع عدد من هؤلاء السكان في قرية الرفيد ولكن عدد من هؤلاء لا يزال يرتبط برباط التبعية والعبودية ببعض السادة الاقوياء لبعض أمراء القبائل من آل الفاعور شيوخ قبائل الفضل . وليس من الممكن حتى الآن حصر عدد هذه الفئة من السكان او تحديد اصولهم بصورة دقيقة (يراجع في الاصل الى المصور رقم ١١) .

الفصل الثالث جغرافية الجولان الدينية

كما في كل الشرق ، جولاننا هو أرض أديان وطوائف ، الامر الذي يجعل تعايش الزمر البشرية غير المتجانسة ، فوق أرض محدودة ، مسألة جد معقدة .

وفي الواقع ، ان الطوائف الدينية في منطقتنا اكثر اهمية بتأثيرها ، ان لم يكن بعددها ، من الاقليات العرقية . فبسبب عامل ديني تكتل وانعزل كل من الدروز والمسيحيين والعرب في قرى جبلية محصنة في الحرمون وفي هذه القرى الحرمنية الصخرية ذات التربة الفقيرة ، والبعيدة غالباً . عن الماء ، وجد المسيحيون واتباع المذاهب الاسلامية المنشقة ملاذاً لهم ، عاشوا فيه ، وكانت العزلة بالنسبة لهم وسيلة بقاء ودفاع .

والامر الذي تجدر الإشارة اليه هو ان التجمعات الدينية قد كشفت أشد تماسكاً من المجموعات العرقية . وفي الواقع ، ان جماعات من الاكراد والأتراك والشركس قد استقرت ، منذ البداية ، وسط الكتلة الاسلامية العربية ، رغم الفوارق اللغوية والعرقية والفولكلورية ، واندجت بها بسرعة . أما الدروز والمسيحيون فقد ابتعدوا بقدر ما استطاعوا ، وهم قلقين وحذرين ، وعاشت كل طائفة منهم منطوية على نفسها ، ورافضة لأي علاقة مباشرة مع الطائفة المجاورة لها .

ان الدافع لهذه النزعة الانعزالية ، المبنية على أساس ديني ، لا يمكن أن يفسر بالتعصب فقط ، إنما هو نتيجة لتاريخ المنطقة المضطرب منذ عهد الحروب الصليبية .

لقد اتبع الممالك السياسية سيئة بحق من هم ليسوا من السنة ، وقد سار العثمانيون من بعدهم على النهج نفسه . إلا ان هذا الانقسام الطائفي قد

تفانم امره نتيجة لمؤثرات أخرى جاءت من داخل منطقتنا بسبب النزاعات التي كانت قائمة بين المسلمين والمسيحيين في دمشق ، وبين الموارنة والدروز في لبنان ١٨٦٠ . وقد وجدت الارشاليات الأوربية في هذا الوسط المغلق أرضاً خصبة لدعواتها التبشيرية . كذلك استفادت السلطة الفرنسية المنتدبة السابقة من هذه الانقسامات ومن تعدد الطوائف ، ففرقت لكي تسود ، وقد كان هذا العهد ، أي عهد الانتداب الفرنسي ، الفترة الملائمة الوحيدة لمسيحيي الجولان منذ الحروب الصليبية ، فقدموا من القرى متمتعين بامتيازات خاصة ليستقروا في القنيطرة . أما الشركس فقد كرسوا أنفسهم لكي يصبحوا جنداً تحت لواء الفرنسيين . ولم يكن لديهم اي امتيازات خاصة لعدم ثقة السلطة المنتدبة بالمسلمين .

هذا وتنحدر طوائف الجولان الدينية المختلفة إما من الاسلام أو من المسيحية . ورغم تجاوز المنطقة المباشرة مع فلسطين ، وأنها كانت تحت سلطة الهيروديين (les Herodes)^(١) فليس فيها أي أثر لليهود .

١ - المسلمون :

ويشكلون الغالبية العظمى من السكان ، وتزيد نسبتهم في كل مكان عن ٨٠ ٪ ، ويلاحظ ان عدد غير المسلمين يزداد من الجنوب الى الشمال . ولهذا نرى ان النسبة تختلف حسب موقع الأقضية الثلاثة التي يشملها ميدان دراستنا :

القضاء	مجموع السكان	المسلمون	النسبة
فيق أو الزوية	٢٦٦٦٧	٢٦٣٩٢	٩٩ ٪
القنيطرة	٦٩٥٧٢	٦٦٩٦٢	٩٨ ٪
المنحدر الجنوبي والجنوبي الشرقي للحرمون	١٣٦٦٢	٦٥١٠	٨١ ٪

(١) نسبة الى الملك هيرود اليهودي وهذا الكلام للمؤلف ويقع على مسؤوليته .

وهكذا فان جنوب الجولان يظهر تجانساً تاماً ، وهو أول قسم في سورية دخل الاسلام . ويفسر تناقص نسبة المسلمين باتجاه الحرمون ، بتركز الاقليات المسيحية في القرى المحصنة لتحدر هذا الجبل .

وبداخل المجموعة الاسلامية تتميز الطوائف التالية :

(آ) السنة : ويأتون من حيث العدد في القمة . فبالنسبة لمجموع السكان المسلمين الذين يعدون ١٠٠٠٠٠ نسمة ، يعد السنة حوالي ٨٥٠٠٠ أي ٨٥٪ وقد تمركزوا في القسمين الجنوبي والوسط من الجولان . اما القسم الشمالي فهو موطن الطوائف التي تعتبر من قبل اهل السنة خارجة عن الإسلام .

وينقسم السنة بدورهم الى اربعة مذاهب ، دون كبير فرق بين الواحد منها والآخر ، كما ان حصر عدد كل منها لم يكن موضوع عملية إحصاء .

- الأحناف : وهم المسلمون الذين ليسوا من اصل عربي : الشركس ، التركمان ، والأتراك ، وما تجدر الإشارة اليه ، ان صلتهم بالاسلام وثيقة ، وانهم متعصبون للاسلام اكثر من العرب انفسهم .

- الشوافع : وهم العرب البدوا والقرويين ويشكلون بالتالي اكثرية عظمى .

- المالكية : وهم الجزائريون الذين جاؤوا الى الجولان .

- الحنابلة : وهم افراد مبعثون بين افراد بقية المذاهب .

ب) الدرزي : المذهب الدرزي ليس في الحقيقة ديناً منفرداً وانما هو عقيدة دينية مشتقة من الاسلام . ويسمي الدرزي عقيدتهم هذه بالملّة^(١) حتى لا يختلط الامر بينها وبين الدين . وقد ولد المذهب الدرزي في مصر في كنف الدولة الفاطمية الشيعية . إلا ان التبشير بالدعوة قد توسع على يد الفرس . ومؤسس هذا المذهب في سورية هو (Darazi) وخليفته حمزة . وقد أدخل هذان الفارسيان في العقيدة الجديدة معتقدات فارسية قديمة أساسها التقمص . وفي الواقع ، كان مؤسسو المذهب يطمحون في الأكثر

(١) وهي غير كلمة (ملت) التركية التي تعني شعب أو قوم .

في تأسيس تنظيم سياسي سري اكثر مما يطمحون في تأسيس مذهب ديني جديد . لهذا فقد أنهى حمزة التبشير به مباشرة بمجرد موت (الحكيم) الآله المشخص . وكان الهدف من ذلك المحافظة على سرية غاية هذا التنظيم ، إذ ان تكاثر الاتباع كان يهدد بانتقال مخطوطاتهم الى أيدي غير أمينة . ولهذا أيضاً كان المذهب مغلقاً وانعزالياً من اول ولادته ، فالدرزي درزي بالولادة وليس بالهداية (هذا ما يتشابه مع اليهودية) . ويدعي الدرزي بانهم المسلمون الحقيقيون ، ويتسمون باسم (محي الدين) الذي يعني توحيددي . ويعترفون بالنبي محمد وبالقُرآن ، إلا انهم يفهمون ويفسرون النصوص بطريقتهم .

ان مبادئ المذهب الدرزي لاتهمنا ههنا ، ونكتفي بإعطاء نتائجها الملموسة على المجتمع الدرزي .

١ - المجتمع الدرزي مجتمع مغلق لايمكن ولوجه والنفوذ اليه ، وعلاقاته مع الجماعات الاخرى سطحية .

٢ - وهو مجتمع الحلقات الدينية المغلقة والصالحة للجنسين وفيها :

١ - الروحانيون : وشغلهم الوحيد الحياة الروحية . فهم الرؤساء وهم الذين يعرفون كل الاسرار ، والعقال (جمع عقل) ويعرفون الاسرار الداخلية فقط .

٢ - الماديون : ويهتمون بالحياة المادية وهم جاهلين بالامور الروحية . ويميز بين هؤلاء الجهلة الأغرار :

- امراء الجهلة وهم محاربون وزعماء وطنيون .

- الجهلة الاغرار وهم الذين لايعرفون اي شيء عن المذهب ، يولدون ويموتون دروزاً ، إلا انهم لايمارسون واجباتهم الدينية . مع ذلك فهؤلاء العامة من الجهلة والجاهلات هم الذين يلتزمون بتأمين الأعمال التي تقتضيها الحياة اليومية للمجتمع الدرزي .

٣ - ويخضع المجتمع الدرزي لتأثيرات ديموغرافية ذات منشأ مذهبي مغلق فهو على عكس المجتمع الاسلامي السني ، لايعرف تعدد الزوجات ولا الطلاق إلا في حالات خاصة جداً . كما انه مجتمع الزواج المغلق

(اللحمي) حتى بين حلقات وطبقات الطائفة نفسها .

٤ - والدروز محاربون شجعان من الطراز الاول ، وهذا ، الى حد ما ، ليس إلا نتيجة للاعتقاد بالتقمص ، فالذي يموت في حرب ما هو الجسد فقط ، أما الروح فيمكن أن تعود للظهور فوراً بشكل شخص آخر في مكان آخر .

هذا وبلغ عدد دروز الجولان ١٠٧٤٦ من أصل ١٠٠,٠٠٠ مسلم .

فنسبتهم هي إذن في حدود ١٠٧٥٪ .

ج (العلويون : وأصلهم ومذهبهم اكثر وضوحاً من اصل مذهب الدروز . فهم يعرفون جيداً سلسلة نسبهم الذي يعود الى قبائل عربية معروفة بشكل جيد في التاريخ . ولهذا السبب لم ندرس العلويين كأقلية عرقية . وفيما يخص مذهبهم ، فهم من الشيعة أي من الذين كانوا يرون بأن الخليفة لكي يكون شرعياً ، يجب ان ينحدر من عائلة النبي محمد أي ان يكون منحدراً من آل البيت . وهكذا فان المنحدرين من علي ومن العباس ، اقرباء الرسول ، كانوا يطالبون باستمرار بحقوقهم في الخلافة التي اغتصبت منهم بالقوة .

وفي عام ١٣٢ للهجرة ، عندما استولى العباسيون على السلطة ، انقسم الشيعة الى طائفتين ، كانت احدها ترى بأن الخلافة يجب ان تعاد لآل علي . وهذه الطائفة المنشقة عن الشيعة هي التي اصبحت تحمل اسم العلويين .

وفي الاساس ، لا يوجد فرق مهم بين مذهبي الشيعة والسنة - فالشيعة يرتبطون بعلي الذي يعتبرونه الوريث الشرعي للخلافة بعد موت الرسول . وتسمية أبي بكر خليفة كانت بالنسبة إليهم نوعاً من التآمر . وواقع الحال كان السنة يعتبرون المذهب العلوي مذهباً مخالفاً ، لذا فان علماء السنة كانوا قد سمحوا للسلطان العثماني سليم الاول بشن حرب

مقدسة ومباركة من الله ضد العلويين^(١) .
 إلا ان العلويين كانوا في عهد الانتداب على سورية قد أعلنوا في
 الصحف وفي المذكرات المقدمة للحكومة السورية ولوزارة الخارجية
 الفرنسية ، بأنهم مسلمون ويرفضون الحكم الذاتي ، ويعلنون تمسكهم
 بوحدة سورية^(٢) .
 وفي الوقت نفسه كان مفتي فلسطين الأكبر قد أصدر قراراً أثبت فيه
 بان العلويين مسلمون ، وعلى كل المسلمين الآخرين التعاون معهم .
 وفي الواقع كان علويو الجولان منذ وصولهم الى هذه المنطقة ، أقل ارتياباً
 من الدروز فقد استقروا في قرى أذيال الحرمون ولكن على ارتفاع أقل من
 ارتفاع قرى الدروز . وتاريخ استقرارهم في الجولان غير محدد .
 ووجودهم في المنطقة يقدر بثلاثة قرون فقط .
 ولم ينس السيد شريف^(٣) ، الذي درس توزع العلويين في سورية ،
 جماعة الجولان منهم والذين يعدون ٤٤٨٣ فرداً يتوزعون على ثلاث
 قرى :

١٩٩٨	عين فيت
١٨١١	زعورة
٦٧٤	عجر
٤٤٨٣ فرداً	المجموع

-
- (١) انظر الحكم الذي وجهه ابن تيمية ضد العلويين . بلاد العلويين للمؤلف
 الفرنسي Wessirsse ص : ٥٤ .
 (٢) انظر عزت النص في الرسالة المتبعة ص ٣٧٦ نصوص نشرة العالم العلوي
 الدورية والمذكرات السياسية التي طرحت من قبل أعضاء المؤتمر البارزين من العلويين في
 القرداحة في شهر تموز عام ١٩٣٦ .
 (٣) معنى الشريف : العلويون من هم ؟ باللغة العربية دمشق ١٩٤٦ .

والطائفة العلوية ليست مغلقة باحكام كالطائفة الدرزية ، لانها ليست وليدة تبشير ، وبالمقابل فقد استطاعت هذه الطائفة الصمود أمام مذاهب الطوائف المجاورة مكونة مجتمعاتاً يتصف بنسب زيجات مبكرة وبتعدد الزوجات وندرة الطلاق .

(د) المتأولة والاسماعيليون : وهما طائفتان شيعيتان أيضاً وعدد أفرادهما محدود . فالاسماعيليون من الرعايا السوريين ، لم يزد عددهم في الاحصائيات عن ٧ أشخاص في كل المنطقة ، أما المتأولة^(١) فيعدون اكثر من ذلك ، إلا انهم من جنسية لبنانية ، يعيشون في القنيطرة وبشكل خاص في القرى الشركسية التي سكنوها منذ زمن بعيد وتعلموا لغة سكانها . حيث يشترون من نسائها الدجاج والبيض والزبدة مقابل بيعهن المنسوجات وأدوات الطبخ . وغالبية المتأولة والشركس متمسكون بالاسلام متعاونون فيما بينهم بشكل جيد لأن الفرق بين مذهب المتأولة ومذهب السنة طفيف .

هذا ويميز بعض المؤلفين الغربيين ، وحتى السوريين ، وسط السكان المسلمين فئات مختلفة ، ليس فقط من وجهة النظر الاجتماعية ، إنما بدرجة ارتباطها بالاسلام أيضاً . وهكذا فهم يفرقون بين البدو والقرويين وسكان المدن . ان هذا التفريق اعتباطي والآراء التي تدور حوله خاطئة غالباً .
البدو^(٢) : من المؤكد ان اسلام البدوي ليس متيناً ، ومعلوماته الدينية سطحية جداً . إلا أن هذا لا يتنافى مع إيمانه ، كما لا يتعارض مع التأثير الهام للدين على الحياة البدوية . وهذا طبيعي ، لأن الامر لا يتطلب من رجل أُمي وجاهل ان يعرف بتعمق الامور الأساسية للاسلام .

(١) المتأولة اكثر انصار علي اخلاصاً ، ويعني اسمهم (موتوا يا أنصار علي) . وهي الجملة التي يرددونها اثناء حروبهم مع أهل السنة .
(٢) وعددهم بالدقة غير معروف ، لان معظمهم غير مسجل في سجل الاحوال المدنية . والاحصاء لا يشملهم .

وفي الواقع ، البدوي يخاف الله كثيراً ويخشى أداء القسم الكاذب .
 فحسب عاداتهم ، يصبح المتهم بريئاً ، مهما كان هذا المتهم ، ومهما كان
 الاتهام خطيراً بمجرد ان يقسم على القرآن والسيف ويؤدي البدوي الصلاة
 بصورة بسيطة جداً كما يصوم شهر رمضان . إلا ان الذين يارسون واجباتهم
 الدينية لا يشكلون الأغلبية كما في المدينة او الريف .
 والبدوي ليس ممارساً لواجباته الدينية ، وليس تقياً حتى ولا صاحب دين
 كما يقول السيد عزت النص . غير أن هذا القول لا يجب ان يعمم بصورة
 مطلقة . وإذا كان البدو قد بقوا ، كما كانوا منذ زمن القبائل السامية القديمة ،
 أميين ومتطيرين وغزاة وغلاظ القلوب فذلك لانهم كانوا دوماً مهملين من
 السلطات . فثناء الاحتلال التركي الطويل ، لم يهتم الباب العالي بهم أبداً .
 على العكس من ذلك ، كانوا دوماً محترقين ومضطهدين من قبل الاتراك .
 وفي ظل الانتداب الفرنسي لم يستفد البدو من أية مبادرة لتوطينهم أو
 تعليمهم . وبعد الاستقلال لوحظت هجمة بدوية كبيرة على المدارس ،
 لدرجة اصبحت فيه التنقلات اليومية لصغار الطلاب البدوي منطقتنا من
 المناظر المألوفة .

القرويون : وثقافتهم الدينية ليست عميقة جداً ، ومع ذلك فهم دون اي
 شك أكثر ممارسة للواجبات الدينية من البدو ، بدرجة لا تقل عن أهل المدن .
 غير ان الدكتور عزت النص يرى بأن الفلاحين ، مثل البدو ، لا يملكون من
 الاسلام الا الاسم . وبالنسبة (Weulersse) فان المظهر الوحيد للحضارة
 الاسلامية هو الجامع . وبما أنه لا يوجد غالباً في الريف ، إذن فالحضارة
 الاسلامية حسب استنتاجه « قد صممت من قبل اهل المدن ولهم » . إن هذا
 التحقيق حول المظهر الحضاري للجامع إذا كان صحيحاً ، فان الاستنتاج
 الذي يبنى عليه ليس كذلك ، فالجامع ليس الا مركزاً اجتماعياً للصلوات
 المشتركة ، والصلاة يمكن ان تؤدي في اي مكان . والقرويون الفقراء
 لا يملكون دوماً الوسائل التي تمكنهم من بناء جوامع فخمة ، ويكتفون غالباً
 بقاعة عامة ، بمثابة ابدونها . والقرى الوحيدة التي فيها جوامع تقليدية في

الجولان هي القرى الشركسية التي حرص سكانها ، عندما قدموا الى وسطهم الغرب ، على الظهور امام مضيفيهم بأنهم مؤمنون أتقياء . وتجب الاشارة في هذا المجال إلى ان الشركس كانوا قد تلقوا مساعدات خارجية لبناء جوامعهم^(١) . ولكن يجب ان نشير ايضاً الى ان ندرة الجوامع في قرى الجولان ، وفي كل قرى سورية ، لاتعني أبداً بأن تأثير الدين اوبالأحرى الاسلام ضعيف في القرية . ففي كل قرية ، حتى لو كانت بدون جامع ، يوجد بكل تأكيد شيخ أو بالأصح خطيب^(٢) لا تقتصر مسؤوليته على اقامة الصلوات ، وإنما تشمل ايضاً أعمالاً أخرى ، أهمها القيام بمراسم الجنائزات . - وتحسم الخلافات بين القرويين غالباً حسب شرائع القرآن ، والشيخ او المفتي هو المكلف بمثل هذه الأعمال . وفي حالة الاخفاق فقط ينقل القروي شكواه الى المحكمة المدنية .

- وعلى الرغم من التحريم القانوني ، يقوم القرويون بإتمام عقود الزواج في قراهم حسب الشريعة وبواسطة شيخ القرية . وغالباً ، لا يتم تثبيت عقد الزواج في سجل الأحوال المدنية الا بعد الولادة الاولى . - وقبل الاستقلال ، كانت المدارس نادرة في قرى الجولان ، وكان التعليم شبه ديني ، وشيخ القرية هو الذي يقوم بهذه المهمة ، ولهذا فأول شيء يتعلمه الاولاد ، قراءة القرآن ، وكتابة الرسائل . - وفي رمضان ، يصوم كل القرويين تقريباً ، وهو الشهر الذي يستقبل بسرور ويخصص للعبادة . والعيدان الصغير والكبير ، هما العيدان الدينيان اللذان يعرفهما القرويون ويحتفلون بهما فقط . وهكذا فان موقف الاسلام من الحياة الريفية قد أسيء شرحه من قبل بعض المؤلفين . وهذا ما وقع فيه Weulersse في قوله :

-
- (١) جامع الجوسية بني بمساعدة مصري . وجامع الفحام بني بجمع التبرعات .
بينما قام ثري من دمشق باعادة بناء مأذنة القنيطرة التي هدمها الرعد .
(٢) وتعني حسب التعبير المحلى الشخص الذي يستطيع قراءة وتعليم القرآن .

« ينتمي محمد لطبقة نبلاء المدن وتجار مكة القرشيين . وفي العالم الذي عرفه ، عالم الواحات لغرب شبه الجزيرة العربية ، كان ينظر الى العمل بالارض باحتقار ، وبأنه عمل رق . ولم يكن من السهل عليه امتصاص الاحتقار الشامل والبالغ للأشياء وللناس العاملين في الارض ، وتجربته محدودة في هذا المجال ؟ ففي الاناجيل يرد ذكر الحقل والحياة الريفية في كل مكان ، في حين لا أثر لمثل هذا في القرآن . وفي الأحاديث يظهر الفكر المعادي للفلاح بكل وضوح ، ففي واحد من اشهرها ، والتي نقلها ابن خلدون ، جاء بأن الرسول قد صرح عندما رأى سكة فدان بما معناه : لا يدخل هذا في بيت أبداً دون أن يدخله الهوان ^(١)»

فالاسلام بالنسبة للمؤلف هو تمجيد بالبدو . وان عدة نقاط تجب الإشارة اليها في مقطع Weulersse السابق :

- إذا كان القرشيون حقاً ممثلين لطبقة نبلاء المدن وتجار مكة ، فالرسول كان يتبناً ^(٢) .

- التجارة القرشية لم تكن تحتوي سوى المنتجات الزراعية . والعرب لم يحتقروا العمل في الارض ، والاعمال المحترمة من قبل العرب ، كانت الحرف المهنية وليس الزراعة .

- يمثل القرآن اللجنة دوماً ببستان ، والشيء الأساسي الذي يقدم فيها للمؤمنين هو الثمار .

- الحديث المنقول عن ابن خلدون والذي اتخذ Weulersse كمنطلق قد أسيء اختياره . فالرسول قد شجع بل حض اتباعه في عدة احاديث اخرى على الزراعة والغرس .

- وحسب ما جاء في القرآن « الارض لله يورثها لعباده الصالحين » . وفي التشريع العقاري الاسلامي « الأرض لمن يحييها » .

(١) انظر Weulersse الفلاح السوري ص ٦٩

(٢) تربى لدى عمه ، وكان في صباه راعياً للغنم يساعد عمه الذي كان فقيراً وأباً لأسرة كبيرة .

وفي الواقع ، لم يحط الاسلام من قدر العمل في الارض ، واذا كان الخليفة عمر قد منع المسلمين في المؤتمر الذي عقد في الجولان من العمل في الارض في بداية الفتح ، فذلك لانه كان يحرص على إبقاء الطبقة العسكرية غير مرتبطة بالارض ومتحررة وطيقة الحركة .

سكان المدن : ان خطأ Weulersse كما يقول عزت النص هو الاعتقاد بهذا التمجيد من قبل الاسلام للبداوة والبدو فالاسلام بالنسبة لعزت النص ليس ريفياً ولا بدوياً انما هو اسلام مدن . لأنه صمم ضمن إطار تجاري لعالم تجاري وقد املت الجموع الريفية من قبله لانها كانت مجهولة بالنسبة له^(١) . ويميز السيد النص ايضاً في وسط مجتمع المدن نفسه بين الجموع الشعبية وبين البرجوازية التجارية والصناعية . والجموع الشعبية في المدن لا تختلف بالنسبة له عن الريفين ، فالجهل يخيم على الجميع بشكل لا يكون فيه للدين اي اثر على الاحداث الديموغرافية . في حين يرى بان الاسلام هو الذي يحدد للطبقة البرجوازية الاسلامية في المدن السلوك في الحياة . فهذه الفئة ، بالمناسبة ، هي التي تسجل أعلى معدلات عرفها المجتمع الاسلامي للزيادة الطبيعية . ونحن نرى العكس ، فإذا كانت البرجوازية في المدن هي التي تسجل أعلى معدلات الزيادة الطبيعية ، فذلك لان شروط حياتهم صالحة لخفض معدلات وفيات الاطفال . وليس لهذا اي علاقة بالدين . وبالنسبة لنا ، للدين تأثير مؤكد على ديموغرافية الجموع الشعبية الجاهلة ، ان كان في الريف او في المدينة . فتحديد النسل لدى هذه الجموع غير معروف ، لأن الاسلام يحرمه . وحتى أشد الناس فقراً يتزوجون وينجبون في الغالب كثيراً من الاولاد ، لأن الأب لا يتحمل همّ إطعام ابنائه . إذ ان الله يطعم كل مخلوقاته .

وهكذا فان الولادات لدى هذه المجموعات الشعبية تتعلق بحدود الخصوبة الطبيعية . إلا ان الشروط القاسية للحياة تزيد في معدل وفيات الاطفال ، وهذا ما يفسر ضعف الزيادة لديهم . وفي الواقع فان برجوازية المدن بالمعنى الكامل لا توجد في المدينتين الجولانيتين فيق والقنيطرة ، والموجود

(١) عزت النص : الاطروحة المتممة ص : (٧٣)

هو صغار التجار الذين يشكلون طبقة طفيلية لاتتميز اجتماعياً عن مجموع سكان المدينة .

٢- المسيحيون : وغالبيتهم من العرب . أعلى الاقل من الناطقين بالضاد . مع ذلك فان عدداً من السريان يتكلمون لغتهم القديمة السريانية . كما ان للارمن لغتهم الخاصة بالطقوس الدينية .

ويتوزع مسيحيو الجولان الذين يعدون ٥٤٠٦ فرداً كما يلي :
١- تجمعات ريفية بأعداد قليلة ، مرتبطة بالارض ارتباطاً متيناً ، حيث استقروا في مكانهم وسط الاكثرية المسلمة . وتوجد هذه التجمعات في الجنوب بشكل خاص ولا تتميز اجتماعياً عن الفلاحين المسلمين .

ففي خسفين يوجد ٢٢٠ مسيحياً

وفي فيق يوجد ٥٠ مسيحياً

ويطلق Weulersse على هؤلاء المسيحيين « المسلمون اجتماعياً » .

٢- في قرى الحرمون في الجنوب والجنوب الشرقي ، حيث يعيشون مع الدروز في القرى نفسها . والاعتقاد السائد ان هؤلاء المسيحيين قد التجأوا الى الحرمون في نهاية فترة الحروب الصليبية ، حيث وجدوا لدى الدروز المتعاونين مع الصليبيين ملجأ لهم .

وهكذا كانت احسن طريقة بالنسبة للمسيحيين ، للدفاع عن النفس ، اثناء الاضطرابات ، تجنب الاكثرية المعادية ، بالابتعاد عنها الى المناطق الفقيرة ، والالتجاء الى السلاح أيضاً في بعض الأحيان إن لزم الامر .

٣- أقلية من سكان المدن ، في القنيطرة التي وفدوا إليها من بقاع سورية ولبنانية مختلفة ، من مرجعيون ومن القرى الحرمنية وبشكل خاص من مجدل شمس .

وبعد اضطرابات عام / ١٨٦٠ / فترت العلاقات بين المسيحيين والدروز ، وقامت منازعات محلية ، خاصة في مجدل شمس ، الأمر الذي اضطّر مسيحيي هذه القرى المنعزلة للتوجه الى القنيطرة ، مقر السلطة

الادارية الاقليمية ، وقد عزموا على التخلي عن كل دفاع طبيعي .
ويسجل هذا الميل للانضواء المدني وجهاً ثانياً لدفاع المسيحيين في الجولان
يتطابق مع مرحلة استقرار نسبي .

وفي عهد الانتداب الفرنسي جرت هجمة مسيحية نحو القنيطرة .
فبعد ان قمعت سلطات الانتداب ثورة الدروز في قرى الحرمون سهلت
لمسيحيي هذه القرى الاستقرار في القنيطرة وحالياً تزيد نسبة مسيحيي هذه
المدينة عن ٢٠٪ من مجموع السكان . غير ان عدداً منهم لازال غير
مسجل في سجل احوالها المدنية .

وليست المسيحية في الجولان اقل انقساماً الى طوائف من الاسلام .
والكنائس الرئيسية هي :

أ - الكنيسة الأرمنية : ويسكن / ٤١٩ / أرمنياً في القنيطرة المركز المدني الوحيد
في المنطقة . وهم يمثلون طائفة مسيحية خاصة ، وشعباً أصيلاً ، حافظ
على لغته في المنفى وتقسم هذه الطائفة الى كنيستين : ارثوذكس
وكاثوليك . وأتباع الثانية اكثر عدداً وتستخدم الكنيسة اللغة الارمنية
كلغة طقوس دينية .

ب - الكنيسة اليونانية : ويجب التمييز بين الروم الارثوذكس غير المتحدين مع
روما وبين الروم الكاثوليك المتحدين مع روما منذ القرن السابع عشر .

ويستعمل الكل اللغة العربية كلغة طقوس دينية ، ممثلين أقدم
مجموعة مسيحية وأكبرها عدداً في البلد . فالروم الارثوذكس يعدون
/ ٢٢٧٦ / فرداً أي ٥٠٪ من مسيحيي الجولان ، يتوزعون بالشكل
التالي :

٨٥٦	في القنيطرة
٨٠٠	في حينة
٢٥٠	في عرنة
٢٢٠	في خسفين
١٥٠	في عين الشعرة
٢٢٧٦	المجموع

أما الروم الكاثوليك وعددهم ٩٩٠ فرداً متوزعين بالشكل التالي :

٥٦٠	في القنيطرة
٢٥٠	في حينة
١٠٠	في عين الشعرة
٥٠	في فيق
٩٩٠	المجموع

جـ - الكنيسة السريانية : يتجمع السريان الارثوذكس في القنيطرة وعددهم ١٠٥ / أفراد ، أما السريان الكاثوليك فيعيشون في قلعة الجندل . عددهم بالدقة غير معروف ولغة الطقوس الدينية للسريان رسمياً هي السريانية ، إلا ان القداس يتلى عملياً باللغتين العربية والسريانية .
د - البروتستانت : وعددهم قليل ويسكنون القنيطرة وعددهم فيها غير معروف :

عين الشعرة ٥٠

فيق ٤

هـ - المارونيون : يتجمعون في القرى الدرزية عين قنية وعددهم ١٥٠ / فرداً . هذا ويتجلى مركب الاقليات الديني والعربي للمنطقة في سكان مدينة القنيطرة حيث نجد في الواقع في هذه المدينة الصغيرة ممثلي كل الطوائف . الميسور منهم يأتي إليها لمزاولة التجارة وتحقيق بعض المكاسب . أما الفقرا فيعملوا فيها .

٣ = (تطور العلاقات بين مختلف الطوائف الدينية والعرقية والاجتماعية :
لم تكن العلاقات بين مختلف الطوائف الدينية والعرقية والاجتماعية جيدة وهادئة على الدوام ، وفي الحقيقة عرف الجولان نزاعات دموية . كانت تجري تحت أنظار السلطة المحتلة للبلاد والتي كانت تثير النزاعات بسهولة بدلاً من القضاء عليها وفي الواقع ، منذ القرن الحادي عشر وحتى

نهاية الحرب العالمية الاولى كانت السلطة بأيدي سلاطين غير عرب وغرباء عن البلاد إلا أنهم من السنيين ، وكان هؤلاء السلاطين مناهضين دوماً ليس فقط لغير المسلمين ، إنما أيضاً للذين ليسوا من السنة .
ونتذكر هنا ظلم ومذبحة السدروز من قبل المماليك في عام ١٣٠١ / ، وحملة بيبرس وقلاوون العسكرية لإخضاع العلويين ووضع حد للدعوة الى الانشقاق وكنتيجة لهذه السياسة التعسفية ، انعزلت الأقليات :

ويتميز العهد العثماني بتعدد أشكال النزاعات فمنها :

١ - النزاعات الاجتماعية : بين القرويين والبدو الذين يتركون حيواناتهم تفتك بمزروعات القرويين بحرية . وموقف الأتراك من هذه النزاعات المستمرة والدموية كان غالباً موقف البلامبالاة . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر جلبوا الشركس الى سورية ووزعهم على اطراف المعمورة كعامل تهديّة ، الا ان الشركس وقعوا في نزاع عنيف مع القبائل البدوية ، وبشكل خاص ضد العنزة الذين كانوا يتركون ابلهم ترعى المزروعات بحرية ، بحجة أن الجولان كانت على الدوام منطقة رعيهم أي مربعهم وقد كلف هذا النزاع الخصوم غالباً . والسلطات الفرنسية المنتدبة هي التي وضعت نهاية لهذه النزاعات الاجتماعية .

٢ - نزاعات عرقية : بين العرب من جهة وبين من هم غير عرب من جهة أخرى وبالواقع فقد احتقر الأتراك العرق العربي ، لذا اصبح التركمان القدامى أسياد المنطقة وأخضعوا معظم القبائل العربية وأجبروها على دفع (الخوة)^(١) وكان التركمان يعتمدون على الشركس في نزاعهم مع العرب .

وفي الواقع كان الباب العالي يدعم دوماً التركمان والشركس ويشجعهم ضد العرب .

(١) ليس لهذه الكلمة معنى (الأخوة) إنما على العكس لها معنى التجبير

والاذلال .

٣ - نزاعات دينية : لقد سعى الاتراك العثمانيون في وضعهم الشركس في الجولان الى جعل هذا الشعب المحارب في مواجهة البدو ، وبشكل خاص في مواجهة الدروز المحاربين الأشداء .

ان خلافاً بسيطاً بين عدد من افراد الشيركس والدروز أخذ عام ١٨٨١ شكل حرب حقيقية فالترك من جهةهم شجعوا الشركس واعطوا هذا الخلاف صفة حرب مقدسة ، وسمحوا لعدد من ضباط الجيش التركي الشركس بالاشتراك في المعركة الى جانب الشركس ، وقد كلفت هذه الحرب الدروز ٦٠٠ ضحية إلا أن خسائر الأطراف الاخرى لم تكن أقل فداحة .

هكذا كان وضع الجولان حين حل الانتداب الفرنسي في عام ١٩٢٠ محل الاحتلال العثماني الطويل وهكذا أصبح للجولان ، أو بالأحرى لسورية ، أسيا د جدد . وقد احتفظ هؤلاء الاسيا د الجدد بشكل جيد بسياسة الامبريالية العثمانية التي كان اساسها دوماً المبدأ المعروف « فرق تسد » فمنذ عام ١٩٢١ أخذت السلطات الفرنسية تعيد تمثيل الاسطورة الاخلاقية الشهيرة وتعمل على نشرها بشكل واسع لكي تظهر للرأي العام العالمي بأن الانتداب على سورية له مبرراته وله أسباب وجوده .

ومفاد تلك الاسطورة انه اذا كان الشعب السوري غير متجانس فعلى فرنسا بموجب الحقوق والواجبات المرمأة على عاتقها منذ قرون ، ان لاتتيح الفرصة للاجناس والطوائف المختلفة لتتنقض على بعضها^(١) فأنشاء ثورة ١٩٢٥ السورية ، باستغلال الفرنسيين للروح القتالية لدى الشركس وبإحيائهم للحقد القديم ، تحرك هؤلاء لمضايقة ثورة الدروز في الحرمون وحتى في جبل الدروز .

وفي الواقع لم يقم اي من المحتلين بأي عمل إيجابي لتحسين العلاقات بين عناصر السكان المختلفة . بل على العكس من ذلك فإنهم كانوا يجهدون

(١) عزت النص : الرسالة المتممة ص ٢٥٤

ضمناً لابقاء النزاع . لقد كان القسم الأكبر من القرى في زمن الاحتلال التركي ، محروماً من المدارس وفي بعض المدارس التي كانت موجودة في منطقتنا كان معلمون أتراك يعلمون العربية ومعلمون عرب يعلمون التركية . وكان مردود هذا التعليم عملياً لا شيء .

وفي ظل الانتداب لم يرتفع عدد المدارس بشكل محسوس والشى الجديد الذي حدث في هذه الاثناء هو ان اللغة الفرنسية حلت محل اللغة التركية في التعليم ، وان عدداً من المدارس قد افتتحت في القنيطرة لتعليم لغات الأقليات الارمنية والشركسية . وقد اتجه المسيحيون نحو اللغة والثقافة لفرنسية .

ورغم كل هذا فان العلاقات أخذت تصبح شيئاً فشيئاً طبيعية وهادئة وفي وسط الجماعات المختلفة ظهرت حركات وطنية تهدف لتوحيد الجهود وتحسين العلاقات . وقد ادركت السلطات المنتدبة سريعاً إخفاق سياسيتها ، وكانت الآنسة Proux قد عبرت في عام ١٩٣٦ عن القلق والخطر الذي تنطوي عليه كل من الحركة الوطنية والدمج العربي . بالنسبة للشركس كانت قد كتبت مايلي :

«كانوا يريدون لنا آنذاك كأقلية مهددة وإن تنظيم الدولة العربية إذا ما استمر بتأني في ظل جومين الود والألفة والاعتدال ، فإن عملية التمثيل للشركس ستتحقق بدون شك شيئاً فشيئاً خلال جيلين أو ثلاثة أجيال .»^(١) .

ان دمج هذه الاقلية قد تم في الواقع بأسرع مما توقعت الآنسة Proux فقد لعب الاستقلال دوراً كبيراً في دمج عناصر السكان في الجولان .

- لقد فتحت المدارس في كل مكان . وسهل تعليم اللغة العربية الفصحى التفاهم المشترك . وكانت اللغة العربية عاملاً أساسياً للتوحيد ، ربطت أتباع الطوائف الدينية المختلفة بالعروية . وقد كان للدين الإسلامي دور

(١) الآنسة Proux . الشركس مرجع مذكور سابقاً .

أساسي في ذلك لأنه يتطلب من المسلمين غير العرب معرفة اللغة العربية ، ليس فقط من أجل التفاهم مع إخوانهم في الدين ، انما أيضاً ليكونوا مسلمين حقيقيين .

- ان مصالح مختلف الفرقاء أصبحت تتطلب التعاون فيما بينهم . ولم يعد البدو خصوماً لسكان القرى ، انما أصبحوا متممين لبعضهم البعض . والعلاقات بين الشركس والدروز أصبحت طيبة الأخيرون يبيعون خضارهم وأثمارهم في قرى الشركس . بينما يبيعهم الشركس الأبقار والعجول .

- لقد اوجد النزاع العربي الاسرائيلي ، في هذه المنطقة المجاورة للعدو شعوراً قومياً مشتركاً لعب دوراً مؤيداً للتعريب .

الفصل الرابع دراسة ديمغرافية لسكان الجولان

١ - واقع وقيمة مصادرنا الاحصائية :
 كنا قد المحنا فيما يخص القبائل البدوية ، لواقع احصاء البدو وأنصاف
 المستقرين الحرج^(١) .
 وان واقع السكان القرويين ليس ملائماً بشكل احسن للدراسة
 الديمغرافية التي أساسها الاحصاء .
 يعود خوف سكان الجولان من التسجيل في سجل الاحوال المدنية ،
 بصورة أساسية الى العهد العثماني ، حيث كان عدد كبير من الاشخاص قد
 قتلوا واختفوا أثناء الحرب العالمية الأولى ، وكان السكان مثقلين بالضرائب
 مثل : العشار والمسقفات والدريبة والعداد . الخ^(٢) وقد بقي هذا الخوف لدى
 السكان ثابتاً في اللاشعور . لذا ورغم الجهود المستمرة منذ عام
 ١٩٣١ لتحسين وضع الأحوال المدنية في كل مناطق سورية ، فقد بقيت
 الاحصائيات الديمغرافية في سورية ناقصة كماً وكيفاً بشكل عام خاصة ما
 يخص منها منقطتنا . ونقص آخر من الناحية الكيفية يتعلق بعدم دقة
 التسجيل ، إذ ان الجولاني يذهب للتسجيل في دائرة الاحوال المدنية عندما كان
 يطلب بطاقة شخصية . ومثل هذا لم يكن يطلب من السكان إلا منذ وقت
 قريب . صحيح أن دائرة الاحوال الشخصية كانت لا تعطي للمكثوم شهادة

(١) دفتر العشائر (سجل قبائل الفضل) الذي شكل بالقرار رقم (٥) بتاريخ

١٩٣٦/٣/٣٠ .

(٢) هذه الضرائب هي بالتوالي : للأرض ، ضريبة العشر ، الاملاك المبنية ،

الطرق والقطيع .

ميلاداً إلا بعد تحر وتحقيق الا انه من الطبيعي ان يكون العمر المعطى تقريباً ومبنياً على الافتراض .

وأمام هذه الحالة في النقص وفي الالتباس والفوضى ، لوحظ منذ عام ١٩٣١ وجوب البدء بتنفيذ مشروع اصلاح لوضع الاحوال المدنية وأصبح قائم مقام القضاء منذ ذلك التاريخ ضابطاً للاحوال المدنية . ومسؤولاً عن مسك سجلات مزدوجة وسرية في كل سنة . كما اصبح حمل البطاقة الشخصية إجبارياً على كل الرعايا الذكور الذين تزيد أعمارهم عن الـ ١٤ عاماً ، وفرضت عقوبات على اهمال التصريح ضمن المدد الممنوحة . ومع ذلك لم يكثر سكان الجولان لهذه الاجراءات بشكل ملموس . ونتيجة غير مباشرة للحرب العالمية الثانية تسارعت حركة تسجيل المكتومين في دائرة الاحوال المدنية رغم ما كان قد اعطي لهم سابقاً من تسهيلات وفي الواقع فإن حصر الاعاشة بالدولة لم يحقق نتيجة كبيرة بالنسبة للاحصاءات في الجولان لان كتلة القرويين كانت تعيش اثناء الحرب اكثر من أي وقت مضى ، ضمن اقتصاد مغلق وكانت الاقمشة والسكر والشاي السلع الوحيدة التي يشتريها القرويون وكلها كانت مهربة من الاردن لتباع في الجولان بأسعار تقل عن الاسعار الرسمية . ويجب ان يضاف الى ذلك ان مخاطر القرى كانوا يوزعون مواد التموين حسب احصاءاتهم الخاصة ودفاتر العائلة المعروفة في المدن ، لم تكن موجودة في القرى .

والتعداد الذي اجري في عام ١٩٤٧ في كل المناطق السورية كان قد أعطى بالنسبة للمستقرين نتائج قريبة بشكل ملموس من الأرقام التي تتضمنها سجلات الأحوال المدنية . أما عدد البدوفقد ظهر اكثر من التقديرات السابقة . ولتحاشي تبديل غير مرغوب في مقاعد البرلمان ، فضلت الحكومة ان تعتبر تعداد ١٩٤٧ لاغياً .

وهكذا فمصدرنا الأساسي هو « statistical Abstract of Syria » الذي يغطي احصاءات تغطي فترة سبع سنين من عام ١٩٤٩ الى العام ١٩٥٥ . هذه الاحصاءات الرسمية مع الاسف لا تعطي فيما يخص الديمغرافية

على مستوى القضاء الا معلومات عامة : العدد المقدر لسكان القضاء لكل سنة للفترة المعطاة ، العدد المطلق للولادات الحية ، العدد المطلق للوفيات ، واخيراً العدد المطلق المتعلق بالجنسين. اننا امام هذا الواقع لن نستطيع اعطاء أي معلومات اكيدة حول لامور التالية :

- توزيع السكان حسب السن .
- توزيع نسبة الوفيات ونسبة المواليد حسب السن .
- العمر المتوسط أو امل الحياة .
- معدل الانجاب او التعويض .
- معدل الزيجات
- الولادات اللاحقة لتاريخ الزواج وعدد الاولاد المولودين سابقاً .
- نسبة الولادات الى عدد الزيجات .
- اضافة الى امور اخرى مهمة جداً .

٢ - نموسكان الجولان : حسب المصادر الرسمية وخلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٥ / ١٩٤٩ حقق سكان الجولان الذين كانوا يمثلون اكثر من ١٩٪ من مجموع سكان سورية نمواً يعادل ٣٣٪ من نحو سكان سورية^(١) والجدول التالي يبين لنا زيادة السكان لقضائي القنيطرة وفيق للفترة نفسها :

السنة	قضاء القنيطرة	قضاء فيق	المجموع	الزيادة	النسبة
١٩٤٩	٤٨٤٤٦	١٤٢٤٧	٦٢٦٩٣	٥١٥٦	٨ر٣
٩٥٠	٥٣٥١١	١٤٢٣٨	٦٧٨٤٩	٢٢٨٧	٣ر٣
٩٥١	٥٥٠٠٣	١٥١٣٣	٧٠١٣٦	٢٥١٤	٣ر٥
٩٥٢	٥٦٧٤٧	١٥٣٠٩	٧٢٦٥٠	٧٠٩٨	١٠ر٦
٩٥٣	٦٤١٩١	١٦٢٥٧	٨٠٤٤٨	٢٧٢١	٣ر٣
٩٥٤	٦٦٣٢٣	١٦٨٤٦	٨٣١٦٩	٣٦٩٣	٤ر٤
٩٥٥	٦٩٥٧٢	١٧٢٩١	٨٦٨٦٣	—	—
			الوسطي	٤٠٢٨	٥ر٨

(١) بالنسبة للسيد النص . الزيادة السنوية لسكان سورية هي ٤٠٠٠٠ نسمة وهذا

الرقم بعيد جداً عن الذي تعطيه المصادر الرسمية والذي هو ١٢١٣٥٨ نسمة^(٢)

ويسمح لنا الجدول السابق ان نسجل الامور التالية :

- ١ - نمواً مستمراً لسكان الجولان .
- ٢ - عدم انتظام هذا النمو فالحد الاقصى هو ١٠٦٪ بينما الادنى هو ٣٣٪ .
- ٣ - ان هذا النمو السنوي الفعلي (في السنة ولكل ١٠٠ نسمة من السكان) لا يمثل معدل النمو العام الرسمي الذي هو الفرق بين معدل المواليد وبين معدل الوفيات ويسمى هذا النمو الفعلي (معدل الزيادة) والذي يساوي ٥٥ في السنة ولكل ١٠٠ نسمة من السكان .
- ٤ - ان المعدل العام للنمو ، هو حسب المصادر الاحصائية نفسها ، أدنى دوماً من المعدل العام للزيادة

المعدل العام السنوي للنمو

١٥٤٣

المعدل العام السنوي للزيادة

٤٠٢٨

فالفرق هو إذن ٤٨٤٥ .

٥ - ان الفرق بين معدل الزيادة وبين المعدل العام للنمو يفسر بالولادات المكتومة من جهة وبالتسجيل التدريجي للبالغين غير المسجلين في سجلات الاحوال المدنية من جهة اخرى . مع ذلك ، فان معدل الزيادة هو الذي يعطينا أقرب فكرة لنمو سكان الجولان ، ذلك أن ما انجز من تقدم لازال بعيداً عن استيعاب مجمل غير المسجلين الذين يتجدد عددهم باستمرار بالولادات الجديدة غير المصرح عنها .

مع ذلك فان الزيادة المسجلة في عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٢ هي طارئة وليس لها سوى قيمة صورية ، تفسر بهجمة من قبل غير المسجلين نحو دوائر السجل المدني بمناسبة العفو العام سنة ١٩٤٩ وبمناسبة انتخابات عام ١٩٥٢ .

(١) وسطي الفترة نفسها من ١٩٤٩ الى ١٩٥٤ .

(٢) المعدل المستخرج حسابياً من طرح معدل الوفيات من معدل المواليد للفترة بين

(١٩٤٩ - ١٩٥٥)

٣ العوامل الرئيسية لحركات السكان :

١ - الدين : بلعب الدين دوراً معتبراً في ديموغرافية سكان الجولان الذين هم بالاساس سكان ريفيون مرتبطون بمعتقداتهم الدينية ، وفي الواقع ، ان الاسلام والمسيحية ، مراعاة لبقاء الجنس البشري ، يوصيان بالزواج ويحثان على الانجاب والاسلام برأي اكبر نسبة من مسلمي الجولان ، هو الذي يلعب الدور الهام .

٢ - مستوى الحياة : يعيش سكان الجولان الريفيون والبدوي ظل شروط حياة جد رديئة . الفقير هو مظهر اجتماعي يبدو في كل مكان . واقتصاد الجولان ، الذي يكاد ان يكون زراعياً فقط هو اقتصاد خاسر وغير متوازن وغير مستقر . ومع ذلك فإن لقروي منطقتنا الفقراء ، كما هو الحال في كل العالم ، كثير من الاولاد .

ومع سوء التغذية ترفع نسبة الوفيات بينهم .

٣ - التطور الاجتماعي : في الظروف الحالية ، لازالت كتلة فلاحي الجولان تعيش في ظل شروط اجتماعية محزنة ، فالجهل شبه عام ، وان هذا الجهل هو الذي يحافظ على استمرارية تأثير الدين ، والمتقفون المتحضرون هم فقط الذين يطبقون طرق منع الحمل . ان جهل الامهات لأقل مبادئ الصحة ، والقذارة والفقذان الكامل تقريباً للخدمات الاجتماعية والصحية تدعم كلها التأثير المشؤوم لسوء التغذية على معدل الوفيات بشكل عام ، وعلى معدل وفيات الاطفال بشكل خاص . لهذا فإن المعدل العام لنمو سكان الجولان ضعيف رغم ارتفاع معدل الولادات نسبياً .

وسندرس فيما يلي تأثير هذه العوامل على معدل الزيجات والمواليد

والوفيات .

١- معدل الزيجات :

في المجموعة الاحصائية السنوية لايرد عدد الزيجات ، على مستوى القضاء حتى في السجلات الاقليمية للاحوال المدنية هذه الواقعات لا ترد بشكل صحيح لأن الزيجات الريفية تعقد في القرى على يد

شيوخ ليس لديهم أي صك أو سجل . وحيث يقتصر العقد على معرفتهم لشعائر تردد في مثل هذه المناسبات . ولا تنتقل واقعة الزواج الى قاضي المدينة وبالتالي الى دائرة الاحوال المدنية إلا بعد الولادة الاولى . لذلك فإننا نستطيع الجزم بأن معدل الزيجات في الجولان هو عال كما في كل الريف السوري^(١)

ان الزواج بالنسبة لقروي الجولان كما هو بالنسبة للبدوي فيه ، ضرورة :

- ١ - فالمرأة في الحياة اليومية ليست اقل حيوية من الرجل ، فهي وسيلة انتاج .
- ٢ - وللدن أيضاً تأثير على معدل الزيجات « فالمسيحية تجلت كرد عنيف على حياة الفجور في الامبراطورية الرومانية كلها . وبينت حسن وطيب الزواج »^(٢) .

الا ان الاسلام هو الذي يلعب الدور الاكثر اهمية ، فشيخ القرية يردد بصوت عال ، وهو يقوم بعقد القران تعاليم الرسول والتي اهمها :

« تزوجوا ، تناسلوا فإني مباد بكم الامم يوم القيامة . »

- ٣ - الا ان الوضع الاقتصادي الريفى الذي صفته الاساسية عدم الاستقرار ، هو بلا منازع العامل الاساسي الذي يحدد عدد الزيجات وشروطها واوراقاتها . والسنة التي يجود فيها الزرع والرعي هي التي تعكس الحد الأقصى للزيجات التي تعقد في الجولان . مع ذلك ، فإننا لنعقد ، كما يعتقد السيد عزت النص ، بوجود علاقة مباشرة بين كمية المطر في سنة ما وبين عدد الزيجات المعقودة في هذه السنة ، فتتأرجح غزارة الامطار لا يحس بها في العام نفسه ، بل في العام التالي على الاقل ، ثم ان مردود الزراعة

(١) يرى السيد عزت النص بأن المعدل الحقيقي للزيجات يتأرجح بين ٢٠٠ - ٢١٠ لكل ١٠٠٠٠ فرد في حين تنقص دوائر الاحصاء الرقم الى ٤٠ لكل ١٠٠٠٠ فرد .

(٢) السيد عزت النص : الاطروحة الرئيسية ص ٢٧

لا يتوقف فقط على كمية الأمطار السنوية^(١)

حركات فصلية للزيجات : يترك امر تحديد موعد الزواج عادة لإرادة الزوجين المتعاقدين . مع ذلك فان عدم التساوي في توزيع الزيجات على أشهر السنة أمر ثابت في الجولان . ولعدم توفر الاحصاءات سنكتفي بتسجيل الفترتين اللتين يرتفع فيهما عدد الزيجات اثناء السنة :

١ - الربيع : (نيسان وأيار) وهي الفترة الأكثر ملاءمة بالنسبة للبدو ولكل من يمارس تربية الاغنام . ففي الربيع يبدأ عادة تسويق منتجات الحليب والصوف والحملان . والمناخ بدوره يكون أكثر ملاءمة لإقامة الأعراس .

٢ - نهاية الصيف وبداية الخريف ، وهي الفترة الملائمة بالنسبة للفلاحين الحقيقيين ، حيث تكون الاعمال الزراعية قد انتهت في هذه الفترة ، والمناخ لازال صالحاً للأفراح العامة . كما ان هذه الفترة بالنسبة لفلاح الجولان هي المناسبة لبيع ابقاره وعجوله للحواريين والدروز الذين يقصدون المنطقة . لأجل ذلك .

٣ - يتحاشى شراكسة الجولان إتمام الزواج في الفترة الواقعة بين العيدين الصغير والكبير وهي فترة غير ثابتة لأنها تتبع التقويم القمري والمجري ويمكن ان تقع في أي فصل من فصول السنة .

طريقة الزواج : وستكلم عن الشكليات الاجتماعية الأصلية :

الزواج بطريقة الخطف . ويوجد لدى الشركس والعرب ، ثم الزواج بالمبادلة ، ويجدر بنا ملاحظة أن طريقة الخطف لا تعني الخطف بالقوة . كما يجب التفريق بين طريقة الخطف التي يمارسها الشركس وبين تلك التي يمارسها العرب^(٢) .

(١) انظر الجدول البني وضعه السيد النص في الاطروحة الرئيسية ص ٢٢ .
فالعلاقة بين الامطار والزيجات مختلفة حتى فيما يخص محافظة حوران .

(٢) الزواج بطريقة الخطف لدى الشركس : لا يهتم بموضوع الزواج في هذا المجتمع الا العازبات زوجات المستقبل ، فالأهل يبقون بعيدين عن الموضوع ولكنهم في النهاية يجابهون بالامر الواقع ، والخطف في الحقيقة ليس الا رمزاً ، الغرض الاساسي منه هو

تعدد الزوجات : تنتشر ظاهرة تعدد الزوجات بكثرة بين سكان الجولان لأن الغالبية منهم مسلمون . وحول هذا الموضوع من المناسب تمييز عدد من الحالات :

- الذين يتزوجون مرة ثانية اثر وفاة زوجاتهم .
- الذين يتزوجون مرة ثانية بعد الطلاق .
- الذين يعيشون بوقت واحد مع زوجتين او ثلاثة وحتى أربعة .

التخلص من مهر مبالغ فيه والتهرب من اعتبارات اجتماعية : تعين الفتاة موعد خطفها بارادتها ، ويجب ان يتم الخطف بمعرفة شهود ، وأن يعهد بالفتاة الى وجيه أو صديق للزوج الذي لا يرى الزوجة الا بعد اتمام الزواج حسب الشرع الاسلامي . وقد كان مهر الفتاة المخطوفة غالباً جداً ، إذ يتراوح بين ٦٠ و ١٠٠ ليرة ذهبية . ومنذ خمسة اعوام اتفق الشركس على تحديد المهر وتوجيهه لجميع الطبقات بـ ٥٠٠ ليرة سورية . ومنذ هذا التحديد أصبح الخطف نسبياً من الامور النادرة .

الخطف لدى بدو الجولان : ويمارس ايضاً للتخلص من المهر الذي يساوي ٦٠ / رأساً من الخراف وهنا عكس الحالة السابقة يمكن ان تكون المرأة المخطوفة متزوجة ولها اولاد وبالأصح المرأة هي التي تهرب مع رجل آخر لانعدام الوفاق مع زوجها . وعقوبة الخطف حسب العادات المتبعة هي الموت للغارين إذا ما تمكن الزوج السابق أو اهل الزوج من القبض عليهما ويلجأ الهاربان عادة الى رئيس قبيلة اخرى يقيمان مع قبيلته عدة اغوام آمنين . وأثناء ذلك يقوم رئيس القبيلة بجمع التبرعات لدفع مهر اللاجئين عنده حيث يتجه بموكب فخم الى قبيلة المرأة المخطوفة ويدفع المهر للزوج أو لاهل المرأة إذا كانت غير متزوجة . وباتمام هذه الاجراءات ينتهي الخلاف ويزول خوف الهاربين .

الزواج بالتبادل أو (البديلة) : وهي طريقة منتشرة بكثرة بين عرب الجولان ، البدو منهم والمستقرين حيث يمكن للرجل ان يبادل على أخته أو ابنته بامرأة . ولا يخلو هذا الاجراء السهل لعملية الزواج من نتائج ضارة إذ أن وقوع عدم وفاق بين احدي الامراتين المتبادلتين وزوجها يؤدي حتماً الى طلاق الاثنتين حتى لو كانت الثانية على وفاق مع زوجها .

ان كل هذه الحالات موجودة في الجولان رغم عدم ورود ذكرها في الاحصائيات .

هذا ويفسر الدروز الآيات القرآنية حسب هواهم . ويمنعون تعدد الزوجات . والشركس كذلك لا يعرفون تعدد الزوجات الا في حالات خاصة .

أما البدو والقرويون ، والرؤساء منهم بشكل خاص ، فإنهم يكررون الزواج كلما توفرت لديهم المتطلبات اللازمة له .
الطلاق : يسمح الإسلام بالطلاق غير انه ابغض الحلال عند الله . والطلاق عملياً سهل جداً . إذ يكفي أن يردد الرجل طلاقه لزوجته أمام شاهدين ليصبح الطلاق نافذاً . مع ذلك فالطلاق لا يعرف الا بشكل محدود لدى جميع الطوائف على اختلافها .

الزواج اللحمي (أي من الأقارب) والزواج الخارجي : عملياً الزواج اللحمي معروف لدى كل الطوائف الدينية والعرقية . والاسلام يحرم فقط زواج المسلمة من غير المسلم . أما بالنسبة للرجل فالمسألة تطرح بوجه آخر ، إذ يمكنه ان يتزوج من أي امرأة الا الوثنية أو المشركة . وينصح الرسول المسلمين بالزواج البعيد من غير الأقارب حتى لا يضعف النسل . وما زالت الطوائف المسيحية والدرزية والعلوية مغلقة بإحكام امام الزواج الخارجي في حين اختلط (الاسكي تركمان) بكثرة مع العرب ، أما الشركس فقد بدأوا حديثاً بتزويج بناتهم للغرباء الاغنياء الذين لهم مكانة اجتماعية مرموقة شريطة ان يكونوا مسلمين وبالتحديد مسلمين سنة^(١) .

بـ - معدل المواليد :

تغطي الاحصاءات الرسمية المتعلقة بمعدل المواليد في قضائي القنيطرة وفيق فترة السبع سنوات الواقعة بين ١٩٤٩ - ١٩٥٥ وسنورد فيما يلي هذه الاحصاءات لتحليلها ثم نقضها

(١) طردت عائلة من قرية المنصورة لأن ابنتهم تزوجت درزياً .

قضاء القنيطرة

السنة	العدد الكلي للولادات	المعدل العام للمواليد
١٩٤٩	٤١٤	٩
١٩٥٠	٢٢٥٤	٤٢
١٩٥١	١٣٦٥	٢٤
١٩٥٢	٢٠٣٢	٣٥
١٩٥٣	١٩٦٥	٣٠
١٩٥٤	١٧٣٢	٢٥
١٩٥٥	١٥٥٤	٢٢
المتوسط	١٦١٧	٢٠,٧ في الألف

قضاء فيق

السنة	العدد الكلي للولادات	المعدل العام للمواليد
١٩٤٩	٢٠٢	١٤
١٩٥٠	١٠٨	٧
١٩٥١	١٥٨	١٠
١٩٥٢	٣٢٨	٢٠
١٩٥٣	٣١١	١٩
١٩٥٤	٥٢٦	٢٧
١٩٥٥	٤٦٧	٢٧
المتوسط	٣٢٩	١٨,٣ في الألف

١ - ان معدل المواليد لمنطقتنا ، حسب هذه الاحصاءات ، ضعيف وغير منتظم وهويتفق في ذلك مع وسطي معدل المواليد لكل سورينة وللفترة الواقعة بين ١٩٣٨ و ١٩٤٧ والذي كان ١٩ر٥ بالألف .

٢ - ان معدل المواليد الرسمي هذا في الواقع بعيد عن الحقيقة . والمعدل الحقيقي هو أعلى ولا يقل عن / ٥٠ / بالألف ، أي قريباً جداً من المعدل البيولوجي للخصوبة العامة . ويجب ان يكون معدل المواليد مرتفعاً للأسباب التالية :

- ان وسائل تحديد النسل لازالت مجهولة تماماً عند الريفيين في الجولان ، وحتى عند سكان المدن .

- لا يوجد اي قيد مانع لممارسة الوظائف الجنسية كما لدى بعض شعوب افريقية السوداء . بل على العكس من ذلك فالاسلام يرفض كل أساليب الحد من النسل ، والانجاب للاولاد هو الهدف من الزواج بالنسبة للمسلم . وعقم المرأة من الأسباب الرئيسية التي تحيز الطلاق . ويعتبر القرآن الكريم الأولاد هبة الله . « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » والمسلم يجب ألا يخشى الفقر بسبب كثرة الاولاد « نحن نرزقكم وإياهم . »

- لا يوجد عدم توازن بين نسبة الجنسين .

- يتصف سكان الجولان بنوع من الفتوة الديمغرافية ، لأن ارتفاع معدل الوفيات يذهب بالمسنين ، وبالمقابل فإن عدد المواليد المرتفع يزيد عدد الفئات الفتية التي في سن الزواج .

- رغم نقص الخدمات الصحية ، فان الحالات المرضية المجهضة لاتعرف الا نادراً وفي مناطق انتشار الملاريا فقط .

- ان أشكال الزواج من الاقرباء في الجولان والتي تكلمنا عنها سابقاً ليست ضيقة ومحصورة كحالات زواج متحدي الدم . لذلك فانها لاتلعب دوراً هاماً في معدل المواليد .

من كل ماتقدم . كيف يمكننا إذاً أن نفسر ضعف المعدل الرسمي

للمواليد ؟

١ - على الرغم من قسوة القانون ، فالإزال عدد كبير من الجولانيين يتأخر في التصريح لدى دائرة الأحوال المدنية عن الولادة ، وغالبا ، يكون التأخر حتى سن بدء التعليم .

٢ - وهكذا فإن أعدادا كبيرة من الولادات لا تدخل في الإحصاءات الخاصة بمعدل المواليد . وبصدد هذه الحالات يقول تقرير وزارة الصحة العامة مايلى بالحرف الواحد : « تعتقد مديرية الصحة العامة بشكل قاطع بأن الإحصاءات الرسمية الخاصة بالولادات ، وكذلك الوفيات ، تحتوي على نسبة كبيرة من الخطأ ، فهي لا تستطيع بأي شكل اعطاء فكرة صحيحة عن الحالة الصحية للسكان . ويعود السبب في هذا الخطأ لإهمال السكان وخاصة في الأرياف ، التصريح لدى دائرة الأحوال المدنية عن حالات الوفيات والولادات لدرجه يصل فيه الأمر ان كثير من الأطفال يولدون ويسوتون دون أن يسجلوا » .

٣ - وهنالك حالة خاصة كثيرة الوقوع تحصل عندما يتوفى طفل مسجل لدى دائرة الأحوال المدنية . فإن أهل هذا الطفل لا يصرحون بوفاته ليسجلوا مكانه الطفل الذي يولد فيها بعد إذا كان من الجنس نفسه ، ويعطونه الاسم نفسه .

والتائج الضارة هنا واضحة ، فالمولود الأخير لم يصرح عنه وبالتالي لم يمثل في الإحصائيات بالإضافة الى تاريخ الميلاد المزور الذي أصبح يعمل به . وأمام هذا التقصير الإحصائي ، اضطرت السلطات الى اللجوء الى التقدير ، فقدرت المعدل الحقيقي للمواليد في سورية عامة بـ ١٠/ بالالف^(١) . الا ان Woudersso يرفع المعدل الخاص بالأرياف الى ما بين ٤٥ - ٥٠ بالالف .

الذكورة : فيها يخص الذكورة ، ليس لدينا الا إحصائيات السنتين ١٩٥٤ و ١٩٥٥ .

(١) تقرير مديرية الصحة العامة لعام ١٩٤٤ - ١٩٤٥ ص : ٩٣ .

(٢) عبيد ص : ٩٤

قضاء القنيطرة

السنة	ولادات الاناث	ولادات الذكور	الذكورة
١٩٥٤	٨٢٨	٩٠٤	١٠٩
١٩٥٥	٦٨٠	٨٧٤	١٢٨

قضاء فيق

السنة	ولادات الاناث	ولادات الذكور	الذكورة
١٩٥٤	٢٢٤	٢٨٢	١١٥
١٩٥٥	٢١٩	٢٨٤	١٢٩

ان هذه الاحصاءات التي لا تغطي الا عامين يمكن ان تعطينا في الواقع فكرة واضحة عن الذكورة . وهي لا تتفق مع معدلات الذكورة التي يعطيها عزت النص للقضائين نفسها ، ١٥٥ بالمئة في قضاء القنيطرة ، و٩٠ للمئة في قضاء فيق . فالمعدل الاول أعلى بكثير من معدلنا ، والثاني ادنى بكثير من الذي وجدناه .

- وانه لمن المفيد مقارنة احصائيات الذكورة مع احصائيات التركيب الجنسي للسكان للفترة نفسها

قضاء القنيطرة

السنة	مجموع السكان	ذكور	اناث
١٩٥٤	٦٦٣٢٣	٣١٩٠٤	٣٤٤١٩
١٩٥٥	٦٩٥٧٢	٣٣٧٧٣	٣٥٧٩٩

نضاء فيق

السنة	مجموع السكان	ذكور	اناث
١٩٥٤	١٦٨٤٦	٨٩٤٩	٧٨٩٧
١٩٥٥	١٧٢٩١	٩١٨٤	٨١٠٧

إذن رغم معدل الذكورة المرتفع في منطقة القنيطرة فالاناث يتغلبون على الذكور . اما في فيق فيوجد توافق بين الذكورة والتركيب الجنسي .
 - « ان معدلات الذكورة لاتتجاوز ابدأ الوسطي / ١٠٥ / بكثير »^(١)
 لذلك فان المعدلات التي حصلنا عليها في جولاننا مرتفعة بشكل غير طبيعي . وهذا يفسر بان ولادات الصبية تسجل بشكل مضبوط ولايهسل منها شيء كما يحل بالنسبة لولادات البنات ، ففي كل الشرق الاوسط العربي ، وبشكل خاص في الجولان ، لازال مولد البنت يستقبل بالسخط .
 التباين في معدلات المواليد : هل يمكن الكلام عن تباين معدل المواليد حسب اختلاف الانتماء الديني والعرقي . ؟

لقد أعطى بعض المؤلفين معدلات خاصة للطوائف . ونحن من جهتنا لا نعتقد بوجود خصوصية حيوية متباينة بين الفئات البشرية المختلفة للجولان حيث يعيش الكل في ظل ظروف اجتماعية واقتصادية واحدة تقريباً .
 لقد لوحظ بان معدل المواليد لدى الطائفة المسيحية في القنيطرة ضعيف نسبياً ، وهذا يفسر بوضهم الاجتماعي الذي يسمح لهم بممارسة تحديد النسل ولكن بالمقابل فان وفيات الاطفال ضعيفة نسبياً ، وبالتالي فإن معدل النمو لديهم لا يختلف بشكل محسوس عن المعدل العام للمنطقة .
 حركة المواليد الفصلية (زيادة ونقصان المواليد الفصلية) : ينعكس عدم التساوي في توزيع الزيجات على أشهر السنة بتواتر فصلي للولادات .
 فعلى الرغم من النقص المطلق للاحصاءات ، فإننا نعتقد بأن التواتر الفصلي للزيجات وكذلك للولادات هو إجمالاً متماثل في الواقع فإن الزيجات التي

(١) A.Sauvy السكان - سلسلة ماذا اعرف رقم ١٤٨ ص : ٧٧

تعقد لدى الغالبية في نهاية الصيف ، تكون ولاداتها الاولى في بداية الصيف حيث تسجل اعلى نسبة للولادات ويستاء العامة من الولادات التي تتم في الشتاء . والمثل العام الذي يتناقلونه يعبر عن ذلك « ان التي تتوحم في الصيف ، وتضع في الشتاء هي أسوأ النساء » .

شرعية الولادات : الولادات غير الشرعية تكاد لاتعرف في الجولان . والولد غير الشرعي ليس له الحق في الحياة في هذا المجتمع ذوالعقلية الخاصة . فولادة امرأة غير متزوجة تكفي لتبرير قتلها .

ج - الوفيات

المعدل الرسمي للوفيات : ليست الاحصاءات الرسمية الخاصة بالوفيات اكثر دقة من تلك التي تخص معدل المواليد . مع ذلك فإننا سنعتبرها كنقطة انطلاق :

السنة	قضاء القنيطرة		قضاء فيق	
	العدد المطلق للوفيات	معدل الوفيات	العدد المطلق للوفيات	معدل الوفيات
١٩٥٣	٤٤٣	٦٩ في الالف	٥١	٥٠ في الالف
١٩٥٤	٤٢٤	٦٣	١٣٨	٨٣
١٩٥٥	٣٣٤	٤٨	١١٧	٦٣

يبدو المعدل الرسمي للوفيات في الجدول السابق ، بعيداً جداً عن المعدل الحقيقي ، وفي الواقع فإن الادارة الرئيسية للصحة العامة ترى بان معدل الوفيات يجب ان يكون على الاقل / ٢٥ / بالالف بالنسبة لعموم سورية . وبما ان جولاننا هو من المناطق المهملة في سورية من الناحية الصحية ، فإننا نستطيع قبول المعدل ٢٥ بالالف بدون اي تحفظ وهذا يسمح لنا بتصنيف منطقتنا بين البلاد التي لم تفعل اي شيء حتى الآن من أجل الكفاح ضد الموت . هذا وان الفرق الكبير بين معدلي الوفيات الرسمي والحقيقي يفسر بالأمور التالية :

- ان نسبة كبيرة من وفيات الاطفال لاتدخل في هذه الاحصائيات . خاصة المواليد الميتة والوفيات التي تحصل مباشرة بعد الولادة .

- ان عددا من وفيات البالغين لا يبلغ عنها لان اصحابها غير مسجلين في سجل الاحوال المدنية .

- ولكن بشكل عام ، يبدو تكتم عن الوفاة ، فالقروى يرى ان الموت امر سهاوي وينيب على الدولة ان لا تتدخل فيه .

وفيات الاطفال : لوفيات الاطفال في منطقتنا اهمية خاصة فالاطفال يدفعون بسوتهم ضريبة ثقيلة بسبب نتائج هذه الوفيات على تطور مجموع السكان ولا تميز الاحصائيات السورية إلا نادرا بين المعدل العام للوفيات وبين المعدل العام لوفيات الاطفال : الأرقام الوحيدة التي لدينا عن عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ولعموم سورية ، تعطي فكرة عامة عن معدل وفيات الاطفال في سورية وبالتالي في الجولان :

السنة	السنة الاولى للولادة	السنة الثانية للولادة	المجموع
١٩٤٤	١٥١ في الالف	٢٤٢٤	٣٩٣٤ في الالف
١٩٤٥	١٢١ في الالف	١٨٩	٣٣٧

ان هذه المجزرة للاطفال نفسر بعده اسباب :

- ١ - الغذاء هو دوما غير كاف . وحليب الام الغذاء الوحيد ، يصبح غير كافيا عندما يتقدم الطفل في السن .
- ٢ - تجهل الام كليا المعلومات الصحية ، حتى الاساسي فيها .
- ٣ - يخضع الاطفال ، وحياتهم غالبا سيئة ، لنتائج التغيرات الحادة للطقس وبما ان مقاومتهم لها اقل من معاومه الكبار ينتشر مرض اسهال الاطفال بكثرة عندما يشتد الحر ، ومرض التهاب القصبات والرئة عندما يشتد البرد .
- ٤ - لازال نوع من القدرية يسود في ريفنا « يمكن للطبيب ان يتخلص من المرض ولكن لا يستطيع القيام بذلك مع الموت . » .
- ٥ - ندرة المراكز الصحية ، ففي كل المنطقة لا يوجد سوى مركزين : واحد في القنيطرة والاخر في فيق .

اسباب وفيات البالغين : من الصعب معرفة مسببات الوفيات في جولاننا للأسباب التالية .

- نجهل بشكل تام توزع الوفيات حسب السن ، وبالتالي تأثير السن على معدلات الوفيات .

- يموت المرضى غالباً ويدفنون دون استشارة الطبيب فيبقى بذلك سبب الوفاة على الغالب مجهولاً .

- غالباً ما يساء تحديد المسبب للوفاة إما بالإهمال في حالة الشيخوخة ، أو خوفاً من ترك خبر طبيعة المرض الحقيقي ينتشر عندما يكون المرض سل أو سرطان . غير ان السبب الحقيقي للوفيات يكمن في الشروط المادية السيئة للحياة في كل الجولان .

(١) سوء تغذية مزمن : فالغذاء اليومي في الواقع ناقص كمياً ونوعاً والتبديل في نوع الغذاء يتم على مستوى الفصول .

- في الشتاء وهو الفصل السيء يكتفي السكان بقليل من الغذاء .

- في بداية الربيع يأكلون كميات كبيرة من الاعشاب التي تنبت تلقائياً كالخبازة والبقلة المائية وحب الرشاد مع الألبان .

- أما الصيف فإنه الفصل الجميل الذي يأكلون فيه انواعاً من الخضار والثمار خاصة العنب والبطيخ الاحمر والتين ، مع كميات قليلة من اللحم . وهكذا يمر هذا الاسلوب الغذائي من فترة نقص غذائي الى اخرى ، لان المواد الغذائية لاتتكامل في آن واحدا . وبالنتيجة يصبح النقص في الغذاء مزمناً ويضعف الجسم ويتعرض للأمراض المختلفة .

(٢) نقص الحماية ضد الوسط الخارجي : فالمسكن غالباً غير صحي ، مفتوح للقوارض والزواحف والذباب والبعوض ولكل الحشرات المسببة للأمراض .

(٣) والملابس هي غالباً غير كافية لحماية الجسم من متقلبات الطقس . وكثير من البدو والفلاحين وخاصة النساء والاطفال ، لازلوا يسيرون حفاة الاقدام حتى في الشتاء .
ومع ذلك فلولوفيات اسباب مباشرة وظاهرة .

- امراض مختلفة : كالزحار والبرداء والسل والسرطان . . الخ .
- حوادث مختلفة .
- عدد كبير من النساء يمتن اثناء الولادة . حيث لا يوجد اي دار للتوليد في كل المنطقة والنتيجة لكل هذه البيئات والموجبات هي قصر العمر المتوسط .
- ارتفاع معدل وفيات الرجال : جسم المرأة اضعف من جسم الرجل خاصة بعد ان تكون انجبت عدة مرات . وتظهر قوائم الاشخاص الذين راجعوا المركز الصحي العام في القنيطرة للعلاج ان عدد النساء كان اكثر من عدد الرجال ، وأن الأمراض التي تصيبهن كانت اكثر اختلافاً ، ومع ذلك تُكشف الاحصائيات الرسمية ارتفاعاً في نسبة وفيات الرجال ؛

السنة	الوفيات في قضاء القنيطرة		الوفيات في قضاء فن	
	ذكور	اناث	ذكور	اناث
١٩٥٤	٢٢٤	١٦٠	٨٢	٥٦
١٩٥٥	٢١١	١٢٣	٦٥	٥٢

٤- تنقلات السكان :

الى تغيرات الاحوال المدنية ، يجب ان تضاف حركات السكان بمعناها الحقيقي والتي تشكل بحركتها سمة دائمة . وهذه الحركات ذات سمات مختلفة ولها اسباب متعددة . ويمكن ان تتم داخل الجولان فقط وسندرسها تحت عنوان (الهجرات الداخلية) او ان تتم من الجولان نحو الخارج وبالعكس (الهجرات الخارجية) ولم تهتم الاحصائيات السورية بأي موضوع من مواضيع تنقلات السكان .

الهجرات الداخلية : ويمكن ان نميز بين عدة اشكال للهجرات الداخلية حسب توزيعها الزمني . وهي غالباً مؤقتة ودورية . وهناك هجرة داخلية واحدة

نهائية وتتم في اي وقت ، وهي النزوح الريفي نحو مدينتي القنيطرة وفيق^(١) فكل انسان ميسور الحال يأتي ليسكن في المدينة .
الهجرة الخارجية من الجولان : اخذت الهجرة الخارجية من الجولان الى البلاد الاجنبية تضعف شيئاً فشيئاً ، وبالمقابل فان المدن السورية ، خاصة دمشق ، اخذت منذ عدة سنوات تجتذب اليها المهاجرين من الجولان . وخلال الاحتلال العثماني وحتى عام ١٩٢٠ هاجرت أعداد من الدروز والعلاويين والمسيحيين الى امريكا الجنوبية وخاصة الى الارجننتين والبرازيل ، والولايات المتحدة وكندا ايضاً .

وكانت اسباب هذه الهجرات متعددة أهمها :

- ١ - فقر أراضي هذه القرى الجاثمة فوق السفوح الجنوبية والجنوبية الشرقية لجبل الحرمون .
- ٢ - هرب الدروز والمسيحيين من أداء الخدمة العسكرية ومن معاملة الباب العالي السيئة لهم .
- ٣ - عامل نفسي مصدره الاعتقاد بأن امريكا هي بلد ثروات وكل من يصل إليها يصبح غنياً . وقد عزز النجاح الذي كان قد حققه المهاجرون الأوائل هذا الاعتقاد .

هذا وان بعض المهاجرين لا زالوا يعتبرون رعايا سوريين وأساقفهم لازالت مسجلة في سجلات الاحوال المدنية ، لذا فان احصاء جديد كشف عن تفاوت كبير بين العدد الحقيقي لسكان بعض القرى وبين ما هو في سجل الاحوال المدنية .

(١) فقدت فيق قسماً كبيراً من سكانها . فمنذ تاريخ غير محدد ولأسباب غير معروفة ترك بعض سكان هذه المدينة بلدتهم واستقروا في كل من قريتي العال وحيثل وهذه العودة الى الأرض جرت قبل ٦٠ عاماً تقريباً .

القرية	العدد الحالي للسكان	عدد المسجلين
جباتا الزيت	١٤٠٠	٢٥٩٥
مجدل شمس	٣٦٠٠	٤٠٠٤
بقعاتا	١٤٠٠	١٧٤٣
عين قنية	٧٠٠	١١٧١
زعورة	١٥٠٠	١٨١٦
عين فيت	١٨٠٠	٢٠٤١
بانياس	٨٠٠	١١١٠

ليس كل هؤلاء الـ /٣٢٨٢/ شخصاً الغائبين عن قراهم من المهاجرين . فبعضهم طلاب يتابعون دراستهم الثانوية والعالية في القنيطرة أو في دمشق والآخرون موظفون أو عمال يقيمون مؤقتاً خارج قراهم . كما ترك بعض الشركس قراهم واستقروا في دمشق في اكواخ خشبية بنوها شمال شرق حي الاكراد .

وقبل عام ١٩٤٨ كان عدد من الجولانيين يذهب للعمل في فلسطين اثناء فصل العطالة وفي السنوات السيئة المحصول إلا ان هؤلاء العمال كانوا يعودون الى الجولان بعد كسب المال .

وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان العديد من الشبان يذهبون الى شرق الاردن للانخراط باختيارهم في القوات الانكليزية .^(١)

الهجرة الخارجية الى الجولان : في معرض الكلام عن الفئات العرقية والدينية لسكان الجولان ، كنا قد درسنا الهجرات القديمة الى الجولان . اما حالياً فالتوافد نحو الجولان اصبح ضعيفاً . والقنيطرة فقط أصبحت تجتذب اليها بعض الحرفيين من دمشق ومن المدن السورية الاخرى . ويجب أن نضيف الى ذلك عدداً كبيراً من اللاجئين الفلسطينيين موزعين في كل انحاء

(١) خاصة في قوات الحدود الأردنية .

المنطقة ويجب ان اشير الى أن عدداً كبيراً من أسر العسكريين تقيم مؤقتاً في القنيطرة وفيق .

٥ - الحالة التعليمية للسكان : تشير مرحلة استقلال سورية إلى نقطة تحول في التعليم العام خاصة في الريف . فمنذ عام ١٩٤٨ توالى افتتاح المدارس في الجولان بتواتر متزايد بحيث لم يأت عام ١٩٥٧ الا وكان عدد المدارس التي افتتحت في مجموعة الـ /١٥٤/ تجمعاً قروياً في منطقتنا حوالى / ١١٠ / مدارس . اي ان ٧١٪ من القرى أصبح لها مدارسها الخاصة في حين استمرت القرى النامية على ارسال أبنائها الى القرى المجاورة . ويختلف توزيع المدارس على القرى حسب درجة الاستقرار من جهة وحسب نظام الملكية العقارية من جهة اخرى .

- ٨٢٪ من قرى قضاء القنيطرة لها مدارسها والقرى الباقية محرومة من المدارس لانها قرى صغيرة يعيش فيها البدو وأنصاف المستقرين والمستقرين غير القادرين على بناء المدارس بوسائلهم الخاصة .

- ٦٥٪ من قرى قضاء فيق لها مدارسها . ويفسر ضعف نسبة المدارس هنا بتأثير نظام ملكية الاراضي إذ تسود الملكيات الكبيرة ، والقرى التي يسكنها المزارعون المأجورون فقط عددها كبير وكلها محرومة من المدارس ، لأن سكانها غير قادرين على تحمل كلفة بناء المدارس .

الجدول التالي يبين توزيع المدارس والتلاميذ في الجولان

القضاء	المدارس	المعلمون والمعلمات	الطلاب والطالبات
فيق	٢٤	٦١	٢٥٣٢
القنيطرة	٧٢	١٠٧	٥٩٤٢
الخرمون	١٤	١٦	١٣٤٥
المجموع	١١٠	١٨٤	٩٨١٩

ومدارس الجولان ، باستثناء الثانويات ، اغلبها مختلطة ، بقصد
التوفير ، مع ذلك فالقرى الكبيرة والغنية تفضل الفصل بين الجنسين وتبني
لكل منهما مدارس الخاصة . والثانويات لا توجد الا في مدن المنطقة .
- ففي القنيطرة توجد ثانوية رسمية للذكور وأخرى للاناث ، ويبلغ مجموع
طلاب وطالبات المرحلة الثانوية في القنيطرة /٧٠٠/ طالب وطالبة .
- وفي فيق توجد ثانوية رسمية ، واخرى خاصة بالصبيبة فقط ، ومجموع
الطلاب فيها حوالي ٣٠٠ طالب وطالبة .
والتعليم الابتدائي الرسمي ، هو وسيلة فعالة لتقليل عدد الاميين .
ولكي يستطيع الأهل إدخال أبنائهم الى المدارس الرسمية ، يتوجب عليهم
قبل ذلك تسجيلهم في سجلات الأحوال المدنية .
وأخيراً تجب الإشارة الى ان طلاب الجولان يشكلون ١٠٪ من مجموع
السكان . وهذه النسبة مرتفعة إذا قارناها بنسب الأعوام السابقة والتي كانت
في عام ١٩٤٢ - ١٩٤٣ في الواقع لا تزيد عن ٣٫٨٪ في أي بقعة من سورية .

٦- الحالة الصحية للسكان والأمراض المنتشرة : في جولاننا حيث لم يتمكن
الانسان الا بمقدار ضعيف ، جلب وسائل ملعطة من الاثار الضارة للبيئة
الطبيعية ، وبشكل خاص المناخ ، فان نتائج هذه الاثار تظهر واضحة على
جسم الانسان هكذا نستطيع ان نتكلم عن امراض معروفة في هذه المنطقة منذ
زمن بعيد سببها المناخ مثل البرداء والتهاب الرئة والرمم والثر اخوما . كما يوجد
أيضا من الامراض ما هو متعلق بالوضع الاجتماعي للفلاحين وبشكل خاص
بقلة النظافة ، فالذباب والبعوض والقمل ، والحشرات الناقلة للأمراض كثيرة
الانتشار وإن أمراضا مختلفة تفتك بعدد كبير من السكان القرويين ، الفقراء
والجاهلين في ان واحد . وأمام هذا الوضع المؤسف ، الخدمة الطبية عاجزة
جدا وتقتصر على القنيطرة وفيق ويتوجب على كل سكان المنطقة القدوم الى
هذين المركزين للعلاج رغم أنه لا يوجد فيهما حتى ولا سرير واحد لاستقبال
مريض شغلر قادم من قرية بعيدة . إن بناء مستشفى في القنيطرة واخر في فيق
قد تقرر منذ عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ . الا أنه حتى الان لم يتم بناء أي منهما .

وبالاضافة الى الطبيين المكلفين رسمياً بمعالجة المرضى الذين يأتون الى المركز الصحي في كل من القنيطرة وفيق مجاناً ، يوجد فقط حوالي عشرة أطباء مقيمين بدورهم في المدينتين .

والقرى بعيدة عن المراكز الطبية ، ومحرومة من الطرق ووسائل النقل لذلك فان المرضى يموتون غالباً ، دون التمكن من ايصالهم الى الطبيب .

مع ذلك تشير احصائيات المركزين الطبيين في الجولان الى ان المرضى يتهافتون على هذين المركزين . والجدول التالي يسمح من التأكد بأن عدد المرضى المعالجين في قضاء القنيطرة قد تضاعف في عام ١٩٤٥ وزاد ثلاث مرات في عام ١٩٤٦ عما كان عليه في عام ١٩٤٤ . وتفسر هذه الزيادة بتكوين خدمة طبية متنقلة اعتباراً من عام ١٩٤٥ تتجول في القرى التي يمكن ان تصل اليها السيارة .

المرض والأمراض في الجولان

	١٩٤٤			١٩٤٥			١٩٤٦		
	القطرة	فريق	المجموع	القطرة	فريق	المجموع	القطرة	فريق	المجموع
بنتيماسا صحران	١٢٢٠	٤٢٧	١٦٤٧	٣٠٨٦	٧١٤	٣٨٠٠	٢١٤٨	١٩٩٢	٤١٤٠
بنتيماسا صحران	٢٦٨	١٩٣	٤٦١	٣٩٣	٢٢٩	٦٢٢	١٠٩٧	٢٨٠	١٣٧٧
بنتيماسا صحران	٣٤٩	٣٠٠	٦٤٩	٥٦٦	٣٥٥	٩٢١	٥١٣	٤٧٥	٩٨٨
بنتيماسا صحران	١٥١	٥٠	٢٠١	٣٣٧	٥٩	٣٩٦	٢٥٠	١٩٨	٤٤٨
بنتيماسا صحران	٥٤	٨٨١	٨٨١	١١٦	١٦١	٢٧٧	١١١	١٥٣	٢٦٨
بنتيماسا صحران	٨٩٣	٢١١	١١٠٤	٢٢٧	٢٧٣	٥٠٠	٨٣٦	٣٢٩	١١٦٥
بنتيماسا صحران	٣١٤	٢١١	٥٢٥	٤٣٦	٢٣١	٦٦٧	٤٧٥	٣٨٣	٨٦٥
بنتيماسا صحران	—	٤٣	٤٣	—	٨٥	٨٥	٥	١٠	٩٥
بنتيماسا صحران	٢٧٨٩	٨٨١	٣٦٧٠	١٣٤١	١٣٤١	٢٦٨٢	١٠١٠٦	٣١٣٢٧	٢٦٨٢٣
بنتيماسا صحران	—	١٦	١٦	١٣	١٣	٢٦	—	—	٢٦
بنتيماسا صحران	١٧	—	١٧	٢٣	—	٢٣	—	—	٢٣
بنتيماسا صحران	—	—	—	٣٦٢	—	٣٦٢	—	—	٣٦٢
بنتيماسا صحران	٦٠٤٦	٣٢١٧	٣٨٢١	١٣٢٧٥	٣٢١٦	١٦٤٩١	١٥٢٧٠	٥٢١٠	٢٠٤٨٠

ان بعض الامراض التي يمثلها الجدول سببها تقلبات المناخ الفصلية . وهي تصور بالمناسبة ، نهايات فصلية قصوى ، فالتهابات الجهاز التنفسي تنتشر بشكل اساسي في الشتاء ، أما البرداء والأمراض العينية فتنتشر في الفصل الجاف ، في حين تنتشر الأمراض الجلدية في الفصل الحار والرطب أي في فصل الربيع والخريف .

وفي الواقع ، ان الاحصاءات الخاصة بالتهابات الرئة تشير الى وجود شتاء مؤثر على^(١) حيوية الجسم يمتد من ١٥ تشرين ثاني الى ١٥ شباط . فاصابات ذات الرئة في قضاء القنيطرة تتوزع على اشهر السنة الجدول التالي :

ش	ا	ن	أ	ح	ت	ا	أ	ت	٢	ك
١٩٤٧	٧٦	٩٣	٥٣	٤٦	٣٥	٣٢	٤٤	٤٥	٤٥	٩٤
١٩٤٨	١٢٣	٧٦	٤٥	٥٧	٢٨	٨٢	٤٥	٦٦	١٥١	٩٣

فهذه الالتهابات تنتشر اثناء الفصل البارد والرطب وتبين مصادر الاحصاءات نفسها^(٢) بأن ظهور الامراض التي تنقلها الحشرات في الجولان مرتبط بالدورة الحياتية لهذه الحشرات ، ويخضع للتأثير الفصلي . فحشرات بعوضة الملاريا والذباب المسببة والناقلة للبرداء تنشر الحمى أثناء الفصل الحار بشكل خاص .

والجدول التالي يبين توزيع الاصابات بالبرداء على أشهر سنة ١٩٤٨

ش	ا	ن	أ	ح	ت	ا	أ	ت	٢	ك
٨٥	٥٧	٤٠	٣٩	٦٤	٦٥	٥٨	٧٨٤	١١٤	٢٨٤	٣٦٢

(١) انظر الى Dr. E. Dulrot المناخات والجسم الانساني . مجموعة ماذا اعرف ١٩٤٥

رقم ١٧١ ص : ٤٢ .

(٢) احصاءات وزارة الصحة العامة .

من الواضح ان الزيادة في الاصابات أثناء الصيف وبداية الخريف ليست إلا نتيجة لحالة الجو . وكذلك فإن كثيراً من الامراض الالتهابية تخضع أيضاً للنظام الفصلي بسبب تكاثر واشتداد وطأة المكروبات في الطقس الحار ، فالالتهابات المعوية تظهر في بداية الصيف . تزداد مع الحر الشديد ، وتختفي في الشتاء . والخريف على ما يبدو هو اكثر الفصول ملاءمة لانتشار الامراض لأنه حار ورطب نسبياً الامر الذي يساعد على تكاثر الحشرات الناقلة وازدياد الطفيليات والميكروبات .

وان توزع الأمراض الجلدية على اشهر السنة يظهر ان الحد الاقصى يتركز بشكل خاص في شهري آب وأيلول .

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٥	٨٦	٨٧	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠
---	---	---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

ويسبب ضباب الخريف الصباحي ، الكثير الانتشار في الجولان اضراراً . فهو يوجب أشعة الشمس ويسبب البرد ، وبالتالي أزمات لبعض حالات الربو ، فينصح المرضى غالباً بترك الجولان ولومؤقتاً على الأقل . وإن التأثير المرضي للرياح ليس أقل وضوحاً فهو يؤثر في فعالية الجسم البشري وتبرده . والعنصر الهام في هذا المجال هو السرعة لهذه الرياح .

فالرياح البحرية الرطبة والمعدلة للطقس والتي تهب على الجولان تأتي من جهات الغرب والشمال الغربي والجنوب الغربي . وهي بشكل عام صالحة ومفيدة ولكنها عندما تنشط التبخر الجلدي ثم تصبح بالتالي مهيجة جداً للجلد . وعلى العكس من ذلك فإن الرياح القارية الشديدة والجافة ، حارة كانت أو باردة ، هي دوماً مؤذية للمرضى ، لأنها تهيج قصبات الرئة وتسبب السعال وتعيق عملية التقشع .

وفي الواقع فإن رياح الشرق والشمال الشرقي والجنوب الشرقي هي دوماً جافة وتسبب أيضاً في الجولان ، تحفيفاً عاماً ، وتنشيفاً للجهاز الجلدي معطياً

للجلد مظهر جلد قديم جاف . ويستخدم السكان بكثرة دهوناً وأدوية لتخفيف ألم تشقق أوجهم وأيديهم ومنذ نهاية آب وخاصة في أيلول ، تصبح اختلافات الحرارة حادة وعنيفة ، ويصبح الهواء متقلباً وغير منتظم ، ويعصف بشكل إعصار ويشير كثيراً من الغبار من الأراضي التي تكون قد جفت كثيراً وتعرت من غطائها النباتي ، ولهذا الغبار العاصفي تأثير سيء ، على عيون السكان في الجولان .

ك	ش	ا	ن	أ	ح	ت	ا	ا	ت	٢	ك	
١٩٤٦	٩٤	٣٩	٥٥	٩٨	٣٨	١٣٠	٢٤١	١٢٢	٤٤٧	٢٨٢	١٠٣	٨٣
١٩٤٧	٩٥	٧٨	٩٢	٨٣	٤٢	٣٤١	٢٣٥	٤٢٥	٣٧٧	٢٦٢	١٧٦	٩٥
١٩٤٨	١١٢	٧٥	٦٢	٩٣	١٣٣	٧٨	٧١	٢٤٧	٦٥٥	٢٥٥	٢٨٩	١٥٢
١٩٤٩	١١٣	٤٤	٩٧	٨٤	١٨٦	١٧١	١٥٨	٥٣٣	٧٢٤	٥٠٧	٤٤٢	٢٠٤

وان توزع اصابات الالتهابات العينية على أشهر السنة يوضح تأثير الغبار الذي تحركه الرياح والتهاب العين لا ينقطع طيلة السنة ، لأن السكان يبقون دوماً دون حماية من الشمس والغبار . وقلائل هم الذين يوقفون أعمالهم ليذهبوا الى القنيطرة أوفيق لمعالجة عيونهم . ويكتفى غالباً باستعمال القطرات . والرمد الذي يصبح مزماً يسبب التراخوما التي يعاني منها ٨٠٪ من السكان .

وتجدر الإشارة الى ان شهر أيلول يتسم بنسبة مرضية عالية اكثر من بقية أشهر السنة . والجدول التالي يبين توزيع عدد الامراض المختلفة التي عولجت في مركز القنيطرة الوحيد على أشهر سنة ١٩٤٨ .

ك	ش	ا	ن	أ	ح	ت	ا	ا	ت	٢	ك	
رجال	١٥٥	١١٣	٩٦	٩٨	١٤٢	١٤٢	١٤١	٢٥٣	٥٩٣	٢١٨	٤٣٩	٢١٧
نساء	١٨٣	١٧٢	١٣٠	١٣٢	٢١٦	١٧١	١٣٥	٦٢١	٦٩٤	٤٣٢	٤٩٨	٢٤٨
اطفال	١٢٧	٨٧	٧١	١١٧	١٦٥	٩٨	٨٣	٤٧٢	٧٦٨	٢٩٦	٣٩٨	٢٤٨
المجموع	٤٦٥	٣٦٣	٢٢٦	٣٤٧	٥٢٣	٣٩٣	٣٩٥	٣٤٦	٣٢٥	٩٤٦	١٢٨٦	٧٧٩

فمن مجموع الحالات المرضية التي سجلت في هذا المركز الطبي في عام ١٩٤٨ والتي بلغت ٩٣٦٤ حالة ، كانت حصة شهر أيلول ٢٣٢٥ حالة أي أكثر من ٢٤٪ من مجموع الحالات .

وتجدر الإشارة ايضاً إلى ان مرض السفلس لم يكن معروفاً في قضاء القنيطرة حتى عام ١٩٤٦ ، إلا انه اعتباراً من عام ١٩٤٨ أصبح هذا المرض شيئاً فشيئاً منتشراً بسبب اللاجئين الفلسطينيين المنشترين في هذه المنطقة ، ولكن أيضاً بسبب الجنود الذين جاؤوا من كل أنحاء سورية ، وهكذا فقد سجلت / ٥ / حالات سفلس في عام ١٩٤٧ و / ٨ / حالات عام ١٩٤٨ وقد ارتفع هذا الرقم الى ١٩٤ حالة في ١٩٤٩ وفي النصف الاول من عام ١٩٥٠ سجل مركز القنيطرة ٨٨ حالة سفلس .

القسم الثالث

أشكال الفعاليات الريفية في الجولان

الفصل الأول

الزمر الاقتصادية والاجتماعية التقليدية

إذا كان سكان الجولان يتميزون بصفاتهم العرقية وبنحلهم الدينية ، وإقرار ذلك ليس بالأمر السهل ، فأنهم يتميزون أيضاً ، وبشكل أكثر وضوحاً ، بأنماط حياتهم . ويستطيع أي انسان أن يلاحظ ، مباشرة وفي كل أنحاء الجولان ، التباين بين ثلاثة زمريشورية تختلف كل واحدة منها عن الأخرى اجتماعياً واقتصادياً . وهي الزمر التقليدية المعروفة في كل منطقة الشرق الاوسط العربية : البدو أو الرحل ، الفلاحون أو القرويون ، ثم الحضرة أو سكان المدن .

إلا انه بالإضافة الى هذه الزمر المتباينة بوضوح ، توجد اشكال لزمر متوسطة تتصف بالهشاشة وبسرعة التحول من زمرة الى أخرى . وأنصاف البدو الرحل ثم انصاف المستقرين أو (الفلاحي)^(١) هم أهم هذه الزمر المتحولة .

وان العلاقات بين الفئات الاجتماعية المختلفة ذات طابع خاص ومعقد جداً ، تنظمها غالباً عادات عريقة نابعة من اصول بدوية تسمى بالعرف الذي له ما لحكم القاطنون في المدينة .

والريفيون والبدو الذين لهم علاقات مباشرة مع تجار القنيطرة قليلو الثقة بالقانون لتنظيم أعمالهم ، ويفضلون دوماً تنظيمها وفق ما تقضي به العادات (حسب العرف) ، حتى ولو كانت النتائج غير مشجعة وملائمة من حيث شروطها . وهم يقولون « نحن نفهم جيداً عاداتنا الخاصة ، في حين قد يعرضنا الاحتكام الى القانون إلى خطر التضليل والانخداع »^(٢) .

(١) الاسم الذي يطلقه الفلاحون باحتقار على أنصاف المستقرين .

(٢) يسمى المحامي من قبل البدو بالكذاب .

١ - القبائل البدوية (العشائر) :

تعني كلمة عشائر (عشيرة) في الجولان ، وبمدلول المفردات الادارية الدارجة ، القبائل البدوية ، وأنصاف البدو ، وأنصاف المستقرين . ذلك لان روابط مواطنة خاصة ، وروح تضامن ، وأواصر قرى ، تربطهم ببعضهم ، كما تربط الجميع برئيس القبيلة . والبدو الذين يشكلون مجتمعاً قائماً بذاته من حيث طراز الحياة . تظل الحاجات والعادات تربطهم بشكل متين إلى الفلاحين ، والصلة المباشرة بهم مستمرة .

وفيما يلي سنحاول دراسة البدو ، وأنصاف البدو ، ثم أنصاف المستقرين كل فئة منهم بدورها .

بدو الجولان : ان الصعوبة الأساسية لكل دراسة عامة للعشائر وللبدو

بشئ خاص هي عدم كفاية الإحصاءات

- الغالبية منهم غير مسجلة في سجل الاحوال المدنية .

- السجل الوحيد المتوفر^(١) ، وهو لقبيلة الفصل ، غير دقيق وفيه أخطاء كبيرة لانه وضع لأغراض انتخابية^(٢) ولم يوضع لغرض احصائي . لذلك كانت المبالغة المتعمدة فيه للعدد مؤسفة ، كما ان تواريخ الولادات لم تكن صحيحة ، فقد زيدت الاعمار ليتاح للأفراد ممارسة حق الانتخاب .

- الوفيات لا يعلن عنها ليستطيع أي شخص المرور بصندوق الاقتراع عوضاً عن الشخص الغائب أو المتوفى الذي لم يشطب اسمه من الدفتر .

- أسماء كثير من الأفراد الذين يعيشون خارج الجولان كانت مثبتة على الدفتر نفسه ، وفي يوم الاقتراع كان الأمير يأتي بهم بسيارته إلى مكان صندوق الاقتراع .

لهذا كله فاحصاءاتنا ، مهما كانت مصادرها رسمية ، ليس لها إلا قيمة

تقريبية .

(١) ويعرف في الجولان باسم دفتر العشائر وهو محفوظ لدى رئيس القبيلة .

(٢) لضمان انتخاب الأمير فاعور في الانتخابات التي جرت في ظل السلطة الفرنسية المتتدبة السابقة .

العشائر الرئيسية في الجولان اربعة : الفضل ، النعيم ، الويسية ، الرفاعية . وتقيم كل قبيلة عادة فوق منطقة محدودة . إلا ان هذا لا يمنع ، في أي حال من الاحوال ، الاسر من الانتقال إلى خارج حدود ارض العشيرة .
عشيرة الفضل : وتعد ٣٠٠٠٠ فرداً ينتشرون غالباً غرب القنيطرة ، بينها وبين بحيرة الحولة . ومركزهم الرئيسي هو « واسط » .

عشيرة النعيم : وتعد حوالي ٢٥٠٠٠ فرداً ينتشرون عادةً في الاطراف الشرقية من الجولان و Himute الواقعة في الجزء الشرقي من الجولان هي مقر رئيسهم الكبير . إلا ان Kodnle (النعيمية) التي تقيم فيها عائلة الشيخ وابناء عمومته هي التي تشكل المركز الفعلي لهذه القبيلة . وليس لقبيلة النعيم الموجودة في حمص اية علاقة مباشرة مع قبيلة النعيم الموجودة في الجولان .

عشيرة الويسية : وتعد ٣٠٠٠ فرداً يقيمون قرب الحدود الاسرائيلية السورية^(١) في منطقة سنابر . وفي الانتخابات ، كانوا يرغمون على التصويت مع عشيرة الفضل ، رغم رفضهم لهذا الاحاق التعسفي .

عشيرة الرفاعية : وتعد حوالي ١٢٠٠ فرداً ، وهم في الاصل من فلسطين . ويعيشون في ضواحي الخشنية . ومرة أخرى نذكر بأن الاحصاءات السابقة لا تشمل البدو الحقيقيين فقط ، أنها تضم ايضاً انصاف البدو وأنصاف المستقرين إذ يصعب التفريق بين هذه الفئات .

وإذا استثنينا الرفاعية ، فإن كل عشائر الجولان تعيش فيه منذ وقت طويل ، ورغم توفر الشروط الملائمة للزراعة والاستقرار ، لا زالت حياة البداوة مستمرة . وهذا يستدعي التفسير ، ويبدو انه يعود الى :

آ - ان حياة البداوة ، التي تفرضها الشروط المناخية على بعض مناطق الشرق الاوسط ، ليست أصلية في منطقتنا التي كانت مزروعة ومشجرة^(٢) منذ مطلع

(١) بهذا لوقال المؤلف قرب الحدود الفاصلة بين المنطقة المحتلة من فلسطين وسورية .

(٢) حتى نهاية القرن التاسع عشر كان يعثر في الارض على جذور أشجار زيتون متطورة . وهذا يعني ان هذه المنطقة كانت مزروعة . وان ابادة اشجار الزيتون وأشجار الغابة القديمة تبقى من الامور العجيبة في تاريخ منطقتنا .

العصور التاريخية القديمة . وبدوا الجولان في الأصل من شبه الجزيرة العربية استقروا في هذه المنطقة التي سمحت الشروط الطبيعية فيها ، من مناخ ومياه ونبات ، بالاحتفاظ بهذا النمط للحياة . إذ من المعروف أنه حتى في أقل السنين ملائمة للفلاح ، كان البدوي بسبب وفرة المراعي وتوفر موارد المياه لسقي الماشية في كل مكان ، يبقى نسبياً في راحة وأمان .

ب - إلا أن الشروط الطبيعية للوسط لا تكفي لتفسير استمرار حياة البداوة في الجولان . ويجب الأخذ بعين الاعتبار دور مؤثرات أخرى اجتماعية . فالمجتمع البدوي بطيء التطور ، والبدوي يرتبط بقطيعه الذي يسميه (الحلال)^(١) ارتباطاً وثيقاً يفوق التصور .

ومن جانب آخر ، البداوة هي اقرب نمط من انماط الحياة للحياة الحرة التي يعيشها البدوي . وأخيراً لا بد من القبول بأن شكلاً من الجمود أو القصور الذاتي قد ساهم في استمرار بقاء المجتمع البدوي في الجولان .

البنية الاجتماعية للقبيلة : ان الرابطة الأساسية بين افراد القبيلة هي رابطة الدم التي تترجم بسلطة وبقدرة الرئيس المطلقة من جهة ، وبتفاني الفرد من أجل الدفاع عن مصالح العشيرة المشتركة الاخلاقية والمادية من جهة أخرى .

كذلك فإن الانتساب للأصل (النسب) يلعب دوراً هاماً . وأفراد القبيلة الواحدة ، مهما كان عددهم ، يعتبرون انفسهم منحدرين من أصل واحد أي انهم ينتسبون الى رب اسرة واحدة من حيث الاصل . فعشيرة الفضل ترجع أصلها الى الفضل احداً أبناء عم الرسول ، والعنزة ترجع نسبها الى عناز بن وائل بن أسد بن ربيعة .

وعلى كل حال ، لا يكون الدم دوماً الرابطة الوحيدة ، والزواج يمكن ان يوحد عدة عشائر في قبيلة واحدة ، إلا ان مثل هذا غير معروف عادة في الجولان .

(١) تعني الكلمة رزقاً مشروعاً من وجهة نظر دينية وبالتالي فالعمل في الرعي مرغوب ومبارك . وهذا ما يبقى البدوي مشدوداً إلى هذه المهنة ، فهو حتى حين يستقر للعمل في الزراعة لا يترك الرعي ، ويجمع بين رعي الحلال والزراعة . (المترجم)

وضمن العشيرة الواحدة يمكن أن نميز فرعين اجتماعيين يبرزان بتسلسل واضح في العلاقات :

آ - التفرع الأفقي : حيث تنقسم القبيلة أو العشيرة الى عدد من الحملات وتتوزع هذه الاخيرة بدورها الى عدة فروع أو بطون . والبطن يتفرع الى عدد من الفروع الاصغر أو الافخاذ التي لا تخرج في النهاية عن تجمع لعدد من الأسر . ومن بين كل هذه التشكيلات الاجتماعية ، تلعب الفروع الاولى العشائر الدور الهام .

وفيما يلي نورد الفروع المنحدرة من القبائل الرئيسية في الجولان :

فروع عشيرة الفضل : تتفرع هذه العشيرة إلى ١٤ فرعاً أو حمولة :

الحوايجة ، المنافي ، الطرشان^(١) ، البحاترة ، عجرم ، حروك ، قسرين ، جعاتين ، حزومين ، المرازقة ، المحمدات ، الشايب ، الطوييف والسعيد .

فروع عشيرة النعيم : تتفرع الى ٣٤ حمولة :

طحان ، بونيمي ، خواشمة ، سابارجة ، شارة ، وهبان ، بقارة ، هناهنة ، هوارين ، سياد ، نعيمات ، كريددين ، عكادلة ، بوعاصي ، شراهين ، رميلة ، بوهيا ، فواشي ، الواشات ، الشتيوين ، الحميزات ، الموائد ، الشقاقين ، عتبا ، نميرات ، رحاينا ، جملان ، حرب ، سوباد ، حمارة ، عتايقة ، توليلا ، مجايلا ومراحيل .

فروع عشيرة الويسية : وتتفرع الى ٦ حمولات :

حاميات ، قطايقة ، دكادكا ، باشاوات ، عمادية ، فارقة .

فروع عشيرة الرفاعية : وتتفرع الى ٣ حمولات :

ملاحيق ، شاهين ، وحسيم .

ب - التفرع الرأسي (العمودي) : اذا مثلنا القبيلة بشكل هرم ، نستطيع ان نلاحظ ، من القمة الى القاعدة ، الطبقات الاجتماعية التالية :

أ - الأمير أو شيخ القبيلة مع اسرته : ولكي يكون رئيس القبيلة جديراً بالرئاسة ، يجب أن يتحلى ، اضافة لإصالة النسب المميزة ، ببعض الصفات

(١) وهم غير طرشان جبل العرب .

الآخري كالجاعة والكرم والفطنة

٢ - الوجهاء : وهم غالبا أبناء عمومة واقارب رئيس القبيلة ، اضافة إلى رؤساء الحملات والفروع الرئيسية للقبيلة .

٣ - الافراد العاديون ويشكلون الغالبية العظمى والركيزة الشعبية للنظام القبلي . وهم عامة القبيلة .

٤ - الاتباع : ويشكلون الطبقة الاجتماعية الدنيا التي تضم ، بالاضافة الى العبيد الجدد ، فئة العبيد القدامى الذين تحرروا ولكنهم بقوا مرتبطين بالقبيلة لتأمين خدمة الشيخ والافراد وضيوفهم . وظيفتهم الاساسية تهيئة القهوة المرة وتقديمها .

والعبيد ليسوا دوماً من السود ، وغالباً يكونون من البيض ولا يختلعون عن بقية افراد القبيلة إلا بالنسب . وهذا هو حال أكثر عبيد قبيلة النعيم . ان هذا التقسيم للمجتمع البدوي إلى فئات اجتماعية هو هام جداً لأنه يعكس النشاط المتباين للطبقات المختلفة . وفي الحقيقة ، إن هذا المجتمع يضم عدداً كبيراً من البشر الذين يعيشون حياة تطفل ، فالشيوخ والوجهاء لا يقومون بأي نشاط منتج ، ويعيشون على ما يقدمه لهم الأفراد العاديون كضريبة أو حصة الرئاسة (المشيخة) والتي تدفع نقداً أو عيناً . إضافة الى (القضاة) التي يتقاضونها مقابل حل الخلافات بين الافراد .

كذلك فئة الاتباع والعبيد التي يقتصر عملها على خدمة الرؤساء فهي الأخرى تعيش عيشة تطفل .

وهكذا فالافراد العاديون هم فقط الذين يؤمنون استمرار الحياة اليومية لمجموع القبيلة . وبما تجدر الإشارة اليه بشكل عام هو أن الرجل قليل الانتاج . والمرأة هي التي تحمل اكبر جزء من المسؤولية ، وهي العماد الاساسي للأسرة . لهذا كله فهي امانة (دليل) غنى . وتمثل أهمية المرأة البدوية في المجتمع بعمليتين بارزتين :
- تعدد الزوجات الكثير الانتشار .

- غلاء المهر^(١) الذي يجب على الرجل دفعه لاهل الزوجة .
وطالما كان البدوي قادراً على دفع مهر جديد ، فانه لا يحجم عن
الاقدام على الزواج حتى لو كان بعصمته اكثر من امرأة ، ومهما كان عمره .
نمط (طراز) حياة البدو : الخيمة هي رمز البداوة ، وهي التي تلي في
الحقيقة ، أكثر من أي شكل آخر من أشكال السكن ، متطلبات هذه الحياة
المتنقلة . والقطيع هو مصدر الثروة الوحيد للبدو ، واهتمامهم الرئيسي منصرف
نحو حياة الرعي . واختلاف توزيع الماء ، اساس حياة الحيوان ، هو الشيء
الذي يفسر تنقلهم من مكان الى آخر حسب الفصول .
والمجتمع البدوي منعزل في الغالب ، وبعيد عن المدينة وحتى عن
القرية ، كما انه مجبر على العيش في ظل اقتصاد اكتفاء ذاتي .
وفي الواقع ، يستخرج البدو المواد الاولية الضرورية لحياتهم من القطيع
كالصوف والشعر لصنع الخيام والعباءات والفراء واللباد والسجاد (البسط)
والاكياس والحبال . . . الخ . ويستهلك البدو مباشرة وبشكل اساسي ،
الألبان بمختلف اشكالها ، ويبيعون الفائض منها نقداً لشراء حاجاتهم من
القهوة الممتازة والسكر والشاي وبعض المنسوجات والألبسة . كما يبيعون
بشكل خاص السمن والصوف والخراف الصغيرة في المدن .
وتشكل بعض المنتجات أساساً للتبادل الواسع كالشنيينة الناتجة عن
صناعة السمن والتي يقبل الفلاحون في حوران على استهلاكها بشكل واسع
فيبادلون عليها بالقمح . وبما ان الشنيينة تستوعب وهي بحالتها السائلة حجماً
كبيراً يجعل نقلها صعباً وغير مجز ، فانها تكثف بطريقة التنقيط داخل اكياس
من القماش لتصبح بشكل (لبنة) تعرف لدى البدو باسم (قطيعة)^(٢) تباع في
المدينة ويبادل عليها في قرى حوران .

(١) وقد حدد هذا المهر بشكل عام بـ ٦٨ نعجة أو عتزة ، ويسدد في حالة وقوع

الطلاق

(٢) وهي المنتجات غير المرغوبة لدى البدو ، وقليلاً ما يأكلونها أو يقدمونها

لضيوفهم . والفائض منها عن التصريف المباشر يجفف بشكل اكعاب باسم (الهقط)
وتستهلك في الطبخ شتاء .

ولا يكون البدو دوماً مالكين لكل قطيع الابقار والأغنام الذي في حوزتهم ، ففي الغالب لهم بعضه ، في حين يكون الجزء الأكبر منه للقرويين ولسكان المدن . وهناك اتفاقيات واشكال مشاركة في الربح متعارف عليها تنظم العلاقة بين المالك وبين البدوي الذي يتعهد بالتربية ستعرض لها بالتفصيل في بحثنا للرعي . وعلى كل حال ومهما كان وضع القطيع له أو لغيره فإنه يبقى مصدر حياته . وقطيع الجولان هو بشكل اساسي خليط من الأبقار والأغنام . ولكل عائلة بدوية جملان أو ثلاثة لحمل الخيمة والأدوات المنزلية الأخرى .

وبشكل عام ، أخذت تنقلات البدو تقل تدريجياً ، بسبب إشغال الأرض بالزراعة وبالمراكز العسكرية . وسنعود لدراسة هذه التنقلات عند دراسة الرعي والانتجاع .

الوضع الإداري والقانوني للبدو : منذ بداية الانتداب الفرنسي على سورية وضعت القبائل البدوية تحت الاشراف المباشر لمثلي سلطة الانتداب الفرنسيين . وتعيين شيوخ القبائل ، الذين منحوا امتيازات مادية ، كان يتم من قبل المندوب السامي (المستشار الأعلى) . أما الادارة الفعلية لأمر القبائل فكان يقوم بها عدد من ضباط الاستخبارات تحت اسم مستشارين لرؤساء القبائل . ومنذ عام ١٩٤٥ ربطت أمور البدو بوزارة الداخلية السورية ، وحول الأشراف عليهم الى مديرية عامة للعشائر . وأبدل الضباط الفرنسيون بموظفين مدنيين سوريين سموهم بمدرء محليين للعشائر . كما ارتبط كل انصاف المستقرين بالمديرية العامة للعشائر بموجب قرار وزارة الداخلية رقم ٣٠٨ تاريخ ١٧/١/١٩٤٥ إلا أن قراراً لاحقاً بتاريخ ١٢/١٠/١٩٤٥ ، وضع أنصاف المستقرين تحت إشراف محافظي المناطق ، ومع ذلك فإن هذا التدبير لم يبلغ ارتباطهم بالادارة العامة للعشائر والتي مقرها في دمشق .

ومن حيث الوضع القانوني فإن المرسوم رقم ١٣٢/ر/ي تاريخ ٤/٦/١٩٤٠ كان قد أخضع حل الخلافات بين البدو للعادات (العرف) وأجاز للمحاكم النظر في النزاعات التي كانت تقع بينهم وبين المستقرين .

والخلافات التي تخضع للعرف كان يجب أن تفصل من قبل لجنة تحكيم مؤلفة من الشيوخ وبأشراف الضباط المستشارين ، والمندوب السامي (المستشار الاعلى) كان يتدخل في النزاعات الهامة فقط . وقانون العشائر الذي صدر بالمرسوم التشريعي بتاريخ ١٩٥٣/٥/٢١ كان قد ابقى على احترام العرف بما يخص الأمور ذات الطابع البدوي ، في حين ألحق انصاف المستقرين (أنصاف البدو) وبشكل نهائي ، بقطاع المستقرين .

مشكلة التحضر : اعتبر الملحق رقم ٣ للقانون ١٣٢/ر/ي عشائر الفضل والنعيم في الجولان أنصاف مستقرين . ثم جاء قانون المحاكم لعام ١٩٥٣ ليدمجهم مع المستقرين . لكن كل هذه التشريعات التي صدرت لم يصحبها أي تعديل عملي في الحياة العشائرية في الجولان ، فلا توزيع وتمليك للأراضي ، أو فتح للمدارس الداخلية الخاصة ، أو حفرة للبار ، أو تأمين للخدمات الاجتماعية والطبية ، أو بناء للمساكن ، أو إجراء تعداد صحيح ، لا شيء من هذا القبيل قد نفذ ليدعم بشكل صحيح وعملي عملية تحضير واستقرار البدو في الجولان .

٢ - أنصاف الرحل وأنصاف المستقرين : ينتمي المستقرون العرب الذين يشكلون حالياً أكبر نسبة من الفلاحين في الجولان إلى أصول قبلية . وما تجدر الإشارة إليه هنا ، انه بين حياة الترحل وحياة الاستقرار ، توجد أشكال انتقالية تتميز بعدم الثبات ، وكل تطور من شكل أدنى من أشكال الحياة إلى آخر أعلى كان يجري بصورة تلقائية ودون أي تدخل رسمي . ودور الحكومة كان يقتصر دوماً على اصدار القرارات والقوانين التي لم تؤد إلى أية نتيجة عملية .

هذا وإن أنصاف البدو الرحل الموجودين في الشرق من الجولان على اطراف وادي الركاد (الركاض) ينتمون غالباً إلى قبيلة النعيم . وبحكم طبيعتهم البدوية ، يبقى الواحد منهم محتفظاً بقطيعه وبخيمته . وإلى جانب هذه الخيمة يبنى بيتاً أو كوخاً صغيراً بدون نوافذ وبسقف مستو ليلاجاً إليه مع حيواناته في الشتاء عند تساقط الثلوج . أما في الفصول المعتدلة ، فالخيمة هي المأوى والمسكن المفضل .

ويندر ان يقوم البدوي المستقر بزراعة الحبوب في الرقع الصغيرة من الأرض التي تخصه وهي غالباً من النوع الصلب . لذلك فهو ضعيف الارتباط بمثل هذه الزراعات . وبمجرد ان تنمو المراعي في المناطق المجاورة فانه لا يتأخر عن ترك كوخه وزراعته ليقود قطيعه الى الاماكن الغنية بالعشب . وفي موسم الحصاد ، يعود الى زراعته التي غالباً ما يجد الحيوانات قد أتلقتها . ويكفي أن تمر عدة سنوات سيئة المردود حتى يترك بشكل نهائي حياة الارتباط بالأرض . وبالمقابل فان توالي سنوات جيدة صالحة للزراعة ولتربية الماشية يمكن ان يشجع هذا النصف بدوي على الاستقرار

أما أنصاف المستقرين أو (الفلاحي) : والذين هم مرحلة انتقالية بين الترحل والاستقرار . فلا يجب الاعتقاد بان انتقالهم من الترحل الى الاستقرار لا يتم إلا بمراحل متتابعة ، وبأنه يجب ، قبل ان يصلوا الى حالة نصف الاستقرار ، أن يمروا بمرحلة نصف البداوة . فالذي يحصل أحياناً أنه بمجرد تفكك القبيلة البدوية ، يمكن للبدوي ان يضع نفسه في خدمة الفلاحين متنقلاً من حالة البداوة الكاملة الى حالة نصف الاستقرار ، وأن يتخلى بشكل نهائي عن صناعته البدوية ، فلا خيمة ، ولا قطع ، ولا اية علاقات مباشرة مع افراد قبيلته السابقة . وفي مثل هذه الحالة ، سرعان ما ينضوي البدوي في كنف قروي كفلاح أو مرابع ، ويعيش في القرية ، مقيماً في كوخ متواضع . وقد يتفق عدد من البدو مع صاحب ارض على استثمارها وفق شروط معينة . فيقومون ببناء عدد من الاكواخ المتراسة بشكل كغر صغير فوق حيز من الأرض . وهذا الكغر الصغير قد يتحول الى قرية ، أو يهجره ساكنوه إلى اماكن أخرى مفتشين عن عمل جديد .

هذا وان غالبية أنصاف المستقرين في الجولان هم من عشيرة الفضل والويسية والرفاعية .

وان هذه التحولات من زمرة اجتماعية الى اخرى تنعكس على المظهر الطبيعي بتغيرات واضحة للمسكن . فالخيمة تصبح أكثر تباتاً وتحاط بنوع من الحصر المصنوعة من القصب أو بأسوار حجرية أو ترابية . وقد تنصب فوق جدران ، قرب الحقول المزروعة ، وإلى جانب أكواخ الخشب والقصب

المدعمة بنوع من السياج ، أو قرب البيوت المصنوعة من التراب المجفف (اللبن) وحتى قرب البيوت الحقيقية . والخيام والاكواخ التي يزداد تبعثها أحياناً ، يمكن ان تأخذ شكل مخيم صيفي .

ومع اختفاء الخيمة تؤول اكواخ وبيوت العائلات ، الموزعة على شكا احياء ، الى ما يشبه قرى الفلاحين

وفي الواقع ، يمكن أن نلاحظ حديثاً في الجولان هجمة حقيقية نحو الأرض وأن الشغل الشاغل للبدو والفلاحي ، هو شراء الأراضي ، متى اصبح ذلك باستطاعتهم ، ووضعها قيد الاستثمار بوسائلهم الخاصة ، وهكذا أخذ اشغال الانسان للأرض يزداد شيئاً فشيئاً .

٣ - القرويون أو الفلاحون : ويشكلون الغالبية العظمى بالنسبة للفئات الاجتماعية الأخرى . فحسب الاحصاءات الرسمية ، كانت فئة القرويين في الجولان تشكل في عام ١٩٥٣ ٨٨٪ ، وفي عام ١٩٥٤ ٨٧٪ من مجموع السكان . وتظهر أهمية القرويين في ميدان الانتاج ، فهم بدون منازل ، المنتجون الاساسيون . والنشاط الاساسي لهم مرتبط بالأرض ، بشكل مباشر عن طريق الزراعة ، أو بشكل غير مباشر عن طريق التربية الواسعة للحيوانات .

وفلاح الجولان ليس دوماً أكثر سعادة من البدوي ، فكلاهما يعيش حياة بؤس وفقر ، مع فارق كبير في المجهود الذي يبذله كل منهما ، فبينما يبقى البدوي عاطلاً ، يعمل الفلاح طيلة العام دون أن يحصل في الغالب على ما يكفي حتى للبقاء . وهكذا فإن عدداً كبيراً من الفلاحين هم تحت رحمة الدائنين . وخلف بؤس الفلاح في منطقتنا تكمن عدة عوامل منها :

١ - غالبية المزروعات غير مروية (بعل) والمحصول يبقى تحت رحمة الطبيعة (الطقس من حيث الأمطار وتقلبات الحرارة) .

٢ - نظام الاستملاك العقاري واسلوب المحاصصة في العمل الزراعي ليسا لمصلحة الفلاح ، فالجولان منطقة ملكيات عقارية واسعة . وهذا يفرض على أعداد كبيرة من الفلاحين المقيمين في قرى ثابتة العمل في أراضي لا يملكونها ، لذلك فهم مجبرون على أن يدفعوا للملاكين بطبيعة الحال ،

نسبة كبيرة من المحاصيل لا تقل في الغالب عن ٥٠٪ (مناصفة) . يضاف الى ذلك أن الفلاحيين الأقل استقراراً ، يعملون أيضاً في أرض لا تخصهم . وحصتهم من المحصول لا تزيد على ٢٥٪ (مربعة) .

ولبعض الفلاحين حقوقهم الخاصة ، إلا أن مساحتها ، نتيجة للتقسيم المتتالي بين الورثة ، أصبحت محدودة لدرجة أن المردود لهذه القطع الصغيرة لا يكفي لإطعام عائلة كبيرة العدد غالباً . كما أن أسلوب المشاع والتوزيع الدوري للأراضي ، لا يسمحان بتحسين حقيقي لقيمة الأرض ، وفي بعض الحالات ، يصل التقسيم الى الحد الذي لا يسمح للفلاح بالعمل بشكل جيد في القطع الصغيرة المبعثرة .

٣ - جهل وفقير الفلاح : فالفلاح لا زال يجهل كل الطرق الحديثة . وحتى عندما يكتشف بالخبرة ، ضرورة استعمال آلة ، أو تنفيذ مشروع ري ، فإن الفقر السائد في ريفنا يعترض تنفيذ ذلك .

مع كل هذا فإن هذه الكتلة من الفلاحين التي يتوقف عيشها على إنتاج الأرض ، تقوم بزراعة الحبوب بشكل واسع . وأحياناً ، ومنذ وقت قريب ، بزراعة قطع صغيرة من الأرض بزراعات مروية أو بأشجار الزيتون والتين والتفاح وكروم العنب .

وبشكل عام ، يبقى مردود الفلاح ضعيفاً بسبب وسائله الهزيلة . والاقتصاد القروي لا يخرج بالتالي عن كونه اقتصاداً معاشياً (اقتصاد قوت) . وعلى الفلاح أن يدفع بجزء معتبر من عائداته الهزيلة للمختار وللإمام^(١) وللشيخ وللناطور وللراعي القرية المشترك إضافة إلى الضرائب . كما أن عليه أن يشترك في نفقات بناء مدرسة القرية^(٢) .

(١) في المدينة الحكومة هي التي تدفع مرتب الامام .

(٢) كذلك فإن وزارة التربية هي التي تبني المدارس في المدينة في حين يقوم الفلاحون في القرى ببناء المدارس على نفقتهم الخاصة .

الى كل ما سبق ، يضاف استثمار تجار المدينة للفلاح . ففي فيق والقنيطرة خاصة ، حيث يقيم التجار القادمون من دمشق ، يبيع الفلاح مختلف انتاجه من القمح والثمار والالبان والبيض والدجاج . وفي يوم الجمعة من كل اسبوع كان يقام سوق في القنيطرة (حول موعد السوق منذ عامين الى يوم الاربعاء حتى يتاح للتجار الدمشقيين تمضية عطلتهم الاسبوعية في بلدهم دمشق) . والأسعار لم تكن ثابتة ، والفلاح كان دوماً هو المخدوع حيث يشتري تاجر المدينة المنتجات منه بأبخص الأسعار ويبيعه بالمقابل الأشياء بأعلى الأسعار ، خاصة اذا كان البيع بالدين . وهكذا فالقدرة الشرائية للفلاح تنقص الى حدها الأدنى ، ومع ذلك ففلاح الجولان شديد الارتباط بأرضه ، والنزوح الريفي نحو المدينة موجود ، ولكن بشكل محدود .

» ومن المفارقات التي تبدو غريبة بالنسبة لافكارنا نحن الغربيين وجود قرويين في الشرق مسلوخين عن أصلهم الريفي لا يمتون الى الطبقة القروية بصلة ، وأصحاب اراضي معدومي الحس والاحترام للأرض ، ومزارعون يحتقرون الزراعة ، وفلاحون يحتقرون المحراث ، وقرويون ينبذون القرية ليقبوا أوفياء للقبيلة «^(١)

هذا ما قاله J. Weulersse عام ١٩٤٦ عن الفلاح السوري . ويظهر بوضوح أن المؤلف بأرائه هذه المسبقة ، قد وقع في خطأ التعميم لحالات خاصة جداً . فبالنسبة لفلاح الجولان وحواران ، الارتباط بالأرض ليس أمراً مؤكداً فقط ، بل مبالغاً فيه لدرجة اسطورية . والملكية العقارية في المجتمع القروي تعتبر دليلاً على الغنى والمقام الرفيع . وتقسيم الأرض الى قطع صغيرة الاعتناء بها كبير جداً : ألا يعنى ويعكس الاصلبة القديمة للارتباط بالأرض . وإن قطعة من الأرض مهما كانت صغيرة ، كافية لاشغال نزاع دموي ، ليس فقط بين اثنين من الفلاحين ، ولوقوع عدد من القتلى والجرحى . وغالبية الدعاوى المرفوعة امام محاكم فيق والقنيطرة ودرعا تدور حول خلافات عقارية ، وقضية (التلاوية) خير مثل على ذلك ، فالأرض

J. Weulersse الفلاح السوري صفحة ٦٦ .

فمن مدنيّاً من سكان دمشق ، والمزارعون الفقراء يشتغلون في هذه الأرض بشروط قاسية ، رغم ذلك فإنهم لم يتركوا الأراضي التي ولدوا فيها . « أرضي عزيزة عليّ وإن كانت قاحلة وبخيلة بالعطاء » . هكذا يقول المثل الشعبي . وحالة الفلاح الشركسي نسبياً أكثر تقدماً ، ففي أقل من قرن أصبح فلاحاً جولانياً نموذجياً لأنه قبل أن يأتي الى الجولان ، كان يقيم في سهل حمص ضمن مجتمع قروي متميز .

وفي السوانع إن شركسي الجولان ، بلباسه وعاداته وأساليب عمله يشبه فلاح المنطقة أكثر مما يشبه شركسي حمص .

إن تدخل السلطات في حياة القرويين محدود إذا استثنينا ما يخص جمع الضرائب . لذلك فإن كل منطقة في سورية تحتفظ لنفسها بمجتمع اقليمي يختلف عن بقية المجتمعات . ففي منطقة الجولان لوحدها نستطيع التمييز عدة مجتمعات قروية وذلك حسب طبيعة الأرض وكمية الأمطار وبالتالي حسب العريقة المتبعة في استثمار الأرض .

١ - فعلى منحدرات الحرمون يعتمد القروي بالدرجة الاولى على الكرمة وعلى الاشجار المثمرة ، ذلك لأن الأرض الكلسية بمنحدراته لا تصلح بشكلاً جيداً لزراعة الحبوب . والفلاح الدرزي يحمل على حمارة العنب والملفوف والفجل إلى قرى الجنوب وحوارن لبيعها أو يقيض عليها بالحبوب .

٢ - وفي الجنوب تسود زراعة الحبوب مع تربية الحيوانات كمصدر متمم هام جداً . والفلاح الشركسي لا ينفصل عن أبقاره .

٣ - وفي الجنوب الغربي من الجولان يزرع القمح فقط ، والمجتمع هنا لا يختلف عن المجتمع الحوراني الصرف .

٤ - وفي شرقي الجولان ، حيث توجد أخصب المراعي ، لا يزال البدو الحقيقيون موجودين . وإلى جانبهم يقوم أنصاف المستقرين وحتى المستقرين بتربية الاغنام كمصدر متمم .

٥ - أخيراً يملك التلاويون في سهل البطيحة المروي الصغير ، خبرة صحيحة في البستنة . وهم بساتنة جيدون يرسلون بواكير قطفهم الأول ليس فقط إلى القنيطرة وفيق بل الى دمشق مباشرة .

٤ - سكان المدن : سنكتفي الآن بتحديد نسبة سكان المدن التي لا تمثل إلا ١٣ ٪ من مجموع السكان المحليين . أما أصلهم وطبيعة مهنتهم فستفصل كل ذلك في معرض حديثنا عن المظاهر الحضرية في الجولان ويشكل خاص عند دراسة القنيطرة .
(أنظر القسم الثالث - الفصل الخامس - والقسم الرابع - الخاتمة)

الفصل الثاني

الزراعة

سنبدأ دراسة الزراعة بعرض موجز للأرض ، قاعدة وأساس الزراعة .
والجدول التالي يبين توزيع أراضي الجولان بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٦ بين
أراضٍ مستثمرة مروية وغير مروية ، وأراضٍ صالحة للزراعة وغير مستثمرة ،
وأراضٍ غير قابلة للاستثمار ، وبراير ، وغابات ... الخ ...

قضاء أو منطقة	أراضي مستثمرة	أراضي صالحة للزراعة وغير مستثمرة	أراضي صالحة للاستثمار	أراضي غير مستثمرة	براير ومراعي	غابات	مستنقعات	مساحة القضاء
١٩٥٠	٢٩٥٠٠	٦٧٠٠	٢٢٨٠٠	٥١٨٥٠	٤٨٦٥٠	٢٠٠٠٠	٢٠١٥٠	١٤٠٣٠
٥١	=	٦٩٨٠	٢٢٥٢٠	=	٢٨٥٠٠	=	=	=
٥٢	=	=	=	=	=	=	=	=
٥٣	=	=	=	=	=	=	=	=
٥٤	٢٩١٤١	=	٢٢١٦١	٥٢٢٠٩	=	=	=	=
٥٥	٢٩٥٠٠	=	٢٢٥٣٠	٥١٨٥٠	=	=	=	=
٥٦	٣١٢٢٥	٧١٢٠	٢٤١٠٥	٤٩١٢٥	٢٨١٥٠	=	٨٥٠٠	٥٩٠٠٠
١٩٥٠	٣٩١٠٠	٦٥٠	٣٨٤٥٠	٤٠٠	٧٤٠٠	٤٤١٨	٤٩٨٢	٥٩٠٠٠
٥١	٤٥٥٤٠	٧٠٩٠	=	=	١٢٤١٨	=	=	=
٥٢	=	=	=	=	=	=	=	=
٥٣	٤٩٠٠٠	٠٠٠٠	=	=	=	=	=	=
٥٤	٣١٢٠٠	٧١٤٠	٢٤٠٩٠	=	=	=	=	=
٥٥	=	=	=	=	=	=	=	=
٥٦	٤٨٦٨٢	٤٤٣٩	٤٤٢٤٣	٥٠٠	٢٤٠٠	=	٧٤١٨	(١) =

(١) احصاءات ووزارة الزراعة السورية (المساحة بالمهكتار)

– اسلوب تملك الأرض : حسب الواقع الحالي يمكن تصنيف سكان الجولان بالنسبة للأرض ضمن ثلاث زمر :

١ - عدد كبير من الاشخاص يعمل في الأرض ويعيش منها ، ولكنه ليس مالكاً لها .

٢ - قلة من الاشخاص تملك مساحات كبيرة من الأرض ولكنها لا تستثمرها إلا بشكل غير مباشر .

٣ - عدد كبير ايضاً من الفلاحين يعمل ويعيش من ارضه الخاصة ذات المساحة المحدودة .

ولزيد من الفهم لأسلوب تملك الأرض ولطرق الاستثمار المعقدة ، يجب اجراء دراسة تاريخية لتطور الملكية العقارية .

لمحة تاريخية حول تطور الملكية العقارية : معلوماتنا عن ملكية الأرض قبل الاسلام محدودة . ويسود الاعتقاد ان الأجزاء الجنوبية من ارض الجولان كانت في تلك الفترة مشغولة من قبل القرويين ، في حين بقيت المناطق الشمالية والشرقية تحت سيطرة البدو الرحل . وفي مؤتمر الجابية الذي عقد في الجولان سنة ٦٣٨ م (١٧ هـ) ، تقرر مصير كل البلاد التي فتحت من قبل المسلمين . فعندما حضر الخليفة عمر الى سورية عقد مع الصحابة وقادة الجيش اجتماعات دامت ثلاثة اسابيع ، احتد فيها النقاش ، واشتدت المعارضة . وحسباً للخلاف عرض عمر الأمر على عشرة من المحكمين اختارهم من بين المحايدون واقترح عليهم ان يحتفظ السكان بالأرض وأن يفرض مقابل ذلك الخراج عنها والجزية عن كل شخص ، وأن توضع هذه الضرائب لمصلحة المسلمين ، المحاربين الجاليين منهم ومن سيلهم . وقد وافق المحكمون على هذا الاقتراح ، وبهذا الشكل احتفظت البلاد بالوضع الذي كان سائداً في عهد السيادة البيزنطية .

هذا وان نظام الأرض المرعي الأجراء حالياً في الجولان ، هو تركة فترة السيادة العثمانية التي كانت قد حافظت على المبادئ الرئيسية للتشريع الاسلامي ، مع ادخال بعض القواعد الجديدة . وكانت الأراضي جميعها مصنفة في خمس زمر :

- ١ - الأراضي المملوكة أو التي ملكيتها مطلقة ، اراضي السكن .
 - ٢ - الأراضي الميتة (موات) .
 - ٣ - الأراضي المحمية أو المتروكة .
 - ٤ - الأراضي الموقوفة (الوقف) التي وهبت لمؤسسات دينية أو للنفع العام .
 - ٥ - الأراضي الأميرية ، وتضم كل الأراضي المتبقية ، وهي التي قسمت فيما بعد بشكل اقطاعات متفاوتة القيمة ووهبت لعساكر الامبراطورية .
- وهكذا ارتبط فلاحو الجولان ، قبل كل فلاحى المناطق الاخرى ، بخدمة الاقطاعيين بموجب عقد اساسي يأخذ صاحب الاقطاع بموجبه ضريبة سنوية مع اتاوات عينية ، وأصبحت حالتهم لا تختلف عن حالة فلاح مسخر ، والاقطاعي هو سيد الموقف له الحق في فسخ الاتفاق في أي وقت ، وطرده الفلاحين من أراضيهم . وبالإضافة للضريبة والأتاوات العينية وأيام عمل السخرة ، كان يجب على الفلاح أن يعمل بالأرض باستمرار وان لا يتركها بوراً .

وبعد قرنين من التطور تحولت الحياة المؤقتة والشخصية لزراع الأرض الى حق عيني قابل للتحويل والايراث بحكم العقود وحق الارث . ورغم صدور التشريع العقاري لعام ١٢٧٥ للهجرة بروح جديدة في ادارة الامبراطورية ، فإن قضية تحرير طبقة الفلاحين والارض لم تتم ، لان الفلاحين الذين حررهم هذا التشريع من الاقطاع ، وجدوا انفسهم وجهاً لوجه ، أمام الدولة مطالبين باستصدار سندات ملكية عقارية (طابو) تثبت حقهم في الأراضي التي يشغلونها ، وهم فقراء جداً وجاهلون لطرق الاحتفاظ بحقوقهم والاستفادة من الحرية التي منحت لهم . وقد أتاح هذا كله الفرصة للانتهازيين العديدين : ارسقراطي المدينة وقدامى المسفيدين من الاقطاعات ومحاسيب الولاة والتجار الذين لهم علاقة بالريف ، لدخول الميدان وارتكاب أعمال الاحتيال . فتارة كانوا يلجأون الى رشوة موظفي السجل العقاري (الطابو) ، وحيناً يتقدمون الى الفلاحين كحماة لهم موهمين اياهم بأن الدولة لن تعطيهم الأراضي إلا لتجنيدهم ، وبأن الخلاص وتملك الأرض لن يتما إلا بوساطتهم وباستعارة اسمائهم الشهيرة للتسجيل . وبمثل هذا الخداع ،

استطاع باشا كردي^(١) ان يسجل باسمه في دائرة (الطابو) أراضي اربعين قرية في سهل البطيحة وحول خسفين . وان ورثة هذا الباشا يمتلكون حالياً ٢٤٨٨٠٠ دونماً أي ما يعادل ٤٢٪ من مجموع اراضي قضاء فيق . واستطاع غيرهم عن طريق شراء بضعة هكتارات من الأرض ، وبالتواطؤ مع موظفي (الطابو) ، تسجيل كل حدود القرية باسمهم كحدود لحقلهم الصغير^(٢) وهكذا فالتملك الاقطاعي لا زال موجوداً في الجولان مذكراً بالانقطاع الانكشارية في العهد العثماني .

الوضع القانوني للأرض وتوزيعها بين الأفراد : تعود أرض الجولان ، من الوجهة القانونية لثلاث زمر من المالكين :

١ - الله : الذي توهب له الأراضي التي تسمى الأراضي الموقوفة أو الوقف . وتغطي هذه الأراضي ما مساحته ٨٠٠٠ دونماً ضمن أراضي قريتي نافعة والشجرة الواقعتين في أقصى الجنوب الشرقي من منطقتنا .

٢ - الدولة : وتمتد ممتلكاتها فوق ٥٠٠٠ دونماً ضمن أراضي قرية الجوخدار الواقعة على الحدود الادارية بين قضائي فيق والقنيطرة . إلا أن للدولة أيضاً حق قاطع في السيطرة على الأراضي المسماة متروكة (أحراش ، مراعي الخ) والأراضي المسماة موات أو ميتة . .

٣ - الأفراد : ويملكون الأراضي المسماة اميرية . ويعكس الأراضي المملوكة غير المعروفة في منطقتنا ، فان الأراضي الأميرية لا تشكل موضوع تملك مطلق (ملك) . والأراضي الأميرية تشكل في الواقع أساساً لحقين عتيقين متميزين ملك الدولة (رقابة) وملك الأفراد (تصرف) وأراضي الجولان كلها ننحصر ضمن الفئة الأميرية . وقد جرى تملكها في العهد العثماني مجاناً أو مقابل دفع لثمن رمزي يدعى (الطابو) ، وكان هذا التملك يثبت بما يسمى (طابو سندي) الذي يعطي للمالك حق التصرف .

(١) عبدالرحمن باشا اليوسف .

(٢) الأمير سعيد الجزائري يملك نصف قرية الكويّة رغم ان لدى السكان صكوك

تملك خاصة .

ولكن من أجل الاحتفاظ بحق التصرف في أرض ما ، كان يجب على
الفلاح تنفيذ شرطين :

١ - دفع نوعين من الضرائب :

- العشري ١٠٪ من المحصول . وقد الغيت هذه الضريبة رسمياً منذ زمن
بعيد ، إلا أن مالكي الأرض لا زالوا يأخذونها من المزارعين البسطاء الذين
يعملون في أرضهم .

- ضريبة على القيمة التقديرية للأرض بنسبة ٤ بالألف على الأراضي
الزراعية و ٨ بالألف على الأراضي المشجرة . وقد الغيت هذه الضريبة
واستبدلت بضريبة الانتاج الزراعي .

٢ - ضمان زراعة الأرض وحمايتها ، إذ أن ترك الأرض بلا زرع لمدة ثلاث سنين
متتالية ، ويدون عذر مشروع ، يؤدي الى اعادتها للدولة .

وبالمقابل فإن الدولة تعترف للفلاحين بحق التصرف بالأراضي التي
يحيونها . وهذا ما يفسر وضع العدد الكبير من سكان الجولان الذين يتصرفون
بمساحات واسعة من الأرض دون أي سند تملك .

ومما تجدر ملاحظته في النهاية ان التمييز الحقوقي بين أراضي مملوكة
واميرية ليس له أي قيمة عملية^(١) ذلك لأن المتصرف بأرض اميرية يمكنه بيعها
بالوفاء أو بشكل قطعي ويحق له ان يؤجرها أو يعيرها أو يرهنها . كذلك
يستطيع نقل الأرض لورثته وزراعتها بكل الزراعات ، عدا الممنوع منها
بأنظمة خاصة كالتبغ والأفيون والحشيش . كما له الحق أن تؤول اليه كل
المحاصيل والمنتجات الطبيعية للأرض . وان يقيم عليها أو يهدم أي نوع من
البناء دون إذن مسبق .

وتوزع هذه الأراضي المسماة اميرية على سكان الجولان متفاوت بشكل
كبير . فحسب مساحة الملكية الفردية ثم حسب طريقة الاستئجار نستطيع

(١) الفرق العملي الوحيد هو ما يتعلق بحق الارث ؛ فالرجل والمرأة متساويين
بالميراث فيما يتعلق بالأراضي الاميرية ، بينما حصص الرجل في الأراضي المملوكة تساوي
حصص امرأتين .

التمييز بين الملكيات الصغيرة والمتوسطة والكبيرة .

- الملكية الصغيرة : وهي التي تنحصر مساحتها بين ٢٠ و ٢٠٠ دونماً (الدونم يعادل ٩١٩٣ متر مربع) ويجري استثمارها مباشرة من مالكيها بمساعدة عائلته . وتسود هذه الملكية في الجزء الشمالي الشرقي من الجولان وفي الحرمون . وبخلاف ما يقال ، فإن صغار ملاك الأراضي هم : الشركس والتركمان والدروز . وهنا يمكن الإشارة الى وجود ملكية صغيرة جداً نتجت من التقسيم المتتابع للميراث العقاري بين مستحقيه .

- الملكية المتوسطة : ومساحتها بين ٢٠٠ و ١٠٠٠ دونماً وهي ليست شكلاً أساسياً في منطقتنا ، لأن تملك الأراضي بالأساس كان قد جرى على شكلين : ملكيات صغيرة واقطاعات كبيرة . إلا أن بعض القرويين الميسورين استطاع زيادة مساحة ملكيته عن طريق شرائه للملكيات الصغيرة جداً .^(١)

وبصورة عامة فإن المالك هو الذي يعمل بنفسه في الاستثمار ، ولكن يحدث أن يلجأ الى اليد العاملة الاجنبية ليستعين بها في عمله .
- الملكية الكبيرة : وهي التي تزيد مساحتها على ال ١٠٠٠ دونماً . وتسود مثل هذه الملكيات الواسعة في منطقة فيق بشكل كبير حيث تقع ٣٠ قرية من أصل ٣٧ بين أيدي الملاك الكبار . في حين لا يوجد مثل هذا في قضاء القنيطرة إلا في الغرب والجنوب الغربي .

وفي الواقع ، يملك كبار الملاك ٤٣٥٨٠٠ دونماً من أصل ٥٩٠٠٠٠ دونماً مجموع مساحة قضاء فيق . وهذا يساوي ٧٤٪ . وان ١٣ مالكا يملكون ٣٦٨٧٢٧ دونماً أي ما يساوي ٦٢٪ من مساحة القضاء . وان مالكا واحداً ، وهو وريث عبد الرحمن باشا ، يملك ٤٢٪ من مجموع قضاء فيق . وبالعكس فإن الملاك الكبار في قضاء القنيطرة عديدون ، لذلك فإن

(١) فيما يتعلق بالملكية العقارية وبطرق استثمار الارض ، عدنا بالكثير منها الى

مخاطر منطقتنا .

ما بحوزتهم من أراضي هو أقل مما لدى ملاك فيق . وإن ال ٥٧ من الملاك الكبار في القنيطرة لا يملكون إلا ٢٣٨٧٨٨ دونماً من أصل ١٣٠٠٠٠٠ دونماً أي ١٨٪ من مجموع القضاء . وأكبر مالك في هذا القضاء لا يملك أكثر من ٢١٢١٢ دونماً أي ١٫٦٪ فقط من مجموع القضاء . وهذا لا يقارن بما يملكه أكبر مالك في فيق والذي يملك كما رأينا لوحده ٤٢٪ من مجموع مساحة فيق .

مساوىء الملكية الكبيرة في الجولان :

١ - هي السبب الحقيقي لبؤس عدد كبير من القرويين ، ذلك لأن للملاك حسب الحالة من ٣٣٪ إلى ٥٠٪ من المحصول ويتوجب على القروي أن يدفع مما يتبقى له كل تكاليف ومتطلبات العمل .

فالفلاح يسدد ديونه القديمة ليطلب غالباً ديناً جديداً يسدده في العام التالي . وهكذا يكاد المزارع الفقير أن لا يعرف ابداً العيش المريح فهو مرتبط رغماً عنه بالأرض نفسها وبالمالك نفسه .

٢ - في الغالب ، لا يملك المالك الكبير في الجولان سيولة نقدية لاستثمار أرضه الواسعة بشكل كثيف . ومن يملك المال اللازم يتحاشى استثماره في المجال الزراعي . وأن ترك هذه الأراضي الواسعة بين أيدي فلاحين بجهلة وفقراء ، يبقى استثمارها بدائياً ومتأخراً وبالتالي يكون المحصول هزئياً .

٣ - لا يملك ملاك الجولان الكبار أي معرفة اقتصادية متقدمة ، وتقتصر معارفهم على تلك المعارف العامة التي يتبادلونها مع فلاحيهم .

٤ - وهؤلاء الملاك الكبار ليسوا من أبناء الجولان ، فهم من دمشق أو من لبنان . ويجيئون الى مناطق املاكهم نادر ، اذ يكتفون بإرسال وكلائهم لمراقبة الاعمال ، خاصة عند اقتسام المحاصيل .

٥ - إلا ان أكثر المساوىء لهذه الملكية الواسعة تكمن في ان كل قرى المزارعين الفقراء لا زالت بدون مدارس . ويتهرب الملاك من تحقيق أي مطلب من مطالب مزارعيهم الفقراء تاركين أبناءهم فريسة الجهل المطلق .

الملكية المقسمة والملكية غير المقسمة : تتمثل ملكية الأراضي الكبيرة أو

الصغيرة في الجولان والموثقة بسندات طابو ، بشكلين متميزين .

آ - ملكية مقسمة : حيث يحدد السند مساحة كل ملكية فردية مبنياً موقع

وحدود كل منطقة من الأرض بشكل تكون فيه أراضي كل فلاح معلومة الحدود وثابتة . ويعرف هذا الشكل من الملكية في قضاء القنيطرة ، وبشكل خاص لدى الشركس . والأراضي الأميرية التي اعطيت للشركس من قبل السلطات كانت قد وزعت على الشكل التالي :

٧٠ دونماً لكل عائلة مكونة من ثلاثة أفراد .

١٠٠ دونماً لكل عائلة مكونة من ٤ الى ٥ أفراد .

١٣٠ دونماً لكل عائلة مكونة من اكثر من خمسة أفراد .

هذا وان وجود الأرض الوعرة ، البركانية والحجرية ، يعيق التوزيع الجيد للحصص فيما أن كل حصّة يجب ان تضم ، بالإضافة الى القسم الجيد من الأرض قسماً من الأرض الوعرة الحجرية ، يحصل بالنتيجة أن أي ملكية لا يمكن ان تتألف من قطعة واحدة ، والعائلة الواحدة تمتلك غالباً عشرات القطع الصغيرة من الأرض ، متباعدة ومفصولة عن بعضها . وهذا من شأنه ان يجعل من الصعوبة بمكان انجاز استثمار مكثف وجيد لهذه القطع المبعثرة . فالتجميع ولم وصال هذه القطع بالنسبة للقرى الشركسية ضرورة ملحة . ويمكن أن نشير هنا ضمن الحديث عن الملكية المقسمة إلى حالة قرية كل قطع أراضيها الصغيرة ملك لشخص واحد ، وهي حالتيست نادرة في منطقتنا .

ب - ملكية غير مقسمة أو مشاع : وهي الشكل الأكثر شيوعاً في الجولان ويسمى هذا الشكل في اكثر الاحيان بالملكية المشتركة^(١) وان كان من الافضل ان تسمى بالملكية غير المقسمة لان ملكيات الأفراد الخاصة غير معينة بقطع أرض ثابتة أي غير مغرورة عن مجموع أراضي القرية . وان مجموع أراضي القرية المسماة مشاع مقسمة الى مناطق تسمى كل منطقة منها بموقع وعدد هذه المواقع متعلق بالتباينات الطبيعية لأرض القرية .

(١) تجري أعمال المسح العقاري ببطء ، وحتى الآن لم ينجر مسح سوى أراضي

خمس قرى .

وكل موقع مقسم بدوره إلى أجزاء يسمى كل جزء منها بسهم ، وهذا السهم مقسم ايضاً الى اجزاء اصغر يسمى كل جزء منها بربعة . ويتم تقسيم الارض الى ربعات اتفاقياً وبشكل دوري وتتراوح الدورة بين عام وعشرة اعوام . وهنا يجب ان نميز بين :

- الملكية المشاع الكبيرة التي تغطي معظم قضاء فيق .
- الملكية المشاع الصغيرة الموجودة في قضاء القنيطرة وبشكل خاص في قرى (الاسكي تركمان) والدروز .
ان للملكية المشاع نتائج سيئة على الاقتصاد العائلي وبالتالي على مجموع اقتصاد المنطقة :

- فالفلاح لا يستطيع تحسين الأرض التي لا يملكها إلا مؤقتاً ، فهو لا يسمدها ، ولا يحفر فيها آباراً ولا يباشر فيها أي غرس لشجر . والفلاح مجبر على اتباع ما تفرضه متطلبات المجموعة المرتبط بها من تحديد لطبيعة الزراعة ولأوقات اعمال الفلاحة والحصاد في كل موقع . وهكذا فالفلاح لا يملك الحرية في زراعة ما يريد وفي العمل حسب رغباته وحسب شروطه الخاصة .
وفي الوقت الذي تبدو فيه الحاجة الملحة لتوزيع وتحديد الملكيات الخاصة من أجل تحسين اقتصاد القرى ذات الملكية المشاع ، فإن دائرة المصالح العقارية لم تفعل حتى الآن أي شيء في جولاننا .

وحدات القياس للملكية العقارية في الجولان : هناك لبس حقيقي فيما يتعلق بوحدات قياس الملكية العقارية في الجولان اذ توجد تشكيلة مشوشة من الأسماء التي يختلف حساب وقيمة كل اسم منها من قرية الى أخرى .
وسنحاول فيما يلي تحديد الوحدات الأساسية منها :

١ - الدونم : وهو أصغر وحدة قياس ، ونجده في كل مكان حيث يوجد على ثلاثة أشكال :

- الدونم القديم ويساوي ٩١٩ متر مربع
- الدونم الحديث ويساوي ٢٥٠٠ متر مربع وهو حالياً مهمل
- الدونم النظامي ويساوي ١٠٠٠ متر مربع

ويحدد الفلاحون الدونم بشكل فريد ، فهو المساحة التي تتسع لزراعة ٥/٨ مذ من القمح أو صاع من الشعير (المذ يساوي صاعين و١ اوي ٢٠ كغ)

٢ - الخانة : ونجدها في قرى الشركس حيث تقسم كل قطعة إلى عدد من الخانات التي تختلف من قرية إلى أخرى .
الخانة محدودة بين ٧٠ و ١٠٠ و ١٣٠ دونماً حسب عدد أفراد الأسر عند توزيع الأراضي .

٣ - الحصة : ويختلف حسابها ويختلف قيمتها من قرية إلى أخرى ، فقرية سنابر مقسمة إلى ٤٠ حصة ، وكل حصة تساوي فدانين^(١) حيث يساوي كل فدان ٦٠ دونماً . وقرية فيق مقسمة إلى ٤٦٥ حصة أي ٩٧ فداناً وكل حصة مقسمة إلى ٢٤ قيراط . والحصة في فيق تساوي ٣٠٠ دونماً أي ٣ أفدنة . فالفدان هنا يساوي ١٠٠ دونماً في حين لا يزيد الفدان في سنابر عن ٦٠ دونماً . أما قرية عين السمسم فهي مقسمة إلى ٣٣ حصة وكل حصة تساوي فداناً واحداً مساحته ٩٠ دونماً .

٤ - الربعة : تقسم قرية سكوفية إلى ٣٢ ربعة ، وكل ربعة تقسم إلى ٢٤ قيراطاً ، والربعة تساوي ٢٤٠ دونماً أو فدانين . وبالتالي فإن كل فدان يساوي ١٢٠ دونماً .

٥ - السهم : ويستعمل في قرية الدوكا الواقعة على الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة طبريا ، وهو يساوي « باعتبار القرويين ، المساحة التي يمكن أن يزرع فيها أربعة مدد أو ٨٠ كغ من القمح أي ما يساوي مساحة ست دونيات .

طرق استثمار الأرض : يوجد في الجولان شكلان رئيسيان للاستثمار :
أ - استثمار مباشر : وفي هذه الحالة يستثمر المالك أرضه بنفسه ، ويقوم أحياناً بالاستعانة بعمال زراعيين-مأجورين لا حق لهم في الزرع .

ب - استثمار غير مباشر : وهو شكل لمحاخصة بين رأس المال العقاري وعمل

(١) يعني الفدان في اللغة المحلية مقرر الدواب ، وهو يعني أيضاً المساحة التي يمكن

ملاحتها بواسطة فدان واحد .

العمال الزراعيين . وهذه المحاصصة توجد في مناطق الملكية الواسعة كما في مناطق الملكية الصغيرة تحت اشكال مختلفة :

١ - في مناطق الملكية المتوسطة والصغيرة :

١ - المراجعة : والشغيل المسمى بمرايع يتكفل بالقيام بكل الاعمال الزراعية مقابل ٢٥٪ من المحصول . وطعام المراجع عند المالك إذا كان عازباً ، أما إذا كان متزوجاً فإنه يتلقى من المالك مؤونة مؤلفة من ٢٠ مد من الذرة ، ورطل زيت ٢٥ كغ ، ورطل من البصل ، ورطل من الملح ، بالإضافة الى زوج حذاء مع كساء . كما أن المالك يتكفل أيضاً بتأمين السكن للمراجع . ويتم التعاقد مع المراجع وفق ما هو متعارف عليه من عادات دون اتفاق مكتوب . وبعد حصاد ودراسة الحبوب فوق البيادر تجمع على شكل أكوام يسمى كل منها (صبة) . ومن هذه الصبة تسدد أجور النقل للجمالة ، وأجور الحراسة ، وحقوق المختار . ثم يأخذ المالك لنفسه ضريبة العشر ظمناً رغم الغائها . وبما يتبقى وبعد اقتطاع كل ما سبق يحصل المراجع على الربع دون أن يكون له اي حق في التبن .

٢ - المخاصمة : في المراجعة ، المالك هو الذي يقدم وسائل العمل والبذار . أما في المخاصمة فإن شغيل الأرض هو الذي يتكفل بتأمين وسائل العمل والبذار ودفع الأجور . وبعد الحصاد والدراسة ، يأخذ المالك ٢٠٪ من المحصول . ويبقى التبن كله للشغيلة . ولكن منذ عدة سنوات أصبح المالك يأخذ ٢٠٪ من التبن أيضاً .

٣ - المناصفة : يقدم المالك البذار والأرض ، ويقدم الشغيلة الوسائل . وتتم قسمة المحصول مناصفة .

٢ - في مناطق الملكية الكبيرة :

١ - المزارعة : قرية الدوكا هي أحسن ما يمثل هذا الشكل من اشكال الاستثمار . فالمالك الكبير الذي يقطن في دمشق ، كان قد سلم لسكان هذه القرية ، وعددهم ٤٠٠ فرداً ، مساحة من الأرض تساوي ١٢٠٠ دونماً . وقام الفلاحون بصورة اتفاقية بتقسيم الأرض الى مئتي سهم . ويتلقى المالك الذي لا يقدم لا بذاراً ولا وسائل عمل ، ٣٣٪ من المحصول . وذلك عن

طريق وكيله في القرية . وقبل الغاء ضريبة العشر التي كانت تستوفى من قبل الدولة ، كان سكان الدوكا يعطون المالك ٢٠٪ فقط من المحصول .
والياً يقتطع المالك نصف المحصول ، وينذر المزارعين بطردهم خارج أرضه ، وذلك لأن اللاجئين الفلسطينيين يقدمون يد عمل رخيصة .
وفي عام ١٩٥٥ ذهب مختار هذه القرية إلى انقرة واطلع على سجلات الطابو القديمة ، واستطاع أن يجلب معه وثائق تثبت أن أراضي هذه القرية هي بأسماء جدد السكان الحاليين للقرية ، وأن السندات التي يملكها المالك الكبير قد استخرجت في درعا بتاريخ حديث لاحق ، وفي ظروف غامضة ، وهكذا بدأ نزاع قوي جداً بين الفلاحين وبين المالك . والمحاكم التي رفع الفلاحون امامها الدعوى لم تفصل بها حتى الآن ، الامر الذي وضع الفلاحين امام حالة حرجية وصعبة جداً ، استغلها المالك فأنذرهم بضرورة سحب شكواهم خلال عشرة أشهر والاعتراف بملكيتهم وإلا قام بطردهم من القرية .

٢- الأيجار : واحسن مثال على شكل هذه المحاصصة نجده في قرية نعران التي تغطي مساحتها ٢٠٠٠ دونماً تقريباً ، ويملكها مالك واحد من أصل فلسطيني يقطن في دمشق . فالمالك في هذه القرية يؤجر الأرض مقابل ٤٥٠٠ ل . س . في السنة وعندما يؤجر الأرض لشخصين فيتقاضى ١٥٠٠ ل . س . من كل واحد منهما ، إجرة ١/٣ مساحة الأرض . ويبقى لنفسه الحصة الثالثة . ويتحمل الشركاء الثلاثة (المستأجران وصاحب الأرض) أعباء ومصاريف الاستثمار متساوين . وكذلك يتقاسمون الفوائد الناتجة . علماً بأن الشركاء الثلاثة لا يعملون في الأرض بأنفسهم ، إنما يقومون باستئجارها بشكل غير مباشر ، وذلك إما بالاتفاق مع المزارعين الموجودين في القرية والذين يملكون أدوات انتاج ، مقابل ٣٣٪ من المحصول للشركاء الثلاثة والباقي للمزارعين . أو بالاتفاق مع المزارعين الذين لا يملكون ادوات انتاج إنما يملكون فقط عملهم في الأرض والذين يحصلون مقابلته على ٢٥٪ من الانتاج . وهكذا فالنتيجة النهائية هي أن المالك والمستأجرين لا يعملون ، مع ذلك فانهم يتقاضون حصة الاسد من المحصول

اساليب الزراعة والدورات الزراعية :

١ - أسلوب إراحة الأرض أو تركها مراعى : ويقوم هذا الاسلوب على ترك الأرض التي زُرعت عدة سنوات متتابعة ، دورة زراعية بشكل مرعى ، لترتاح وتستعيد خصوبتها خلال فترة محدودة . وتتبع هذه الطريقة في الأراضي الفقيرة التي تستنفذ خصوبتها بعد استثمارها عدة سنوات . والاراحة الطويلة لمثل هذه الأرض تتيح لها استرجاع بعض ما فقدته من مواد مغذية أو مخضبة ، خاصة الآزوت .

٢ - أسلوب زراعة دورة السنتين : وهو الذي تقسم فيه ارض الفلاح إلى قسمين : الأول يخصص للزراعات الشتوية (شتوي) والثاني للزراعات الصيفية (صيفي) . وبهذه الطريقة في استثمار الأرض ، لا تترك الأرض لترتاح كما في الطريقة السابقة ، إنما تزرع بشكل متتابع بالحبوب الشتوية ثم الصيفية فالحبوب الشتوية القمح والشعير تبذر قبل أو بعد مطرات الخريف الأولى مباشرة (تشرين الاول - تشرين الثاني) فيكون الحصاد بين أيار وحزيران ، ثم تترك الأرض حتى شهر أيلول ، حيث يقوم الفلاح بفلاحتها لاجتثاث جذور النباتات القديمة ، ولتلقى بشكل جيد ومشيّع امطار الشتاء بانتظار الربيع . وهذه الأرض المفلوحة ، والتي تشبعت بهاء الشتاء ، تخصص لزراعة الذرة الصفراء أو البيضاء التي يتم بذارها في نهاية آذار أو مطلع نيسان . وبعد جمع الذرة واقتلاع جذورها في شهر آب ، تزرع مباشرة بالقمح أو الشعير دون الحاجة الى فلاحتها وتركها للراحة . وقد تأكد بالتجربة أن القمح يعطي ، حين يزرع في أراضي كانت مزروعة بالذرة ، مردوداً أكبر مما لو زرع في أرض تركت للراحة دون زراعة .

وهذه الطريقة في زراعة الأرض دون اراحتها باتباع دورات شتوية وصيفية معروفة بشكل خاص في الشمال من منطقتنا .

٣ - أسلوب زراعة دورة الثلاث سنوات مع الاراحة للأرض : وفي هذا الاسلوب تقسم أرض الفلاح إلى ثلاثة أقسام :
- قسم يخصص لزراعة الحبوب الشتوية .
- وآخر يخصص للزراعات الصيفية .

- والثالث يترك بوراً للراحة ، حيث يحرق في الصيف ليتشمس بشكل كاف ويسمى (بالأرض الشمسية) .

وتتعاقد المزروعات في القسم الواحد بدورة منتظمة كل ثلاث سنوات . سنة تترك الأرض فيها بوراً رغم فلاحتها لتشمس ، يليها سنة تزرع فيها بزرعات صيفية (ذرة صفراء أو بيضاء) أخيراً وفي السنة الثالثة تزرع بزرعات شتوية (قمح وشعير) . ويكثر اتباع هذه الطريقة في جنوب الجولان .

٤ - اسلوب الزراعة الحرة : في الأرض الجيدة ، وبشكل خاص عندما تكون مروية يبقى الفلاح حراً فلا يخضع لنظام معين أو يتبع دورة خاصة في زراعة أرضه لفترة طويلة ، إنما يغير النظام من سنة لأخرى ، حسب ظروفه ، وحسب شروط المناخ والمياه المتوفرة للري .

الأعمال الزراعية : الاساليب والادوات :

الاساليب والادوات المتبعة والمستعملة في العمل الزراعي بسيطة جداً بل وقديمة . فكما هو الحال بالنسبة لكل ما له علاقة بالفلاح وحياته ، فإن التقنية الزراعية لم تتطور منذ العصور القديمة . فلاح الجولان ، المحافظ بطبيعته ، والضعيف بمؤهلاته الاقتصادية والاجتماعية ، يبقى متمسكاً بالمفاهيم والاساليب المتوارثة منذ أجيال . لذلك فالمحراث السومري لا زال يستعمل في كل مكان من منطقتنا . وهو يتألف من أداة بسيطة من الخشب مع محراث معدني مرتبط بواسطة الاداة (الكدان) بواسطة نير من الخشب . علماً بأن هذه الاداة البدائية تبدو ملائمة لمنطقتنا الوعرة ذات التربة القليلة العمق والحجرية .

وتجري عملية البذر باليد ، وفي الزراعة الشتوية ، يرش الفلاح البذر فوق الارض بيده أولاً ، ثم يبدأ بالفلاحة . وتتم عملية بذر الذرة الصفراء والحمص حبة فحبة بشكل خطوط ، وذلك بأن تقوم زوجة الفلاح أو ابنة بالسير خلف المحراث لرمي البذور حبة فحبة في الخط الذي يشقه المحراث . ويجب الاشارة هنا إلى أن الفلاح لا يزرع الحبوب التي تنتجها أرضه ، إنما

يشترى بذاره من حوران وذلك من أجل تحسين المردود .
وتكثر النباتات الطفيلية بين المزروعات وتعيق نموها وتسبب بالتالي
خسارة كبيرة في المحصول ، لان عمليات التمشيط ونزع الاعشاب الضارة
لا تمارس إلا بشكل نادر في الجولان .
وبدأ من منتصف شهر أيار يبدأ حصاد الشعير . وبمطلع حزيران يبدأ
حصاد القمح . والمنجل هو الأداة الوحيدة المستعملة في عملية الحصاد .
وغالباً ما يقتلع الشعير باليد بسبب قصر عيدانه . والمنجل الكبير ذو القبضة
الخشبية الذي ادخله الشركس الى المنطقة ، يستعمل فقط من اجل حش
الاعشاب من البراري الطبيعية للاستفادة منها كعلف .
وتقوم النساء البدويات بعملية الالتقاط خلف الحصادين ، وهي عملية
تقليدية ومسموح بها . وكل ما يسقط من سنابل يترك عادة هن . إلا أن وكيل
أحد الكبار قام في عام ١٩٥٥ بحجز اللاقطات ومصادرة ثلث ما التقطته .
ويترك الحصادون الحصيد خلفهم بشكل حزم ، يرجعون بعد أيام
لجمعها على شكل أكداس يساوي كل واحد منها حمل جمل ، وتثقل هذه
الأكداس بقطع كبيرة من الحجارة حتى لا تذروها الرياح .
ويتم نقل الحصيد الى البيادر بواسطة الجمال ، بواسطة النقل
التقليدية . ولقد ادخل الشركس الى الجولان عربات اهملت حالياً
بسبب صعوبة استخدامها في منطقة وعرة وصخرية مثل الجولان (الصورة
١٦ - ٣ صفحة ٦٤٨ من الكتاب) .
ويجب ان يحف الحصيد على البيادر تماماً قبل بدء عملية الدراسة
بواسطة الدراسة التي تسمى (اللوح) وهي عبارة عن قطعة عريضة من
الخشب السميك غرست على سطحها الداخلي قطع من البازلت أو الصوان
ويقوم ثوران بجرح هذه الآلة فوق البيدر الذي نشرت عليه أكوام القمح
والشعير . ومن أجل زيادة الوزن يجلس من يقود الثورين فوق أرض اللوح .
ويستحوذ العمل في البيادر على كل نشاط القرية ، فتحت الشمس
المحترقة يستمر العمل بلا كلل في العشرات من حلقات الدراسة حول البيادر

حتى المغيب . وتنتهي عملية الدراسة عندما تنفصل الحبات تماماً ويتقطع القش الى أجزاء صغيرة تسمى التبن . وعند ذلك يجمع الحاصل بشكل أكوام تهيئة لعملية التذرية التي تبدأ بعد الظهر من كل يوم مع هبوب الرياح الغربي الذي يستمر بانتظام حتى منتصف الليل . وتستخدم المدرة ذات الاسنان الخشبية أو المعدنية في عملية التذرية التي تستغرق وقتاً طويلاً ومتعباً رغم بساطتها . ويستعان احياناً بأكنة التذرية والتي هي عبارة عن مروحة كبيرة تستعمل غالباً في تذرية الرز ، يقوم مالك هذه الماكنة بتأجيرها للفلاحين مقابل ١٥٪ من الحبوب . وعلى العموم ان عملية التذرية عملية تعاونية ، يتعاون في انجازها كل الفلاحين

هذا واثناء المدة الطويلة لعملية الدراسة والتذرية ، تختلط الحبوب بقطع من التربة والحجارة المقتلعة من أرض البيدر ، لذا يجب غسل الحبوب التي تخصص للغذاء ثم تجفيفها قبل خزنها . ويتم عملية التجفيف فوق اسطحة المنازل أو فوق الحصر .

وان آخر عملية في زمرة الاعمال الزراعية ، هي خزن التبن ، وهي عملية شاقة جداً ويتم غالباً اثناء الليالي المقمرة . وعندما تتم عملية خزن التبن تبدأ عطلة الفلاح ، ويكون المربع قد أنجز عقد عمله . وهكذا فإن زراعة جولاننا مطبوعة بالفقدان التام للألات الزراعية . وموقف هذه المنطقة من دخول التقنية الحديثة سلبي عموماً والاسباب في ذلك عديدة :

- ١ - القدرة الشرائية لفلاحنا ضعيفة إلى حد انه لا يستطيع شراء الآلات .
- ٢ - الفلاح لا يؤمن بان الآلة قادرة على تحسين المردود بدرجة كافية لتغطية الاسعار المرتفعة للألات .
- ٣ - نظام تملك الأراضي حائل حقيقي ، فالملكية الصغيرة لا تمتلك القدرة اللازمة للشراء ، كما ان الملكية الكبيرة لا تعتقد ايضاً بفائدة الآلة .
- ٤ - الجولان منطقة بركانية وعرة وحجرية ، وصلاحياتها لدخول الآلة تبدو محدودة .

٥ - في ظل الواقع الحالي للأمور ، ينذر إدخال الآلات الزراعية الى الجولان بخلق مصاعب خطيرة في المجال الاجتماعي ، اذ انه سيخلق منافسة بين اليد العاملة الزراعية التي لا تملك ارضاً ، وبين الآلة . ويمكن ان يكون الخطر اعظم في العزب (الملكيات الواسعة التي تستثمر بشكل بدائي بواسطة الفلاحين المأجورين) التي لا يمكن تصور مصير العدد الكبير من الفلاحين المأجورين فيها عندما يستبدلون بالآلات وهم لا يتقنون إلا العمل الزراعي ولا سبيل آخر لهم لتأمين العيش .

الري :

١ - مشكلة المياه في مجال الزراعة :

تظهر مشكلة المياه بالنسبة للزراعة ولتربية الماشية بوضوح في منطقة مثل الجولان انفرد سكانها أساساً الى هذا العمل . وليس عدم كفاية كمية الامطار هو الاساس في هذه المشكلة ، فالجولان ، كما أشرنا اكثر من مرة ، يحظى بكمية جيدة من المطر . إنما تكمن المشكلة في نظام الامطار الذي يسبب الاضرار الكبيرة . إذ نادراً ما ينسجم هذا النظام حتى في الشتاء ، مع حاجات المزروعات والأعمال الزراعية . فالفصل الربيعي يبدأ بالخريف ، والامطار الخريفية مفيدة جداً بشكل عام ، فهي تسهل أعمال الفلاحة والبذار . إلا ان عدم انتظام كميتها في الفصل الواحد ، ومن فصل الى آخر ، يضعف من فائدتها ، ويجعلها احياناً غير ملائمة . والذي يحصل غالباً ان الفلاحين ، مع توقع مطر خريفي مبكر ، يقومون بعملية البذار التي يسمونها (عفير) . وهنا يحتمل وقوع ثلاث حالات :

١ - تهطل الامطار في الوقت المناسب وبكميات كافية للانبات . وتستمر بالهطول دون فواصل طويلة . في هذه الحالة يزدهر الزرع ويعطي محصولاً جيداً .

٢ - تتأخر الامطار ، وهذا أمر كثير الوقوع ، فتكون النتيجة ان الحبوب المبدورة في الأرض إما ان تموت مع رطوبة الندى غير الكافية ، أو أن تقوم الطيور المهاجرة (الزراير) بالتقاطها ، والحشرات والقوارض بقرضها ..

وبالتالي يتوجب إعادة الفلاحة ومن ثم تجديد البذار بعد سقوط الامطار .
وغالباً لا تكون المحاصيل جيدة في هذه الحالة .

٣ - تسقط امطار مبكرة بشكل كاف للأنبات ، ثم تتوقف لمدة طويلة مما يعرض
النبات للخطر .

وعلى العموم ، اذا كان المناخ الخريفي سيئاً ، تجف وتضعف النباتات
الصغيرة بشكل كامل ، وبالتالي ينعدم مردود زراعات الشتاء المسماة
(شتوي) .

ولأمطار الشتاء بالذات أهمية في عمليات تنعيم وتهوية الأرض التي
فلحت بعمق في الخريف . فهي تسهل تغذية الجذور وتحد من حدوث
التقلبات الحرارية الكبيرة للأرض .

وبالمقابل فإن هذه الامطار يمكن أن تغرق الأراضي المهيأة والمفلوحة في
الخريف ، فتعرقل أو قد تمنع عملية البذار التي يجب أن تتم بمجرد ابتلال
الأرض بدرجة كافية . وهكذا تتحول الحقول التي فلحت بعمق الى
مستنقعات حقيقية موحلة يتعذر العمل فيها . كما أن هذا الغمر ، إذا ما جاء
بعد عملية البذار ، يمكن أن يثلف الحبات ، أو يخنق الشتلات . فتتحول
الحقول التي زرعت بعناية الى براري حقيقية للأعشاب .

وبقدم الربيع ، تعود الحرارة ويعود الجفاف ولكن بشكل غير عنيف
ولا ضار لأن القمح والشعير قد أصبحا بشكل سنابل ، والامطار الغزيرة لم تعد
ضرورية جداً للزراعات الشتوية التي اقترب تمام نموها .

وعلى العكس ، إن للامطار الربيعية أهمية اساسية بالنسبة للزراعات
الصيفية المسماة (صيفي) والمثل القروني المحلي الذي يقول « مطر نيسان
يساوي السكة والفدان » . أحسن دليل على ذلك .

وفي الصيف تصبح السماء بخيلة ولا تدر على الأرض العطشى ولا نقطة
ماء . وهكذا فإن الاقتصاد الريفي بكامله سيبقى تابعاً لنزوة تذبذب المطر ،
إذا لم يعالج هذا الامر بري نظامي يزود الزراعات الشتوية ، وكذلك
الصيفية ، بالدعم اللازم من الماء ليتم نموها ولتتخلص من الاعتماد على
احتمالات الشروط الجوية . مما تقدم تتوضح طبيعة صفة القهر للمسألة المائية

في سورية ولبنان ، والضرورة الملحة لوضع الحلول لها^(١) .
 ويخضع النشاط الرعوي ايضاً لرحمة الطبيعة بشكل خطير ، فقطعان
 البدو المحرومة من الملاجئ ، يمكن ان يهلك أكثر من عشرين وبشكل قاسٍ
 غير مألوف نتيجة لجفاف غير منتظر . وهكذا فكل اقتصاد الجولان ، ومعظمه
 ريفي ، يتأثر بتقلبات كمية المطر .

هذا وأن الاوضاع الديموغرافية للسكان في الجولان تدعم الشروط
 الجوية للماء وتساعد على تفاقم نتائجها . إن النمو السريع للسكان يتطلب
 زيادة موازية ومنظمة ودائمة من الانتاج لتغذية الافواه الجديدة التي تفتح كل
 سنة .

ونتيجة للأحصائيات الرسمية قدر عدد من كان يسكن في قضائي
 القنيطرة وفيق في عام ١٩٥٥ ب ٨٦٨٦٣ نسمة في حين كان العدد قبل خمس
 سنين ٦٦٢١٦ نسمة ، فالزيادة اذن كانت خلال هذه الفترة ٢٠٦٤٧ نسمة
 أي ما يساوي ٣٠٪ بالنسبة لسكان عام ١٩٥٠ . ودون أي مناقشة لطبيعة
 هذه الزيادة ، فانها تستوجب ان تجابه بزيادة في الانتاج .

وتشكل الزراعة مع ما يلحق بها من تربية للمواشي النشاط الرئيسي في
 هذه المنطقة . والانتاج الزراعي ، في ظل الواقع الحالي للأمر ، هو الذي
 يمكن بل ويجب ان يزيد بسهولة . وهذا يستوجب ، قبل كل شيء استثماراً
 كثيفاً وعقلانياً لكل المصادر المائية من أجل توسيع قطاع الزراعة المروية التي
 سيكون من أولى نتائجها الحد من سيطرة الاحتمالات المناخية .

وفي الواقع ، لقد اتخذت المبادرة منذ بضع سنين واتسعت المساحات
 المروية بنسبة معتبرة ، إلا ان هذه المبادرة لم تتقدم بشكل كاف ، لانها قامت
 على نطاق فردي لا يسمح بقيام ري منسق وموجه للاستغلال الكامل للماء في
 كل مكان .

إن توسيع وتطوير قطاع الري يعني زيادة وتنظيم الانتاج الزراعي ،
 وبالتالي تحسين شروط الحياة الريفية . وان المهمة الملحة ، في الواقع ، والتي

(١) مظلوم . مشكلة الماء في سورية ص : ٣٧ .

تتطلب معالجة سريعة ، هي رفع مستوى حياة الفلاحين المنخفض في كل بلدان الشرق الاوسط إلى درجة اعلى .

ملكية واستثمار الماء في الجولان :

لأخذ فكرة كاملة لمشكلة الماء ، يجب أن نضيف الى الشروط الطبيعية للمشكلة ، الشروط المتعلقة بملكية واستثمار الماء .

لقد فرق القانونون المدني العثماني بين مصادر الماء العامة المشتركة ذات النفع العام ، وبين تلك التي تخص الافراد .

١ - فعندما يكون المجرى عاماً ، يحق لكل فرد أن يأخذ منه الماء اللازم لسقاية أرضه بأية وسيلة ، مع مراعاة شرط واحد ، هو أن لا تكون الكمية المأخوذة على حساب المصلحة العامة المشتركة فلا يترك لها ما هو ضروري .

٢ - أما عندما يكون المجرى ملكاً للأفراد ، أو لمجموعة تسكن في قرية أو مدينة ، فإن حق الاستفادة من هذا المجرى يبقى محصوراً بالمالكين فقط ، حسب العرف والعادات القائمة بالنسبة لكل مجرى ماء .

ومن المفيد ، أن نشير هنا إلى ان لعامة الناس الحق باقتطاع الكمية اللازمة لحاجاتهم وحاجات حيواناتهم من أي مجرى مائي . وقد أشار المشرع الى هذا الحق بشكل معبر فساه (حق الشفة) . والرسول ﷺ أكد بدوره على هذا الحق العام حين قال « ثلاثة اشياء يشترك فيها كل البشر : الهواء والماء والكأ » .

إلا ان القانونون الصادر بتاريخ ١٩٢٥/١١/٦ حول الممتلكات العامة ، قد اعتبر كل المجاري المائية والينابيع غير المملوكة من الأفراد أو الجماعات حتى هذا التاريخ ، ومهما كانت اهميتها ، ممتلكات عامة . يخضع حق الانتفاع من مائها لأجل الري أو لأي استعمال آخر ، لاذن من الدولة . إن مالك أي أرض ، يملك أيضاً وبشكل عام الماء الذي يروي هذه الأرض . فالماء يباع مع الأرض . وهذا عرف متفق عليه حتى اذا لم يأت في عقد البيع نص بذلك . إن الأرض والماء في الجولان ، بؤجران وبيعان سوية في أغلب الاحيان . ومع ذلك فقد يفصلان في عدد من الحالات ، كما في حالة

ان يكون لقريه من الماء ما يزيد عن حاجاتها ، فتؤجر هذا الماء الزائد لقريه أخرى مجاورة أقل غنى بالينابيع . وهذا هو حال قرية العليقة التي كانت قد استنزفت خصوبة مزارعها بزراعة الرز ، فاضطرت في عام ١٩٥٦ لتأجير مياهها لقريه نعران التي كانت أراضيها الجيدة الملائمة لزراعة الرز بأمر الحاجة لمزيد من المياه . وقيمة الايجار التي يجب ان تدفع عينا من المحصول ، كانت تختلف من حالة لأخرى . ولكنها في كل الاحوال لم تكن أقل من ٢٥٪ . الامر الذي يوضح اهمية الماء ، فهو في الجولان ثروة يطعم بها .

وفي قرى الملكية العقارية المشاع ، حيث يخضع الماء لأسلوب الملكية نفسه ، يقوم الفلاحون الذين لا يستطيعون اقتسام الماء بسبب أسلوب الملكية المشاع ، والذين لا يملكون امكانية القيام بزراعة مكلفة كالرز ، بتأجير أرضهم ومائهم لوجهاء أغنياء يأتون من المدينة أو من قرى أخرى ، قادرين على تنفيذ العمليات اللازمة لجبر المياه وللري وتقديم كل ما يلزم من نفقات . وفي الوقت نفسه ، يقوم مالكو الأرض بالعمل لدى هؤلاء المستأجرين مقابل ٣٣٪ من المحصول في نهاية العام . وقد زادت هذه الحصة الى ٥٠٪ نتيجة للتنافس الشديد الذي وقع بين المستأجرين .

إن القوانين المنظمة لتوزيع واستثمار المياه في سورية سيئة بشكل عام ، وخاصة في الجولان . فهذه القوانين التي خضعت خلال قرن لما يسمى بالعرف ، والتي تختلف من منطقة لأخرى ، معقدة جداً . وليس من السهل إبطائها وإبدالها بنظام توزيع حديث ومعقول . فحتى بداية الحرب العالمية الثانية ، لم يعرف الجولان رياً حقيقياً . وكان السكان يكتفون بزراعة مساحات صغيرة بالخضار للاستهلاك العائلي . وكان القسم الأكبر من المياه يضيع في الأودية .

وأول من أدخل الزراعة المروية للرز والقطن إلى الجولان هو شخص أرميني . وقد دفع النجاح الكبير الذي حققه هذا الشخص إلى أهمية زراعة الرز . واصبح الماء الذي لم يكن له قيمة ، يخضع لاستثمار كثيف ، ولتوزيع دقيق . مع ذلك لم يعرف الجولان نظاماً مائياً كالنظام المعقد المتعارف عليه في

غوطة دمشق . ففي كل القرى التي تمارس الري ، يتكيف نظام توزيع الماء مع الشروط التي تفرضها الطبوغرافية المحلية . لذلك لا زال قسم من أراضي كل قرى الجولان لا يمكن ريه ، على الأقل في ظل الظروف الحالية ، بسبب عدم ملائمة الشروط الطبوغرافية .

- فعندما تكون الأراضي المراد ريهها ممتدة على خاصرة وادٍ ، أو على سطح مائل ، يتم الري بسهولة وبواسطة قنال رئيسي يغذي فروعاً ثانوية .

- وعندما تكون الأراضي المراد ريهها شاذة لمنحدر وادٍ ، فإن صبيب النبع يجب أن يقسم الى فرعين ، يسقي كل واحد منها اراضي السفح الواحد تبعاً حتى سافلة الوادي .

وفي الواقع ، أن مسألة التوزيع ، يجب أن تبحث على شكلين مختلفين : شكل التوزيع لقرية واحدة ، وشكل التوزيع على قريتين أو أكثر لها الحق في المياه نفسها .

١ - توزيع المياه على قطع مختلفة تابعة لأرض واحدة : نتيجة لخطأ القوانين المدونة ، يسيطر العرف على توزيع الماء على المستحقين . فمن حيث المبدأ ، الحق المكتسب للماء يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع الملكية العقارية ، وكل مالك له الحق في الماء بشكل يتناسب مع حصته العقارية . فملكية الأراضي تضم بشكل آلي الحق في الري ، والماء في القرى التي يسود فيها نظام الملكية المشاع ، متمم للأرض بشكل لا خلاف حوله . ولكن ملكية الماء ليست مرتبطة بمساحة الأرض المروية ، إنما بعدد الوحدات الزراعية (فدان ، ربعة ، دونم) المشار اليها في سند التملك (الطابو) . والأمر على عكس ذلك في قرى الملكية الفردية اذ يكون مفهوم الحق المكتسب للماء فيها دقيقاً جداً ، وهو يتوقف على تطور التجمع المائي بما ينفذه من أعمال هامة لجر المياه وللبناء :

هذا وحينما يكون الماء وافراً بالنسبة لمساحة القسم المروي ، فإن موضوع الحق ومسألة التوزيع تبقى أموراً غير مطروحة . ويقوم كل من الفلاح والمستأجر بري حقوله دون الاهتمام بأي وجود أو أي صفة لحق الاستعمال . ولكن ليس هذا ما يحصل دائماً . فالاختلافات الفصلية لغزارة الينابيع هي أساس التعقيد لمشكلة الماء . وبانتهاء الربيع ، تقل الغزارة ، في الوقت الذي

تزداد فيه الحاجة للري . والذي يحدث غالباً في الجولان أن ملكية الأرض تصبح معقدة جداً نتيجة للبيع ولتقسيم حصة الأسلاف بين الورثة . وقد كان لهذا التعقيد للملكية العقارية ، بطبيعة الحال ، انعكاسات على ملكية الماء . وهذا ما كان يحدث عندما يغيب العرف أحياناً في بعض القرى . فيقوم كل واحد ، وحسبما يستطيع ، بالدفاع عن زرعه ضد الجفاف ، حتى لو كان ذلك على حساب حرمان جاره من حقه في الماء . كما يقوم كل فرد ، أو كل جماعة ، بالدفاع بشراسة عما تظن أنه من مصلحتها المباشرة . وهذه الحالات ليست نادرة في الجولان ، وهو في غمرة التطور الاجتماعي ، والدولة لم تتدخل بعد لتثبيت أعمال دائرة المصالح العقارية (الكاداستر) .

في غالب الحالات كان العرف عادةً يضمن لكل من له حق في حصة من الماء ، امكانية الحصول على جزء من الحجم الذي أقره التجمع ، والذي يمكن أن يتبدل خلال السنة حسب الفصول . إلا أن حصة الماء لا تقدر بالحجم ، بل تبقى الماء خلال زمن محدود لكل قطعة من الأرض وحسب نظام يسمى (العدان)^(١) ولا احد يستطيع تغيير دوره الميثب في الانتفاع ، ولا التخلي عنه لملك أرض ليس له حق الانتفاع من هذا النبع . وفي الحقيقة ، ان العدان المطبق في الغوطة ، أو في القلمون ، لا يصلح للتطبيق في قرى نظام المشاع في الجولان . فهنا التوزيع الدوري بسيط جداً ، والقسم الأكبر من ماء الري يخصص لمزارع الرز التي تتطلب الماء بشكل دائم .

وهكذا فإن التوزيع الدوري المسمى (عدان) ، قد استبدل بتوزيع حتمي للماء . فأصحاب الحق في الماء ، يحاولون الاقلال بقدر الامكان من عدد المستفيدين عن طريق جمعهم في مجموعتين أو ثلاثة مجموعات ، أو تأجير مجموع الماء لشخص واحد أو لشركة .

ويجري توزيع الماء حسب طريقة بدائية جداً . إذ يجري اختيار مكان من المجرى يكون مسطحاً بوجه التقريب ، ثم يقاس عرض المجرى في هذا

(١) للتفاصيل المتعلقة بالعدان راجع تنظيم الموصل في مشكلة المياه في سورية ص :

المكان بواسطة جبل أو عود من القصب حتى يمكن فيما بعد تقسيم كتلة الماء إلى قسمين أو ثلاثة أقسام ، حسب عدد المستفيدين ، وليستطع كل واحد الاستفادة من حصته طيلة السنة . وهذه الطريقة يتساوى المستفيدون بحالة نقصان المياه أو زيادتها والتي يمكن أن تقع خلال أيام السنة . مع ذلك فإن هذا التوزيع يبقى دوماً موضوعاً لحرمان من حق يمكن أن يقع ، وبالنسبة موضوعاً لخلاف .

٢ - توزيع مياه مصدر مائي بين أراضي قريتين أو أكثر : تحتاز بعض المجاري المائية أراضي عدة قرى . وقد جاء في الموضوع ١٢٦٢ من مجلة « القانون المدني العثماني » ما يلي : « ان الاستفادة من مياه مجرى مائي عام لأجل ري الأراضي ، أمر حرّ تماماً ، بشرط لا يؤدي ذلك الى جفاف المجرى » . لذلك فإن تجمعات عالية المجرى تستطيع الاستفادة منه أكثر ، وبالتالي الاضرار بمجموعات سافلتها . والمستعملون الاوائل يبددون الماء ، إلا أن الجزء الباقي منه يتجمع من جديد في الاماكن المنخفضة من الوادي ليصل الى تناول القرى الأخرى .

وهكذا فإن وادي البحران ، الذي ينبع من عرنة (جنوب شرق الحرمون) بعد أن يسقي أراضي هذه المنطقة ، تعود مياهه الفائضة الى المجرى لتقسم إلى قسمين : قسم لبيت تيا والآخر لقريتي كفرحور وحينه . كذلك هي حالة الأودية الرافدة لنهر الأردن ، والخسارات الضخمة التي يمكن أن يتصورها المرء والتي ينزلها هذا النظام بقرى السافلة ، ان كان بسبب التبخر الشديد عندما ينتشر الماء بشكل طبقة فوق مساحة كبيرة . أو بسبب التسرب الذي ينتهي بجزء كبير من الماء إلى الاعماق عبر الشقوق الكثيرة الموجودة في الأراضي البازلتية .

والذي يحدث غالباً ، مع عدم وجود حدود محددة وثابتة بين أراضي القرى المتجاورة ، وبسبب الالتباس في سندات التملك (الطابو) . ان يختلف سكان قريتين حول ملكية نبع أو رأس مجرى مائي ، وقد أخذت مثل هذه الخلافات ، حديثاً ، وضعاً حاداً ، يندران ينتهي دون أضرار ، وحتى دون

ضحايا . ان القانون المدني العثماني ، كان قد ثبت بعض القواعد لمثل هذه الخلافات ، فالخلافات يجب ان تعرض على الكبار من أهل القرى ، حافظى العرف ، إلا ان لجنة الخبراء لا تحل الا الخلافات البسيطة أما النزاعات الكبيرة فيجب ان ترفع الى قاضي المدينة . وان قرار المنسوب السامي رقم ٣٢٠ تاريخ ٢٩ أيار ١٩٢٦ كان قد نص على إنشاء لجان خاصة لتسوية الخلافات ، وتسجيل الحقوق المكتسبة للماء . وتتألف اللجنة من خمسة أعضاء : قاضي للرئاسة ، ثم مهندس مياه ، وممثل عن السجل العقاري واثنين من الوجهاء .

والذي يحدث في الجولان غالباً ، هو ان اللجنة الخاصة ، بعد ان تزور المواقع والينابيع التي يدور الخلاف حولها ، تجد نفسها أمام حالات غامضة جداً ، فتحول حل المشكلة الى محكمين محليين ذوي خبرة .

الخلاصة ، ان توزيع المياه في منطقتنا ، ينظم بالعرف فقط ، وهويعاني من التفكك والتناقض ومن عيوب متعددة تجعله في غالب الأحيان غير عادل . وحالات الالتباس ، والخلافات المستمرة ، كان لها نتيجة هامة في كل القرى التي تمتلك من الماء ما يكفي لممارسة زراعة مروية . وقد خلقت فئة مستأجري الماء هذه النتيجة . فالقرويون يقومون ، لانهاء الخلافات الطويلة والدموية ، بتأجير الماء جماعة لوجيه قادر يفرض احترامه . وهكذا فان ٦٦٪ من الفوائد تعود لمثل هؤلاء المستأجرين .

٣ - توزيع المساحات المروية في الجولان : ان ما تجدر الاشارة اليه في البداية ، وجود ري طبيعي دون أي تقنية تبذل من أجله . والمساحات المروية في هذه الحالة هي التي يسمح وضعها الطبرغرافي للمياه بأن تغمرها . وحالياً لا يستفاد من مياه الجولان بكاملها في الري ، إذ ان جزءاً كبيراً منها لا يزال يضيع في الاودية . والجدول التالي يبين توزيع المساحات المروية في قضائي القنيطرة وفتح ما بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٦^(١) .

(١) كل الاحصاءات الخاصة بالزراعة مأخوذة من المصادر الرسمية لوزارة الزراعة السورية .

القضاء	السنة	المساحة المروية	% من المساحة المروية في	% من مجموع القضاء
القنيطرة	١٩٥٠	٦٧٠٠ هـ	٢٣	٥
	٥١	٦٩٨٠	٢٤	٥٢
	٥٢	=	=	=
	٥٣	=	=	=
	٥٤	=	=	=
	٥٦	٧١٢٠	=	=
لبيق	١٩٥٠	٦٥٠	١٦	١١
	٥١	٧٠٠٠	١٥	١٢
	٥٢	=	=	=
	٥٣	١٠٠٠٠	٢٠	١٧
	٥٤	١٧٤٠	٢٢	١٢
	٥٥	=	=	=
	٥٦	٤٤٣٩	٩	٧

ويسمح لنا الجدول السابق بتسجيل النقاط التالية :

- المساحات المروية في منطقتنا ليست ثابتة ، لانها تتعلق بغزارة الينابيع التي تتأثر بشكل كبير بتذبذب كمية الامطار ، وهذه صفة مميزة للجولان .
 - ان نسبة المساحة المروية الى المساحة المزروعة هي اكبر في الشمال .
 وبالعكس فان نسبة المساحة المروية الى المساحة العامة للارض هي اكبر في الجنوب . الامر الذي يفسر بأن جزءاً كبيراً من مساحة قضاء القنيطرة تشغله البراري والغابات .

وحسب طريقة الري نستطيع ان نميز مراً مختلفة من الاراضي المروية التي تتوزع مساحاتها حسب الجدول التالي .

القضاء	السنة	المجموع	مروية	مروية	بأبار	بأبار	بالسول
			بمجارى باقية	ومضخات	أغتراف		
	١٩٥١	٦٩٨٠ هـ	٢٤٨٠ هـ	٣٦٨٠ هـ	—	١٢٠ هـ	١٦٠ هـ
	١٩٥٢	=	=	=	—	=	=
القنيطرة	١٩٥٣	=	=	=	—	=	=
	٥٤	=	=	=	—	=	=
	٥٥	=	=	=	١٠٨	=	=
	٥٦	=	٤١٧٠	٢٨٩٥	٣	١٤	٣٨
	١٩٥١	٧٠٩٠	٦٠٠٠	١٠٣٠	٦٠	—	—
	٥٢	=	=	=	=	—	—
ليق	٥٣	١٠٠٠٠	٨٥٠٠	١٥٠٠	=	—	—
	٥٤	٧١٤٠	٦١٣٠	١٠٥٠	=	—	—
	٥٥	=	=	=	=	—	—
	٥٦	٤٤٣٩	٣٩٢٠	٤٥٠	=	—	—

اذن يجري بصورة اساسية بواسطة مجاري المياه والاقنية المشتقة . وقنال البطيحة المسمى بقرنال العفريتية هو أهم الاقنية في منطقتنا . وان هذا القنال الذي يبلغ طوله ١٠ كم وعرضه ٢ م والمشتق من نهر الاردن شمال القرية الصغيرة خان الدكة ، يروي ارض هذه القرية وأراضي الطواحين وتل أعور والدردارة وغزيل والقطوع واخير واالدوكا . وتبلغ المساحة التي يروها ١٥٥٠٠ دونماً . وان المشروع الاسرائيلي الذي يتركز على تحويل مجرى الاردن نحو الغرب الى داخل اراضي اسرائيل^(١) قد عرض للخطر ، وبشكل جدي ، القرى العشر التي تستفيد من ماء هذا القنال .

(١) كان من الأجدر أن يقال إلى داخل الاراضي المحتلة . (المترجم) .

أمر أخير تجب الإشارة اليه ، هو ان أكبر جزء من الاراضي المروية ، يقع بحوزة كبار الملاك . فواحد منهم يملك لوحده ٢٦٦٪ ، واربعة يملكون ٣١٥٪ من مجموع الاراضي المروية في قضاء فيق .

٤) الحاجة لسياسة ري معقولة وآفاق مستقبلية : يبدو ان الحاجة الى مشروع سياسة معقولة لزيادة القطاع المروي في الجولان قد اصبحت ملحة للأسباب التالية :

أ- في الجولان ، الذي تشكل الزراعة فيه النشاط الاساسي للسكان ، لاتزداد المساحات المزروعة والمروية بشكل مواز لزيادة السكان . فالتطور الديمغرافي مستمر ومتزايد ، بينما تطور المساحات المستثمرة مضطرب ، وأحياناً متناقص . ولأجل مواجهة هذا الضغط الديمغرافي بزيادة الانتاجية وتنظيمها ، يجب زيادة المساحة المستثمرة ، وترشيد الاساليب ، وتوسيع قطاع الزراعة المروية بشكل خاص .

ب) تعيش الفئة الزراعية في الجولان حالياً في بؤس كبير وبشكل يسمح بالكلام عن اكتظاظ مستمر . وبامكان الري ان يدخل زراعات جديدة وان يزيد من المردود ويرفع بالنتيجة المستوى المنخفض للحياة في منطقتنا .

ج) - التوسع في القطاع المروي ، سيؤدي ، عن طريق زيادة الانتاجية ، الى نتائج جيدة بالنسبة للصحة العامة والتعليم .

في الفصل المخصص للدراسة الديمغرافية ، كنا قد تمكننا من إثبات ان نقص المدارس في بعض القرى يعود لفقر سكانها ، وفي الواقع ، ان المساحة المروية التي ازدادت من ٣٧٥٠ هكتاراً في عام ١٩٥٠ الى ٤١٢٠ هكتاراً عام ١٩٥٥ ، قد تضاعفت خلال ست سنوات . الا ان هذه المساحة المروية لاتمثل حتى الان الا ٧٥٪ من مجموع الجولان .

مع ذلك ، فان تطور الري بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٥ كان له نتائج محسوسة جداً في منطقتنا . وأهم هذه النتائج :

- دخول زراعة القطن والرز . وقد اصبحت مزارع الرز ثروات مهمة في المنطقة . كذلك توسعت زراعة الاشجار المثمرة بشكل محسوس جداً ،

واصبحت عنصراً معتبراً في دخل بعض القرى .
 - ادى الري الى شد السكان الريفيين الى الارض . فالفلاحون الذين
 كانوا قد اجروا اراضيهم للعمل كعمال زراعيين لدى المستأجرين ، عادوا اليوم
 الى الارض للعمل فيها .
 وهكذا فان عدد الذين يعيشون من العمل في اراضيهم الخاصة قد
 ازداد ، بينما تناقص عدد العمال الزراعيين ، والجدول التالي يفسر لنا هذا
 الامر .

القضاء	السنة	عدد الذين يعملون في أراضيهم	عدد العمال الزراعيين
القيطيرة	١٩٥١	٣٨٥٠٠	٢٧١٠٠
	٥٢	٣٨٢٠٠	٢٨٥٠٠
	٥٣	٣٩٠٠٠	٢٧٥٢٠
	٥٤	٣٩٠٠٠	٢٧٩٠٠
	٥٥	٣٨٥٠٠	٢٧٢٠٠
	٥٦	٣٩٢٠٠	٢٦٣٠٠
لبن	١٩٥١	٦٢٩٥	١٥٤١٦١
	٥٢	٧١٠٠	١٠٠٨٨
	٥٣	٤٥٠٠	١٠٦٥٠
	٥٤	٦٣٥٠	١٩١٤٠
	٥٥	٦٩٥٠	١٠٩٩٥
	٥٦	١٥٥٦١	٤٥٠٠

- لقد كان لعودة الفلاحين الى الارض وتناقص عدد العمال الزراعيين ،
 نتيجة اخرى ، هي زيادة الاجور اليومية لهؤلاء العمال . وقد كان تطور اجرة
 العمال الزراعيين اليومية كما يلي :

القضاء	السنة	رجل	امراة	ولد
	١٩٥١	٣ ل. س	١٢٥ ل. س	٥١ ل. س
	٥٢	٢٥	=	٢٥
القنيطرة	٥٣	٣	=	١
	٥٤	٣٥	٢	٢٥
	٥٥	٣	٢	٢٥
	٥٦	٤	٢٥	٧٥
	١٩٥١	٣٥	١٥	٢٥
	٥٢	٣٢٥	١٥	٢٥
فيق	٥٣	٣	٢	١
	٥٤	٣٢٥	١٥	٢٥
	٥٥	٣٥	١٥	٢٥
	٥٦	٥	٣	١٥

وهكذا فان الاجور قد تضاعفت تقريباً خلال سبع سنين ، والزيادة كانت اكثر في قضاء فيق لان نقص العمال الزراعيين فيه كان اكبر ايضاً .

- وللري نتيجة اخرى في الجولان . وهي انه دفع بالتطور الاجتماعي للمزارعين قديماً عن طريق تنمية روابط التضامن والتنظيم التعاوني بين المتفعين من نبع ماء واحد . وفي الواقع ، عديدة هي التجمعات الفلاحية التي باشرت ، عن طريق التعاون ، بالزراعة المروية دون وساطة الرأسماليين المستأجرين . لقد كان المستأجرون ، منذ عدة سنوات ، لا يعترفون لأصحاب الارض الا بـ ٢٥٪ من المحصول ، ثم ارتفعت الى ٣٣٪ . وبدءاً من السنة الماضية اصبحت ٥٠٪ .

٥ - الاعمال المائية المنجزة والمقترحة : ان ما نفذ من اعمال مائية ، فياساً الى الشبكة المائية الهزيلة ، والى الامكانيات المادية الضعيفة للسكان الريفيين لهذه المنطقة ، لازال قليلاً وعلى مقياس صغير وجزئي لا يتناسب وحجم المشكلة المائية التي تعم المنطقة .

وستتصدى تبعاً للنقاط التالية :

- (أ) - مشكلة مياه الشرب ، وتأمين حاجة التجمعات البشرية .
- (ب) - اعمال التجفيف والتطهير .
- (ج) - اعمال الري واستغلال القوى المائية لتوليد الكهرباء .

(أ) مشكلة مياه الشرب وتأمين حاجة الفئات البشرية : تجعل الشروط المناخية والجيولوجية في الجولان أمر تموين السكان بمياه الشرب ، طيلة العام ، صعباً بوجه العموم . فغالبية السكان ، تحصل على حاجتها من ماء الشرب بوسائل استعملت منذ قرون ، واهتمام السلطات ينحصر قبل كل شيء ، في تموين المدن ، اما العرب سكان القرى والبدو فلم ينالهم حتى الان الا القليل جداً من الحظ .

تأمين حاجة البدو وقطعانهم : لم تعمل السلطات المختصة حتى الان اي شيء خاص ببدو الجولان . ومن حسن الحظ ان بدو هذه المنطقة لا يتعرضون لمشكلة الماء بشكلها الحاد الذي تعرف به البادية .

وفي الواقع ، يحرص بدو الجولان ، وهم يفتشون عن احسن المواقع تمويناً بالماء والعشب ، على حصر تنقلاتهم ، ضمن حدود المنطقة . ولا ينتقلون من الجولان الى البادية الا نادراً جداً ، وفي الشتاء فقط ، عندما يكون الماء متوفراً في كل مكان . ويسرع الرعاة بالعودة مع قطعانهم الى الجولان منذ نهاية الربيع عندما تبدأ غدران البادية بالنفاذ نتيجة التبخر والاستهلاك . وبشكل عام ، الينابيع والابار متناثرة في كل مكان من الجولان تقريباً . وحياة التقشف للبدو تجعل المشكلة اقل صعوبة . الا ان النقاط والينابيع التي تمد البدو وحيواناتهم قد اعدت بشكل قديم ، وقد تشح ان لم تجف بشكل تام في الصيف والخريف . لذلك يقترب البدو من القرى حيث تكون الينابيع اكثر استقراراً .

هذا ويلمح بعض الكتاب الى اهمال البدو للآبار ، حتى انهم يتكلمون عن أعمالهم العدوانية تجاهها والتي تؤدي الى التخریب السريع لها . والحق يقال : ان بدو الجولان يهتمون غالباً بحماية مراكز الماء ، وهناك آبار كثيرة قام

البدو بحفرها ويدل على ذلك الشعارات القبلية المنقوشة على قطع البازلت التي اسعملت في بناء البئر من الداخل . بالاضافة الى انهم يقومون كل سنة بتنظيف نقاط الماء التي يترددون اليها . ان كل ما يجب عمله لهم هو تأمين عدد اكبر من الينابيع الغزيرة والحسنة التوزيع بالنسبة للمراعي وللحركات الفصلية للقطعان .

وهناك مشكلة اخرى يجب حلها وهي قضية رفع الماء . فالطريقة الحالية تعتمد كلياً على الحبل والدلو ، ويضيع فيها ماء كثير ووقت طويل كما تتطلب جهداً كبيراً .

- تأمين حاجة المراكز الريفية : لم ينجز اي شيء هام بالنسبة للقرى ويمكن تصنيف المراكز الريفية في الجولان بالنسبة لمشكلة الماء في ثلاثة زمر :

١ - قرى لديها الماء ما يكفي بشكل مؤكد لكل السنة : « من بين ال ٦٠٠٠ قرية سورية ، ٢٪ فقط تمتلك بشكل مؤكد ماء صالح للشرب بكميات كافية »^(١) .

وبالنسبة لمنطقتنا ، نسبة القرى المحظوظة اعلى بكثير فمن بين ١٦٥ قرية ، ١٢٠ قرية عندها ماء كاف أي ٧٠٪ . وقد صنف السيد الكسندر جيب^(٢) الجولان بين المناطق السورية التي تمتلك مصادر مائية كبيرة . من النوعية الجيدة والصالحة للشرب .

٢ - قرى تمتلك ثروة مائية كافية في سنوات الامطار الجيدة والمتوسطة : أثناء سنوات الجفاف وقلة الامطار ، يضطر سكان هذه القرى الى التفتيش عن الماء في القرى المجاورة ، قرية بريقة تعتمد على الجوزة ، وعين زيوان تعتمد على القنيطرة .

(١) بارودي : تأمين مياه الشرب للمدن والقرى . المؤتمر الثالث للمهندسين العرب بدمشق ١٩٤٧ .

(٢) جيب وبارتر : تنمية الاقتصاد السوري . لندن ١٩٤٧ . خارطة رقم ٧ .

٣ - قرى لا تمتلك في الوقت الراهن اي مصدر للماء : ويذهب سكان هذه القرى لجلب الماء من القرى المجاورة طيلة السنة . يحملون الماء على الحمير ، ووضع قرية كفر نفاخ مثال على هذه الحالة ، حيث يجلب سكانها الماء يومياً من العليقة التي تبعد عنها بحوالي ثلاثة كيلومترات .

هذا وتمون بعض القرى بالماء الذي يتوزع بواسطة الانابيب . وهذه القرى وعددها قليل مع الاسف ، هي : مجدل شمس وجباتا الزيت وحينة وبقعاتا ومنصورة والحشنية . الا ان المياه لاتصل الى البيوت ، انما الى بعض صنابير المياه العامة (فيجة) الموزعة على مستوى الاحياء ويتناول كل السكان . ويجب الاشارة ايضاً الى ان الماء يوزع كما تقدمه الطبيعة دون اي تصفيه او تعقيم .

ان توزيع الماء داخل بيوت القرويين ، لا يمكن ان يتم في الواقع دون بعض الصعوبات فالقرويون ، اوبالاصح القرويات معتادات على طريقة حمل الماء الشاقة ، وليس من السهل دوماً التخلص من مثل هذه العادات المتوارثة منذ اجيال . ولكن تدريجياً ، يتضح عدم كفاية طريقة حمل الماء الشاقة واساليبها البدائية وان التحديث اصبح ملحاً في هذا المجال من اجل توفير الوقت ، ومن أجل مواجهة الكميات الكبيرة المطلوبة يومياً من المياه ، لقد حدد السيد الكسندر جيب الكمية اللازمة للفرد يومياً بين ٤٠ و ٦٠ ليتر ، ومع الاخذ بعين الاعتبار ان العائلة القروية في الجولان هي دوماً كبيرة ، يمكن حساب الجهد الضائع لقاء الحصول على الماء .

والخلاصة ، تبرز مشكلة مياه الشرب في الريف بشكل مزدوج :
- عدم الكفاية كمياً .

- وعدم الكفاية كيفياً ، بمعنى ان الماء المستعمل لا يكون دوماً مستوفٍ للشروط الصحية .

فالماء حتى لو كان صافياً في الحالة الطبيعية ، فانه يتلوث من كثرة الايدي البشرية التي تغرف منه ، او من الحيوانات التي ترد المصدر الذي يشرب منه البشر .

- تأمين حاجة المراكز الحضرية : القنيطرة وفيق : تأخذ هاتان المدينتان مياه الشرب من آبار محفورة فيهما . وقبل ان يوزع الماء ، يضخ الى خزان ليعقم ويصفى فيه . ويتلقى ميسوري الحال من سكان هاتين المدينتين الماء الى داخل بيوتهم . أما بقية السكان فيأخذونه من صنابير المياه العامة الموزعة على الاحياء وعلى مفارق الطرق . وتلعب هذه الصنابير في الواقع دور النبع في القرى ، فالنساء يأتين إليها للماء . صفائحهن (تنكاتهن) وجراهن . كما يقف المارة عندها للشرب . فالماء يخلق حول هذه الصنابير دوماً جو حركة وضوضاء .

ويتم توزيع الماء الى داخل البيت بواسطة عداد ، وذلك من اجل الحد من الاسراف . وقد حدد السيد الكسندر جيب الاستهلاك الفردي بـ ٧٠ ليتراً إذا كان الماء في البيت ، في حين يهبط الاستهلاك الى ٢٥ ليتراً عندما يكون الماء من المورد العام المشترك . ويختلف سعر الماء بشكل واضح من مدينة لأخرى في سورية . والأرقام التالية تظهر لنا هذا الاختلاف .

المدينة	سعر المتر المكعب بالقروش السورية
درعا	١٠٠
دمشق	٣٠
حلب	٢٦٥
حمص	٢٢
اللاذقية	١٣

ويدفع في القنيطرة بدل اشتراك شهري مقداره ٥٥ ل . س . مقابل كمية محددة من الماء . ويسجل العداد مايزيد عن هذه الكمية المحددة ليدفع عنها سعراً اضافياً متناسباً معها . وعلى العموم ، يصل سعر المتر المكعب من الماء الى اكثر من ٥٠ قرشاً سورياً .

هذا وتحت ضغط الزيادة السكانية^(١) ، أصبحت مياه القنيطرة غير كافية لكل أيام السنة . وبدأت مشكلة تأمين مياه الشرب منذ عام ١٩٥٢ . وفي المرة الأولى ، كان قائم مقام القنيطرة قد اقترح جرمياه بركة مسعدة لتغذية المدينة مع عدد من القرى العطشى : بقعاتا ، عين الحجل ، قطرانة ، الأحمدية ، المنصورة . ولأجل تنفيذ هذا المشروع ، كان يجب أن تكون غزارة البركة ١٠٠٠ متر مكعب في اليوم على الأقل . ولتقدير غزارة مجموع ينابيع البركة ، أجريت دراسة تمهيدية قام بها مهندس مائي . وقد بنيت هذه الدراسة على الامور التالية :

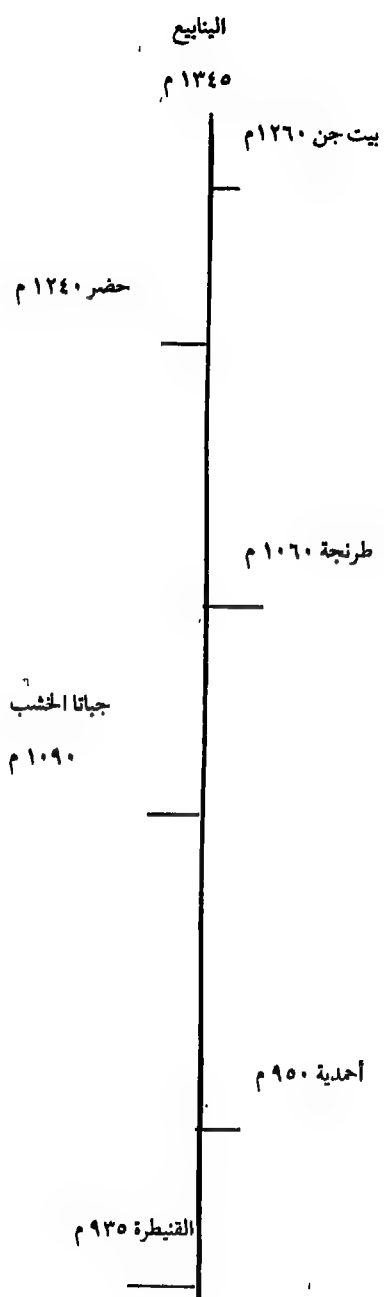
- ١ - الضخ يجب ان يكون في حدود الـ ٥ إلى ٢٠ ليترًا من الماء في الثانية وإلى خزان يرتفع ١١٠٠ متراً عن سطح البحر .
- ٢ - يجب ان يكون الخزان المطلوب بسعة ٤٠٠ م^٣ .
- ٣ - وضع جهاز تعقيم ، لأن التحاليل التي اجريت أظهرت بأن الماء بحالته الطبيعية غير صالح للشرب .
- ٤ - جر المياه الى القنيطرة والمعسكرات المجاورة يجب ان يكون بأنايب قطرها من ٤ إلى ٥ انش . وإلى باقي القرى بأنايب قطرها من ٢ إلى ٣ انش .

وحسب التقديرات الاولى كانت كلفة تنفيذ هذا المشروع ١/٢ مليون ليرة سورية . وقد أهمل هذا المشروع نهائياً نحت إلحاح المهندس المائي الرئيسي الذي أكد بأن ينابيع البركة غير قادرة على تغذية مثل هذا المشروع . وبعد اتضاح عجز مشروع مسعدة واستبعاده ، اختيرت ينابيع بيت جن لتغذية القنيطرة مع قرى حضر وطرنبجة وجباتا الخشب والحميدية بالإضافة الى بيت جن نفسها .

وفي الواقع ، فان ينابيع بيت جن عديدة ، ولكن أهمها : عين كفر ، كويشة ، عين غوار ، عين الهامة تحتانية ، عين الهامة فوقانية ، عين مقتلة ،

(١) جاءت هذه الزيادة نتيجة لمجيء اللاجئين والحوارنيين وعائلات الجند الى

عين عليجة وعين الحسا : وان وضع هذه الينابيع بارتفاع ١٣٤٥ متراً يسهل
جرّ المياه الى القنيطرة التي ارتفاعها ٩٥٠ متراً . كما أن هذه الينابيع صافية
ونقية وغزيرة . وقد قدرت تكاليف هذا المشروع بـ ٧٥٠.٠٠٠ ل . س . .



ب) - أعمال التجفيف والتطهير : إذا كان نقصان الماء يطرح مشكلة حادة ويتطلب في الوقت نفسه حلها ، فإن زيادة الماء في الأراضي يجب ان تواجه أيضاً من أجل الاهداف الزراعية والصحية . إذ ان الصعوبة هي أحياناً معكوسة ويمكن ان تتركز على تخليص الأرض من الماء الغائص . وفي الواقع ، لهذا الماء الزائد في الجولان ضرر مزدوج ، فهو ليس غير نافع فقط ، انما هو ضار أولاً لأنه يجعل الأرض غير صالحة لأي زراعة ، ثانياً لأنه يجعل من هذه الامكنة الرطبة موطناً للملاريا .

ولقد بدأت أولى أعمال التجفيف في الجولان في عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ بدافع صحي فقط ، واقتصرت هذه الاعمال على مساحات صغيرة . والجدول التالي يبين مساحات المستنقعات التي جففت وتوزيعها :

المساحة بالترالمربع	القرية
١٥٠٠ م	بانياس
٧٠٠٠	مقر شبع
٢٨٠٠٠	القنطرة
٢٠٠٠	نمران
٤٠٠٠	عليقة الشمالية
٢٠٠٠٠	باب الهوا
١٠٠٠	المنصورة
٢٠٠٠	القنيطرة
(١) ٦٥٥٠٠	المجموع

(١) احصائيات التقرير الصحي لعامي ١٩٤٤ - ١٩٤٥ ص : ٣٠ باللغة العربية .

هذا وقد كلف قانون ٢٩ كانون الأول ١٩٤٣ القرويين بالقيام بأعمال التجفيف تحت مراقبة الدولة ومساعدتها التقنية . كما نص هذا القانون على تمليك الاراضي المجففة للقرويين . وقد ادى تطبيق القانون مباشرة إلى نتائج منتظرة بالنسبة لكل سورية حيث سُجل تراجع ملموس لحالات الاصابة بالملايا . ففي عام ١٩٤٣ ، أصيب أكثر من ٥٠٠٠٠٠ شخص بالملايا ، توفي منهم ١٠٥٠ شخصاً . في حين هبطت هذه الارقام في عام ١٩٤٤ بشكل محترم إلى ١١٦٠١٤ إصابة و ٦٩٠ وفاة . أما في عام ١٩٤٥ فقد كانت الارقام لاتزيد عن ٨٩٠٦٣ إصابة مع ٢١٦ حادثة وفاة .

مع الاسف ، لقد انجزت أعمال التجفيف في الجولان بشكل بدائي جداً ، لا أثر لأي تقنية فيه . وفي التقرير الصحي لعام ١٩٤٥ إشارة الى ما ثبت ذلك . حين يبين عودة المستنقعات التي كانت قد جففت في العام السابق .

هذا وقد أدت زراعة الرز الى زيادة المساحات المغمورة بالمياه ، فتضاعف نتيجة لذلك عدد الاصابات بالملايا ، الامر الذي دفع لوضع شروط لزراعته أولاً الحصول من وزارة الصحة العامة على إذن مسبق ، ثانياً أن تكون أماكن الزراعة بعيدة عن أماكن السكن بمسافة لا تقل عن ثلاثة كيلومترات .

جـ - أعمال الري واستغلال الطاقة المائية لتوليد الكهرباء : كنا قد أشرنا سابقاً في دراستنا للوضع المائي في الجولان ، الى ان مشكلة الماء تشتد حداثها في ميدان الزراعة والري ، وإلى ان الناحية التقنية لمشكلة الماء هي الاكثر بروزاً .

فهناك نقص تقني يعيق الاستغلال المعقول لمصادر المياه الكامنة من أجل تلبية حاجات الري والحاجات المنزلية . والذي يحدث في الجولان أن الماء عندما يكون كافياً للري . فوجوده في أغلب الاحيان لا يأتي في المكان الصالح لجعله اكثر فائدة . وهذا سبب أساسي من الأسباب التي تجعل من موضوع المياه مشكلة ، بعض جوانبها تقني .

وهذا صحيح ، فينباع ومجاري الماء في منطقتنا ، يمكن أن تصبح عامل نمو وازدهار لقطاع الزراعة المروية ، إذا ما أعدت تقنياً وبشكل معقول . علماً بأن مانفذ حتى الآن من مثل هذا الاعداد لم يتعد الاعمال البسيطة المتعلقة بزيادة المصادر وحفر أقنية صغيرة للتوزيع . وكل هذه الاعمال حديثة وقد نفذت على المستوى الفردي . والذي نفذ منها على مستوى القرية لازال نادراً حتى الآن . مع ذلك فكل شيء يسمح بتوقع نمو بعض الاعمال في المستقبل فالاعدادات الماثية للمستقبل تتعلق بشكل خاص باستثمار مياه الامطار والطبقات الباطنية .

ان نموذج الاودية الموجودة في الجولان قابلة ، على الأقل لأن يستفاد منها محلياً بحبس مياه السيول الشتوية وخزنها بواسطة السدود للفصل الجاف .

وفي الواقع ، يجب بناء نوعين من السدود في الجولان :

١ - السد الصغير : وهو سد لاعتراض المجاري وتحويل مياهها . وهذا النوع من السدود ناجح جداً في أودية الغرب والجنوب الغربي والتي تجري فيها خيوط من الماء بشكل دائم . ويجب ان تكون قمة السد أعلى من أقنية الري لينساب الماء فيها ، وليتابع الماء الفائض جريانه الطبيعي بعد السد ومن الاسفل . والسد الصغير مفيد في الجولان لبساطة مبدئه ولانخفاض تكاليف بنائه .

٢ - السد التخزيني : من أجل حبس وتخزين مياه السيل التي تضيع دون فائدة في الشتاء ، حتى يمكن الاستفادة منها اثناء الفصل الجاف .

وفي الواقع ، يمكن خزن الماء ، ليس فقط من فصل لآخر ، بل من سنة لأخرى . وخلافاً للسد الصغير الاعتراضي ، يرتبط بناء السد التخزيني بالتقنية الحديثة ، ويتطلب مبالغ كبيرة . وحتى الآن لم يقيم أي سد تخزيني في الجولان . إلا أن دراسة لمخطط مشروع كانت قد وضعت من قبل لجنة (جيب وبارتويرز) تتعلق بنهر الاعوج الذي ينبع في منطقة دراستنا ، والذي في عاليته سيبنى السدان المقترحان .

وتقع الينابيع التي تغذي هذا النهر عند أقدام المنحدر الجنوبي الشرقي للحرمون . إلا أن نهر الأعوج بالذات فيتشكل بعد ملتقى المياه الآتية من ينابيع بيت جن من جهة ، والآتية من عرنة ، عبر كفر حور (نهر بحيران) وبيت تيمنا من جهة أخرى . ويتم الالتقاء عند أم الشراطيط إلى الشرق من طريق القنيطرة - دمشق ، على بعد ٣٥ كم إلى الجنوب الغربي من دمشق .

وقد انتهت الدراسات المائية التي أجريت في أم الشراطيط بتحديد نظام نهر الأعوج . ويتميز هذا النظام بفارق ضخيم بين المناسيب الفصلية ، أي بين الحددين الأدنى والأقصى للصيف والشتاء ، بالإضافة إلى فارق كبير أيضاً بين المناسيب الوسطى السنوية^(١) .

وإن الفروق الفصلية للمنسوب من جهة (آذار ١٣٨٨ مليون م^٣ وتشيرين الأول ١٣٦ مليون م^٣) والفروق الوسطى السنوية من جهة أخرى (عام ١٩٣٦ ٣٤ مليون م^٣ و عام ١٩٤٢ ١١٥ مليون م^٣) ، قد دعت للتفكير بخزن هذه الكمية الضخمة من الماء والتي تذهب لتتبخر في المنخفض النهائي وتشكل الهيجانة .

وبسبب ضخامة كمية الماء التي يمكن خزنها ، تقرر بناء خزانين ، واحد على كل فرع من فرعي النهر . مكان الأول في بيت تيمنا حيث ينحصر نهر بحيران بين الحمم البركانية الميوسينية على شكل خانق صالح لمثل هذا البناء . أما مكان الثاني ففي مزرعة بيت جن حيث ينحصر النهر بين البازلت الرباعي على شكل يصلح لبناء السد المرتقب .

هذا وإن كل الشروط متوفرة بشكل جيد لبناء سد تخزين مشابه على وادي الرقاد (الرقاد) عند ارتفاع قرية كدنة الصغيرة أونعيمية .

ويتصف نظام نهر الرقاد بتغيرات فصلية وسنوية أكثر سعة من تغيرات الأعوج . ومياه المناسيب القصوى ، يمكن أن تخزن من فصل لآخر ، ومن سنة لأخرى ، ليستفاد منها في ري منخفض الرقاد الواسع .

(١) انظر الكسندر جيب . تنمية الاقتصاد السوري الجداول ٤٣ و ٤٢ .

هذا وإن أي سد على الرقاد سيواجه عقبتين : الأولى هي التوحد السريع لحوض التخزين بسبب ما يترسب فيه من كميات هائلة من الطمي الذي تجلبه مياه السيول الوحشية .

والثانية هي التبخر الشديد نتيجة للحرارة المرتفعة في الجولان حيث يضيع قسم كبير من ماء الخزان .

استثمار مياه نهر الاردن من أجل الري : ان التفكير باستثمار معقول لسهل الحولة ، انطلاقاً من تجفيف المستنقعات الضارة ، ثم ري الاراضي الخصبة المسماة بأرض الحولة ، يعود في الواقع إلى العهد العثماني ، عندما كان هذا السهل بكامله ملكاً للعرب ومن الناحية الادارية كان يشكل جزءاً من الجولان .

ففي عام ١٩١٤ (خزيان) منحت السلطات العثمانية اللبناني م . و . بيهم وريتشارد م . سرسق رخصة استصلاح واستثمار ارض الحولة . وبعد انتظار أصحاب الرخصة اكثر من أربعة سنين ، دون أية بادرة ، اضطروا إلى بيع رخصتهم في عام ١٩١٨ إلى مؤسسة زراعية سورية ، قامت بدورها ببيع الرخصة في عام ١٩٣٤ إلى المؤسسة الفلسطينية : « Palestine land Development Co » وتغطي الاراضي المزروعة في السهل ١٢٠٠٠٠ دونماً ، أما الاراضي المستنقعية التي ستجفف فتبلغ مساحتها ٧٠٠٠٠٠٠ دونماً^(١) .

إن الاستثمار المعقول للحولة والذي يتركز على بناء شبكة كثيفة لأقنية الري ، مع شبكة اخرى للصرف في الاراضي المستنقعية . واخيراً تحديد مجرى مياه الاردن نفسه ، ان هذا الاستثمار قد كلف مبالغ ضخمة ، وكان تقدمه حتى عام ١٩٤٨ بطيئاً جداً . وبعد قيام دولة اسرائيل^(٢) ، عاد العمل ، وجفف قسم كبير من السهل المستنقعي ، إلا أن العمل قطع مرة ثانية أمام معارضة سورية المستمرة والصلبة من جهة ،

(١) احصاءات ا . ا . كردي - مرجع سبق ذكره ص : ٧٥ .

(٢) وبعد قيام دولة اسرائيل (المغتصبة) . (المترجم) .

ولأن اسرائيل كانت تريد دمج مخطط استثمار الحولة مع مخطط آخر للري
أوسع ومقترح على مستوى دولة اسرائيل من جهة أخرى .

اليرموك والري : نظرياً ، ملاءمة نهر اليرموك المتعمق لاقامة مراكز
كهرومائية ، أحسن من ملاءمته للري . ومع ذلك ، فان مشروعاً ، درس
بشكل جيد ، قد مكن من استصلاح ٣٥٠٠ هكتاراً من ضواحي
مزيريب وتل شهاب . ونكتفي هنا بالتلميح عن ري مزيريب لانها تقع
خارج ميدان دراستنا^(١) .

مشاريع لاستثمار مياه اليرموك والاردن على مقياس واسع : ان
مخططات استثمار الاردن واليرموك للري ولانتاج الكهرباء ، تتخطى في
الواقع مستوى الجولان ، وحتى مستوى سورية . فهي من المشاكل التي
تطرح على مستوى مجموعة دول لها حقوق من مياه هذين النهرين .
وسورية ، في الواقع ، هي التي تملك الينابيع والروافد الرئيسية
للاردن واليرموك ، أما بداية نهر الحاصباني وينابيع أخرى تابعة لنهر
الاردن ، فتقع كلها في الاراضي اللبنانية ، بينما تملك اسرائيل ، حسب
الحدود الحالية ، بحيرة الحولة ومعظم بحيرة طبريا تقريباً .
وان اصحاب الحق هؤلاء ، والخصوم في الميدان السياسي ، لم
يتفقوا على استثمار مياه هذين النهرين ، فقبل الحرب العالمية الثانية
اقترحت أعمال مائية في حوض الاردن ونفذت بشكل مفصول ومحلي
(الحولة - المركز الكهرومائي لتل عر) .

أما المخططات المشتركة للاستثمار فلم تطرح على بساط البحث إلا
في وقت متأخر . ففي عام ١٩٣٩ كان W.C.Lowdermilk وهو مهندس
زراعي وفني كهربائي ، قد زار بلدان الشرق الاوسط (مكلفاً بمهمة من
قبل وزارة التجارة الامريكية) ليدرس فيها امكانيات تنمية الزراعة . وبعد
ان طار هذا المهندس فوق وادي الاردن ، اقترح مشروع T.h.Jordan
" Vally Authority المشابه لمشروع وادي تينسي المتأثر به . وقد جاء في

(١) للتفاصيل راجع موصلي . مرجع سبق ذكره . ص : ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١ .

الكتاب الذي طبعه اثناء الحرب العالمية الثانية تحت عنوان : **Palestine** land of Promise وصفاً للمشروع الذي اقترحه تحت العبارات التالية^(١) : « Comparable To aur T.V.A.in scope and importance » وبعد هذه الدراسة التي قام بها W.C. Lowdermilk ظهرت المشاريع الجديدة مثل : مشروع Banger ومشروع Johnston والمشروع العربي . مشورع Banger المشروع الاردني - السوري : يرتكز هذا المشروع على تحقيق الاعمال التالية :

- ١ - سد تخزين على وادي اليرموك قرب المقارن ، المكان الذي تلتقي فيه الانهر الثلاثة : هريروشلالة وعلان . على أن يكون هذا الخزان قادراً على خزن ٥٠٠ مليون م^٣ من الماء وان يتيح بالنتيجة تنظيم منسوب النهر وضمان غزارة له تساوي ٢٠ م^٣/ثا .
- ٢ - بناء اربعة محطات كهرومائية بين المقارن والعدسية (قرية اردنية تقع على الغور الى الجنوب من بحيرة طبريا) . وستنتج هذه المحطات ٢٠٠ مليون كيلوواط في السنة ٧٥٪ منها لسورية ، والباقي للاردن . ومغطة المقارن ستنتج لوحدها ٦٦ مليون كيلوواط في السنة ، أي ما يسمح بتغطية حاجة حوران والجولان معاً .
- ٣ - قناة تحويل تذهب من المقارن إلى العدسية تستخدم مياهها لانتاج الكهرباء ثم الري .
- ٤ - سد اعتراضي في العدسية لتنظيم حركة توزيع المياه الصادره من المحطة الكهرومائية . وقد قدم لمجموع المشروع قرض بـ ٥٠ مليون دولار ٥٪ منه لسورية و ٩٥٪ للاردن . كما اجريت دراسة جيولوجية لمكان إقامة سد المقارن ، وحفرت الأقينية في الغور ، ووصلت طائرات خاصة لأخذ صور جوية لمسح طبغرافي مفصل . ولكن فجأة توقف العمل ، وتخلي المهندسون الاجانب ، الذين كانوا قد جاءوا لتنفيذ المشروع ، عن عملهم وعادوا الى بلادهم . ذلك لان مشروعاً جديداً ، مدعوماً من قبل

(١) انظر أ . أ . كردي . مرجع سبق ذكره . ص : ١٥٠

الرئيس ايزنهاور ، قد ظهر في الولايات المتحدة الامريكية وهو مشروع Johnston .

مشروع Johnston : في تشرين الاول لعام ١٩٥٣ صرح السيد Johnston المرسل الخاص للرئيس الامريكي إلى الشرق الاوسط ، بان الرئيس ايزنهاور وحكومته قد أقرّوا ودعموا مشروع Johnston لأنه يتصدى لاستثمار موحّد لمياه نهري الاردن واليرموك . وهو أفضل من استثمار يفصل نهر الاردن عن وافته اليرموك . ويمكن تلخيص هذا المشروع بما يلي :

في مجال الري :

- ١ - بناء سد تخزيني على نهر الحاصباني في الاراضي اللبنانية بهدف تخزين ماء الفيضانات ، وتنظيم المنسوب . ويجب أن تقوم قناة تحويل بإيصال الماء الى تل حي في أقصى الشمال الغربي لمنخفض الحولة ، حيث تشق قناة أخرى لري الجليل .
- ٢ - بناء سد آخر تحويلي على كل من نهري بانياس واللداني بحر المياه عبر قناة بطول ١١٠ كم لري الجليل ومرج ابن عامر .
- ٣ - تخفيف منطقة الحولة المستنقعية .
- ٤ - تعلية حاجز بحيرة طبريا من أجل زيادة استطاعتها إلى ٨٣٠ مليون م^٣ .
- ٥ - سد تحويلي على اليرموك بارتفاع العدسية لإيصال مياه النهر ، ضمن قناة ، الى بحيرة طبريا ليخزن فيها .
- ٦ - توزيع مياه بحيرة طبريا بواسطة قناتين تحفران بمجارات الطرفين الشرقي والغربي لنهر الاردن . وبذلك تروى اراضي الغور حتى البحر الميت* .
- ٧ - منشآت مختلفة لخزن مياه الاودية الثانوية للاستفادة منها في أعمال الري .
- ٨ - وأخيراً سد تخزيني على اليرموك بالقرب من المقارن باستطاعة ١٩٥ مليون م^٣ .

في مجال توليد الكهرباء ::

- ١ - بناء مركز كهرمائي في تل حي يغذى من سد الحاصباني يبلغ انتاجه السنوي ٣٧ ألف كيلو واط .

٢ - مركز آخر في العدسية يغذى من سد المقارن وبقناة مشتقة . و يبلغ انتاج هذا المركز ٣٠ ألف كيلو واط .

هذا . وكان يجب على المشروع أن ينفذ على خمسة مراحل ، سنتان لكل مرحلة . وبتكاليف قدرها ١٣٥ مليون دولار . وسيؤ من هذا المشروع في النهاية الري لمساحة ٣٠٠٠ هـ في سورية و ٤٩٠٠٠ هـ في الاردن و ٤١٦٠٠ هـ في اسرائيل . وقد رفض المسؤولون العرب هذا المشروع رفضاً مطلقاً . ويمكن تلخيص وجهة نظر العرب وفق مايلي :

أ - ان مشروع جونسون ، باهماله الحدود بين البلدان المختلفة ، يحرم بعض هذه البلدان من حقوقها الطبيعية ، فمياه نهر الحاصباني ستخصص لاسرائيل وحدها ، في الوقت الذي تستطيع فيه هذه المياه ، وبحكم منشئها اللبناني ، ان تروي ٣٥٠٠ هـ من الاراضي اللبنانية .

ب - ان الارقام المسجلة والمتعلقة بالمساحات التي ستروى من اسرائيل غير حقيقية . فالرقم الرسمي ٤١٦٠٠ هـ فقط في حين يغطي سهل الحولة لوحده ٧٠٠٠٠ هـ ، ومثلث السيموك - الاردن يغطي ١٥٠٠٠ هـ . وعلى هذا الاساس فان ما سيروى في اسرائيل سيكون اكثر من ٨١٥٠٠ هـ .

ج - يخصص هذا المشروع للعرب ٨١٩ مليون م^٣ من الماء فقط ، في الوقت الذي تزود فيه الينابيع الواقعة في الاراضي العربية الأنهار بمقدار ١٠٥٧ مليون م^٣ سنوياً .

د - يسمح المشروع لسورية بري ٣٠٠٠ هـ فقط ، في حين تبلغ الاراضي الصالحة للري فيها ١٢٠٠٠ هـ .

هـ - ان الاحجام المائية المحسوبة لري الاراضي العربية ، وخاصة في الاردن ، هي أقل بكثير من الاحتياجات الحقيقية .

و - ستكون استطاعة سد المقارن حسب هذا المشروع ١٩٥ مليون م^٣ بينما تصل الاستطاعة في المشروع الاردني - السوري إلى ٤٧٥ مليون م^٣ .

وامام هذه المعارضة القطعية من قبل الحكومات العربية عدل مشروع جونسون ليولد من جديد ، مشروع جديد ، هو المشروع

العربي .

المشروع العربي : يقتضي هذا المشروع الأخير استثمار المياه مع الأخذ بعين الاعتبار الحدود بين مختلف البلدان بشكل يضمن لكل بلد ما يمكنه من استثمار اراضيهِ . ويشمل هذا المشروع الانشاءات التالية :

١ - سد تخزين على اليرموك في المقارن باستطاعة ٤٠٠ مليون م^٣ .

٢ - سد آخر قرب العدسية باستطاعة ٦٠ مليون م^٣ . وهكذا يخزن السدان ٤٦٠ مليون م^٣ من الماء ولكن سيفقد منها ١٥ مليون م^٣ .

٣ - وسيكون توزيع المياه والمساحات المروية كما يلي :

البلد	المساحة المروية	كمية الماء
لبنان	٣٥٠٠ هـ	٣٥ مليون متر مكعب
سورية	١١٩٠٠	١٤٥
الاردن	٤٩٠٠٠	٦٩٨
اسرائيل	٢٣٤٠٠	١٨٢
المجموع	٨٧٨٠٠ هـ	١٠٦٠ مليون متر مكعب

وسيضمن هذا المشروع الأخير للجولان ري ٩٠٠ هـ في مناطق بانياس والبطيحة ووادي اليرموك بين المقارن والعدسية .

ولكن التنفيذ لهذا المشروع يتطلب تعاون عربي - اسرائيلي غير مباشر في الميدان الاقتصادي ، وهذا غير قابل للتحقيق في الظروف الحالية .

الانتاج الزراعي في الجولان

آ) - الصفات الرئيسية لهذا الانتاج :

- ١ - لا يمثل الانتاج الحالي للجولان الامكانيات المتوفرة ، إذ ان هناك مساحات كبيرة من الارض الصالحة للزراعة متروكة بوراً . كما ان نسبة الاراضي المزروعة والصالحة للزراعة قد تطورت بين عامي ١٩٥١ و ١٩٥٦ حسب الارقام التالية :

السنة	اراضي مزروعة	اراضي بور ولكنها صالحة للاستثمار
١٩٥١	٣٦٪ من مجموع الجولان	٢٧٪ من مجموع الجولان
١٩٥٦	٤٢٪ من مجموع الجولان	٢٦٪ من مجموع الجولان

وهكذا فان اكثر من ربع المساحة القابلة للاستثمار تبقى بوراً ، وامكانية تنمية الزراعة كبيرة وخاصة في قضاء القنيطرة ، في حين ان معظم ارض قضاء فيق مستثمرة :

قضاء او منطقة	السنة	اراضي مزروعة	اراضي بور ولكنها صالحة للزراعة
القنيطرة	١٩٥١	٢٣٪ من مجموع القضاء	٣٩٪ من مجموع القضاء
	١٩٥٦	٢٤٪ من مجموع القضاء	٣٧٪ من مجموع القضاء
فيق	١٩٥١	٦٦٪ من مجموع القضاء	١٧٪ من مجموع القضاء
	١٩٥٦	٨٢٪ من مجموع القضاء	١٦٪ من مجموع القضاء

٢ - مردود الزراعة غير ثابت وضعيف غالباً . وسبب ذلك ان غالبية المزروعات غير مروية وهي مرتبطة بالتالي بشروط الامطار الامر الذي يجعل مردود الهكتار الواحد يختلف من عام الى آخر . وحال القمح خير مثال على ذلك :

السنة	قضاء القنيطرة	قضاء فيق
١٩٥٠	٧٦٦ كغ قمح في الهكتار	٩٦٠ كغ قمح في الهكتار الواحد
١٩٥١	١١٠٠ كغ قمح في الهكتار	١٠٠٠ كغ قمح في الهكتار الواحد
١٩٥٢	٦٤٠ كغ قمح في الهكتار	٢٠٠٠ كغ قمح في الهكتار الواحد
١٩٥٣	٩٦٠ كغ قمح في الهكتار	٦٠٠ كغ قمح في الهكتار الواحد
١٩٥٤	١٠٠٠ كغ قمح في الهكتار	٢٠٢٥ كغ قمح في الهكتار الواحد
١٩٥٥	٨٠٠ كغ قمح في الهكتار	٨٠٠ كغ قمح في الهكتار الواحد
١٩٥٦	٤٦٥ كغ قمح في الهكتار	٧٤٠ كغ قمح في الهكتار الواحد

وهكذا فان اختلاف مردود هكتار القمح من سنة الى اخرى يتراوح بين (١ - ٢٣) في قضاء القنيطرة وبين (١ - ٢٥) في قضاء فيق .

وتذبذب وضعف الانتاج يوضحه مردود الكيلوغرام الواحد من البذار .

السنة	قضاء القنيطرة	قضاء فيق
١٩٥٠	٣ره كغ من ١ كغ بذار	٦ر٢ كغ من ١ كغ بذار
١٩٥١	٧ر٣ كغ من ١ كغ بذار	٧ كغ من ١ كغ بذار
١٩٥٢	٤ كغ من ١ كغ بذار	١ره٣ كغ من ١ كغ بذار
١٩٥٣	٦ كغ من ١ كغ بذار	٤ كغ من ١ كغ بذار
١٩٥٤	٤ره كغ من ١ كغ بذار	٣ره كغ من ١ كغ بذار
١٩٥٥	٥ر٤ كغ من ١ كغ بذار	٣ره كغ من ١ كغ بذار
١٩٥٦	٢ر٩ كغ من ١ كغ بذار	٥ره كغ من ١ كغ بذار
وسطي	٣ره كغ من ١ كغ بذار	٨ر١ كغ من ١ كغ بذار

٣ - يتميز الانتاج الزراعي لمنطقتنا بتشتت الفعالية بين جماعة مكونة من وحدات صغيرة منطوية على نفسها (مغلقة) على مستوى العائلة او القرية ، ومبادلاتها الخارجية محدودة وخاصة .

٤ - الانتاج الزراعي في منطقتنا يحافظ ككل اقتصاد الهدف التقليدي لزراعته المتعددة الانواع ، كفاية حاجاً - كتلة الفلاحين . لذلك فان هذا الاقتصاد قليل التطور ، اذ لا يمكن تبديل أى عنصر من عناصر الزراعة المتنوعة فيه دون ان يكون في هذا التبديل إخلال بتوازن التركيبة ، وتعريض غذاء العائلة بل وكل الفلاحين للخطر . ان اقتصاداً مثل هذا الاقتصاد ينتج قليلاً ويبيع قليلاً ، ليس هو الا اقتصاداً فقيراً ، يعجز باعتماده القليلة للاستثمار ، عن تذليل الصعوبات التي تفرضها عمليات تتطلبها التحديث والتطوير . ويلعب نظام ملكية الارض دوراً هاماً في صفة المحافظة اللازمة للانتاج الزراعي في منطقتنا ، فالملاك الصغار لا ينتجون اكثر من حاجة معاشهم والملاك الكبار أيضاً ، باستخفافهم واتباعهم اسلوب الزراعة الواسعة من أجل الحصول على أعلى مردود بأقل التكاليف ، يساهمون بدورهم بتكريس الجمود .

وبعد دراسة الصفات العامة للزراعة في الجولان ، نتقل الى دراسة المنتجات الزراعية .

ب) - المنتجات الزراعية : يمكن تصنيف المنتجات الزراعية المختلفة لمنطقتنا في خمس زمر رئيسية من المزروعات : الحبوب ، البقول ، الخضار ، المزروعات الصناعية ، واخيراً الاشجار المثمرة .

١ - الحبوب : وتمثل الزراعات الاساسية في منطقتنا ، وتمارس في كل مكان ، لان الحبوب تدخل بقسط وافر في غذاء الفلاح على شكل خبز . والتي لا تدخل في صناعة الخبز تزرع لتغذية الحيوانات .

ويميز عادة ، حسب فترة البذار ، بين حبوب الشتاء وحبوب الصيف ، أو على الاصح حبوب الربيع .

القمح : وهو اهم انواع الحبوب ويخصص الفلاح له دوما احسن اراضيه وقمح الجولان من النوع القاسي ، أي من النوع الحوراني الذي يتصف بلون ذهبي . وهو يعطي خبزاً جيداً جداً . ويفقد هذا النوع الحوراني المزروع في الجولان صفاته بسرعة فتصبح الحبات بيضاء ، ويصبح الخبز

بالتالي اقل جودة . لذلك يجد فلاح الجولان نفسه مجبرا على تجديد البذار
دوما .

والفلاحون الميسورو الحال فقط يستهلكون القمح بشكل خبز ، في
حين يقتصر استهلاك الفقراء منهم للقمح على (البرغل) ، اما من اجل
الخبز فيستبدلون قمحهم بحبوب ارخص ، خاصة الذرة البيضاء التي
تزرع بدون سقي وبدون سماد .

لقد رأينا سابقا ضعف وتذبذب محصول القمح بالنسبة لوحدة
البذار ولكن من أجل شرح تذبذب انتاج الجولان من القمح يجب أيضا
الأخذ بعين الاعتبار أثر أعداء القمح العديدين وأشدّهم خطورة :

- فئران الحقل التي تقضي في بعض السنين على كل مزروعات الحبوب ،
وخاصة في جنوب منطقتنا .
- الجراد وخاصة الرحال منه .
- جرّبة القمح العسلية والسوسة والطفيليات الملطخة للقمح .
- النخر والتفحم والعفونة .
- الذبول ولفح الحر .

هذا وقد كان تطور انتاج القمح والمساحة المزروعة به وفق الجدول

التالي :

السنة	المساحة المزروعة بالقمح	مجمّل انتاج الجولان	كغ قمح لكل شخص في الجولان	كغ قمح لكل شخص في سورية
١٩٥٠	١٣٥٠٠ هـ	—	—	—
١٩٥١	١٣٢٠٠	١٢٠٩٠ طن	١٨٠ كغ	—
١٩٥٢	١٤١٠٠	١٤٣٣٠	٢٠٤	—
١٩٥٣	١٩٣٢٠	٢١٩٤٤	٣٠٤	٢٦٢ كغ
١٩٥٤	١٩٥٠٠	١٤٢٢٧	١٧٧	٢٣٠
١٩٥٥	٢٥٢٠٠	٢٠١٦٠	٢٣٤	١١٢
١٩٥٦	١٤٥٠٢	٨٥٥١	—	—

الشعير : وهو من الحبوب الثانوية ، ويزرع مثل القمح في نهاية الخريف ، وهو يتأقلم بشكل احسن مع الاراضي الفقيرة ، ويقاوم اكثر خطر الاحتساسات المناخية . وتخصص له دوماً الاراضي الضعيفة لانه لا يدخل في غذاء فلاحي الجولان إلا في حالات نادرة وفي سنوات المواسم السيئة جداً للقمح وهو يزرع بشكل عام لاطعام الحيوانات وبشكل خاص الخيول ، كما يصدر أحياناً للخارج المنطقة حيث يستعمل لصناعة الخبث وتنتشر زراعة الشعير في منطقة القنيطرة بشكل خاص ، إلا ان مردود الهكتار يكون اعلى في الجنوب مما هو عليه في الشمال . والجدول التالي يبين انتاج الشعير ومساحاته في قضائي الجولان بين ١٩٥٠ و ١٩٥٦ :

القضاء	السنة	المساحة المزروعة	البذار بالطن	الانتاج بالطن	كغ بذار في الهكتار	كغ مردود في الهكتار	المردود بالنسبة لوحدة البذار
القنيطرة	١٩٥٠	٣٦٠٠ هـ	٥٧٠ طن	٣٢٠٠ طن — كغ	٨٨٠ كغ	٥٦	
	١٩٥١	٣٢٠٠	٥٢٨	٣٦٠٠	١٦٣	١١٢٥	٦٨
	١٩٥٢	٣٥٠٠	٥٩٥	٢٧٥٠	١٧٠	١١٢٠	٦٣
	١٩٥٣	٣٢٨٠	٥٤١	٣٧٨٨	١٦٥	١١١٥	٦٢
	١٩٥٤	٣١٨٠	٥٢٤	٤١٩٧	١٦٥	١٣٢٠	٨
	١٩٥٥	—	—	٣٣٥٣	—	٦٦٠	٧
	١٩٥٦	٣٨٥٠	٦٣٥	٢٤٥١	—	٩٥٠	٤
لبيق	١٩٥٠	٢٢٠٠	٢٢٤	١١٢٠	—	—	٥
	١٩٥١	٢٢٠٠	٢٢٤	١٩٧٦	١٠٠	٥٠٨	٨٨
	١٩٥٢	٢٥٠٠	٢٥٠	٧٥٠٠	١٠٠	٣٠٠٠	٣٠
	١٩٥٣	٣٠٠٠	٥٦	١٥٠٠	١٢٠	٥٠٠	٤١
	١٩٥٤	٣٠٢٥	٣٠٢	٩٠٧٥	١٠٠	٣٠٠٠	٣٠
	١٩٥٥	٣٠٢٠	٣٠٢	٢٧١٨	١٠٠	٩٠٠	٩
	١٩٥٦	١٠٦٧	١٤٦	١١٧٠	١٠٠	—	٨

ويمكننا هذا الجدول من ملاحظة اختلافات معتبرة بين قسمي الجولان :

- في الشمال المساحات المخصصة لزراعة الشعير اوسع ، والبذار الذي يبذر في وحدة السطح اكثر ، والفرق في المردود بين سنة وأخرى هو في حدود ٢/١ .

- في الجنوب ، المردود في الهكتار ، وبالنسبة لوحدة البذار أعلى بكثير ، والفرق في المردود بين سنة وأخرى هو في حدود ٨/١ .

البيقية والجلبان والكرسنة : وهي ثلاثة انواع من البقول تعتبر من الحبوب الشتوية لانها تزرع في مطلع الشتاء مثل القمح والشعير ، وقد أخذت زراعتها بالانتشار بين زراعة الحبوب الشتوية شيئاً فشيئاً كزراعة متممة للدورة الانباتية إذ انها لاتنهك التربة ، بل على العكس من ذلك تعيد لها جزءاً من الأزوت الذي استنفذته الزراعات السابقة ، لهذا فان وقت زراعتها في الدورة المتكاملة يأتي بعد القمح حيث يبذر البذار حبة حبة خلف المحراث . ودورها الانباتية ليست طويلة كبقية الحبوب فحصادها يتم قبل حصاد الشعير بالاقتلاع باليد .

وهذه الحبوب المخصصة فقط لغذاء الحيوانات ، يمكن زراعتها إذا ما توفر الري ، على شكل كلاً ، حيث تزرع في شهر آب ويحش الحشيش في الشتاء . ولكن تزرع غالباً من أجل حبوبها التي تخلط بعد تكسيرها مع التبن لتكون في الجولان أحسن غذاء لحيوانات العمل الزراعي وبشكل خاص الثيران والجمال .

والجدول التالي يعطي الانتاج والمساحة المزروعة والمردود للكرسنة لانها تحظى بالاهتمام اكثر من البقية والجلبان :

القضاء	السنة	المساحة	البذار	الانتاج	كغ بذار لكل هـ	المردود لكل هـ	المردود بالنسبة لوحدة البذار
	١٩٥٠	٢٢٠ هـ	٣٠ طن	١٢٥ طن	—	—	٤
	١٩٥١	٢٠٠	٣٥	١٢٠	١٧٥	٦٠٠	٣ر٤
	١٩٥٢	٢٢٠	٤٤	١٥٤	٢٠٠	٧٠٠	٣ر٧
القنيطرة	١٩٥٣	٣٠٨	٥٥	٥٤٤	١٨٠	١٨٠٠	٩ر٩
	١٩٥٤	٣٢٥	٥٧	٥١٢	١٧٥	١٥٧٥	٩
	١٩٥٥	—	—	٤٣٠	—	١٢٢٥	—
	١٩٥٦	٣٧٠	٦٥	٣٨٩	—	١٠٥٠	٦
	١٩٥٠	٦٠٠	٧٠	١٠٠	—	—	٢ر٦
	١٩٥١	٦٠٠	٦٠	٩	١٠٠	—	—
	١٩٥٢	٦٥٠	٧٨	٦٥٠	١٢٠	١٠٠٠	٦ر٣
لبين	١٩٥٥	٧٠٠	١٠٥	٥٠٤	١٥٠	٧٢٠	٤ر٨
	١٩٥٤	٧٥٠	١٠٥	٨٢٥	١٤٠	١١٠٠	٨
	١٩٥٥	٧٢٥	١٠١	٧٢٥	—	١١٠٠	٧ر١
	١٩٥٦	١٧٢	٢٥ر٥	١٤٧	١٤٨	٨٥٥	٥ر٨

حبوب الصيف او بالاصح حبوب الربيع : ترتبط زراعة حبوب الصيف بدرجة كبيرة بأمطار الربيع . وهي على نوعين : الذرة الصفراء (الشامية) والذرة البيضاء .

وتزرع الصفراء في شمال الجولان معتمدة غالباً على السقي . ويستهلك الشركس والتركمان كميات معتبرة منها . في حين لا يستهلك منها الفلاحون في الجنوب إلا كميات قليلة . وتتلخ الخنازير البرية والثعالب مزروعات الذرة الصفراء مسببة أضراراً فادحة .

والجدول التالي يبين واقع زراعة الذرة في الجولان :

القضاء	السنة	المساحة	البذار	الانتاج	كغ بذار لكل هـ	المردود لكل هـ	المردود بالنسبة لوحدة البذار
القنيطرة	١٩٥٠	٨٠٠ هـ	٢٦٢٥ طن	٨٧٥	٣٢ كغ	١٠٩٤ كغ	٥٣
	١٩٥١	٧٥٠	٥٢٥	١٥٠٠	٧٠	٢٠٠٠	٢٩
	١٩٥٢	٧٨٠	٥٤٦	١٢٦٠	٧١	١٨٠٠	٢٣
	١٩٥٣	٥٩٠	٢٩	٥٠٢	٥٠	٨٥٠	١٧
	١٩٥٤	٨٩٠	٥٢٩	٢٥٥٥	٥٨	٣٠٠٠	٤٧
	١٩٥٥	٩٧٥	٥٨	٢٧٨٧	٦٠	٢٥٦٨	٤٩
	١٩٥٦	١٠١٠	٦٠١	٢٦٩٤	٦٠	٣٠٦٠	٤٤
لبق	١٩٥٠	٧٠	٣٥	١٢٦	٥٠	١٨٠٠	٣٦
	١٩٥١	٧٠	٣٥	١٥٥	٥١	٧	٠١٤
	١٩٥٢	٦٠	٢٤	١٥٣	٤٠	٢٥٥٠	٤٦
	١٩٥٣	٥٠	٢	٧٥	٤٠	٧٥	٣٥
	١٩٥٤	٥٥	٢٢٥	١٤١	٤٥	٢٨٠٠	٥٣
	١٩٥٥	١٧	١٥	٣٢	٨٨	١٨٦٧	٢١
	١٩٥٦	٨٦	٣٤٥	١٠٠٥	٤٠	١١٦١	٢٩

أما الذرة البيضاء ، فهي على عكس الصفراء تزرع وتستهلك بشكل خاص في جنوب الجولان حيث يصنع منها ، كما في حوران الخبز المشهور (كردوش) . وبسبب كون سعر الذرة البيضاء أقل من سعر القمح ، يكفي الفلاحون بأكملها ، ليتسنى لهم بيع القمح والحصول على سيولة نقدية . وتزرع الذرة البضاء بدون سقي ، وبعبداً عن القرى ، لحمايتها من أخطر عدو لها وهو المصفر الدوري الذي قد يعرض المحصول للخطر في الوقت الذي لاتزال الحبات فيه طرية . وقد كان انتاج الذرة البيضاء في الجولان بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٦ كما يلي :

القضاء	السنة	المساحة	البذار	الانتاج	كغ بذار لكل هـ	المردود لكل هـ	المردود بالنسبة لوحدة البذار
القنيطرة	١٩٥٠	٥٥٠ هـ	١٥ طن	١٠٠٠ طن ٣٠ كغ	٢٠٠٠ كغ	٦٦	
	١٩٥١	٧٢٠	١٨	١٠٠٠	٢٥	١٤٢٠	٥٥
	١٩٥٢	٧١٠	١٧,٧٥	٣٥٢	٢٥	١٢٠٠	٤٨
	١٩٥٣	٢٤٦١	٤٥	٩٠٥	٢٠	٤٠٠	٢٠
	١٩٥٤	٢٥٦١	٥١,٢٢	٣٨٤١	٢٠	١٥٠٠	٧٥
	١٩٥٥	٢٦٠٠	٥٢	٣٩٠٠	٢٠	١٣٣٥	٧٥
	١٩٥٦	٢٦٢٠	٥٢,٤	١٤٩٧,٤	٢٠	٥٧٢	٢٨
فيق	١٩٥٠	٦٠٠٠	٤٠	٤٠٠٠	٧	٦٦٦	١٠٠
	١٩٥١	٩٠٠٠	٠٠	٤	٥	٤	٠,١
	١٩٥٢	٤٠٠٠	٦٠	٤٨٠٠	١٥	١٢٠٠	٨٠
	١٩٥٣	٥٠٠٠	٢٥	٢٠٠٠٠	٥	٤٠٠٠	٨٠٠ (١)
	١٩٥٤	٤٥٠٠	٦٧,٥	٤٥٠٠	٢٠	١٠٠٠	٦٦
	١٩٥٥	—	—	—	—	—	—
	١٩٥٦	٤٢٧٨	٢٧	١٢١٢	٦	٢٨٣	٤٥

(١) أرقام هذه السنة تدعو للشك

ويسمح لنا الجدول السابق بالتأكيد على ما يلي :

- من بين الحبوب المزروعة في الجولان ، تعطي الذرة البيضاء أعلى مردود ، ولكن بقارق ملحوظ بين سنة وأخرى . - كمية البذار التي تبذر في وحدة من المساحة في منطقة القنيطرة تساوي غالباً ثلاثة أضعاف البذار المطبق في منطقة فيق ، ومع ذلك فالمرود في فيق هو أعلى .

- تضاعفت المنطقة المزروعة بالذرة البيضاء في شمال الجولان خمسة مرات خلال سبع سنوات ، في الوقت الذي تناقصت فيه المساحة في الجنوب بمقدار ٢٨٪ .

الرز : يزرع الرز في الجولان في مطلع نيسان ، ويعتبر مع الذرة الصفراء او الذرة البيضاء من الحبوب الصيفية أو الربيعية . ولكن بسبب الدورة الانباتية الطويلة للرز ، فان حصاده لا يتم إلا في النصف الثاني من شهر تشرين الاول مما يستدعي ان يبذل العمال الزراعيون نشاطاً واسعاً وحثيثاً في مزارع الرز لانهاء أعمال الحصاد والدراسة قبل موعد الامطار . هذا ولم تنقطع زراعة الرز التي دخلت الجولان حديثاً ، عن التوسع ، حتى اصبحت شيئاً فشيئاً عنصراً هاماً في اقتصاد المنطقة . وهو الانتاج الوحيد الذي يصدر بكامله للخارج ، فيتيح للفلاحين امكانية الحصول على سيولة نقدية . وتصدر الجولان رزها عادة بدون تقشير . ولكن ، ومنذ ثلاث سنوات ، انشئت في القنيطرة عدة مكائن لتقشيره .

ولقش الرز اهمية ، اذ يستخدم كطعام للحيوانات ، كما يستخدمه الفلاحون الفقراء لحشي فرشهم بسبب طراوته . وهكذا فالحب يصدر ، والقش يستخدم في المكان نفسه .

وقد تطور انتاج الرز في الجولان بين عام ١٩٥٠ و ١٩٥٦ كما يلي :

القضاء	السنة	المساحة	البذار	الانتاج	كغ بذار	المردود	المردود بالنسبة
					لكل هـ	لكل هـ	لوحدة البذار
	١٩٥٠	٢٧٠ هـ	٢٧ طن	١٣٥٠	طن ١٠٠ كغ	٥٠٠٠ كغ	٥٠
	١٩٥١	٥٠	٥	٢٥	١٠٠	٥٠٠	٥
	١٩٥٢	٣٠٠	٣٠	١٤٤٠	١٢٠	٤٨٠٠	٤٨
القنيطرة	١٩٥٣	٣٤٠	٤١	١٦٣٢	١٢٠	٤٨٠٠	٤٠
	١٩٥٤	٤٨٣	٥٨	٢٨٩٨	١٢٠	٦٥٠٠	٥٠
	١٩٥٥	٢٧٢	٣٢٫٦	١٦٣٢	١٢٠	٥٤٠٠	٥١
	١٩٥٦	٢٣٦٫٥	٢٨٫٣٨	١٢٧٧	١٢٠	٤٥٦٠	٤٥
	١٩٥٠	٧٣	٦٫٨	١١٧	٩٣	١٥٨٩	١٧
	١٩٥١	٧٣	٦٫٨	١٠	١٠٠	١٣٧	١٫٤
جميع	١٩٥٢	١٨٤	١٨٫٤	٢٧٥	١٠٠	١٤٩٧	١٥

٢٠	٢٠٠٠	١٠٠	٤٠	٢	٢٠	١٩٥٣	هيك
٢٠	٢٠١٠	١٠٠	٣٩٧	١٩٨٥	٩٨٥	١٩٥٤	
٢٠	١٨٦٦	٩٠	٢٤٦٤	٢	١٣٢	١٩٥٥	
٢٠	٢٥٠٠	١٢٣	٤٠	٦٥	١٦	١٩٥٦	

(١) - يجب ان يلاحظ ان الجولان هي المنطقة الوحيدة التي تمارس زراعة الرزبين كل مناطق جنوبي سورية ، والتي تضم محافظات : دمشق وحران وجبل الدروز . وان انتاج منطقتنا ، التي لاتزيد مساحتها عن ١١٪ من المساحة العامة للبلاد ، هو انتاج هام ، حيث كان في عام ١٩٥٢ ٢٩٪ من انتاج كل سورية للرز ، وفي عام ١٩٥٣ ١٠٪. وفي عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ١٨٪ .

٢ - يظهر الجدول السابق عدم ثبات مساحة وانتاج الرز . ويفسر ذلك بالامور التالية :

- تذبذب غزارة الينابيع من سنة لأخرى . وحتى في السنة نفسها ، ففي مطلع الربيع تتدفق المياه من الينابيع بغزارة .

وبما ان المزارعين لا يستطيعون التنبؤ ، بشكل دقيق ، باختلاف الغزارة التي لانتضع لاي قاعدة ، فانهم يغامرون بزراعة مساحات كبيرة بأمل ان تبقى الغزارة مرتفعة طيلة الموسم . فاذا لم يتحقق ذلك ، وضعفت مياه الينابيع في الصيف والخريف ، لجأوا الى تخفيف وإهمال جزء من حقولهم لانقاذ الباقي .

- منع زراعة الرز بالقرب من القرى والمناطق السكنية . من قبل وزارة

الصحة ، بحجة ان مزارع الرز تساعد على تكاثر البعوض وبالتالي انتشار الملاريا .

- يقوم نوع خاص من الجرار المحلي في المنطقة بإتلاف جزء هام من المحصول . على الرغم من تعلم مزارعي الرز حديثاً طرقاً جديدة لمكافحة الجرار والبعوض .

٣ - يشير الجدول السابق الى ان المناطق الشمالية من الجولان حيث التربة ناعمة ومحصة ، هي التي سجلت المردود العالي . ويزرع الرز غالباً في أراضي لا تهيأ أبداً ، كما ان الخبرة قد علمت المزارعين بأن زراعة الرز تزدهر اكثر في الاراضي غير العميقة .

٤ - وأمر آخر تجدر الاشارة اليه ، هو ان الارقام الخاصة بالانتاج والمردود بعيدة عن تمثيل الحقيقة . إذ ان عدداً كبيراً من مزارعي الرز لا يبيعون محصولهم مباشرة بعد الدراسة ، بل يقومون بخزنه في قراهم للتهرب غالباً من دفع ضريبة الانتاج الزراعي ، أو لانتظار تحسن الاسعار . وهكذا فان كميات كبيرة من محصول الرز في الجولان تحجب عن السلطات ولا تدخل في الاحصاء .

١٢ - البقول تلعب البقول ، مع الحبوب ، دوراً هاماً جداً في غذاء جمهور فلاحي منطقتنا . ففي الشتاء بشكل خاص ، تكاد التغذية تقتصر على الحبوب والبقول . ولا تزرع البقول كلها في وقت واحد ، فبعضها يزرع في الشتاء ، والآخر في الصيف .

الحمص : وهو أهم البقول ، يزرع في نيسان ويحصد في حزيران وتموز . فهو زراعة صيفية . ويستهلك الفلاحون ، وبشكل خاص الفتيان كثيراً من الحمص . إلا أن اكبر كمية منه تستهلك بشكل حمص معجون (مسبحة) اكثر الاكلات شعبية ، ليس فقط بالقرى ، بل في المدن أيضاً . وهكذا فان حمص الجولان يتسرب الى المدن ، وتتعلق الكمية المصدرة منه بالطبع بانتاج كل سنة .

وفي الواقع ، يكون المردود مرتفعاً نسبياً ، عندما يصل الى ٣٥ مثلاً في بعض السنين ، كما يبين الجدول التالي . وانتاج جنوب الجولان منه اكثر من إنتاج الشمال .

القضاء	السنة	المساحة	البذار	الانتاج	كغ بذار	المردود	المردود بالنسبة
					لكل هـ	لكل هـ	لوحدة البذار
	١٩٥٠	٣٥٠ هـ	٢٢ طن	١٧٥ طن	٣٦ كغ	٥٠٠ كغ	٨
	١٩٥١	٣٠٠	٢٠	١٥٠	٦٦	٥٠٠	٧ر٥
	١٩٥٢	٣٢٠	٢٠	١٤٥	٦٥	٤٥٥	٧ر٢
القنيطرة	١٩٥٣	٥٧٣	٤٠	٢٠١	٧٠	٣٥٠	٥
	١٩٥٤	٥٠٠	٣٥	٢٤٥	٧٠	٩٠٠	٧
	١٩٥٥	٧٠٠	٣٥	٧٧٠	٥٠	١١٠٠	٢٢
	١٩٥٦	٢٤٥	٢٩ر٧	٨٨٤	٧٩	٢٠٨٠	٢٩ر٤
	١٩٥٠	٧٠٠	٦٣	٩٤٥	٩٠	١٣٧٠	١٥
	١٩٥١	٧٠٠	٦٣	١٣٠٠	١٠٠	١٩٤٣	١٢ر٥
	١٩٥٢	٧٥٠	٧٥	١٥٠٠	١٠٠	٢٠٠٠	٢٠
لبق	١٩٥٣	٦٥٠	٢٦	٢٠٠	٤٠	٤٠٠	١٠
	١٩٥٤	٧٥٠	٣٧ر٥	١٢٠٠	٥٠	٢٦٠٠	٣٥
	١٩٥٥	٧٥٠	٣٧	١٢٠٠	٥٠	١٦٠٠	٣٥
	١٩٥٦	٦٠٦	٣٧ر١	٢٤٥	٦٦	٤٠٤	٦ر٦

العدس : ويدخل أيضاً بشكل واسع في الغذاء الشعبي على شكل حساء (شوربة) او مخلوطاً مع البرغل الاكلة التقليدية المعروفة في كل انحاء سورية (المجردة) .

وبخلاف بقية البقول ، يزرع العدس في الخريف ، ويحصد في الربيع وطيور الحجل التي تكثر في أدغال الجولان هي أخطر أعداء العدس . وفي السنين الجيدة . تنتقل منه ، كالحمص ، كميات معتبرة الى المدن . والجدول التالي يعطي فكرة عامة عن زراعة العدس في الجولان :

القضاء	السنة	المساحة	البذار	الانتاج	كغ بذار لكل هـ	المردود لكل هـ	المردودية بالنسبة لوحدة البذار
القنيطرة	١٩٥٠	١٤٠ هـ	٢٠ طن	٨٠ طن	١٥٠ كغ	٥٧١ كغ	٤
	١٩٥١	١٢٠	٢٠	٧٥	١٧٠	٦٢٠	٣٧٥
	١٩٥٢	١٤٠	٢٨	١١٢	٢٠٠	٨٠٠	٤
	١٩٥٣	٣١٣	٥٦	٦٧٧	١٨٠	٢١٦٠	١٢
	١٩٥٤	٢٧٥	٤٠	٣٩٨	١٤٥	١٤٥٠	١٠
	١٩٥٥	٤٢٠	٤٢	٥٠٤	١٠٠	١٢٠٠	١٢
لبق	١٩٥٦	٣٥٠	٥٠٧٥	٢٥٣٧٥	١٤٣	٧٢٥	٥
	١٩٥٠	٣٠٠	٣٠	١٥٠	١٠٠	٥٠٠	٥
	١٩٥١	٣٠٠	٣٠	٨	١٠٠	٣٠	٠٣
	١٩٥٢	٣٥٠	٣٥	٣٨٥	١٠٠	١١٠٠	١١
	١٩٥٣	٤٠٠	١٦	١٦٠	٤٠	٤٠٠	١٠
	١٩٥٤	٤٢٥	٤٢٥	٤٨٩	١٠٠	١١٥٠	١١
	١٩٥٥	—	—	—	—	—	—
	١٩٥٦	٣٧٣	٢٥٢٥	١٤١	٣٧٨	٢١٠٠	٥٦

وبخلاف الحمص الذي يزدهر كما رأينا سابقاً في جنوب الجولان ، تنتشر زراعة العدس في شمال منطقتنا ، وبمردود اعلى .
 الفول : ويزرع في الشتاء في حالة الزراعة البعلية الجافة . أما في حالة الري فيزرع في وقت متأخر . ويستهلك الفلاحون في الجولان الفول أخضراً بينما تباع حبوبه الجافة وتصدر الى خارج المنطقة . والجدول التالي يبين إنتاج حبوب الفول الجافة بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٦ .

القضاء	السنة	المساحة	البدار	الانتاج	كغ بذار لكل هـ	المردود لكل هـ
القنيطرة	١٩٥٠	١٨٠ هـ	٤٥ طن	١٨٠ طن	٥٢٠ كغ	١٠٠٠ كغ
	١٩٥١	١٨٠	٤٥	١٩٥	٢٥٠	١٠٨٣
	١٩٥٢	٢٠٠	٥٠	١٩١	—	٩٥٥
	١٩٥٣	٥٨	١٥	١١٦	—	٢٠٠١
	١٩٥٤	٢٠٠	٤٩	٢٨٠	٢٣٥	١٥٠٠
	١٩٥٥	—	—	—	—	—
لبق	١٩٥٦	١٨٠	٥٨,٨	١٦٢	٣٣٠	٩٠٠
	١٩٥٠	٩٠	٣٩,٥	١٨٢	٤٤٠	٢٠٢٢
	١٩٥١	٩٠	—	٩	٢٤٠	١٠٠
	١٩٥٢	—	—	—	—	—
	١٩٥٣	—	—	—	—	٢٠٠٠
	١٩٥٤	٢٠	٤	٢٣	٢٠٠	١١٥٠
	١٩٥٥	٢٢		٢٥	١٨٢	١٥٧٠
	١٩٥٦	٤٥	٥	٤٠	١١١	٩٠٠

أما بقية البقول كالفاصولياء والجلبان واللوبياء ، فانها تزرع في منطقة القنيطرة فقط . وقد كان الانتاج والمساحات المزروعة في عام ١٩٥٦ كما يلي :

الفاصولياء	٣٠ هكتاراً	١٥١٧ طناً من الحبوب
الجلبان	٤٠ هكتاراً	٢٣٣٨ طناً من الحبوب
اللوبياء	٢٢ هكتاراً	٨٥٤ طناً من الحبوب

٣٤ - الخضار : وتضم هذه الزراعة في الجولان تشكيلة كبيرة من الخضار إلا أن انتاجها ضعيف ، وقد تركزت في سهل البطيحة وفي ضواحي مجدل شمس وبانياس وفي الامكنة الاخرى التي يتوفر فيها ماء الري . وتواجه الزراعة مصاعب جديدة ، منها غياب السوق الاستهلاكية ، اذ ان القنيطرة وفاق لاتشكلان لوحدهما سوقاً كبيرة تستوعب كميات كبيرة من الخضار ، كما ان دمشق بعيدة ، ولا يستطيع صغار المنتجين دفع انتاجهم اليها ، ويضطرون لبيعه في محله بالسعر الدارج . ففي عام ١٩٥٦ بيع كيلوغرام البندورة في مكان انتاجه في البطيحة بخمسة قروش سورية ، وفي القنيطرة بـ ٢٥ قرشاً وفي دمشق بـ ٤٠ قرشاً .

بينما يقوم كبار الملاك بشحن البواكير الى دمشق حيث يبيعونها بأسعار مرتفعة . يضطر الصغار منهم لحملها على ظهور الحيوانات الى القرى البعيدة . فدروز مجدل شمس يبيعون ملفوفهم في جنوب الجولان ، وحتى في حوران ، حيث يبادلون عليه بالقمح أو بأي نوع آخر من الحبوب . وليتهربوا من دفع ضرائب الانتاج الزراعي كانوا غالباً ينتقلون في الليل وفي طريق غير محددة .

مع كل ذلك فقد تطورت زراعة الخضار بشكل تدريجي وبخطى حثيثة . ففي عام ١٩٥٠ كانت زراعة مختلف الخضار لاتغطي إلا ٥٩٤ هكتاراً ، في حين تجاوزت المساحة المخصصة لزراعة البندورة لوحدها في عام ١٩٥٦ الـ ١٦٥٨ هكتاراً ، ومساحة الباذنجان الـ ١١٢٧ هكتاراً . وفيما يتعلق بالمساحة المزروعة وبالانتاج ، تحتل البندورة المكان الأول بين مختلف الخضار . والجدول التالي يبين المساحة المزروعة بالبندورة وانتاجها بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٦ .

قضاء القنيطرة		قضاء لفيق	
السنة	المساحة المزروعة	الانتاج	المساحة المزروعة
	هكتاراً	طناً	هكتاراً
١٩٥٠	٥٠	٨٠	٩٥٠
١٩٥١	٧٠	٢٨٠٠	١٦٠٠
١٩٥٢	٧٥	٣٠٠٠	١٨٧٠
١٩٥٣	٩٧٩	٩٧٢	١٢٠٠
١٩٥٤	٢٧٠	٥٧٥	١٨٢٧,٥
١٩٥٥	١٧٠	٢٤٥٠	١٠٠
١٩٥٦	١٩٠	٣٦٥٠	١٩٦٥

ويحتل الباذنجان المكان الثاني بين الخضار والجدول التالي يبين تطور الانتاج بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٦ :

السنة	المساحة	الانتاج	المردود في الهكتار
	هكتار	طناً	كغ
١٩٥٠	٨٠	٥٦٢	٧٠٢٥
١٩٥١	—	—	—
١٩٥٢	٦٨	٢٥٧٠	٣٨٠٠٠
١٩٥٣	٤٨	٩٧	٢٠٠٠
١٩٥٤	٦٥	٦٣٧	٣٠٠٠
١٩٥٥	٤٠	١٠٠ (١)	١٧٥٠٠
١٩٥٦	٦٦٨	٤٦٦٥	٦٧٥٨

(١) تشير بهذه الأرقام الواردة في هذا الجدول وفي الجداول السابقة الشك في صحتها وربما كان مرد ذلك لخطأ في الطباعة . وقد تركت هذه الأرقام على حالها من قبل المترجم وعلى مسؤولية المؤلف .

ويأتي البطيخ الاحمر (الجبس) بعد الباذنجان ، حيث تنتشر زراعته في القسم الجنوبي الشرقي من الجولان بشكل خاص . والجدول التالي يبين انتاج الجولان من البطيخ الاحمر بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٤

السنة	المساحة	الانتاج	المردود في الهكتار
١٩٥٠	١٦٢ هكتارا	٦٦٠ طناً	٣٩٥٠ كغ
١٩٥١	١٥	٤٥٠	٣٠٠٠٠
١٩٥٢	١٦٣	٣٣٩٠	٢٠٠٠٠
١٩٥٣	١٣	٣٩٠	٢٠٠٠٠
١٩٥٤	١٧٠	٣٥٠٠	٢٠٠٠٠

أما البطاطا . فانتشارها في الجولان حديث العهد ، ولذا فانها تحتل المرتبة الرابعة . والجدول التالي يبين انتاجها بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٦

السنة	المساحة	البذار	الانتاج	البذار في	المردود في	المردود بالنسبة
				الهكتار	الهكتار	لوحة البذار
١٩٥٠	٥٥ هـ	٥٠ طن	٥٤٥ طن	٩٠٠ كغ	٩٩٠٠ كغ	١١
١٩٥١	٥٧	٢٤	٥٦٤	١٢٠٠	١٢٠٠٠	٢٣
١٩٥٢	٥٤	٦٠	٦٤٨	١٢٠٠	١٢٠٠٠	١٠٠٨
١٩٥٣	١٠	١٢	١٢٠	١٢٠٠	١٢٠٠٠	١٠
١٩٥٤	١٣	١٢	١٦٧	١٢٠٠	١٢٠٠٠	١٠
١٩٥٥	١٢	٨	٧٦	٥٦٦	٦٢٥٠	٢١
١٩٥٦	١٢	١٤ر٤	١٢٠	١٢٠٠	١٠٠٠٠	٨ر٣

وبالنسبة لباقي الخضار كالفليلة والكوسا والخيار والقرنبيط والملفوف والفجل والفاصولياء الخضراء والبصل والملوخية ، فان الجدول التالي يلخص انتاجها في كل الجولان منذ عام ١٩٥١ حتى عام ١٩٥٦ .

السنة	المساحة المزروعة بالهكتار	الانتاج بالطن
١٩٥١	١٤٧ هكتاراً	٢٠٩٥ طناً
١٩٥٢	١٤٧	٢١٠٢
١٩٥٣	٢٧٧	٣٢٨٠
١٩٥٤	٣٠٠	٢٦٣٠
١٩٥٥	٢٠٠	١٠٥٠
١٩٥٦	٢٩٠	٢١٨٧

١٤- الزراعات الصناعية : وقد دخلت حديثاً الى الجولان . ولازال انتاجها محدود الاهمية ولايرد ذكره في الاحصاءات الا نادراً .
القطن : وقد دخلت زراعته الى الجولان بعد الحرب العالمية الثانية ، وكانت المحاولات الاولى مشجعة إلا ان عدة إحباطات متتابة في زراعته فيها بعد أدت الى إفلاس عدد من المزارعين . والاحصاءات الوحيدة التي توصلنا اليها فيما يتعلق بزراعة القطن في الجولان هي التي تشير الى المساحات المزروعة بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٢ :

السنة	المساحات المروية	المساحات غير المروية
١٩٥٠	٣٨ هكتاراً	٣ هكتارات
١٩٥١	١٥٧٨	٦٠
١٩٥٢	١٩٨٨	٥٢٦٨

القنب : دخلت زراعته الجولان في عام ١٩٥٦ ، وقد كانت المساحة المزروعة في هذا العام حوالي خمسة هكتارات فقط . ورغم عدم توفر احصائيات لانتاج السنوات التالية فإن مصدراً رسمياً يؤكد بان انتاج الجولان لعام ١٩٥٧ قد بيع بثمان كلي يساوي ٢٥٠٠٠ ليرة سورية الأمر الذي يسمح بالافتراض بان الانتاج قد ازداد بشكل كبير .

الكتان : ويزرع بكميات قليلة في قرى الحرمون .

والى جانب هذه الزراعات الصناعية النسيجية ، تمارس ايضاً بعض الزراعات التي تدخل في الصناعات الغذائية مثل السمسم والبقول السوداني واليانسون .

السمسم : ويزرع مع الحبوب الصيفية ، في مطلع نيسان ، ويتم الحصاد في آب . ويزرع بدون سقي ، بعد أن تخصص له ، بصورة عامة ، الاراضي الجيدة التي تحضر لزراعته باعتناء . وزراعته مفيدة في الدورة الانباتية من أجل الارض ، فهو لا يتبعها .

ويزرع السمسم من أجل حباته التي تعصر ليستخرج منها زيت السمسم والسائل المشهور باسم (الطحينة) التي تستخدم في صنع العديد من المأكولات والحلويات . وحباته يزين الخبز ويطيب . ويصدر كل انتاجه تقريباً الى خارج المنطقة . والجدول التالي يوضح تطور انتاج السمسم بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٦ .

السنة	المساحة	البذار	الانتاج	البذار في الهكتار	المردود في الهكتار	المردود بالنسبة لوحدة البذار
١٩٥٢	٩٣١ هـ	٢١٩ طن	٦٩٩٨ طن	٩ كغ	٧٥٢ كغ	٧٥
١٩٥٣	٥٦	٥٣٨	٢٧٨	٦	٥٠٠	٧٧
١٩٥٤	٧٨٠	٧٧٧	٦٦٤	٩	٨٢٠	٨٥
١٩٥٥	١٠٠٠	١٠	١٦٦	١٠	٦١٦	٦٦٦
١٩٥٦	٥٥	١١٥	٥٩	٢٠	١٠٧١	٥١

القول السوداني : هو من الزراعات المروية والمتمركزة في منطقة بانياس ونهر الاردن . ويزرع في نهاية شهر نيسان شكل خطوط أو حزم ويحصد في شهر حزيران . وقد تطور انتاجه بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٥ بالشكل التالي :

السنة	المساحة	البذار	الانتاج	البذار في الهكتار	المردود في الهكتار	المردود بالنسبة لوحدة البذار
١٩٥٢	٩٥٥ هـ	٦٦٨٥ طن	٩٥٥ طن	٧٠ كغ	١٠٠٠ كغ	١٤
١٩٥٣	٣١٠	٤٦٥	٣٠٠	١٥	١٠٠٠	٦٠
١٩٥٤	٥٠٠	٧	٢٧٥	١٤	٥٥٠	٣٦
١٩٥٥	٦٠٠	٢٩٢	٣٣٠	٤٨	٥٥٠	١١

هذا ويصدر الفول السوداني إلى خارج المنطقة لعصره واستخلاص

زيته .

اليانسون : ويزرع في المناطق الواقعة في اقدم الحرمون . ونتاجه ضعيف ولا يدخل في الاحصائيات . فائدته الاساسية هي صناعة المشروبات الروحية خاصة النوع المعروف في سورية باسم (العرق) .

١٥- زراعة الاشجار : المنحدرات الجنوبية الشرقية للحرمون هي المناطق المثلى لزراعة الاشجار . وتنقصنا الاحصائيات لقرى هذه المنحدرات . لذا سنكتفي بدراسة هذه الزراعة في منطقتي القنيطرة وفيق .

وحتى وقت قريب كان التشجير في الجولان محدوداً ومبعثراً ، ويتمثل ببعض أشجار الزيتون والرمان وكروم العنب المبعثرة في المنطقة كلها .

ومن مقارنة أرقام المساحات المزروعة وعدد الاشجار والانتاج لعام ١٩٥٠ مع ارقام عام ١٩٥٦ المعتبرة ، نلمس التطور الحثيث لزراعة الاشجار .

١٩٥٠				١٩٥١			
نوع الشجر الثمر	المساحة	العدد الاجمالي	عدد الاشجار	الانتاج بالطن	المساحة	العدد الاجمالي	الانتاج بالطن
الموز	١٢	٥٨٢٥	٤٢٢٥	٣٧	بالكتار	٧١٠٠	١٠٤
الجوز	٦	٤٨٠	٢٠٠	٤	١٥	٨٧٠	١٦٤
الحسح	١٦	٤٦٥٠	٤٥٠	٩	١٠٥	٤٦٥	٨٥٦
التفاح	٢٢	٥٥٥٠	١٦٠٠	٢	١٥	٤٦٥	٣٧٥
البرتقال	٣	١٢٠٠	١٢٠٠	١٤	٧٠٧٩٦٣	١٣٦٥٠	٧٦
الليمون	٣	١٢٠٠	١٢٠٠	٢٢	١٥	٢١٨٠	٣٤٥
التوت	٦	١٨٠٠	١٢٠٠	١٢	٢٤٠٠	١٧٢٥	١٢
الذراقل	٣	٣٣٠	٣٠	٣٠	٦	١٨٠٠	٣٨
السفرجل	٣	٦٥٠	٥٠	٣٠	٧	١١٣٥	٣٨
الزنان	٣٧	٧١٠٠	٣٣٠٠	٢٠٥	١١٥	٢١٧٥	١١٦
التين	٨٤	٣٩٢٠٠	١٣٤٠٠	٣٣	٣٤	٨٥٧٥	٢٢١٣
المشمش	٣٥	٦٦٥٠	٢٥٥٠	٦	٣٧٤٣٣	٢٠١٨٥	٥٠
العنب	٢٢٥	١٢٨٩٠٠	٩٩٤٠٠	٢٤٢	١٤	٣٣٠٠	١٥٠٦
الزيتون	٢٣٨	٣٤٩٦٠	٣٣٣٠٠	٢١٧٤	٨١٦	٥٢٩٩١٥	١١٨٠٥
الكشمش	٧	١٨٥٠	٨٥٠	٥٦	١٧٤٨	٣٤٩٥٥	٦٠
الجميع	٦٩٥	٢٤٠٣٤٥	١٥٦٨٥٥	٦٢٠	١٧٤٣٥	٣٤٢٥	٣٨٨٩٨
					١٧٤٣٥	١٣٣١٩٢٣	

الفصل الثالث تربية الحيوانات

١١- الصفات العامة لتربية الحيوانات في الجولان :

١ - التربية البدائية : وهي الشكل الذي يعتمد على الطبيعة ، والانسان لايتدخل لتأمين الملجأ والطعام للحيوانات ، الا بشكل محدود ونادر . لذلك فان هذه التربية ترتبط بشكل وثيق بالشروط الطبيعية للمناخ ، وبشكل خاص العنصرين الناتجين عنه : الماء والعشب . إن سنة سيئة المراعي مع برد قاس ، تكفي لاهلاك قسم كبير من القطعان . ففي عام ١٩٥٢ فقدت منطقة الجولان ١٢٢٪ من خرافها التي كانت تملكها . وبالمقابل فان سنة جيدة تكفي لزيادة القطيع زيادة كبيرة ففي عام ١٩٥٥ كان عدد الاغنام في قضاء القنيطرة لوحدها ١١١٠٥٠ فارتفع في عام ١٩٥٦ الى ١٤٠١٢٩ وكانت نسبة الزيادة ٢٦٪ .

وبشكل عام ، منطقة الجولان ملائمة بشكل جيد لمثل هذا الشكل للتربية البدائية ، فالمراعي غالباً غنية ، كما ان فروق المناخ المحلي بين الشمال والجنوب ، مع وجود الهضبة والوديان ، كل ذلك يفسح المجال لعمليات انتاج مناسبة .

وفي الواقع يستقبل الجولان في كل سنة العديد من القطعان الآتية من حوران وجبل الدروز ، ومن المناطق المجاورة لقضاء فصل الشتاء في الأجزاء الجنوبية منه ، وبشكل خاص ، في بطاح أوديته الكبيرة . والخراف التي تأتي هزيلة ، تغادر بنهاية الشتاء وقد اصبحت سمينة .

٢ - تلعب تربية الحيوانات دوراً معتبراً في الحياة الاقتصادية للجولان ، وهذه الفعالية موجودة في كل مكان منه مع تباين في أهميتها من مكان لآخر ، حسب التجمعات البشرية وحسب الامكنة :

- فلدى البدو تشكل تربية الحيوانات النشاط الوحيد .
- ولدى أنصاف البدو تبقى التربية أيضاً النشاط الراجح .
- أما بالنسبة لفلاحي القنيطرة فتربية الحيوانات نشاط متمم وهام جداً وإن ٧٦٪ من مجموع مساحة القضاء هي ارض بور ومخصصة للتربية ، في حين لا تزيد نسبة المراعي في سورية عامة عن ٢٠٪ من مجموع المساحة .
- وفي قرى الحرمون ، ليس لتربية الحيوانات إلا أهمية ثانوية . فالماشية الكبيرة عددها محدود ، وهي مخصصة للأعمال الزراعية . وفوق المراعي الفقيرة للتربة الرقيقة ، يعيش عدد من قطعان الماعز .
- وفي جنوب الجولان ، في قضاء فيق ، تتفوق الزراعة وتشغل ٨١٪ من المساحة العامة لهذه المنطقة .

٣- تربية الحيوانات في الجولان وسيلة تضامن بين البدو والفلاحين . فالرعاة هم دوماً من البدو الذين يهتمون بحيوانات الفلاحين حسب عقود مختلفة ، ولكن محددة بشكل جيد أي واضحة .

٤- أخذت تربية الماشية تضعف شيئاً فشيئاً بسبب إشغال الارض ، وبالفعل أخذت الزراعة تنمو على حساب التربية ، خاصة في منطقة فيق .

١٢- الأهمية الاقتصادية والاجتماعية للماشية :

يشكل الحيوان الأساس لحياة البدوي . ولا يقل الامر بالنسبة للفلاح ، فكل واحد منهما يعتني بحيواناته بحب ، فبالفرح يستقبل مولد صغار الحيوانات ، كما ان فقدان أحدها يسبب له الحزن . وهو لا يتوانى إن دعت الحاجة في الاوقات الصعبة ، عن ايواء الحيوانات معه في الامكنة التي تعيش فيها أسرته ، فهذه الحيوانات أعضاء من العائلة . وكلمة (الحلال) التي يشير بها عرب الجولان الى القطيع تظهر مدى ارتباطهم بحيواناتهم . وتترجم أهمية الحيوان في الحياة الاجتماعية لمنطقتنا بقائمة من المفردات الخاصة والفنية والدقيقة التعابير ، التي تسمح بتسمية الحيوان حسب لون شعره ، أو حسب شكل وتفصيلة قرونيه وآذانه ، أو حسب عمره وجنسه .

وفي الواقع ، كان الاقدمون يتمتعون بحدة ذهن خاصة في ملاحظة اقل
الاشبارات المميزه ، وفي الكشف عن اقل سمة تسمح بتمييز حيوان عن
مجانسيه^(١) .

وتنعكس مكانة الحيوان في المجتمع الفلاحي للجولان على المسكن ،
فالمساحة الي تشغلها الحظيرة في البيت الريفي مهمة جداً .
أخيراً لايرتكز الغنى الاجتماعي على الملكية العقارية فقط ، وإنما على
القطيع أيضاً . فغنى رجل او عائلة يقاس بعدد رؤوس القطيع ، أي بقيمة
متحركة .

ويلعب الحيوان في الحياة الاقتصادية لمنطقتنا دوراً هاماً جداً أيضاً :
- فهو لا يمثل رأسمالاً فقط ، وإنما يمثل عملة تداول أيضاً ، لأنه قابل للمبادلة
بأراض وبحبوب وتبن ، ولتسديد الديون . . الخ . .
- غالباً ما يدفع مهر المرأة رءوساً معدودة من الماشية . وان تعدد الزوجات عادة
شائعة لدى الفلاحين ، وبشكل خاص لدى البدو الذين يملكون عدداً كبيراً
من الحيوانات .

- ان معظم الاسواق الاسبوعية التي تقام في الجولان هي في الأساس أسواق
ماشية . فالجولان يصدر حيوانات عمل لحوران ولجبل الدروز ، مع حيوانات
ذبح الى المدن السورية الكبرى وإلى جنوب لبنان .
- يشكل الحيوان القوة المحركة في المنطقة ، الثيران للأعمال الزراعية ، والجمال
لنقل الحمولات الثقيلة ، والحمير للحمولات الاقل ثقلاً . وأخيراً الخيول
لركوب وانتقال الاشخاص .

- كل سكان الجولان ، يبيعون مجموعة من المنتجات الحيوانية : جملان ،

(١) عبة : نعجة بيضاء برأس أسود . شقرة : نعجة بيضاء برأس أسمر داكن .
قرعة : نعجة بدون قرون وبأذان طويلة مدلاة . قرطاً إذا كانت الأذان صغيرة . وهناك
نماير خاصة للأبقار والثيران . صبة : بقرة سوداء برأس ابيض ، وأصبح للثور
نجمة : للبقرة التي للإبقعة بيضاء في الجبهة ، نجيم للثور . وهناك الكثير من قبيل هذه
التسميات

عجسول ، حليب ، سمن ، جلود ، وحتى الروث يباع تارة بشكل سماء طيسي (زبل) وتارة أخرى بشكل وقود (جلة) .
وتتزامن أوقات بيع المنتجات الحيوانية مع انفراج اقتصادي ، ويحتفل بمثل هذه المناسبات كأعياد اجتماعية ، تبدأ بحلب النعاج ، وجز الصوف ، وبيع الحملان .
وتنضم تربية الحيوانات في منطقتنا : الابقار والاعنام والخيول والجمال .

١٣- تربية الابقار :

الأصل لابقار منطقتنا والمسمى بالجلولاني ، مشهور في البلاد المحيطة بالجلولان . وهو يختلف عن بقية أجناس البقر السوري المعروفة باسم (البلدي والقيسي) فحجمه اصغر من حجم الاجناس الاخرى ، إلا انه اكثر جلدأً وتحملأً . وهو لا يعطي اكثر من حوالي ٥٠٠ ليترأً من الحليب سنوياً ، الا ان هذا الحليب دسم وغني بالقشدة ، والبقر الجلولاني ، بلونه الاسود أو الاسود والأبيض ، وبصفاته يشبه الجنس البر وتاني في فرنسا .

في الاساس ، يتكون قطيع البقر من بقرات الانجاب والتكاثر ومن بقرات الحليب ، اما الذكور فتخصص للعمل أو الذبح ، وتخصى في سن العامين لتصبح طيعة ولتسمن . ويترك عادة ثور فحل لكل خمسين بقرة ، بشكل يبقى فيه ثوران او ثلاثة في كل قرية ، يتمتعان بامتيازات كبيرة كحق الرعي في أي مكان حتى بين الزرع .

وفيما يتعلق بعدد الابقار ، فان الاهتمام باحصاءاتها أقل دقة من احصاءات الاعنام ، ذلك لان الابقار معفية من أي ضريبة ، واهتمام السلطات بحصر عددها قليل .

والجدول التالي يبين تكوين وتطور قطعان البقر بين ١٩٥٠ و ١٩٥٦ في قضائي القنيطرة وفيق .

القضاء	السنة	إبقار	ثيران	عجول	جواميس	المجموع
القنيطرة	١٩٥٠	٥٢٠٠	٤٦٠٠		٦٥٥	—
	١٩٥١	٥٥٠٠	٤٧٠٠	١٤٠٠	٦٧٠	٢٢٧٠
	١٩٥٢	٥٤٥٠	٥١٠٠	١٢٠٠	٥٧٨	١٢٣٢٨
	١٩٥٣	٥٣٢٠	٥٠٣٥	١٤٠٠	٥٢٩	١٢٢٤٨
	١٩٥٤	٥٦٠٠	٥٠٠٠	١٤٥٠	٤٤٩	١٢٦٩٩
	١٩٥٥	٥٧٠٠	٥١٥٠	١٥٠٠	٦٧٠	١٣٠٢٠
	١٩٥٦	٥٧٥٠	٥٢٥٠	١٥٥٠	٦٧٨	١٣٢٢٨
فبق	١٩٥٠	٣٥٠٠	٤٥٠٠	—	٥٧٠	—
	١٩٥١	١٥٠٠	٤٠٠	٤٠٠	٣٠٠	٢٦٠٠
	١٩٥٢	١٧٠٠	٥٠٠	٥٠٠	٦٤٥	٣٣٤٥
	١٩٥٣	١٨٠٠	٦٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٣٧٠٠
	١٩٥٤	١٤٠٠	٦٥٠	٦٢٥	٤٨٩	٣٦٦٤
	١٩٥٥	—	—	—	—	—
	١٩٥٦	٥٩٤٠	٢٨٣٩	١١٥٠	١٥٠	٩٦٢٩

المصدر لهذه الاحصاءات وزارة الزراعة السورية

وتظهر اهمية الإبقار في منطقتنا بوضوح عندما نقارن بين ما يصيب كل ١٠٠٠ نسمة في الجولان من الإبقار وبين ما يصيب الـ ١٠٠٠ نسمة في سورية عامة . ففي عام ١٩٥٥ كان لكل ١٠٠٠ نسمة من منطقتنا ٢٤٨ رأساً ، في حين يهبط الرقم الى ١٢٠ رأساً بالنسبة لعموم سورية .

طرق وعقود تربية الابقار في الجولان :

الفلاحون المستقرون هم الذين يملكون معظم قطعان البقر تقريباً ،

وفق طرق وعقود مختلفة :

أ) - التربية في القرى : وهي تربية محدودة ، حيث يكون لكل عائلة بعض البقرات للحليب ، وبعض الثيران للعمل ونقل هذه الحيوانات شيئاً من العناية ، إذ يؤمن لها الغذاء والملجأ في الشتاء وتفصل الثيران والا بقار والعجول عن بعضها في الرعي ، ويخصص لكل فئة من هذه الفئات راع مشترك لكل القرية ، حيث يجب على الحيوانات ان تجتمع في الصباح الباكر ، في ميدان القرية ليستطيع الراعي سوقها نحو المراعي مع شروق الشمس . وتختلف مدة البقاء في هذه المراعي حسب الفصول :

- ففي الشتاء يستمر البقاء ، دفعة واحدة ، من الصباح حتى المساء ، ذلك لان النهار قصير ، والحيوانات لا تعطش . وبسبب المطر والضبب ، يضع الرعاة غالباً وجهتهم وقت العودة ، فيستعينون بالطيور المهاجرة ، خاصة الزرازير التي تعود كل مساء الى وديان الجولان الجنوبية الغربية في وقت ثابت من كل يوم محددة بذلك اتجاه الجنوب الغربي ووقت العودة للرعاة .

- وفي الربيع ، يتوجب على الراعي الخروج بوقت باكر جداً ، وذلك لأن ذبابة تسمى محلياً (قيقوب) تبدأ في حوالي الساعة العاشرة من الصباح بلسع الحيوانات فتهيجها وتمنعها من الاستمرار في الرعي وتضطرها للعودة ، ويقوم كل فلاح بمفرده برعي حيواناته خلال بضع ساعات من الليل . وعموماً ، تشبع الحيوانات بسرعة في الربيع لغزارة العشب ووفرتة .

- وفي الصيف والخريف ، تعود الحيوانات التي خرجت في الصباح ، لتشرب ظهراً وتبقى تحت شمس الحامية الى مابعد الظهر ، لتساق مرة ثانية الى المراعي . وفي المساء تعود الى القرية مع غروب الشمس . العقود مع الراعي المشترك : الاجرة يمكن ان تكون شهرية او سنوية وتختلف حسب نوع الحيوانات التي يتعهد بالرعي بها : بقرات أو عجول أو ثيران .

- راعي العجول : وهو غالباً صبي أجرته الشهرية بين ٢٠ و ٣٠ ليرة سورّية إضافة لأكله ولباسه .

راعي البقرات : ويأخذ على البقرة الواحدة ٥٠ قرشاً سورياً في الشهر عندما يكون القطيع كبيراً الى حد ما . أما في حالة القطيع الصغير فيتقاضى الراعي في نهاية كل سنة حولياً عمره سنتان إضافة الى طعامه .
ب) - التربية خارج القرى : يعهد كل فلاح يملك اكثر من ثلاثين رأساً من الحيوانات بجزء من حيواناته لمن يتعهد بالرعي بها . وبشكل عام يتحمل البدوي مثل هذا العمل ، بحكم بداوته وقدرته على الانتجاع ، حسب الفصول ما بين الشمال والجنوب ، وما بين المرتفعات والوديان . والعقود في هذا الشكل من أشكال الرعي متعددة ومعقدة اكثر مما في حالة الراعي المشترك للقرية . والعقود التالية هي اكثر الاشكال شيوعاً في الجولان :

١ - الهجانة Al Hejane : ويتعهد البدوي في هذه الحالة بالاعتناء بالقطيع طيلة السنة مقابل الحليب . وعندما يبيع المالك قسماً من حيواناته يأخذ الراعي ، من الشاري عادة ، من ٥ الى ١٠ ليرات سورية مقابل (خطارة)

٢ - الاجرة : والراعي في هذه الحالة مأجور . وتختلف الاجرة حسب عدد الحيوانات ، وتحدد بالاتفاق بين المالك والراعي . إضافة على الاجرة ، يتوجب على المالك ان يقدم للمرأة التي تحلب الابقار أو اواني الحليب وثوباً من النوع التقليدي الذي ترتديه المرأة البدوية مع زوج من الأحذية ومنديل رأس (عصابة) . بالمقابل يقوم الراعي بتحويل الحليب الى سمن يقدمه للمالك مبيعاً لنفسه الناتج المسمى (شنية) . وفي كل الاحوال يجب على المالك ان يقبل ما يقدمه الراعي دون اي نقاش أو احتجاج لأن القاعدة هي : الراعي أمين ولا يخون الامانة .

٣ - المناصفة : يقدم المالك في هذه الحالة عدداً من الحيوانات لشخص يتعهد بالناية بها وباطعامها مقابل الحليب . وبعد مضي فترة محدودة وهي في الغالب عشرينين ، يستعيد المالك عدداً من الحيوانات مساوٍ للعدد الذي كان قد قدمه ، ويقسم الباقي من القطيع الذي نما مناصفة بين

المتعاقدين .

٤ - الشراكة : يقدم المالك في هذه الحالة عدداً من الحيوانات يحدد ثمنها . لشخص يتعهد بالعناية بها مقابل الحليب . وعلى هذا الشخص ان يدفع له خلال سنتين او ثلاثة ، نصف الثمن الذي حدد . إضافة الى ذلك تقسيم الحيوانات جميعها في اليوم المحدد للقسمة مناصفة بين المتعاقدين .

٤ - تربية الاغنام في الجولان :

وتشمل تربية الخراف والماعز . وقد تغلبت تربية الخراف بشكل كبير على تربية الماعز وخروف الجولان من النوع المسمى (عربي) وهو يختلف كلياً عن المعروف في فرنسا بذنبه الدهني الضخم الذي يغطي الفخذين بشكل تام ويمتد حتى العرقوب . ويزن هذا الذنب من ٣ الى ٥ كيلوغرامات مكوناً خزاناً احتياطياً للغذاء يتيح للحيوان القيام بسير طويل واحتمال فترة سوء المراعي مدة طويلة .

يتكون قطيع اغنام الجولان بشكل اساسي ، من النعاج والعنزات ، أما الأكباش والتيوس فعددها قليل ، واحد لكل خمسين من الاناث . . وللحصول على فحول الكباش يقوم البدوي بانتقاء عدد من الحملان الذكور الجيدة التكوين ويتركها ترضع مع امهاتها فترة طويلة ، بينما يرسل الذكور الاخرى الى الذبح حين يصبح عمرها شهرين او ثلاثة أشهر . أما الأنثى فتضاف الى القطيع لرفع نسبة الولادات فيه وزيادة عدده .

ويتم احصاء الخراف بشكل أحسن من احصاء الأبقار ، لانها محملة بضريبة خاصة (الاغنام) . وعلى كل راع التصريح عن الرقم الحقيقي لقطيعه ليتم فيما بعد دفع الضرائب عنه . ويتلقى الراعي مقابل تصريحه وثيقة تسمى (قوشان) يذكر فيها العدد المصرح به واسم المالك . ويتم حفظ هذه الوثيقة باعتناء فائق ، ويجب ان تكون جاهزة لدى الراعي لابرازها للمفتشين الذين يجوبون الريف على خيولهم . ويترتب على عدم مطابقة الارقام المعلن عنها في الوثيقة مع العدد الحقيقي للقطيع غرامات نقدية باهظة .

والجدول التالي يسمح بأخذ فكرة عن تطور تربية الاغنام بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٦ في الجولان :

القضاء	السنة	نعاج	عنزات	المجموع
القنيطرة	١٩٥٠	٦١٦١٢	٣٥١٢٢	٩٦٦١٢
	١٩٥١	٦١٦٢٠	٣٧٤٣٠	٩٨٩٦٠
	١٩٥٢	٦٢٢٢٠	٤٣٠٣٣	١٠٥٢٤٥
	١٩٥٣	٥٦٧٨٤	٣٩٩١٦	٩٦٧٥٠
	١٩٥٤	٦٦١٩٧	٤٤٦٨٨	١١٠٨٨٥
	١٩٥٥	٦٦٣٠٠	٤٤٧٥٠	١١١٠٥٠
	١٩٥٦	٨١٠٩٣	٥٩٠٣٦	١٤٠١٢٩
فيق	١٩٥٠	٣٥٥١٩	١٩٣٦٧	٥٤٨٨٣
	١٩٥١	٤٣٣٥٠	١٥٤١٤	٥٨٧٦٤
	١٩٥٢	٢٢٦٩١	١٤٧٥٦	٣٧٤٤٧
	١٩٥٣	٢٣٥٠٠	١٦٧٠٠	٤٠٢٠٠
	١٩٥٤	٢٦٧٢٥	١٥٤٧٦	٤٢٢١١
	١٩٥٥	—	—	—
	١٩٥٦	—	—	—

حيث نلاحظ انه : على الرغم من التراجع الطارىء في بعض السنين ، فعدد الاغنام في قضاء القنيطرة بمجمله قد تقدم بشكل تدريجي ، وارتفع خلال سبع سنوات من ٩٦٦١٦ رأساً إلى ١٤٠١٢٩ رأساً . هذا يعني ان نسبة الزيادة كانت ٣١٪ .

- وعلى العكس من ذلك تراجع عدد الاغنام بمجمله في قضاء فيق . ففي عام واحد من ١٩٥١ إلى ١٩٥٢ فقد القطيع ٢٣٪ من مجموع عدده . ويرتبط هذا التراجع ارتباطاً وثيقاً بتطور الزراعة وتقلص المراعي الطبيعية .

وفي الواقع كانت المراعي الطبيعية في ١٩٥٠ تغطي ٣٥٪ من مجموع أراضي القضاء ، وفي عام ١٩٥٦ لم يبق للحيوانات إلا ما يغطي ١٩٪ فقط وقد كان تقلص المراعي في قضاء القنيطرة ، في الفترة نفسها ، أقل بكثير . فمن ٧٧٪ من مجموع مساحة القضاء انحدرت نسبة المراعي إلى ٧٦٪ فقط . - لتربية الخراف في الجولان ، كما لتربية الأبقار ، أهمية كبيرة نسبياً ، ففي الوقت الذي كان فيه لكل ألف نسمة من سكان سورية ١٣١٣ خروفاً في عام ١٩٥٥ ، كان نصيب الألف نسمة من سكان الجولان في السنة نفسها ١٨٤٣ خروفاً .

انتجاع الخراف : التنقلات الفصلية للخراف اكثر تكراراً واكثر اتساعاً من تنقلات الابقار .

١ - التنقلات الشمالية - الجنوبية وبالعكس : يتمتع الجنوب بشتاء اكثر لطفاً من الشمال ، فينبت العشب فيه بسرعة ، لذلك توجه القطعان الى الجنوب لقضاء الشتاء في بطون الأودية الكبيرة ، وبسبب امتلاك كبار الملاك العقارين لهذه المراعي الواسعة ، يتوجب على الرعاة دفع ضريبة مشتى تعادل ليرة سورية عن كل رأس . وببداية الربيع توجه القطعان الى الشمال حيث توجد المراعي الغنية الواسعة . وهنا أيضاً يتوجب دفع ضريبة جديدة للملاك الكبار من أجل تمضية فصل الربيع .

٢ - وبنهاية الربيع تتوجه الخراف الى الشرق (تشرق) ، نحو حوران . حيث تستطيع الرعي بحرية في الحقول الحورانية الواسعة ، بعد الحصاد . ويتقبل الحورانيون وصول قطعان الجولان لأسباب عديدة : - لا يملك الحورانيون أعداداً كبيرة من الماشية لاطلاقها ترعى ما يبقى من الزرع بعد الحصاد .

- تترك الإغنام في الحقول كميات كبيرة من السماد الطبيعي المخصب . - يستفيد فلاح حوران من هذه المناسبة لشراء الألبان وبعض النعاج من

- البدو ، وبالمقابل يبيعونهم القمح .
- ٣ - وفي بداية الخريف يعود الرعاة مع قطعانهم إلى الجولان الشمالي ويقربون من القرى حيث توجد الينابيع ذات المياه الدائمة . ويستطيع البدو المتشاركين مع القرويين بعقود تربية البقاء حول القرية المدة التي يريدونها . أما الذين لا تربطهم بأهل القرية أية شراكة ، فيتوجب عليهم دفع ضريبة رمزية لمختار القرية ، تكون غالباً خروفاً عن كل قطيع .
- ٤ - تجري بعض التنقلات النادرة نحو البادية ، حيث يقضي الرعاة مع قطعانهم فصل الربيع والشتاء ويعودون إلى الجولان في مطلع الصيف عندما يصبح الماء نادراً في البادية .
- وأثناء هذه التنقلات الطويلة يهلك بعض الخراف ، وفي هذه الحالة يتوجب على البدوي الراعي ، مراعاة للامانة ، أن يجلب معه جلود الحيوانات التي فقدت ليتعرف عليها أصحابها عن طريق العلامات الفارقة التي يضعها الملاك عادة على خرافهم .
- عقود تربية الخراف :
- ١ - الغلج : وهي طريقة المشاركة المألوفة في الجولان ، وعقدها لسنة ، يتجدد تلقائياً إذا لم يطلب أحد الطرفين انهاء في نهاية العام . ويوجب هذا العقد على الراعي ، مقابل حصوله على ربع الحملان المولودة ، أن يقدم للمالك رطلاً من السمن^(١) عن كل نعجة حامل . ويحتفظ بالفائض من السمن لنفسه . ومن المعروف ان النعجة تعطي غالباً أكثر من رطل من السمن . كما ان الحليب الناتج عن عملية التحويل إلى سمن وهو ما يسمى (شنية) يبقى للراعي .
- ٢ - شركة العظم : في هذا الاسلوب في المشاركة ، يتم الاتفاق بين المالك والراعي البدوي على الشكل التالي :
- يقدم المالك رأس المال لشراء القطيع ، ويحتفظ بالاتفاق مع شريكه بسجل المصاريف .

(١) الرطل = ٢٠٠ كغ .

- من انتاج القطيع من سمن وصوف وحملان ذكور ، لأن الاناث تضاف للقطيع الولود ، يسد الراعي للمالك نصف رأس المال ، أي نصف ثمن القطيع ، كما يدفع كل ما يترتب على القطيع من ضرائب للسلطات ولاصحاب المراعي . بالاضافة الى ذلك فانه يتكفل بتحمل نصف الخسارة التي قد تقع قبل تاريخ الاقتسام .

وعندما ينتهي الراعي من تسديد رأس المال ، ويتم هذا عادة خلال سنتين او ثلاثة . تجري القسمة ، ويحصل الراعي على نصف العدد النهائي للقطيع .

٣ - الشكارة : ويشبه هذا الأسلوب الأول ، حيث يتكفل البدوي برعي حيوانات المالك والاعتناء بها مقابل ربع الحملان المولودة مع مؤونة من القمح والبرغل والملح ، ويؤول الحليب كله للمالك الذي يتعهد بحلبه وبيعه مباشرة او بتحويله الى سمن .

٤ - الربوع : وهي طريقة المشاركة الشائعة في جنوب الجولان ، وتشبه الطرق السابقة أذ يحصل الراعي على ربع الحملان المولودة وربع الصوف والنعاج غير الحاملة مع خمسة كيلوغرامات من القمح عن كل نعجة تلد . ويؤول الحليب كله للمالك وحده .

٥ - تربية الحيوانات الاخرى في الجولان :

وتشمل تربية الجمال والخيول والحمير والبغال .

الجمال : لازال الجمل يحتل مكاناً هاماً في المجتمعين البدوي والقروي . وهو بالنسبة للبدوي الوسيلة الوحيدة للنقل لحياة التنقل فيها دائم . وبعد عمليات الحصاد يأتي البدو للعمسل لدى القرويين . وبواسطة الجمل يتم نقل اكوام الحصيد والحشيش إلى مواقع البيادر . واجور النقل مختلفة ، ويتم الاتفاق مع الجمال بالمقولة غالباً .

الخيول : حتى وقت قريب كانت الخيول الأصيلة تلعب دوراً هاماً في الجولان . فهناك خيول عربية أصيلة حافظت على أصلها بدقة . ويمتلك كل مالك لخيول أصيلة وثيقة نسب لخيوله . موقعة من عدة وجهاء ، تثبت محافظة هذه الخيول على نسبها وأصلها العربي . وتسمى

هذه الوثيقة بـ (الحججات)^(١)

وفي الواقع ، كان العرب ، ومنهم الدروز ، ثم الشركس من أكبر مربّي الخيول ، فالحصان في نظرهم من أرقى وأنبل الحيوانات ويخصص للركوب ، ويشكل خاص لميادين سباق الخيل والاستعراضات أثناء الأعياد والأعراس .

وقد ساهمت فترة الانتداب الفرنسي في التشجيع على تربية الخيول ، ذلك لان جيوش المشرق كانت تضم فرق خيالة ، والمتنسبون الى هذه الفرق يأتون الى الجولان لشراء الخيول .

وحالياً ، يتراجع الحصان باستمرار ، أمام السيارة ، وقد تحولت أكثر الخيول أصالة إلى العمل الزراعي ، الأمر الذي كان محظوراً بشكل مطلق .

البغال والحمير : وهي لازالت كثيرة ، خاصة في جنوب الجولان . والحصار ضروري للعائلة الريفية ، فهو حيوان الركوب المثالي ، لخصه ولصبره وتلبيته لخدمات عديدة .

والجدول التالي يلخص وضع تربية حيوانات الجر والركوب في الجولان بين ١٩٥٠ و ١٩٥٦ .

(١) أكثر سلالات الخيل أصالة في الجولان هي : الحمداني ، السامري ، الكحيلان - عجوز الصقلاوي . مع العلم بان أصل الأم هو الذي يؤخذ بعين الاعتبار من أجل إثبات الاصلية .

السنة	الخيل	الغال	الحمير	الجمال	المجموع
١٩٥٠	١٤٠٠	٤٥٠	٣٨٠٠	٧٩٧	٦٤٤٧
١٩٥١	١٤٠٠	٤٧٠	٤٦٠٠	٨٢٠	٧٢٩٠
١٩٥٢	١٥٠٠	٥٠٠	٤٧٠٠	٢٠	٥٧٢٠
١٩٥٣	١٥٧٠	٥٣٠	٤٨٦٠	٥٢٤	٧٤٨٤
١٩٥٤	١٣٠٠	٥٢٤	٤٩٧٠	٤٤٨	٧٢٢٢
١٩٥٥	١٥٠٠	٥٥٠	٥٠٠٠	٦٠٠	٧٦٥٠
١٩٥٦	١٦٠٠	٥٧٥	٥٠٢٥	٤٣٤	٧٦٣٤
١٩٥٠	٧٠٠	٣٠٠	٢٧٠٠	٤٦٣	٤١٦٠
١٩٥١	٢٦٥٠	١٨٠٠	١٧٤٥٠	٧٣٠	٢٢٦٣٠
١٩٥٢	٢٧٠٠	١٨٥٠	١٨٠٥٠	٢٠٨	٢٢٨٠٨
١٩٥٣	٢٤٠٠	١٢٠٠	١٨٦٠٠	٣٠٠	٢٢٥٠٠
١٩٥٤	٢٤٥٠	١٢٥٠	١٨٧٥٠	٢٣٧	٢١٤٨٧
١٩٥٥	—	—	—	—	—
١٩٥٦	٣٦٣٤	٢٠٢٨	١٦٦٨٥	١٠٨	٢١٥٥٥

٢- الدواجن :

الدجاج هو أهم أنواع الدواجن . وله مع البيض قيمة العملة السائلة في كل ريف الجولان . ولدى كل عائلة قروية أو بدوية ، عدد من الدجاجات وبواسطة البيض يمكن شراء كل ما هو مطلوب من البدكان . كما أن البائعين المتجولين القادمين إلى القرية لبيع منسوجات وأدوات طبخ وصابون . . الخ . . . يقبلون الدجاج والفراخ مقابل بضائعهم . وفي الواقع الدجاج والبيض في الريف عبارة عن رأس مال موضوع تحت تصرف النساء . وتستهلك محلات بيع الفروج بالقنيطرة عدداً كبيراً من الفرايج كل اسبوع . إضافة الى ذلك ، يدخل البيض

بنسبة كبيرة في النظام الغذائي . وبسبب عدم وجود اماكن لبيع اللحم في القرى ، تحل الفرائج محل اللحم عندما يكون هناك ضيف يجب إطعامه .

ويأتي الديك الرومي بالمرتبة الثانية بعد الفروج . وللديوك الرومية التي تحضر من قبل النساء الشراكسيات شهرة كبيرة في كل سورية . أما الوز والبط والحمام والارانب والنحل فدورها ثانوي في الاقتصاد الريفي لمنطقتنا .

وفي الواقع ، لقد تلقت تجارة الدواجن ضربة قاتلة بعد إغلاق السوق الفلسطينية . ومع ذلك ، فالجولان لا يزال يمتلك ثروة معتبرة من الدواجن . ففي عام ١٩٥١ ، كان جولاننا يمتلك من الفراخ ٢٥٪ ومن النحل ٢٨٪ ومن الديوك الرومية ٧٥٪ من مجموع كل مافي محافظتي دمشق وحوران .

والجدول التالي يعطينا فكرة عامة عن الدواجن في الجولان بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٦ :

القضاء	السنة	الفراخ	الديوك	الوز	البط	الحمام	الارانب	خلايا النحل
			الرومية				—	١٢٠٠
	١٩٥٠	٣٢٠٠٠	—	٦٤٠	٧٢٠	٧٥٠٠	٣٥٠	٣٣١
	١٩٥١	٣٢٤٠٠	٣٧٠٠	٦٨٠	٧٥٠	٧٨٠٠	٣٠٠	٣٩٥
	١٩٥٢	٣٣١٠٠	٣٩٠٠	٦٥٠	٧٠٠	٨٢٠٠	٣٨٠	٤٤٣
القنيطرة	١٩٥٣	٣١٨٠٠	٤٢٠٠	٦٩٠	٧٢٠	٩١٠٠	٣٤٠	٨٨٥
	١٩٥٤	٣٨٥٠٠	٣٧٠٠	٦٢٠	٦٨٠	٩٦٥٠	٣٥٠	٨٨٥
	١٩٥٥	٣٩٥٠٠	٣٨٠٠	٦٥٠	٧٠٠	٩٠٠٠	٣٧٥	٨٦٠
	١٩٥٦	٣٩٧٠٠	٥٨٥٠	٦٧٠	٧٢٥	٩٥٠٠		
	١٩٥٠	٢٠٠٠٠	—	٢٠٠	٢٠	٣٥٠٠	—	٢٥٠
	١٩٥١	٢٥٠٠٠	٤٠	٢٠٠	١٣٠	٥٤٠	١٤٧	٢١٧
	١٩٥٢	٢٥٥٠٠	٣٥٠	٣٥٠	٢٥٠	٣٠٠٠	٢٥٠	٣٠٨
فيق	١٩٥٣	٣٠٥٠٠	٢٠٠	٢٧٥	٢٥٠	٣٠٠٠	٢٠٠	٤٦٣
	١٩٥٤	٢٠٥٠٠	٢٥٠	٣٠٠	٣٠٠	٤٥٠٠	٣٠٠	٨٠٠
	١٩٥٥	٢١٠٠٠	٢٧٥	٢٥٠	٣٢٥	٤١٠٠	٢٧٥	٨٠٠
	١٩٥٦	٦٥٨٥	٦٥	١٨٧	—	—	٤٠	٤٠٠

١٧- المنتجات الرئيسية لتربية الحيوان :

١ - حيوانات العمل : ان الهدف الاساسي من تربية الابقار هو انتاج حيوانات العمل ، فالعجول التي اخصيت وهي في عمر الستين ، يجري بيعها عندما يصبح عمرها اربع سنين . والزبائن الرئيسيون لهذه الحيوانات هم الحوارة والدروز .

٢ - اللحم : لا يستهلك لحم المواشي الكبيرة في الجولان ، كما هو الحال في كل سورية ، الا بكميات قليلة . والحيوانات الهزمية التي لم تعد صالحة للعمل ولا للانجاب ، تسمن لبيعها للتجار القادمين من جنوبي لبنان ، حيث

يشكل متاوله هذه المنطقة حالياً الزبائن الوحيديين لحيوانات الذبيح في الجولان .

وقبل عام ١٩٤٨ ، كانت فلسطين تشكل أحسن سوق لاستهلاك حيوانات الذبيح ، إذ كان البقر الجولاني مفضلاً على غيره عند اليهود . وترسل الحملان الذكور بكاملها تقريباً للذبيح وتباع وهي في الشهرين أو الثلاثة أشهر من عمرها . فالكبار منها وتسمى (بدري) تباع في شهر آذار ، أما الأصغر والمسماة (وردى) فتباع في شهر نيسان . ويأتي التجار ، وبشكل خاص من دمشق ، ليجوبوا كل المنطقة بشاحناتهم الضخمة وينتقوا الحملان مباشرة إلى المدن الكبرى . ولحم الحملان مرغوب جداً لأن التخزين العام للدهن في الذنب الدهني، لم يبدأ بعد عندها .

٣ - الألبان : يستهلك لبن الأبقار في مكانه غالباً ، ولا يدخل إلا نادراً في التجارة . أما لبن النعاج فإنتاجه كثير ومرغوب ومقدر ومنتجاته الرئيسية هي :

- السمن : ويحصل عليه بخض اللبن الرائب (المخثر) داخل قربة من جلد الماعز تستعمل كمخض ، وتملأ هذه القربة باللبن الرائب من العنق حتى ثلاث أرباعها ، ثم يشد العنق بإحكام بواسطة خيط متين ، وتبدأ البدوية بخض القربة المعلقة على ركيزة خشبية مثلثة الأرجل . وللزبدة الناتجة بهذه الطريقة مذاق حامز ومالح . ولتحويلها إلى سمن يمكن حفظه ، يجب إذابتها وغليها . ويخزن البدوي السمن في قرب من جلد الماعز . أما أصحاب القطعان الكبيرة والتجار فيضعونه ضمن صفائح من التنك سعة الواحدة ١٨ ليتراً أي ما يعادل ستة أربال أو ١٥ كغ . وهذه العبوات يطرح السمن في التجارة .

وفي الواقع ، ينتج الجولان سنوياً كمية معتبرة من السمن . ففي عام ١٩٥١ كان إنتاجه يمثل ٦١٪ من مجمل إنتاج محافظتي دمشق وحوران .

الجبن : ويخصص لبن الماعز لصناعته ، وتجدر الإشارة الى ان انتاج الجبن هو بالاساس انتاج قروي ، والبدوي يكاد لا ينتج منه شيئاً . وكان انتاج الجولان من الجبن في عام ١٩٥١ يمثل ٥٠٪ من مجمل انتاج محافظتي دمشق وحمص .

الزبدة : واستهلاك الزبدة البدوية الطازجة محدود جداً بسبب طعمها الحامض والمر . أما زبدة المائدة المرغوبة ، فهي التي تنتجها القرى ، وبشكل خاص قرى الشوكس . وقد انتج الجولان في عام ١٩٥٥ ٤٢٪ من مجمل انتاج محافظتي دمشق وحمص .

٤ - الصوف : يبدأ جز الصوف عادة في ١٥ نيسان وهو عيد اجتماعي حقيقي ، إذ يقوم كل راع بذبح حمل ، ويأكل الناس كلهم اللحم في هذا اليوم . والجز شامل بسبب لطافة المناخ في هذه الفترة . لا يستثنى منه إلا الاناث من حملان السنة نفسها . ويجري الجز بواسطة مقص بدائي يسمى (الزو) أو (المقرط) . وتلف الجز قطعة واحدة يبقى الجزء الذي كان ملاصقاً لجلد الخروف في الداخل . وتزن كل جزه عادة من ٢ إلى ٣ كيلوغرامات .

ويشتري التجار الصوف غالباً من محله ، وحتى قبل جزه بدفع سلفة (عربون) للمربين . وفي الواقع ، يقوم البدوي وشريكه ببيع الصوف مباشرة بعد الجز ، لانهما ملزمين بدفع رسم الاغنام في الفترة نفسها . وقد انتج الجولان في ١٩٥٠ ٣٢٪ من صوف محافظتي دمشق وحمص . وصوف الجولان هو كصوف بقية المناطق السورية من النوع المتوسط الجودة ، يصدر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لصناعة البسط والسجاد . وهنا تجدر الإشارة إلى أن السيد الكسندر جيب كان قد نصح الحكومة السورية بعدم تحسين نوع الصوف السوري ، بحجة انه لا يستطيع مقاومة المنافسة في ميدان السوق العالمية .

٥ - شعر الماعز : ويلعب دوراً محلياً معتبراً ، إذ تحضر منه المادة الاولية لصنع الخيام بمزجه مع الصوف . كما يستعمل لصنع أكياس كبيرة لحفظ ونقل الحبوب . ومن مجمل انتاج محافظتي دمشق وحمص ، كان انتاج الجولان

منه في عام ١٩٥٠ ٨٥٪ .

٦ - منتجات الدواجن : وهي بشكل أساسي البيض والعسل ، وقد انتج الجولان في عام ١٩٥١ ٣١٪ من البيض و ٢٥٪ من العسل اللذين انتجتهما محافظة دمشق وحوارن .
والجدول التالي يلخص تطور اهم منتجات التربية الحيوانية :

القطنة	السنة	الحليب	السمن	الجبن	الزبدة	الصوف	شعر الماعز	بيضة	العمل
القضاء	١٩٥٠	٤٤٠٠ طن	٢٢٠ طن	٤٨٠ طن	١٢ طن	١٥٠ طن	—	١٠٠٠×٧٥٠	٦ طن
	١٩٥١	٤٥٠٠	٢٢٠	٤٨٠	١٤	٨٠	٤٥	٧٦٠	٨
	١٩٥٢	٤٧٥٥	٢٣٣	٥١٠	١٥	٨٧	٥٠	٢٨٥	٠,٧٥
	١٩٥٣	٤٦٤٠	٢٢٦	٤٩٥	١٥	٥٧	٤٨	٧٥٦	٨,٥
	١٩٥٤	٥١٥٠	٢٤٨	٥٤٤	١٥	٧٨	٥٧	٦٧٧,٥	٩
	١٩٥٥	٤٥٠٠	٢١٠	٤٨٠	١٣,٥	٤٦	٥١	٦٥٣,٤	٩
	١٩٥٦	٥٣٠٠	٢٠٠	٥٦٣	١٤,٥	٥٨	٥٤	٦٩٢,٣	٩
	١٩٥٠	٤٦٠٠	١٤٢	١٠	٢٢	٤٥	—	٦٠٠	٠,٦٢
	١٩٥١	٩٠٠٠	٢٠	٦	٠,٢٥	٤٥	٨	١٨٧,٥	٠,٢٥
	١٩٥٢	٢٣٠١	٢٩	—	—	١٥	٤٩	٩٥٦,٢	١
	١٩٥٣	٣١٠٠	٣٠	—	—	١٤	٦	١١٠٠	١
	١٩٥٤	١٣٥٠	٣٠	—	—	١٥	٦	١١٠٠	١,٥
	١٩٥٥	—	—	—	—	١٩	—	—	١
	١٩٥٦	٢٠٠	١٨	—	—	١٨	٢,٥	٢٧٠	١

٨ المشاكل التي تطرحها تربية الحيوان :

- ١ - عدم كفاية المراعي : كنا قد بينا سابقاً في الفصل السادس ، من القسم الاول ، بان البراري الطبيعية ليست مضمونة ومنتظمة في كل سنة . كما أشرنا أيضاً الى النباتات المعمرة التي يمكن اقتراح زراعتها في الجولان لتحسين البراري . وفي الواقع ، ان الحالة الراهنة للمراعي في الجولان لاتسمح بأي تطوير منتظم وعقلاني لتربية الحيوان . لذلك فان إدخال نباتات معمرة جديدة هو أمر ملح للأسباب التالية :- التحسين الكمي والوصفي للمراعي يجعل تربية الحيوان اكثر استقراراً واكثر تفعلاً .
- إكساء الارض بغطاء نباتي دائم يطور التربة للأحسن ويغنيها بالذبال . وهذا سيسمح بدوره اذا ماوقع على المنطقة ضغط ديمغرافي بتحويل المنطقة إلى أراض زراعية .
- النباتات الدائمة ستفيد في حماية التربة من الحت والانجراف .
- بالاضافة الى ذلك يجب التوسع في زراعة الحبوب الثانوية كالبيقية والجلبان والكرسنة ، لان هذه الحبوب غير المنهكة للتربة ، تندمج بشكل جيد بالدورة الزراعية ، وتؤمن غذاء حيوانياً جيداً .

- ٢ - عدم كفاية الماء : في الواقع التوزع السيء لنقاط الماء في الجولان وعدم توافره ، يجبر الرعاة على الانتقال مع قطعانهم تفتيشاً عن الماء ، حتى في حالة توفر العشب بكميات جيدة .

الماء متوفر وسهل المنال في كل بقعة من منطقتنا ، إلا ان البدو غير قادرين ، ولا يملكون امكانية حفر الآبار وضخ الماء . لذلك يتوجب على الرعاة ان يدفعوا لأهل القرى رسوم سقاية قطعانهم .

- ٣ - كثرة الامراض السارية والطفيلية : تبيد الأوبئة بين الحين والآخر القسم الاكبر من القطعان . مع ذلك فمكافحة الامراض السارية والطفيلية لاتتوفر بشكل كاف ولموس .

مبدئياً ، معالجة الحيوانات المريضة واعطائها اللقاحات الواقية أمور مجانية تقوم بها الدولة . لكن واقعياً ، في كل منطقة الجولان لا يوجد سوى

طبيب بيطري واحد مكانه في القنيطرة . وعلى الفلاح والبدوي المجيء إليها للاعلام عن الحيوانات المريضة . وحتى تاريخ قريب كان الاهالي يفضلون معالجة حيواناتهم وفق طرقهم البلدية الخاصة ولا يقدرّون المعالجة البيطرية حتى تقدّرها . ومن أهم هذه الطرق الكي .
وحديثاً جداً ، أصبح التصريح عن الحيوانات المريضة أكثر اتقاناً .
والجدول التالي يبين أكثر الامراض انتشاراً في الجولان مع عدد الحيوانات المريضة المعالجة من قبل الوحدة البيطرية بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٦ .

الأمراض	المدة المعالج	النوع المعالج	العدد المعالج	العدد المعالج	النوع المعالج	العدد المعالج	النوع المعالج	العدد المعالج
داء الكلب	١٥	حمير وكلاب	٧٩	١٩٥٤	بقر وكلاب	١٥	١٩٥٥	١٩٥٦
جدري الأغنام	٥١٦٠	خرفاء وماضر	٣٤٤٠٠		خرفاء	٢٤٠٠		خرفاء
الحصى القلاعية	١٣٥٥	بقر	١٧٤١٧		أبقار	١٧٧٨٥		أبقار وأغنام
الجمرة العرضية	٩٥٠	أبقار	٥٤٧٠		أبقار	١٨٧٥		أبقار وأغنام
الجمرة	١٤٣٥	أغنام	١١٢٥٠		أغنام	١٥٠٠		أبقار
الديدان الكبدية	٥٨٨١	أغنام	١٤٠٦٦		أغنام وأبقار	٧١٨٣		أغنام وأبقار
الحرب	٣٩٠٤	أغنام وجمال	٧٠٤٠		مختلفة	٦٩٥١		أغنام وجمال
الديدان الرئوية	٥٢٠	أغنام	—		—	١٠٢٩٥		أغنام
الديدان المعوية	٢٣٩٤	أغنام	١٤٨٢		مختلفة	١٠٨٨٣		أغنام وأبقار
الملاريا (داء الصفار الخبيث)	—	—	—		—	٦١٥٦		خرفاء
القراد طفيليات خارجية	١٤١٥٢	مختلفة	٥٤٣٠٣		مختلفة	—		—
طاعون الدجاج	—	—	٢٠٠٠		دجاج	—		—
شبه طاعون الدجاج (الكاذب)	—	—	١٧٠٠		دجاج	٢٠٠٠		دجاج
المجموع	٣٦١٢١		١٥٩١١٨			٦٨٧٩٢		

- ٤ - مشكلة تحسين السلالات الحيوانية بطريقة الانتقاء والتصالب : حتى الآن لم يحقق اي شيء في هذا المجال . والامر الغريب الذي تجدر الاشارة اليه هو ان السيد الكسندر جيب ، في تقريره عام ١٩٤٧ حول التنمية الاقتصادية لسورية ، كان قد حذر الحكومة السورية من استيراد سلالات اجنبية لأجل التهجين بحجة ان المحاولات التي اجريت في كل من تركيا وقبرص والجزائر ، لم تعط نتائج مشجعة .
- ٥ - المشكلة المتمثلة بالاضرار التي يلحقها نمو وانتشار الزراعة بالبراري المخصصة لتربية الحيوان .

الفصل الرابع الفقر الريفي في الجولان

الزيادة المتواصلة والسريعة للسكان ، أمر معروف لدى كل المجتمعات الزراعية . وان عدم تزايد الحيوية المنتجة للسكان فيها بشكل مواز للزيادة الديمغرافية ، هو الذي يفسر البؤس الشديد في هذه المجتمعات . وفي الواقع ، رأينا في الدراسة الديمغرافية ، النمو الملموس والمتصاعد لسكان الجولان . لقد كان هذا التزايد ، في الحقيقة مصحوباً بتوسع في مجال الارض المستثمرة ، عن طريق معالجة الاراضي الاحتياطية وكسرها للزراعة ، إلا ان هذا الحل كان مؤقتاً ، لأن التلف والخراب سرعان مايصيب الارض نتيجة لاساليب الاستثمار الطائشة والمفتقرة الى الخبرة .

ونظام الملكية العقارية سبب آخر للبؤس الريفي الشديد في الجولان . لقد رأينا سابقاً ، ان عدداً كبيراً من الذين يشتغلون في الاراضي ليسوا من الملاكين . وان هذا العدد لايتلقى من الانتاج الا ٢٥٪ في حالة المربع و ٥٠٪ في حالة المزارع المناصف (المؤاكر) .

وفي الحقيقة ، ان البؤس الريفي ظاهرة اجتماعية تنتشر في كل مكان من الجولان . ويتمثل الفقر في آن واحد بالنظام الغذائي للسكان ولباسهم وبسكنهم .

١ - النظام الغذائي : الغذاء الاساسي للقوت الريفي اليومي هو خبز القمح ، أو الحبوب الاخرى ، والفلاحون الاغنياء يستهلكون خبز القمح . في حين يقوم الآخرون ببيع القمح وشراء الذرة البيضاء الأقل سعراً ، ليصنعوا منها المعجونة المشهورة ، والمعروفة في حوران وفي الجنوب من الجولان باسم (كرذوش) .

ولا يستهلك البدو خبز القمح الا نادراً . وهم يفضلون غالباً خبز الذرة المعمول بالطريقة البدوية (خبز الصاج) على الصاج . وان هذا الخبز المعروف عند البدو والقرويين ، ممتاز وصالح للحفظ كما انه يتلاءم بسهولة مع كل استعمالات المائدة القروية التي تفتقر الى أدوات الطعام من ملعقة وشوكة . وتتطلب استعمال الأصابع في الاكل^(١) .

وفي سنوات المحاصيل السيئة ، يدخل الشعير بنسبة كبيرة في خبز الارياف . ويستهلك شركس الجولان تقريباً لوحدهم الذرة الصفراء خاصة في الشتاء بشكل مسلووق (باستا) .

والقوت اليومي قليل التنوع ، والبرغل هو الاكلة القروية المفضلة . فحتى الفقراء من القرويين والذين يبيعون القمح ويستهلكون الذرة البيضاء ، يتوجب عليهم الاحتفاظ بكمية كافية من القمح لعمل البرغل ، الذي يلعب في كل الريف السوري ، دور المغربية (الكسكس) في افريقية الشمالية ، ويستهلك العدس والحمص والفلول ايضاً ، وبشكل خاص في الشتاء ، والحليب عنصراً مألوف في الغذاء الريفي ، ويستهلك غالباً بشكل لبن رائب . إلا ان الفلاح لا يستهلك كثيراً من الحليب ، لانه لا يحصل عليه الا خلال بعض الأشهر ، ولأن الفلاحين عموماً يبيعون حليبهم بشكل لبن رائب وسمن وجبن ، وذلك من أجل الحصول على عملة سائلة .

ولا يشتري الفلاحون الخضار إلا نادراً ، أما في القرى التي تستخدم الري فتزرع مساحات صغيرة بالخضار من أجل الاستهلاك العائلي . وفي مطلع الربيع يستهلك الريفيون انواعاً عديدة من النباتات التي تنبت تلقائياً ، ويبادل الدروز عندهم وملفوفهم بالحبوب في كل قرى الجولان تقريباً . والبطيخ الأحمر والأصفر هي الثمار الدارجة التي يبيعها الباعة المتجولون بعرباتهم .

(١) فلاحو سورية والشرق الادنى ص : ٢٣٢ J. Weulersse .

واللحم نادر في كل مكان ، ولا يظهر الا في الاعياد الدينية وفي ايام الضيافة والفرح والأعراس والحج . . . وان عدداً كبيراً من العائلات الريفية لاتأكل اللحم حتى ولا مرة واحدة في السنة .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من رتابة النظام الغذائي للريفيين في الجولان . فإن هذا الغذاء لا يصل الى ما يمكن ان يقال عنه نقص تغذية دائم (مزمن) كما في المناطق المكتظة في الشرق الاقصى . وانه لمن المؤكد أن الريفيين في الجولان يستطيعون الحصول على أكل أكثر وأحسن . وان واقع الحال يشير الى ان يؤسهم ليس في الاساس بؤساً غذائياً ، وان هناك نواقص اهم تتعلق باللباس والسكن والجهل وفقدان الامن الاجتماعي . كما ان وجود الأراضي أو فقدانها ليس هو السبب في هذا البؤس . انها الاصح التنظيم الاجتماعي هو السبب .

٢ - اللباس : مناخ الجولان ، كما رأينا ، مناخ شديد ، وبرد الشتاء فيه قاسي ، وزخات المطر اعصارية والرياح عاصفة ورطبة . ومناخ مثل هذا ، يتطلب ثياب ملائمة ومتبدلة ، مع ذلك فان لباس غالبية منطقتنا سيء . وعدد الذين يسرون في الشتاء في الطين والثلج وأقدامهم حافية ، لازال كثيراً خاصة النساء والاطفال . وثياب واحدة تستعمل لكل السنة . والذين لديهم ثياب للشتاء واخرى للصيف لازالوا قلة في جولاننا .

وحتى وقت قريب ، كان سكان الجولان من دروز وبدو وشركس يتميزون باللبستهم الشعبية (الفولكلورية) . إلا ان الحرب العالمية الثانية كانت فترة تأخر وانحطاط لأحسن الملابس الاصلية التي تراجعت امام الالبسة الامريكية الرثة القديمة التي كانت تباع بأبخس الاثمان والتي كانت منذ عشر سنين العامل في تجانس الالبسة في منطقتنا .

وفي الواقع ، الالبسة القديمة الغربية مهما كان نوعها ، كانت تباع للاستعمال الشعبي فقط ولمن لم يسبق له بها معرفة . (فشروال) الدروز (وقمباز) البدو تراجعا امام السترة والبنطال الغربيين . كما ان العباءة والفرو تراجعت أيضاً امام المعاطف الواقية من المطر والمعاطف العسكرية

التي كان يبيعها تجار الالبسة البالية الغربية . وبالمقابل فان عمرة الرأس البدوية (الكوفية) الممتازة ضد الريح والرممل والشمس قد لاقت انتشاراً واسعاً ، وهي قطعة من الحرير أو القطن ، بيضاء او ملونة ، تحيط بالوجه وتتدلى على الكتفين مغطية الرقبة ، وتثبت على الرأس بواسطة (العقال) المصنوع من الصوف او من شعر الماعز .

ولازال في اللباس النسائي للدروز والشركس والترك بعض التنوع ، في حين أصبح لباس غالبية السكان بسيطاً جداً ومتواضعاً ، كما هو حال البدويات ونساء الأسكي - تركمان وفلاحي الجنوب ، حيث يقتصر لباس المرأة على الثوب الازرق (الغرش) الموحد والخالي من أي تزيين ، وعلى وشاح أسود تخفي به شعرها بشكل تام (العصابة) .

٣ - المسكن والأمتعة (الأثاث) : سندرس في فصل خاص البيت والسكن الريفي ، لهذا فاننا سنكتفي هنا بإيراد بعض الملاحظات حول البيت الريفي لمنطقتنا :

- تصميم بسيط وعم ويشمل البيت الريفي في كل مكان ، والفروق الاساسية التي قد تشاهد في التصميم تقرررها حالة رفاة أو بؤس العائلات التي شيدت هذه المساكن .

- ويتكون المسكن غالباً من حجرة وحيدة للعائلة وللقطيع وللمؤنة . - شروط سيئة جداً للتهوية والانارة والتدفئة ، والنوافذ نادرة ، وإذا وجدت فهي صغيرة جداً . وكذلك الابواب . ويسبب الدخان يعم السواد كل ما في داخل المسكن .

- ان مساكن اللاجئين وعددهم كبير في الجولان ، هي دون مستوى الاكواخ المغربية (النوالا والغوريبي)

- مع ذلك فأمام طرق اختلاف البناء للبيت ، تختفي رتبة المخطط ، ويختفي فقره وخلوه من الصبغة المميزة للبيت الريفي ، ويصبح مظهره خير ما يعكس شدة التعارض للشروط الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية . وهذا ما يجعل دراسته ذات فائدة جغرافية عظيمة .

- الاثاث القروي واحد تقريباً ببساطته في كل مكان في الجولان ، حتى انه يمكن القول بأن الاثاث بالمعنى الكامل والصحيح ، لا يوجد الا عند وجهاء القرويين . ان فقدان الأثاث يتفق مع الحاجة الى إشغال الغرف الضيقة بعدد كبير من الاشخاص حتى يبقى اكبر جزء منها فارغاً .

٤ - موارد العائلة الريفية في الجولان : ان دراسة موارد الفلاحين ستسمح لنا بتوضيح سبب هذه الحياة البائسة التي يعيشها فلاحو منطقتنا . الا انه من الصعب جداً تحديد موارد العائلات الفلاحية ، لان مواردهم وهي أساساً زراعية ، تتصف بعدم ثبات كبير . إضافة الى ذلك فان موارد العائلة الفلاحية تتغير من قرية الى اخرى ، وحتى في القرية الواحدة ، يجب ان نفرق بين ثلاث زمر من العائلات :

- العائلات المالكة للارض ، إلا انها تستثمر اراضيها بطريقة غير مباشرة .

- العائلات المالكة للارض وتستثمر اراضيها مباشرة .

- اخيراً العائلات غير المالكة والتي تشتغل في أراضي الغير .

وسندرس فيما يلي موارد ثلاث نماذج من العائلات الفلاحية المالكة

للارض والتي تشتغل في اراضيها الخاصة بها .

آ - موارد عائلة فلاحية في جنوب الجولان : جنوب الجولان ، قضاء فيق ، هو ميدان حقيقي لزراعة وحيدة هي الحبوب . والمردود مرتبط بالشروط الجوية والفلاح لا يحصل على محاصيل جيدة الا مرة واحدة كل ثلاث سنوات وسطياً . والعائلة الواحدة التي تمتلك فداناً من الأرض أي ١٥٠ دونماً ، هي عائلة ميسورة نسبياً . فالأرض تقسم الى ثلاث قطع مساحة كل منها ٥٠ دونماً ، تزرع الاولى بالقمح والثانية بالذرة . اما الثالثة فتترك للاستراحة .

ولما كان البذار الذي يبذر في القطعتين سنوياً هو ٣٢ مداً من القمح

(المد = ٢٠ كغ) و ٢٠ مداً من الذرة . وكان المردود المتوسط للقمح اربعة

امثال . وللذرة عشرة امثال ، فان وارد الفدان سنوياً يكون :

١٢٨ مداً من القمح و ٢٠٠ مداً من الذرة .

ومن هذا الانتاج العام يجب عزل ٣٢ مداً من القمح و ٢٠ مداً من الذرة كبذار للسنة التالية ، ثم طرح حوالي ٥ مدد قمح و ٥ مدد ذرة لتغطية المصاريف المختلفة لأعمال الحصاد والنقل وغيرها . . . وما يتبقى هو الذي يكون المورد الصافي للفلاح والذي لا يزيد عن ٩١ مداً من القمح و ١٧٥ مداً من الذرة .

ولما كان مد القمح يباع بست ليرات سورية ومد الذرة بأربع ليرات سورية ، فان المورد السنوي الصافي لأي عائلة ، عدد أفرادها لا يمكن ان يقل عن خمسة أشخاص . هو بحدود الـ ١٢٤٦ ل . س . أي ما يقارب الـ ٢٥٠ ل . س . لكل فرد سنوياً . وهذا يبين بوضوح ضالة هذا المورد . وبشكل عام يحتفظ الفلاح بالذرة للاستهلاك العائلي ، ويبيع معظم القمح ليتمكن من الحصول على العملة السائلة اللازمة لشراء الالبسة والسكر ومنتجات اخرى تصنع في المدينة .

ب) - موارد عائلة فلاحية في شمال الجولان : لاتشكل زراعة الحبوب في هذا الجزء من الجولان ، أي في قضاء القنيطرة النشاط الوحيد للفلاح . فتربية الحيوان تشكل مصدراً هاماً جداً للاعانة ، خاصة وان الفلاح لا ينتج في الغالب كمية كافية من الحبوب للاستهلاك العائلي .

وفي سنوات المواسم السيئة ، يضطر فلاح الشمال ، الشركس خاصة لشراء القمح والتبن . وبالمقابل يتوجب على كل عائلة ان تباع جزءاً من ماشيتها سنوياً لشراء الالبسة والسكر والمنتجات الأخرى التي تصنع في المدينة . فالحجل من عمر ثلاث سنوات يباع بمبلغ يتراوح ما بين ٢٥٠ و ٣٠٠ ليرة سورية . والدابة الهرمة المعدة للذبح بحوالي ١٥٠ ل . س . والبقرة الحلوب بمبلغ يتراوح بين ٣٠٠ و ٣٥٠ ل . س .

ويجب الاشارة هنا الى ان تجارة المواشي قد أصيبت بضربة مؤلمة اثر اغلاق السوق الفلسطينية منذ عام ١٩٤٨ .

ج) - موارد عائلة فلاحية من الحرمون : على الرغم من ضعف الارض في هذه المنطقة ، فان الفلاح يعيش فيها من العمل في الارض ، والدرزي هو

أقدر فلاح في منطقتنا .

وبسبب ضعف مردود الحبوب ، يخصص الفلاح أحسن أرضه لزراعة الكروم . أما الأراضي المروية فيزرعها بالبقول والأشجار . كما إن عدم وجود سوق استهلاك كافية ومتطورة ، يجبر فلاح الحرمون على حمل عنبه وفوله وملفوفه على ظهر الحمير الى القرى الخورانية ليبادل عليها بالقمح والذرة . ورغم مثابة فلاح الحرمون ، فإنه يعيش في ظل بؤس صارخ ، والموارد بالكاد أن تكفيه للبقاء .

د) - موارد عائلة بدوية : وهنا يجب ان نفرق بين العائلات التي لها حيواناتها الخاصة ، وبين تلك التي ترعى حيوانات سكان القرى أو المدن . وهذه العائلات الأخيرة تعيش حالة بؤس حقيقي ، إذ أن عائلة عدد افرادها لا يقل عن خمسة اشخاص ، وترعى قطعاً مؤلفاً من ٢٠٠ نعجة ، وتلقى كل سنة ٣٥ حملاً ، يباع الواحد منها بـ ٣٠ ل . س يكون دخلها السنوي ١٠٥٠ ل . س . ويكون بالتالي دخل الفرد السنوي في عائلة بدوية حوالي ٢٠٠ ل . س .

ان البؤس الريفي لمنطقتنا يفسر بالامور التالية :

- ١ - ضعف الانتاجية الريفية بسبب الاساليب البدائية للزراعة ولتربية الحيوان .
 - ٢ - غياب السوق الاستهلاكية بالسعة والتنظيم اللازمين والكافيين لجريان المنتجات الزراعية والحيوانية التي تباع بأبخس الأسعار .
 - ٣ - ارتفاع أسعار المنتجات المصنوعة في المدينة بالنسبة للمنتجات الريفية .
- ووجود فئة من التجار تستثمر بشكل غير عادل سداجة الفلاحين والبدو مرتكبة حتى طرق النصب والاحتيال .

الفصل الخامس

مشاهد طبيعية واشكال سكن ريفية

١٦ - المشاهد الطبيعية الاقليمية : تختلف المشاهد الطبيعية الاقليمية في منطقة الجولان . ويبدو هذا الاختلاف بشكل ملموس من الشمال الى الجنوب .

آ - الحرمون : تنتصب هذه الكتلة الضخمة ، والكلسية في معظم اجزائها بشكل جدار عظيم متناقض مع هضاب الجولان البازلتية بارتفاعه الذي يصل الى ٢٨٠٠ متراً ، وبصخوره الرسوبية المائلة للبياض .

ويلمح سكان شمال الجولان ، وكذلك سكان السهل الحوراني ، المظهر الجانبي العظيم لهذا الجبل ، وقمته التي تحجبها الغيوم في الشتاء ، ويغطيها الثلج في الصيف .

ويتميز المشهد الطبيعي للحرمون ، من جهة إلى أخرى ، ككل المناطق الكلسية بالسطوح الواسعة والجرداء تقريباً ، والتي تقطعها الصدوع والأودية المتعمقة ، وتتناثر فوقها المنخفضات المغلقة بمساحات وأشكال مختلفة .

ويعمل الارتفاع وفقدان الماء بسبب النفوذية الشديدة للأرض مع النقص شبه الكامل للتربة الزراعية ، على جعل المحور المركزي للحرمون منطقة خالية تماماً .

ويختلف المشهد الطبيعي في الجنوب والجنوب الغربي ، حيث يمتلك الحرمون واجهة جذابة ، معرضة بشكل واسع للرياح الآتية من البحر عن طريق فتحة مرجعيون تحمل معها الأمطار الغزيرة .

وفي الوقت نفسه ، تختلف طبيعة الأرض فتحل المنحدرات الكلسية محل جرود المحور الجوراسي وتظهر طبقات حاوية على الماء تفجر مصادر ضخمة منه

وهكذا فان أقدام الجنوب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي لجبال الحرمون لا تشكل صحراء بشرية . والقرى الكبيرة ذات الموقع الدفاعي ، عديدة هنا . ولم يعد سكان القرى الدرزية والمسيحية يعيشون كالسابق منعزلين . فقد اخذوا بالنزول شيئاً فشيئاً نحو نقاط الماء ليزاولوا زراعة الأشجار المثمرة لدرجة أصبحت فيه البقع الخضراء تقطع تدريجياً رتابة المشهد الطبيعي الأجرد القديم .

(ب) - شمال الجولان أو ضواحي القنيطرة : وهنا تشاهد أحدث الاشكال للأجهزة البركانية المفيدة لمعرفة الحمم والمخاريط البركانية الرباعية .

وتشكل المخاريط البركانية السليمة التي ترتصف من الشمال والشمال الغربي إلى الجنوب والجنوب الشرقي ، العنصر الأساسي للمشهد الطبيعي رغم ارتفاعها القليل . وتتصب هذه البراكين فوق هضبة الحمم لتتعارض معها بخضرة غاباتها عندما تكون مشجرة ، وبلونها الأحمر ، أو الأحمر البنفسجي ، عندما تكون معرة من اشجارها .

أما الهضبة البازلتية فإنها تغير منظرها من فصل لآخر ، ففي الصيف والخريف ، تكون الأراضي جرداء ، تغطيها قطع الحجارة المختلفة الحجم معطية للمنطقة مشهداً حجرياً رمادياً وكثيباً . ويغطي نبات عشبي وافر المنطقة في الربيع خفياً الأحجار وجاعلاً المنظر أكثر بهجة .

ومنذ العهد الروماني أسهم الإنسان في تغيير المنظر الطبيعي ، باهتمامه الدائم بتخليص الأرض من أكوام الحجارة التي تغطيها ، ليبني منها التلال الحجرية المبعثرة في كل ناحية . وهذا الجزء من الجولان هو ، كما رأينا سابقاً ، منطقة الملكية الصغيرة المجزأة . لذلك قام كل مالك بتسوير حقوله بسياج من الاحجار لأجل حماية مزروعاته من الحيوانات الشاردة من جهة ، وللتخلص من الاحجار التي تعيق الحراثة من جهة أخرى .

والقرميد الأحمر مع سقف التوتياء المتموج واللامع هما غنصران أصيلان ادخلهما الانسان على المشهد الطبيعي لهذا القسم من منطقتنا .

ج) جنوب الجولان أو ضواحي فيق : ويصبح مظهر الهضبة في هذا الجزء من الجولان أكثر وضوحاً ، وتختفي هنا المخاريط البركانية العديدة التي تميز بها الجزء الشمالي . وبالمقابل تصبح الأودية عنصراً أساسياً من عناصر المشهد الطبيعي ، وقد دفعت هذه الأودية ، وهي روافد لنهر الأردن واليرموك والرقاد ، برؤوسها نحو داخل المنطقة مقطعة أطراف الهضبة الى مجموعة من الوجينات التي ترق أحياناً لتصبح بشكل سنام الجمل .

وهذا الجزء من الهضبة مغطى بتربة سميكة ومتطورة جداً ، ذات لون أسمر أو أسمر محمر ، ولا يوجد فيها من كتل الحجارة الكبيرة إلا الشيء القليل . ولا توجد في هذا الجزء من الجولان حقول مسيجة . وقد حفظت الملكية غير المقسمة (المشاع) ، مع عدم وجود الحجارة ، لهذه البقعة منظر الحقل .

والمسكن الخرائبي المبني بالحجارة ذي السقف المستو لا يميز المشهد الطبيعي لهذه البقعة بالدرجة التي ميز بها البيت ذي السقف القرميدي أو المصنوع من التوتياء المموجة ، مشهد المنطقة الشمالية .

د) - سهل البطيحة : يختلف المشهد الطبيعي الاقليمي لهذا السهل اللحيقي الصغير ، المحدود من الغرب ببحيرة طبرية ، ومن الشرق بمنحدر الانهدام ، عن المشاهد الاقليمية الأخرى في الجولان .

فعلى هذا السهل ، تفتح أودية كبيرة : صفًا ، دالية ، شيخ علي . ويشابه هذا السهل العميق التربة ، سهول مستوى الأساس . فنهر الأردن ، الذي يتخذ من بحيرة طبرية مستوى أساس له ، يشكل فوق هذا السهل حلقات وفروع متشابهة . وبخلاف الأجزاء الأخرى من الجولان ، الماء هنا غزير يسمح بأعمال ري من جهة وينشر الملاريا من جهة أخرى . وبسبب الحرارة المرتفعة ، حتى في الشتاء ، وكثرة الماء ، نبتت الأشجار في هذا السهل بشكل كبير . إلا أن الإنسان أتلف هذه النباتات وأحل مكانها بستانة كثيفة ، وزراعة الأشجار المثمرة تضم بشكل أساسي الحمضيات والموز .

وهنا نشاهد أكثر البيوت بدائية في منطقتنا ، حيث يتجاوز الكوخ

الترابي مع كل من الحصص والخيمة

٢ - السكن الريفي :

آ - البيت الريفي : بيت الجولان الريفي ، كما هو حال البيت الريفي في مناطق أخرى من العالم ، ليس مخصصاً فقط لايواء الفلاحين واسرهم ، بل أيضاً لاحتواء حيواناتهم وعددهم ومحاصيلهم . ولابد لهذا البيت المقام في وسط جغرافي معين ، ليلبي حاجات معينة بل ومحدودة ، من التكيف مع عدد من الشروط الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية .

ب - التكيف مع الشروط الطبيعية للوسط أي مع المواد : يستفيد القرويون من أجل بناء مساكنهم ، من المواد التي يقدمها الوسط الطبيعي من أحجار للبناء ونباتات . فيما يتعلق بالغابة ، فان غابة المنطقة قد تضاءلت لدرجة انها لم تعد تلعب أي دور هام ، خاصة بعد طرح مواد البناء في الأسواق التجارية .

أما الارض والاحجار فانها لازالت العامل في اختلاف مظهر البيت الريفي . وهكذا يمكن اجراء مفاضلة بسيطة جداً بين :

- بيت مبني من حجارة كلسية على السفوح الجنوبية والجنوبية الشرقية للحرمون ، يعطي للقرية لوناً مبيضاً .

- بيت مبني من البازلت في كل مكان من الجولان بلونه المعتم والكثيب .

- البيت الطيني وهو نادر في الجولان لانه لا يستطيع مقاومة الشروط المناخية للمنطقة . مع ذلك فالطين يدخل بنسبة كبيرة في بناء البيت في سهل البطيحة وفي وادي اليرموك .

- على طول خط التماس بين هضبة الجولان البازلتية ، وهالة الحرمون الرسوبية ، تستعمل الاحجار البازلتية والكلسية معاً كما في بيت تيم .

كلمة أخيرة هي أن بيت الجولان يبنى من الحجارة أكانت كلسية ام

بركانية .

ج - طرق الاستفادة من الحجارة لاقامة الجدران : الطرق واحدة في كل من

المنطقتين البركانية والرسوبية طالما ان الحجارة الصلبة متوفرة .

- أكثر الحالات بدائية : ويستفاد فيها من قطع الحجارة بحجومها وأشكالها المختلفة كما تقدمها الطبيعة . وتطبق في بناء جدران الأسوار التي تحيط من الخارج بفناء البيت أو البستان أو الحقول الواقعة في الأطراف المباشرة للقرية .

- حالة بناء الجدار المسمى (دبش) : وتستخدم فيها أيضاً الحجارة القاسية ، كما في الحالة السابقة ولكن بعد تفصيلها بشكل قطع خشنة . ويبنى هذا النوع من الجدران بشكل مضاعف ، وتوضع في الفراغ الواقع بين شقي الجدار ، أحجار صغيرة مختلفة الحجم .

ويبنى الفلاحون الفقراء بيوتهم من (الدبش) أما الأغنياء فيستخدمونه فقط لبناء الاصطبل والزريبة .

- البناء بالحجارة المفصلة مع استخدام الملاط : ويختلف الملاط حسب الحالة الاقتصادية . ففي حالة الرغبة في توفير نفقات البناء ، يكون الملاط من خرسانة خام مخلوطة مع تبن . إلا أن الملاط المكون من خليط الكلس والرمل هو أكثر الأنواع استعمالاً . وتتوالى صفوف الحجارة في هذا النوع من البناء مع الحفاظ في أن لا تتلاقى الوصلات بين قطع كل صف مع وصلات قطع الصف السابق . والجدران تتألف من واجهتين ، وتكون العناية بتقطيع الخارجية أكبر . وعندما ينتهي البناء ، تسد الفواصل الكائنة بين قطع الصخور بالاسمنت ، وهذا ما يسمى بالتكحيلة .

ويرافق كل أشكال البناء السابقة حرص شديد لجعل البناء متيناً . فتوجه العناية الشديدة لانتقاء حجرات الزوايا التي تكون بوجه عام كبيرة وجيدة التفصيل وسليمة التركيب .

- الأبواب والنوافذ : وهي في كل الأشكال السابقة للبناء ضيقة ولا تزيد عن المتر . وقد بدأ البعض بجعل الفتحات الخاصة بالأبواب والنوافذ واسعة وحسب الطلب مع استخدام الخرسانة المسلحة .

(د) - المواد المستعملة في السقوف :

١ - سقف القش : وبشكل خاص قش الذرة بنوعها . والشركس هم الذين ادخلوا هذا النوع من السقوف في الجولان . وبعد أن كان كثير الانتشار في

قراهم ، أصبح شيئاً فشيئاً نادر الوجود . ويجب تغيير القش كلياً اوجزئياً كل خمس سنوات . ولسقف القش منحدران وهو يتركز على مشبك بسيط مشئوع من الاغصان

٢ - سقف الطين : وهو اكثر الاشكال انتشاراً في منطقتنا ، ويعود سبب هذا الانتشار الى سهولة الحصول على المواد التي تلزم لانشائه إذ يكفي لذلك عدد من العوارض مع بضع مئات من اعواد القصب تنضد فوق العوارض مباشرة لتكون قاعدة يمد عليها الطين . وتكاليف إنشاء هذا السقف قليلة ، إلا أنه يتطلب عناية مستمرة ، ففي بداية كل موسم أمطار ، يجب ان يرص ويملس بالمدحلة حتى لاينفذ منه ماء المطر . ويميل السطح دوماً ميلاً خفيفاً باتجاه واحد .

٣ - سقف التوتياء المموج : قبل الحرب العالمية الثانية ، كان سقف التوتياء المموج قليل الانتشار . وكان وجوده يقتصر على قرى الشركس . وبعد عام ١٩٤٥ ، أدى تخريب معسكرات قوات الحلفاء الى طرح كميات كبيرة من ألواح التوتياء في الأسواق . وبيعها بأسعار رخيصة . ومنذ ذلك التاريخ اصبح سقف التوتياء المموج مألوفاً في الجولان .

وبسبب شدة تحسس الألواح بالتقلبات الحرارية الفصلية واليومية ، اقتصر استعمالها غالباً على سقف الاصطبل وعرض الماعز . وللتخفيف من نتائج تحسسها بالتقلبات الحرارية ، توضع بينها وبين العوارض طبقة عازلة من أعواد القصب والخرسانة الرقيقة . ويمكن ان يكون لسقف التوتياء ميل باتجاه واحد أو ميل باتجاهين .

٤ - سقف القرميد : وهو قليل الانتشار ، إذا استثنينا قرى الشركس التي ينتشر فيها بنسبة كبيرة ، فيعطيها مع وجود بعض الاشجار مشهداً جذاباً .

والقرميد المستعمل في الجولان هو من النوع المسطح المستورد من فرنسا والمصنوع في مرسيليا . وقد صنع نوع من القرميد المقوس محلياً في قرية بريقة ، إلا انه لم ينجح . ولسقف القرميد غالباً أربعة ميول ، وهذا

مايعرف في المنطقة باسم (جبالون)

٥ - سقف الاسمنت المسلح : وهو أحدث أشكال السقوف في الجولان .
وتكاليفه أكثر من تكاليف سقف القرميد ، إلا أنه أكثر مقاومة وأطول
بقاء . وهو يمثل في كل مكان من انحاء الجولان بيت الوجهاء من
القرويين .

هـ - تأثير الاقتصاد القروي والمتاجرة بالمواد الأولية للبناء : كان قروي
الجولان حتى وقت متأخر يشتري مواد البناء من دمشق . وكانت أجور
النقل تكلف غالباً ، وخاصة إذا كان هذا الأمر يتطلب نقل هذه المواد إلى
قرى لاتصل إليها طرق معبدة . لذلك كانت حركة البناء بطيئة ، وبالتالي
كانت القرى لاتتجدد إلا بشكل محدود . أما حالياً ، فقد أصبحت القنيطرة
مركزاً لتجارة مواد البناء ، إذ يأتي إليها تجار غوطة دمشق لبيعوا فيها كل
أنواع الأعمدة والعوارض الخشبية والقرميد والواح التوتياء . في حين ،
يقوم تجار محليون ببيع الرمل والكلس اللذين تنتجهما قرىتان من قرى
الحرمون هما مجدل وجباتا الزيت . كما أصبح يوجد أيضاً في القنيطرة تجار
حديد وأسمت لأجل الخرسانة المسلحة .

وقد أصبح بإمكان القرويين الشراء بالتقسيط . كما أن الطرق إلى
القرى قد تحسنت بفضل ماشقه الجيش الوطني في المنطقة من طرق تصل
إلى جميع القرى .

ونتيجة لسهولة شراء وتأمين المواد الأولية والمواصلات ، أصبحت
البيوت أحسن بناء . وحتى أنصاف المستقرين ، أصبحوا يشترون ألواح
التوتياء ومنجور البناء من القنيطرة وهكذا تقدمت حركة البناء شيئاً فشيئاً
ويخطى جثية .

ولم يكن تأثير الاقتصاد الريفي على المسكن أقل أهمية . . ففي
فترة الرخاء يبني الفلاحون أكثر البيوت اتقاناً وفخامة . وبيوت الشركس
هي خير دليل على ذلك . فالقرميد فيها لا يمثل أي تأثير عرقي أو
أرمني . وهو يرتبط فقط بفترة الازدهار والرخاء التي كانت السلطات

السابقة المتدبة تدفع اثناءها للجنـد الشـركـس الشـجـعان بسـحاء .
 ويمـرتـبـاتـهم قام هـؤلاء الجـنـد ، بـعد ان اصـبـحـوا قـادرين عـلى شـراء
 القـرمـيد ، بـنـاء بـيـوتـهم الجـمـيلة .

و) - تـكـيـف البـيـت الجـولـانـي مـع الشـرـوط المـنـاخية : لمقاومة تـقـلـبات الجـو ، يـظـهـر
 البـيـت بـعض التـكـيـف مـع شـرـوط المـنـاخ الجـولـانـي الـذي درـسـنا صـفـاتـه فـي
 القـسـم الطـبـيـعي لـهـذه الدـراسـة .

- وأول مـظـاهـر التـكـيـف هـذه نـجـدـها فـي اتـجـاه البـيـت . إذ يـمـكـن فـي الحـقـيـقة
 بـتـوجـيـه مـعـقـول ، تـحـاشـي الـريـاح والعـواصـف السـائـدة فـي المـنـطـقة . فـفـي
 شـمـال الجـولـان تـتـوجـه كـل البـيـوت نـحو الجـنـوب ، لـيـس فـقـط مـن أـجـل
 الشـمـس ، بـل مـن أـجـل تـجـنـب رـيـاح الشـمـال الشـديـدة والـبارـدة الـتي تـعـصـف
 مـارة بـالحـرمـون والـتي تـسـمـى (غـضـب اللـه) .

- ويـخـتـلـف اتـجـاه الـريـاح العـنـيـفة الضـارة بـالنـسـبة للـقـرى حـسـب مـوقـعـها .
 فـبـعض القـرى المـحـمية مـن رـيـاح الشـمـال مـثـل الجـوزة ، تـزـعـجـها الـريـاح
 الشـرـقية الرـهـيـبة . أـما بـالنـسـبة لـقـرية بـريـقة فالـريـاح الغـربـية هـي الـريـاح
 الضـارة .

- الـريـاح الغـربـية بـشـكـل عـام هـي الـتي تـجـلـب الـامـطـار فـي كـل المـنـطـقة ، لـذـلـك
 يـعـمـد القـرويون ، مـن أـجـل تـحـاشـي الرـطـوبـة ، إـلى جـعـل الجـدـران المـواجـهـة
 لـجـهـة الغـرب مـضـاعـفـة . وإـضـافـة إـلى ذـلـك ، تـغـطـى هـذه الجـدـران بـطـبـقة
 مـن الـاسـمـنـت أو الـاسـفـلـت أو عـلى الأـقـل بـطـبـقة مـن الخـرسـانـة .

- مـن أـجـل تـسـهـيـل تـصـرـيـف مـيـاء الـامـطـار ، وتـخـفـيـف أثـر الـريـاح ، و هـي
 العـنـصـر المـنـاخـي الرـهـيـب فـي المـنـطـقة ، الـذي يـقـتـلـع و يـطـيـح غـالـباً بـقـطـع
 القـرمـيد والتـوتـيـاء ، تـجـعـل السـقـوف مـائـلة ، و يـوضـع عـلـيـها قـطـع كـبـيرة مـن
 الحـجـارة .

- تـلـمـب المـدـفـاة دوراً هـاماً فـي البـيـت الـريـفي ، و هـي الوـسـيـلة الوـحـيدة لـلـتـدـفئة
 ولـلـطـبـيـخ أـيـضاً . و مـنـظـر مـدـخـنـة المـدـفـاة بـرى مـن بـعد فـي كـل البـيـوت الـريـفية
 فـي الجـولـان ، القـديـم مـنـها والحـديث

وتأخذ المحروقات مكاناً هاماً في البيت . فتحضر الأشواك ، وكذلك الحطب ومحفظان بعناية من أجل الشتاء .

ومن مظاهر مقاومة البرد أيضاً ، قلة النوافذ ، وضيقها غالباً . وقد تفتح بعض النوافذ في البداية ، إلا أن هذه النوافذ يعاد إغلاقها فيما بعد .
- لحماية الجدار المواجه للرياح السائدة في المنطقة ، ومنع أضرار الماء بأساساته ، يحاط طرفه الأعلى بأفريز ، وطرفة الاسفل برصيف صغير مبلط .

ز) التكيف مع الشروط الاقتصادية والاجتماعية : المخطط : لا يبنى القروي بيته في الجولان بموجب مخطط مهياً بشكل مسبق الا في حالات استثنائية . والمخطط الاساسي لا بد من أن يعتريه تغيرات في السنوات التالية لانجاز البناء . والتغير قد يكون بشكل جذري وحسب الشروط الاقتصادية والاجتماعية المتبدلة . فالى النواة الأولى ، يضيف القروي باستمرار أمكنة أخرى ، اسطبلأ أوزيرية . وهكذا يمكن اعتبار كل مخطط بانه شيء مؤقت .

ان لنوع عمل القروي تأثير ملموس على المخطط . ففي الشمال والجنوب من الجولان ، القروي مزارع قبل كل شيء . أما في القسم الاوسط فهو مربى حيوانات ، لذلك يخصص قسماً كبيراً من المسكن لحيواناته ، حيث يشغل الاسطبل الجزء الاكبر من البناء .

ولأنصاف البدو أو أنصاف المستقرين وضع خاص ، فالحيوانات تبقى غالباً بدون ملجأ ، وفي حالة تساقط الثلوج ، فان هذه الحيوانات تشارك صاحبها الحجرة الوحيدة .

وحتى أنصاف المستقرين ، يحاولون دوماً إضافة أمكنة جديدة إلى بيوتهم حسب تطور شروط حياتهم . إلا أن ما يضاف لا يخضع لأي تخطيط دقيق يحافظ على ترتيب البيت .

ويلعب الوضع الاجتماعي للقرويين الدور الهام بهذا الخصوص ،

فالمحتضر يحرص على أن يبني وفق ترتيب معين ، أما الفقير فانه لايعنى بشئ من هذا القبيل .

هذا ويرغب القرويون كلهم رغبة شديدة في أن يكون لبيوتهم فناء واسع يمكنهم من إضافة أمكنة جديدة يتطلبها التطور الاقتصادي والديمغرافي للأسرة .

والبناء المتعدد الطوابق غير معروف في منطقتنا بشكل واسع ، لان الشتاء قاس ، وفي الصيف لاجابة للارتفاع لان الطقس معتدل والهواء منعش .

(ح) - بعض الامثلة المخططات نماذج من بيوت الجولان الريفية :

- يتكون أبسط المخططات وأكثرها انتشاراً من عدد من الغرف المرسوفة بشكل مستطيل الواحدة تلو الأخرى وتحت سقف واحد مشترك . يتراوح عدد الغرف بين ٢ و ٤ . ويمتاز هذا المخطط بامكانية تقسيمه عندما يزداد الضغط الديمغرافي للأسرة .

- وهناك مخطط آخر بسيط أيضاً ولكن مع رواق (ليوان) تفتتح الغرف عليه بدلاً من ان تفتتح على الخارج . ويختلف عدد الغرف المطلة على الرواق ، غير ان البيت المؤلف من غرفتين ورواق هو الاكثر انتشاراً . أما بالنسبة للعائلات الموسرة ، فعدد الغرف يرتفع إلى ٥ أو ٦ .

وكل هذه المخططات صالحة فقط للاماكن الريفية المخصصة لسكن العائلة .

ولن نطيل الكلام عن مخطط لترتيب الأجزاء التابعة للبيت من اسطبل ومخزن وفناء دواجن ومخبز (تنور) . . . الخ . . . والتي يبني الواحد منها تلو الآخر دون أي تخطيط شامل ، حسبما تفرضه الارض ، والرغبة الخاصة هي التي تنظم مثل هذه التوسعات .

وكما هو غالب في العالم الاسلامي ، لاينكشف البيت على الخارج . ويكون غالباً محاطاً بجدار مرتفع نوعاً ما ومن الحجارة .

(ط) - تجمع المسكن الريفي : المسكن الريفي المبعثر غير معروف في منطقتنا . مع ذلك قد تشاهد في مناطق الملكيات العقارية الكبيرة مزارع

منعزلة ، مخصصة للوكيل ولادوات الشغل ولخزن المحاصيل ، يطلق على بعضها اسم (حانوت) أو (عمرة) .

وهكذا فإن مسكن الجولان الريفي هو دوماً بشكل متجمع .

١ - عوامل تجمع المسكن الريفي في الجولان :

- ان مشاعر التعاون والقراية التي تربط أفراد القبيلة الواحدة هي السبب الرئيسي للتجمع . وفي الحقيقة يتجمع العرب والشركس والتركمان في قرى مميزة . وفي القرية الواحدة ، يكون أيضاً لكل جماعة حي خاص مميز .

- نتيجة لسياسة المسلمين السنة ، تجمع المسيحيون والدروز والعلويون في قرى ذات موقع حصين .

- لقد أجبر اضطراب جبل الامن ، طيلة فترة الاحتلال العثماني ، القرويين على التجمع بأعداد كبيرة في قرى كبيرة نوعاً ما .

- لعبت أماكن المياه دوراً هاماً في هذه المنطقة شبه الجافة ، خاصة بالنسبة للذين يعملون بأن واحد بالزراعة وفي الرعي . والقرى في هذه الحالة ملزمة في الحقيقة بمجاورة موارد المياه أكثر بكثير من الحالة التي يقتصر فيها استهلاك الماء على حاجات الانسان فقط .

- يتطلب نظام الملكية العقارية ، بمختلف أشكاله ، تجمع الفلاحين . فنظام المشاع لا يصلح أبداً للتبعثر . كذلك لا تصلح له الملكية المجزأة ، فالقروي لا يستطيع الإقامة منفرداً ، ويفضل بالمناسبة العيش في القرية مع الجماعة .

هذا ويجمع الملاك الكبار مزارعهم في قرى محدودة دوماً . ليس

هؤلاء الحق ببناء مساكن في القرية بدون اذن مسبق .

- ولقد لعبت القرى الرومانية القديمة دور قطب جذب . فقد وجد القرويون في خرائبها أحجاراً مفصلة وصالحة للاستعمال في البناء مباشرة :

كفر نفاخ ، نعران ، رمسانية . . . الخ . . .

٢ - صفات تجمع المسكن الريفي :

- كثافة الاعمار الريفي : من بين كل أفضية دمشق ودرعا ، منطقة الجولان هي أكثرها اعماراً :

القضاء	المساحة	عدد التجمعات	النسبة
	بالكم	السكنية	
القيطرة + فيق	١٨٩٠	١٣٧	تجمع واحد لكل ١٣ كم
ازرع	٢١٤٠	٣٦	تجمع واحد لكل ٦٠ كم
درعا	١٧٧٠	٥٦	تجمع واحد لكل ٢٦ كم
قطنا	٦٥٠	٢٥	تجمع واحد لكل ٢٤ كم
الزبداني	٣٥٦٠	٥٩	تجمع واحد لك ٦٢ كم
القلمون	١٢٠٦٠	٣٧	تجمع واحد لكل ١٣١ كم
دوما	١٢٠١٧	٦١	تجمع واحد لكل ١٩٧ كم

وتفسر هذه الكثافة في شبكة قرى الجولان بخصوبة الارض

البركانية وبغزارة التهطال السنوي .

- ان قرى الجولان بشكل عام ، أصغر من قرى الإفضية المجاورة :

القضاء	متوسط عدد السكان في التجمع الواحد
القيطرة + فيق	٧٠٠
ازرع	١٩٤٠
درعا+الارياض	٩٢٣
قطنا	٢٠٠٠
دوما	١٠٤٠
دمشق (الارياض)	١٨٠٠
فقط	
القلمون	١٥٥٠

مع ذلك ، فان المتوسط ٧٠٠ نسمة للقرية الواحدة بعيد عن تمثيل حقيقة قرى منطقتنا ، إذ يوجد فيها قرى كبيرة نوعاً ما مثل مجدل شمس وجباتا الزيت اللتين لا يستهان بعدد سكانها البالغ ٣٧٨٠ و ٢٥٨٥ . وبالعكس فهناك قرى صغيرة جداً مثل دلمية ٤٥ نسمة وجرابا ٤٦ نسمة .

وفي الواقع ، ان نسبة القرى التي يقل سكان كل منها عن ١٠٠ نسمة في قضاء القنيطرة ١٧٪ . وتهبط هذه النسبة في قضاء فيق الى ٣٪ . أما القرى التي سكان كل منها اكثر من ٧٠٠ نسمة فنسبتها في قضاء القنيطرة ٢١٪ فقط في حين ترتفع هذه النسبة في قضاء فيق الى ٣٠٪ .

ويفسر هذا الاختلاف بين قضائي منطقتنا ، باستقرار القرويين في المنطقة الجنوبية وارتباطهم بالارض منذ زمن طويل . وبقاء الشمال حتى الآن ميداناً لحياة الترحال . فأنصاف المستقرين أو (الفلاحي) هم الذين يسكنون قرى الشمال الصغيرة .

- باستثناء قرى الحرمون ، التجمعات السكانية هزيلة بشكل عام . والبيوت متباعدة عن بعضها .

- اننا لانستطيع ان نعمل تصنيفاً لقرى الجولان حسب اسلوب متزن Moltzen أو اسلوب دومانجون Demangeon لأن القرية كالبيت الريفي ، بدون أي مخطط مسبق ، وبدون أي شكل محدد ، فالقرى كلها مستديرة بشكل عام ، ومنكمشة حول الجامع أو حول النبع . ولا يوجد في المنطقة سكة حديد ، والطرق ، حتى وقت قريب ، لم تلعب أي دور . وإذا كانت الطرق عامل جذب وتجميع بشكل عام . ففي منطقتنا توجد قرى تخاف الطريق ، ويوجد قرويون يعتقدون بان الطريق تضعهم مباشرة تحت سلطة المدينة .

- وضع القرية بالنسبة لمجالها الزراعي : وبما ان التربة متجانسة في كل القسم البركاني ، فان القرية تتمركز في وسط أرضها الزراعية . ويتلاءم هذا المتمركز مع نظام الملكية . إلا أن عوامل غير زراعية ، يمكن أن تبعد

القرية عن هذا التمرکز كتحكم الماء ، أو الموقع التاريخي أو الدفاعي .
اللذين لا يكونان دوماً في وسط المجال الزراعي .

٣- السكن الحضري : أمر جوهري تجدر الإشارة إليه منذ البداية ، هو أن نمو الحياة الحضرية في منطقتنا كان محدوداً ، فحتى الآن ، ليس فيها سوى مدينتين صغيرتين هما فيق والقنيطرة ، اللتين كان يعيش فيهما في عام ١٩٥٣ ، حسب الاحصاءات الرسمية ، ١٣٪ من سكان الجولان ، في حين كانت نسبة سكان المدن لعموم سورية ٣٠٪ . إضافة لذلك فإن هاتين المدينتين لا تختلفان كثيراً عن قرى الجولان الكبيرة ، ومظهرهما الحضري بدائي جداً . وإن وظائفهما الادارية والتجارية هي التي تسمح باعتبارهما كمدن .

وهنا يرد التساؤل التالي : كيف يمكن تفسير فقر هذه المنطقة بمراكز المدن ؟ ألا يبدو هذا الفقر متناقضاً مع موقعها عند التقاء الطرق .

في الواقع ، كانت منطقتنا دوماً مقراً للحياة بدوية وريفية متقدمة نوعاً ما ، إلا أن الموقع عند ملتقى طرق كان يؤدي غالباً الى نتائج سيئة ، وأهمها ، عدم الاستقرار الدائم المصحوب باضطرابات داخلية وغارات خارجية (الدراسة التاريخية في الفصل الاول من القسم الثاني) . وهكذا فعدم الاستقرار هو الذي أعاق التحضر ونمو المدن .

وحتى العهد الهلنستي المتصف بالاستقرار النسبي ، وبولادة حواضر في سورية ، لم يترك في الجولان إلا قرية صغيرة (سلوقية) . وهذه القرية التي لازالت تحمل اسم مؤسسيها السلوقيين ، لاتعطينا أي معلومات عن سلوقية الأصلية .

وفي العهد الروماني ، كانت الحدود الشرقية للإقليم السوري قد تعرضت لتهديد الساسانيين . لمواجهة هذا التهديد ، قام الرومان والبيزنطيون بإنشاء مدن حصينة وقواعد عسكرية في كل من حوران وجبل الدروز . أما في الجولان فلم يتم شيء من هذا القبيل .

مع ذلك فإن شيئاً واحداً قد حدث بالفعل . هو أن مدناً صغيرة كانت قد ازدهرت في الجولان منذ الفتح الاسلامي كالجابية والقنيطرة والخراب ومنصورة الخراب . . . الخ . . . إلا أن هذه المدن قد تهدمت وهجرت . ولا

أحد يستطيع إعطاء إجابة مؤكدة عن السبب ، أهو هزات أرضية كانت قد مست المنطقة ، أم تدمير لحق بها أثناء الحروب الصليبية أو الاجتياح المغولي ؟ . .

لن نقوم بدراسة خاصة للبيت الحضري . لأن هذا البت لا يختلف عن البيت الريفي إلا بأشياء بسيطة من حيث الارتباط بمخطط واتقان البناء . وسنكتفي أيضاً بدراسة القنيطرة كمركز حضري ، لأن فيق التي اعتبرت مدينة لأسباب إدارية فقط ، ليست في الحقيقة إلا قرية كبيرة بعدد سكانها الـ ٢٠٠٠ نسمة ، وجباتا الزيت بسكانها البالغ عددهم ٢٥٨٥ ، نسمة هي أضخم من المركز الإداري فيق .

مدينة القنيطرة : اسم مدينة القنيطرة هو التصغير للقنطرة التي تعني باللغة العربية جسر ، ويسمح هذا الاسم بتقدير أهمية موقع هذه المدينة . وحسب الاحصاءات الرسمية ، كان ٨١٨٥ نسمة يسكنون في هذه المدينة في عام ١٩٥٣ ، وفي نهاية عام ١٩٥٤ أصبح العدد ٨٩٦٩ نسمة . إذن زيادة السكان خلال سنة واحدة كانت ٩٥ في الألف . وهذه الزيادة لا يمكن أن تكون طبيعية فقط ، إنما تشمل نسبة كبيرة من الوافدين الى المدينة باستمرار . مع ذلك ، فان الاحصاءات الرسمية لا تمثل إلا السكان الاصلاء للمدينة ، أي السكان المسجلين في سجل الأحوال المدنية فيها .

وفي الحقيقة ، يبلغ العدد الفعلي لسكان هذه المدينة حوالي ١٥٠٠٠ شخصاً والفرق بين هذا الرقم ورقم الأحوال المدنية ناتج عن أن السجلات الرسمية للمدينة ، لم يسجل فيها التجار الذين قدموا من دمشق واستقروا في المدينة ولكنهم بقوا دمشقيين ، ولا اللاجئين الفلسطينيين ، أو الريفيين الذين جاءوا حديثاً ، ولا عائلات العسكريين الكثيرة العدد .

موقع القنيطرة : تقع المدينة شرق سهل صغير مسطح الشكل تقريباً ، حدوده الشرقية وادي الجحاح المتجه من الشمال الى الجنوب الشرقي . وقد تجمع المهاجرون الشركس الذين قدموا الى المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حول نبع يقع الى الشمال من جامع الشركس الحالي . والذي يمثل وسط المدينة تقريباً . إلا أن هذا الموقع الأولي لم يبق ثابتاً ، والمدينة

توسعت . كما رأينا ، نحو الشمال والشمال الشرقي ، لتشغل التلال الصع
الحجرية التي تحمل حالياً أحدث حي في المدينة حيث سكن كبار الأغنياء من
التجار وشخصيات القنيطرة .

أهمية موقع القنيطرة : تكمن أهمية القنيطرة في الواقع ، بموقعها عند
ملتقى طرق عبور حيث تتقاطع طرق معتبرة الأهمية :

١ - طريق دمشق - بانياس - مرجعيون - صيدا - بيروت . إن أهمية هذه
الطريق عظيمة جداً ، خاصة عندما تعطل الثلوج المتراكمة في ممر صهر البيدر
المواصلات بين دمشق وبيروت .

٢ - طريق دمشق - شيخ مسكين - درعا - عمان .

٣ - طريق فيق - الحمة - فلسطين . وقد أصبحت حركة المرور على هذه
الطريق ناشطة جداً في الوقت الحالي ، بعد ربط حمامات الحمة بسورية اعتباراً
من عام ١٩٤٨ . فهذه الحمامات تجتذب الزوار من كل المناطق السورية ،
والذين لا يودون ركوب القطار يجب ان يمشوا بالقنيطرة .

٤ - طريق دمشق - جسر بنات يعقوب - فلسطين . وقد كانت هذه الطريق
قبل قيام دولة العدو ، الطريق الرئيسية التي تؤمن مواصلات مدينتنا . وبعد
حرب عام ١٩٤٨ توقفت حركة المرور على هذه الطريق كلياً . إلا أنها أخذت
الآن تنتعش شيئاً فشيئاً ، لأن طرق كل غرب الجولان ترتبط بهذه الطريق
الرئيسية .

وهكذا فان الطرق الرئيسية الأربعة يجب ان تمر من القنيطرة وعبر جسر
(القنطرة) المقام على وادي الجاج .

مخطط المدينة وتطوره الحضري : لا يمكن الكلام عن مخطط نموذجي

أو مميز . فالمدينة لم تكن ، حتى تاريخ قريب ، إلا بلدة قد انشئت دون أي
تنظيم ووفق رغبات سكانها . فتجمع الشركس ، وهم أوائل السكان ، جاء
وفق عشائريهم الرئيسية . ولكن دون أي ترتيب ملموس . وهكذا فان الاحياء
القديمة ، والتي سميت بأسماء العشائر : داغستان ، ابزاح ، كبارداي ،
باديزاي . . . تتميز بالدروب الضيقة والملتوية .

أما حي المسيحيين الذين جاءوا الى القنيطرة بعد الشركس ، فله تاريخ حديث ، وهو يقع شمال شرق المدينة ، وشمال طريق القنيطرة - دمشق شرق وادي الجاج . وقد نظم هذا الحي اكثر من الاحياء الاخرى اللاحقة .

ومنذ عشرين سنة ، كان أمر بناء بيوت جديدة ، أو إصلاح بيوت قديمة ممنوعاً إلا بإذن مسبق . إلا ان التدفق العظيم للريفيين والطلاب وعائلات الجند قد خلق أزمة سكن ، وأدى إلى ارتفاع بدل الايجار . وامام مثل هذا الوضع ، أخذ أصحاب البيوت القديمة يوسعون بيوتهم ، باضافة غرف جديدة تخصص للايجار . كما قام الريفيون واللاجئون الفلسطينيون ببناء (براكات) . وللتهرب من الاذن المسبق والذي يشترط تنفيذ بعض الشروط المترتبة بالمخطط وبتاقان العمل وبمراعاة قواعد الصحة . . كانت البراكات تبنى في ليلة واحدة وتسكن مباشرة لتحاشي هدمها . وهكذا ، رغم الصعوبات ورقابة المسؤولين ، فقد قام حي لفقراء العرب واللاجئين في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة (حي أكوخ الصفيح أو حي أكوخ القش) .

ولقد تم توسع القنيطرة الحضري على مراحل متعاقبة ، وحسب اتجاهات مختلفة .

١ - حصلت المرحلة الاولى للتوسع نتيجة لسبب قاهر هو عدم كفاية المياه فنيح وسط المدينة الوحيد لم يكن كافياً لتأمين حاجة السكان المتزايدين باستمرار . لذلك اتسعت المدينة باتجاه الغرب ، حيث الطبقة المائية قريبة من السطح . وقامت في هذه الجهة من المدينة وفي السهل الصغير ، مساكن متباعدة دون أي نظام ، فكل فرد كان يحفر بئر الخصاص ويبنى بيته حسب وسائله الخاصة . وسرعان ما تحاط هذه البيوت الصغيرة بالخضرة التي تشكلها بساتين حقيقية للأشجار المثمرة والخضار .

٢ - وفي وسط هذه البيوت المبعثرة غربي المدينة ، حفر البئر الكبير المشترك الذي وزعت مياهه على مختلف أحياء القنيطرة . ولقد كان حفر هذا البئر حوالي عام ١٩٤٠ ، بداية للمرحلة الجديدة باتجاه آخر . فالسلطات الادارية منعت بناء البيوت حول البئر خوفاً من خطر تسرب مياه المجاري والمياه المنزلية عبر التربة المنفذة واختلاطها بمياه البئر وتلوثها . وهي تنوي أيضاً الانتهاء من

امر البيوت التي كانت قد اقيمت سابقاً حول هذا البئر .
وأمام هذه الخطوات ، وبعد توزيع الماء والكهرباء على كل الأحياء ،
اتجهت المدينة نحو الشمال ، فأحدث وأفخم المساكن تقع حالياً فوق الرابية
الصغيرة المشرفة على القنيطرة من جهة الشمال .
وقبل جر مياه الشرب ، كان توسع المدينة باتجاه هذه الرابية غير ممكن ،
لعدم التمكن من الوصول الى طبقة المياه الجوفية فيها .

٣ - المرحلة الثالثة للتوسع حديثة جداً ، وقد التحق فيها حي البؤساء بشمال
شرق المدينة معطياً لمدخلها الشرقي مظهراً لايسر . وان سبب بناء البراكات في
هذا المكان بالذات يفسر بأن هؤلاء الريفيين الفقراء لم يكن لديهم من المال ما
يمكنهم من شراء الارض للبناء ، فبنوا بيوتهم فوق الارض التابعة لأملاك
الدولة .

٤ - منذ عدة اعوام ، شب حريق في مركز لتوزيع المحروقات يقع وسط
المدينة . سبب أضراراً كبيرة دفعت مدير المنطقة الى منع بيع المحروقات داخل
المدينة وهكذا قامت مراكز عصرية وجديدة لتوزيع البنزين وللتشحيم والتزيت
على طول الطرق المتجهة الى دمشق وفيق ودرعا الامر الذي أعطى لتوسع
المدينة نحو الشرق والجنوب مظهراً جديداً .

وهكذا أخذ توسع المدينة طابعاً محيطياً هامشياً امتد من المركز
القديم الذي كان الجامع ودار الحكومة (السراي) يشكّلان عناصره
الأساسية . فحول هاتين المؤسستين تمركز النشاط التجاري للمدينة تبعاً .
وفي الواقع . بدأت التجارة على جسر وادي الجحاح حيث شيدت حديثاً أكبر
مخازن المدينة ، ومن هذا الجسر امتدت نحو الجنوب والغرب متبعة اتجاهين
رئيسيين . وهذا هو الحي الإداري والتجاري الذي تقل فيه بيوت السكن ويقفّر
بعد صلاة العشاء .

الوظائف الحضرية لمدينة القنيطرة :

١ - الوظيفة الادارية : وهي الوظيفة التي جعلت من القنيطرة مدينة منذ العهد
العثماني (القرن التاسع عشر) بحكم كونها مركزاً لوحدة إدارية تسمى
القضاء . والقنيطرة هي مقر القوائم مقام مدير المنطقة ، وقائد الشرطة

(الجندرمة) ، وقاضي الصلح (حاكم الصلح) ، والقاضي الشرعي (القاضي) ، ومدير مركز الصحة العامة ، ومدير المالية والبنك الزراعي .

١ - الوظيفة الثقافية : منذ العهد العثماني حتى الاستقلال ، كان تلاميذ كل قرى القضاء مجبرين على المجيء إلى القنيطرة لتتويج دراستهم الابتدائية بشهادة التعليم الابتدائي .

وحالياً تستقبل هذه المدينة الطالبات والطلاب الراغبين في إتمام دراستهم الثانوية ، وتلعب « ثانوية الجولان » التي افتتحت منذ عام ١٩٤٩ ، دوراً هاماً جداً في التعليم العام ، لأن سكان هذه المنطقة وأغلبهم فقراء ، لا يستطيعون إرسال أبنائهم إلى دمشق من أجل إتمام دراستهم الثانوية ، وتكاليف المعيشة في القنيطرة أقل من تكاليفها في دمشق ، إذ يستطيع عدة طلاب من قرية واحدة ، العيش سوية في غرفة واحدة . ويستطيع أهلهم ان يرسلوا اليهم قوام طعامهم كل اسبوع .

٣ - الوظيفة التجارية : والتجارة هي النشاط الرئيسي لهذه المدينة ، ويلعب التجار المقيمون دور الجمع والتوزيع معاً ، يشترون القمح والرز والصوف والسمن ، ويقومون بخزن هذه المشتريات في مستودعات كبيرة منتظرين تحسن الاسعار . وفي الوقت نفسه ، يقوم هؤلاء التجار انفسهم باحتكار توزيع البضائع المستوردة من دمشق . وتجارة الماشية هي التجارة الوحيدة التي تقلت من أيدي القادمين من دمشق ومن المدن الأخرى ، فمن لبنان يأتي التجار الذين يشترون حيوانات الذبيح . بينما من جبل الدروز ومن حوران يأتي الذين يشترون حيوانات العمل .

هذا ويبيع القرويون والبدو حيواناتهم دون الاستعانة بوسطاء . مع ذلك ، يتوجب دفع ضريبة معينة لبلدية المدينة عن كل حيوان يباع .

٤ - النشاط الحرفي : وهو محدود جداً ، لكنه يؤمن مع ذلك الحاجات الأولية للسكان :

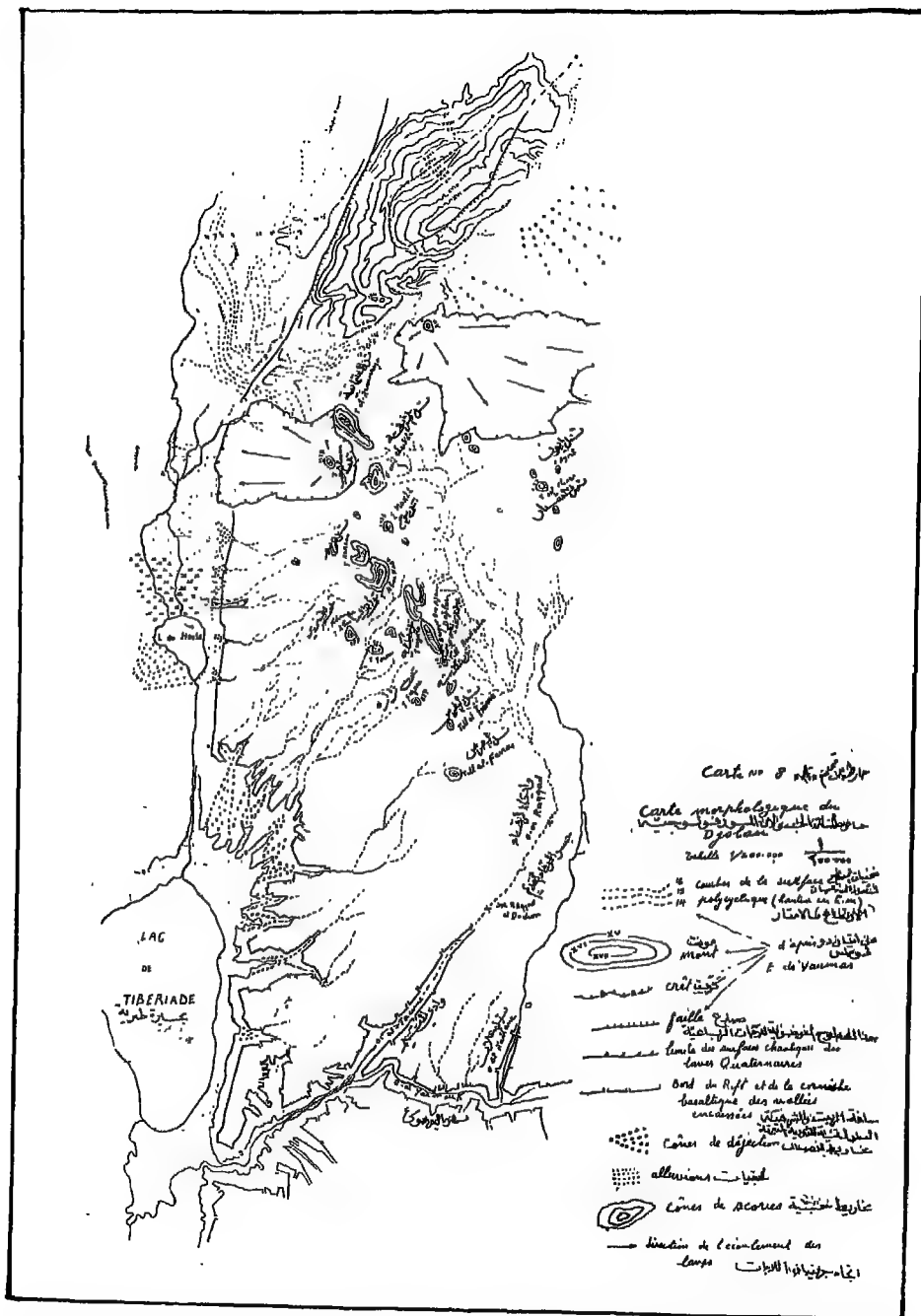
- عدد من الحدادين يصنعون سكك المحارث ، والمناجل ، والاقفال ، والمواقد .

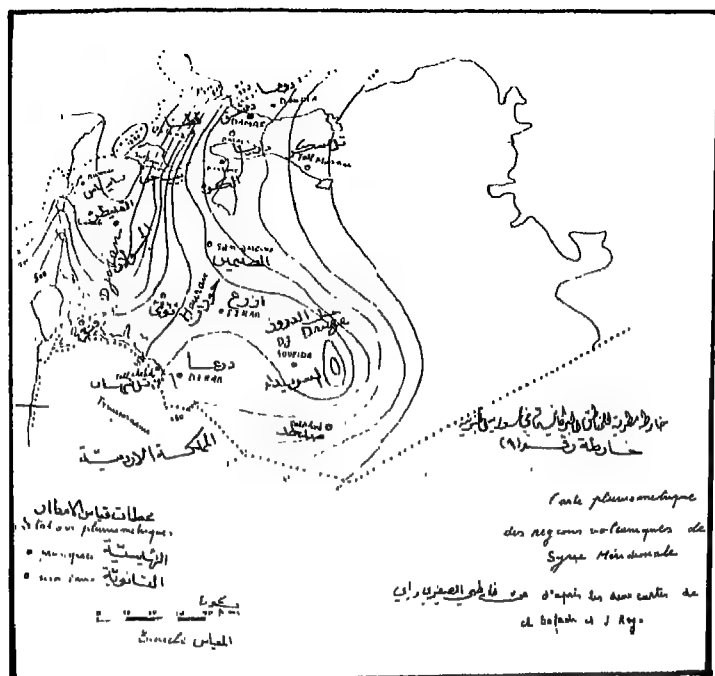
- بضع محلات لتصليح السيارات والساعات والاجهزة الكهربائية
 - بضع نجارين لنجارة الجدران ومشارب الماء .
 - الذين يهتمون بغزل ونسج شعر الماعز لصنع مختلف اجزاء الخيمة .
 - الذين يعملون اللباد للبدو (اللبابدية)
 - الذين يعملون في دباغة جلود الحيوانات ويصنعون الفراء (فرواتية) .
 - عدد من الخياطين ، خاصة خياطة الملابس العسكرية .
 - عدد من صانعي الاحذية ، يؤمن قسماً كبيراً للاستهلاك المحلي ، خاصة أحذية القرويين والبدو التي يصنع نعلها من إطارات السيارات القديمة .
- تأثير ونفوذ القنيطرة : في الواقع تلعب هذه المدينة الصغيرة دوراً معتبراً ، ليس فقط في قضاء القنيطرة ، بل ايضاً في قضاء فيق . وتختص فيق نفسها مباشرة للقنيطرة بسبب طريق دمشق الذي يمر بالمدينتين ، بينما يقتصر تأثير درعا ، مركز محافظة حوران ، على الناحية الادارية فقط . ويمتد اشعاع القنيطرة وفق محاور الطرق الرئيسية . ويقوم عدد من سيارات نقل الركاب الكبيرة والصغيرة بتأمين النقل ، عدة مرات في اليوم ، بين القنيطرة وبانياس الواقعة على الحدود اللبنانية ، كذلك الى جسر بنات يعقوب ، والى البطيحة ، والى الخشنية الواقعة على بعد حوالي ٢٠ كم جنوب القنيطرة .
- إن المواصلات إلى القرى المتناثرة على طول هذه الطرق مؤمنة بواسطة حركة السيارات . لقد كان سكان القرى البعيدة يجدون صعوبة للوصول الى الطريق البعيدة ، وكان يجب عليهم الانتظار طويلاً حتى تمر سيارة عابرة مرورها غير مؤكدة أو منتظم . ولكن حالياً ، أصبح لأكثر القرى طرقها المعبدة . إلا أن عدد السيارات لازال غير كاف . ومن المألوف ان نرى على طرق منطقتنا سيارات محشوة بالاشخاص ، وان نرى بعضهم فوق السيارة ، والبعض الآخر متعلق بمؤخرتها .
- هذا ويأتي الكثير من القرويين والبدويين ، الى القنيطرة لقضاء اشغال مختلفة ، ثم يعودون مساءً الى قراهم .
- وتشكل القرى الثلاثة : المنصورة وعين زيوان والعدنانية توابع حقيقية للقنيطرة ، فسكان هذه القرى التي لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن

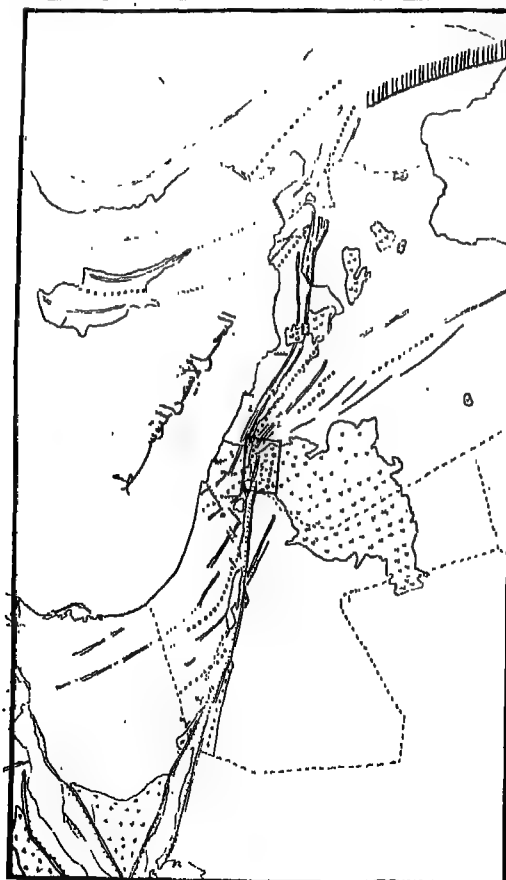
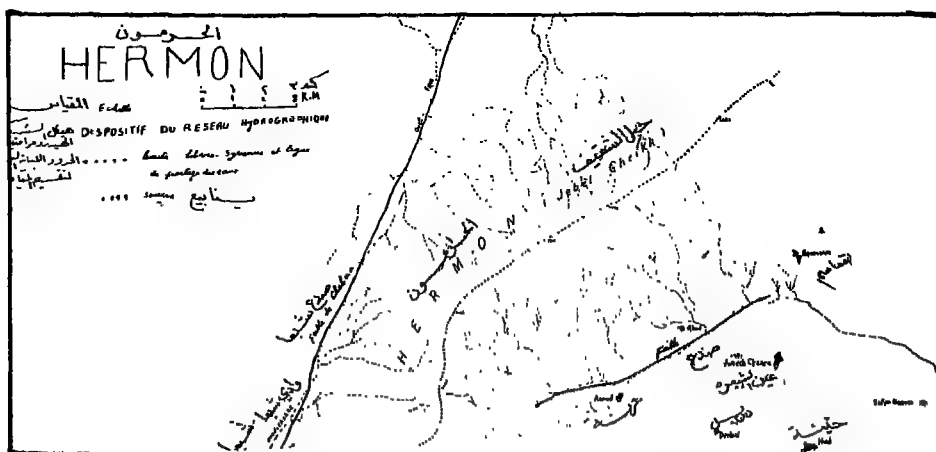
المدينة ، يأتون كل صباح إليها لشراء حاجاتهم . ويفصل طلابها على غيرهم من طلاب القرى الأخرى من أجل اتمام دراستهم الثانوية في ثانوية القنيطرة . وبالمقابل فان للقنيطرة تأثيراً سيئاً على رجال هذه القرى الثلاث . لانه عندما ينتهون من قضاء حاجاتهم ، لا يعودون الى قراهم بل يجتمعون في المقاهي ، حيث يبقون فيها يوماً الى مابعد منتصف الليل وهم يلعبون الميسر ليتحولوا في النهاية الى مقامرين وعاطلين حقيقيين .

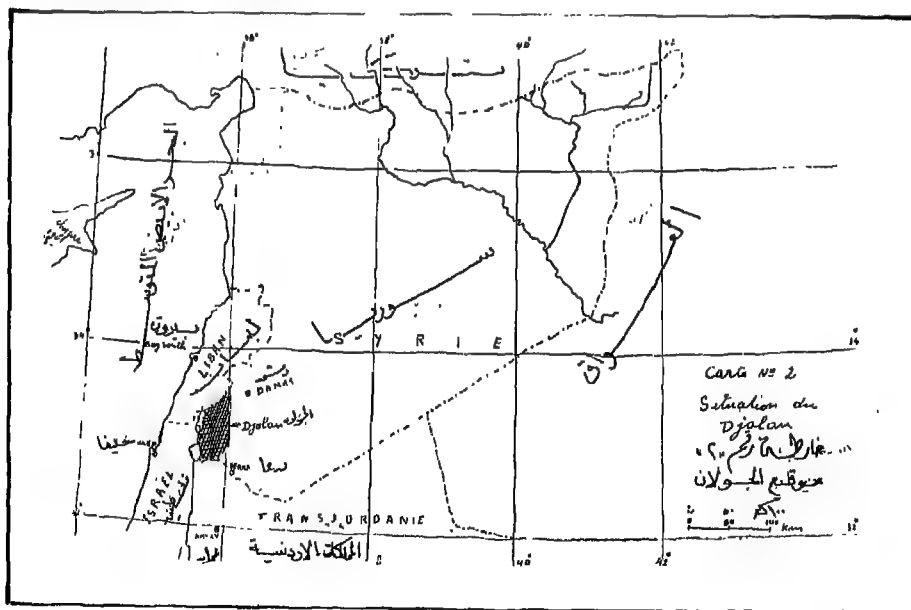
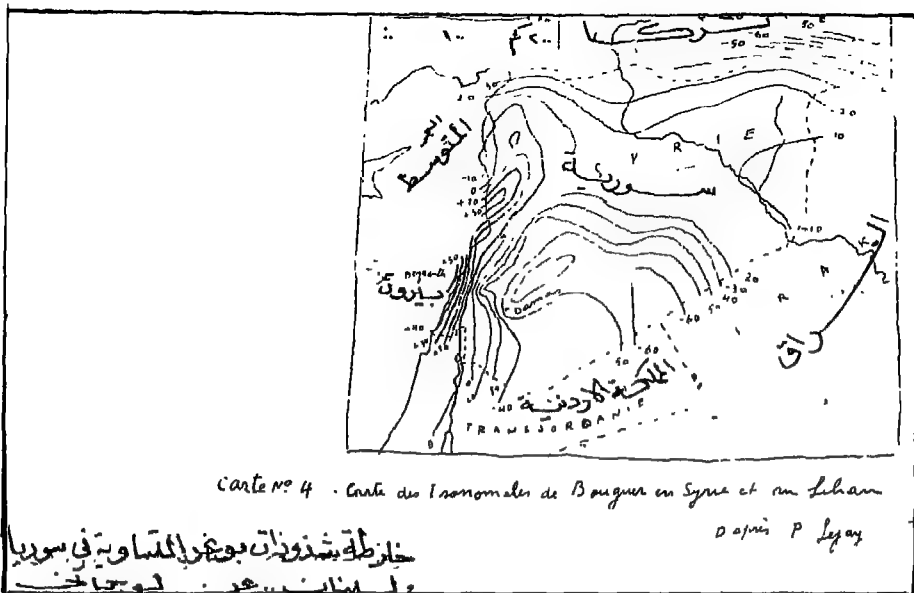
الخزائن الجيولوجية
والطبيعية للأقليم

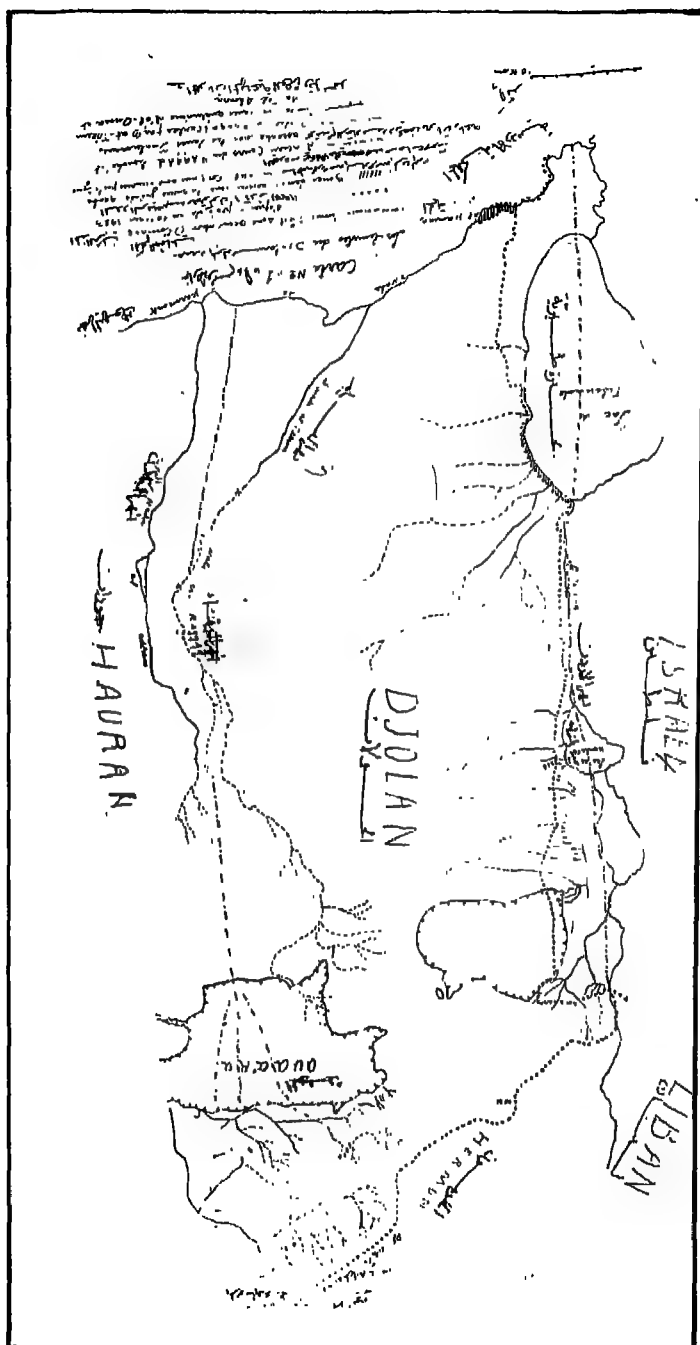


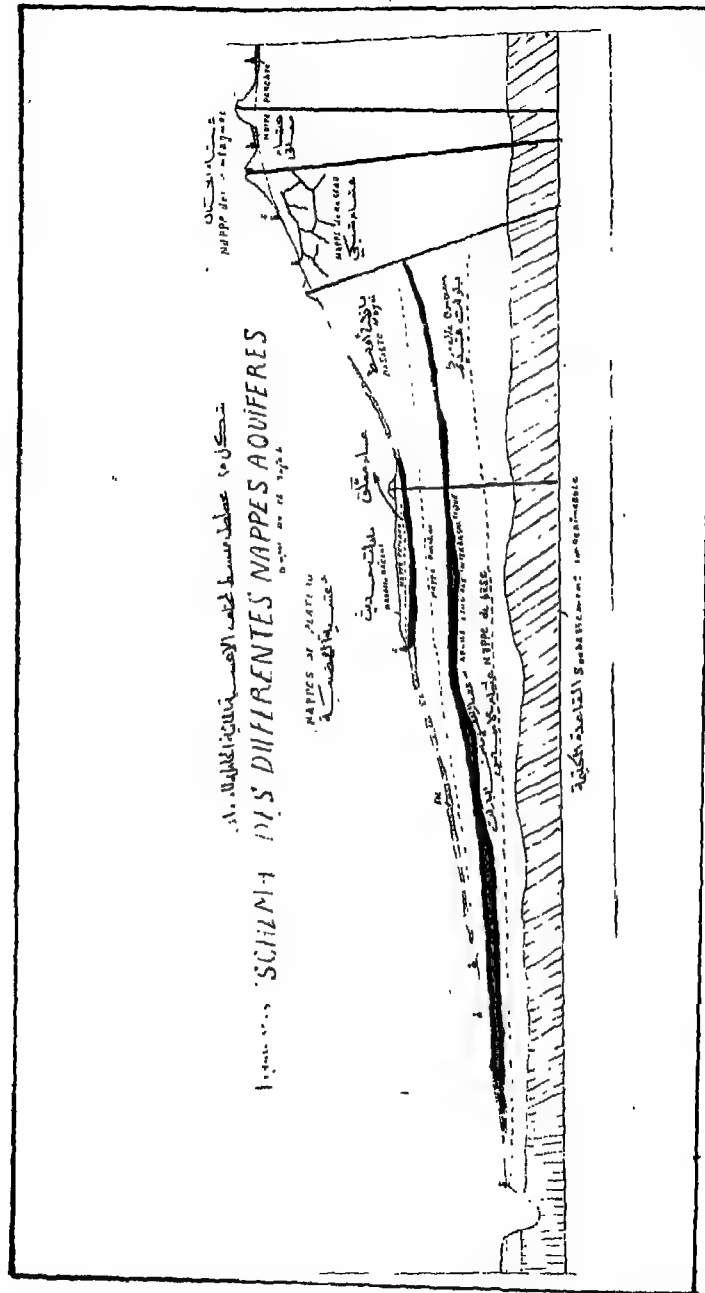


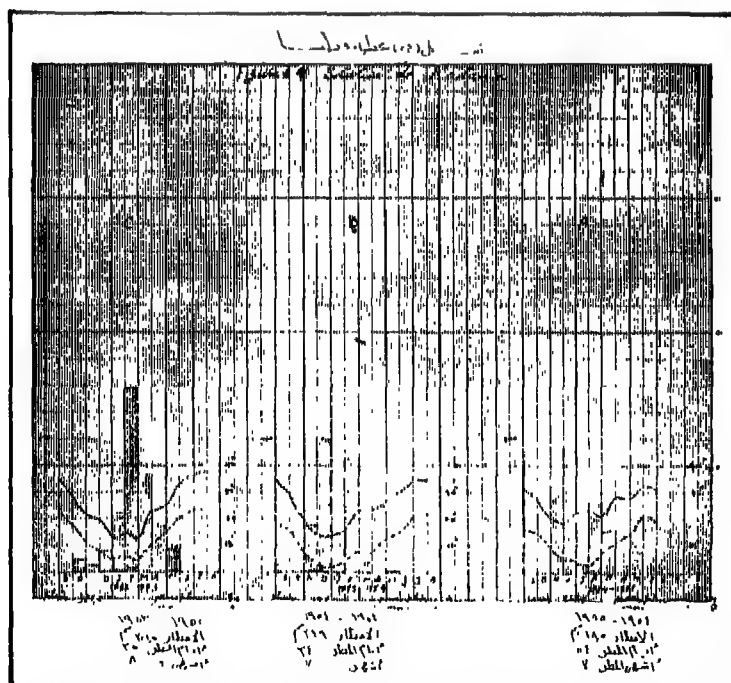
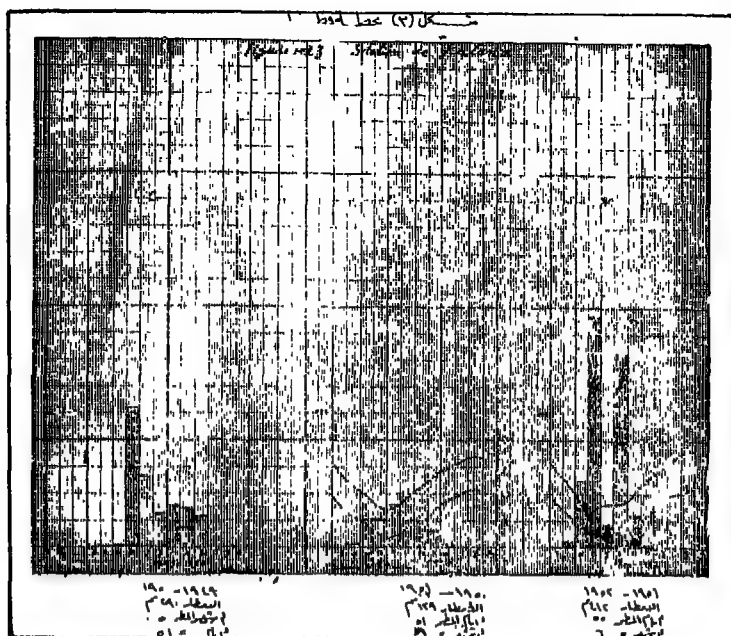


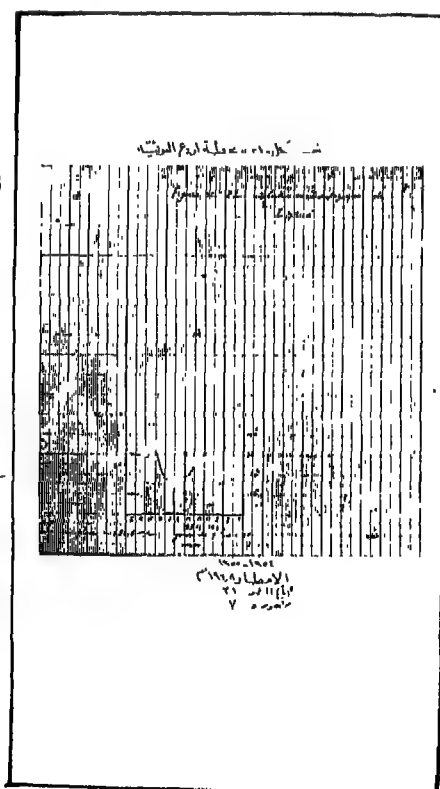
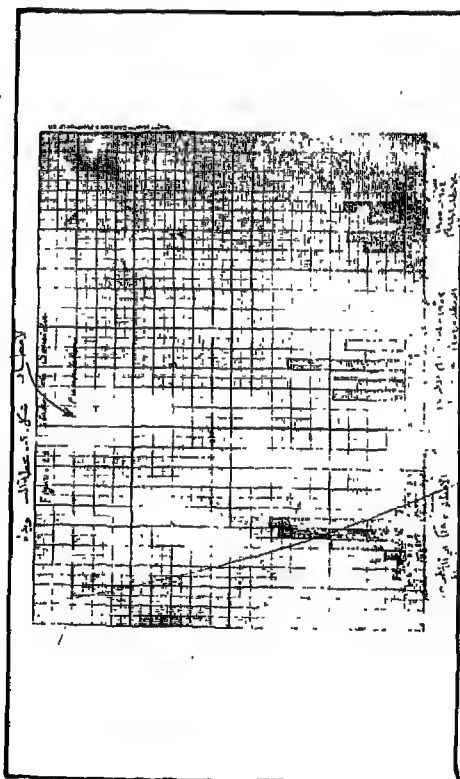
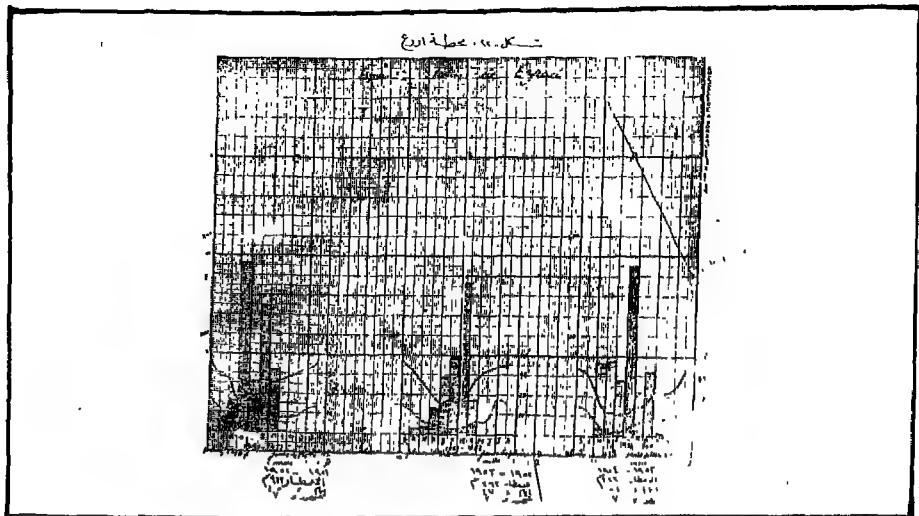


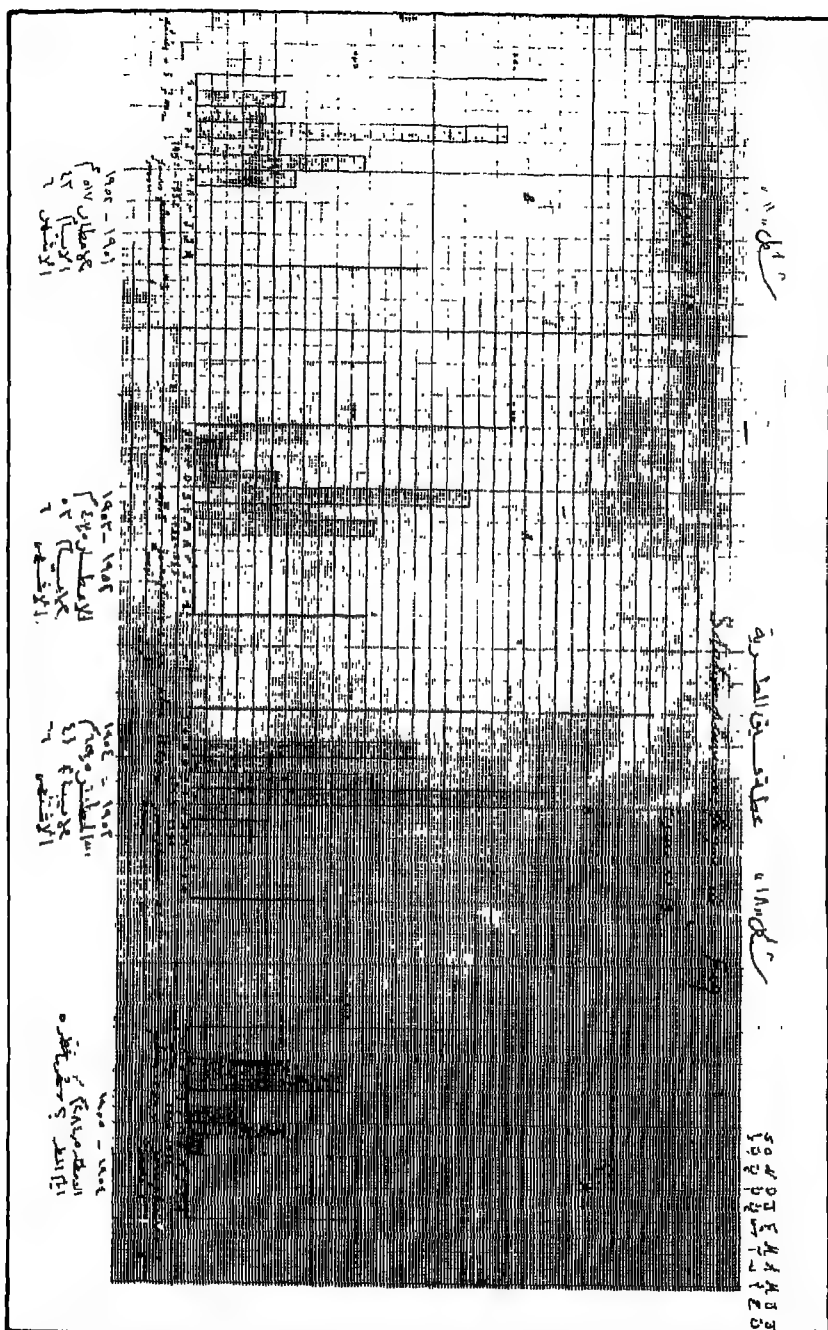


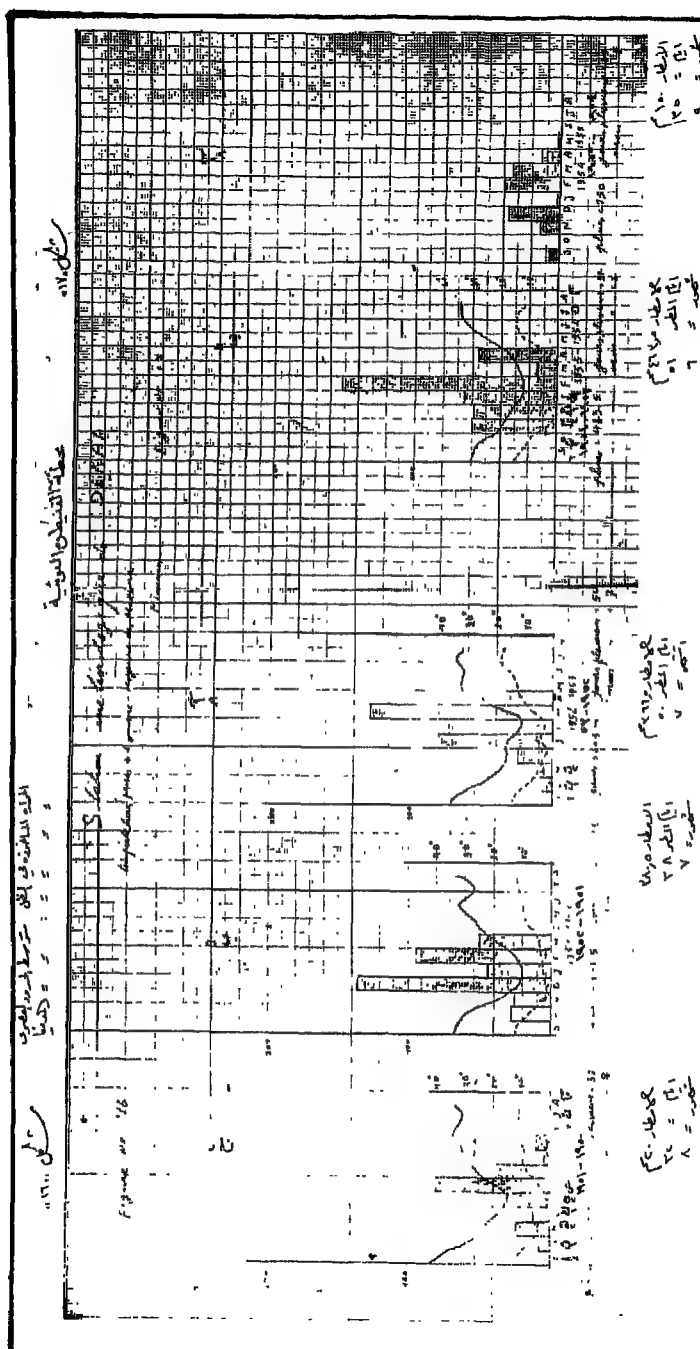


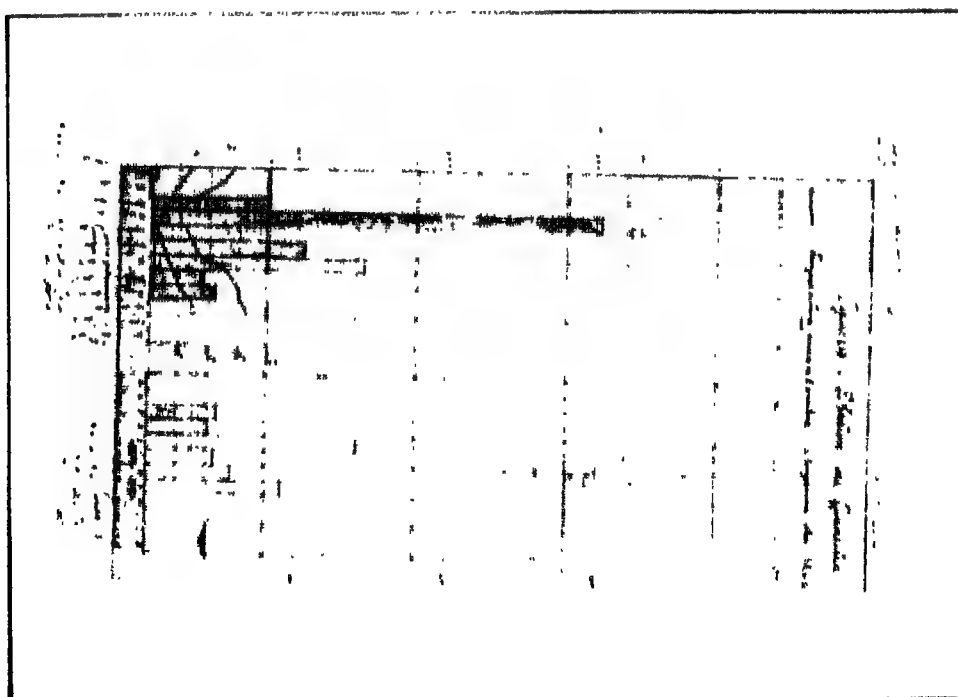
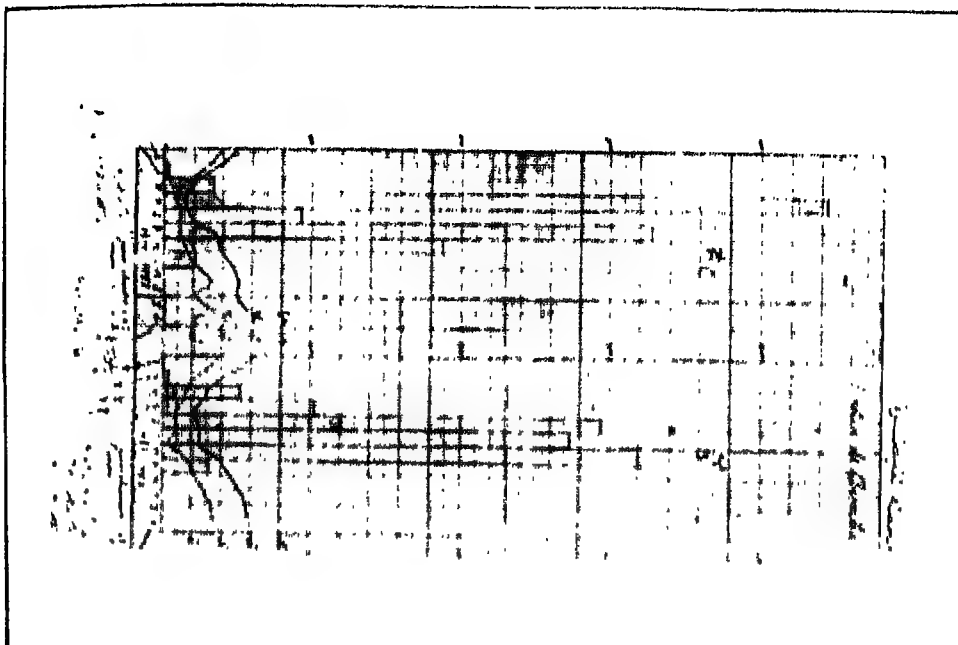


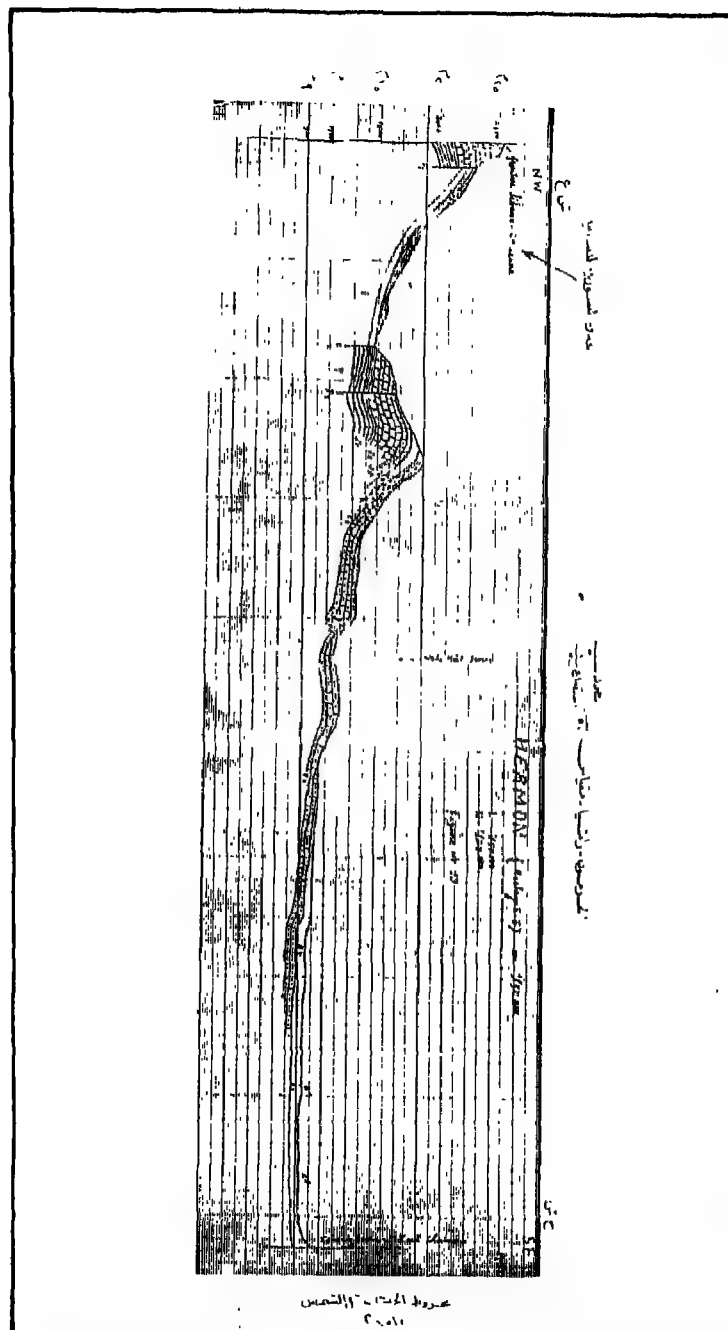


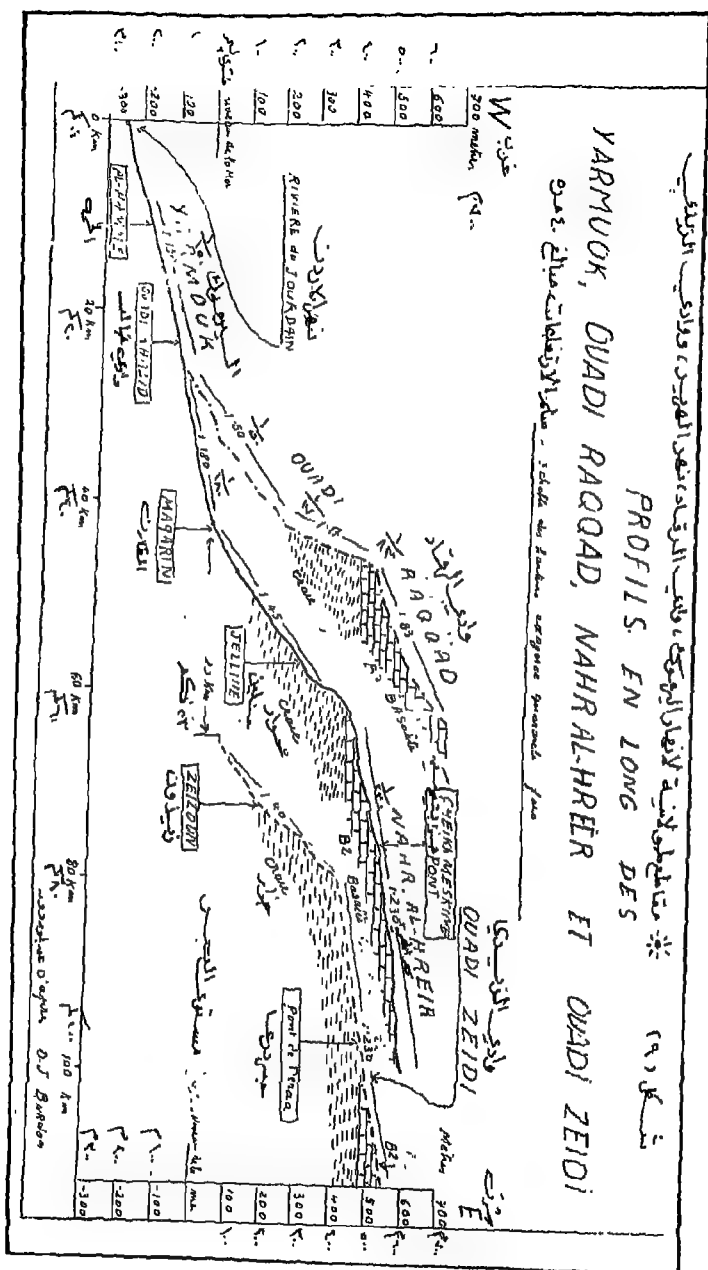


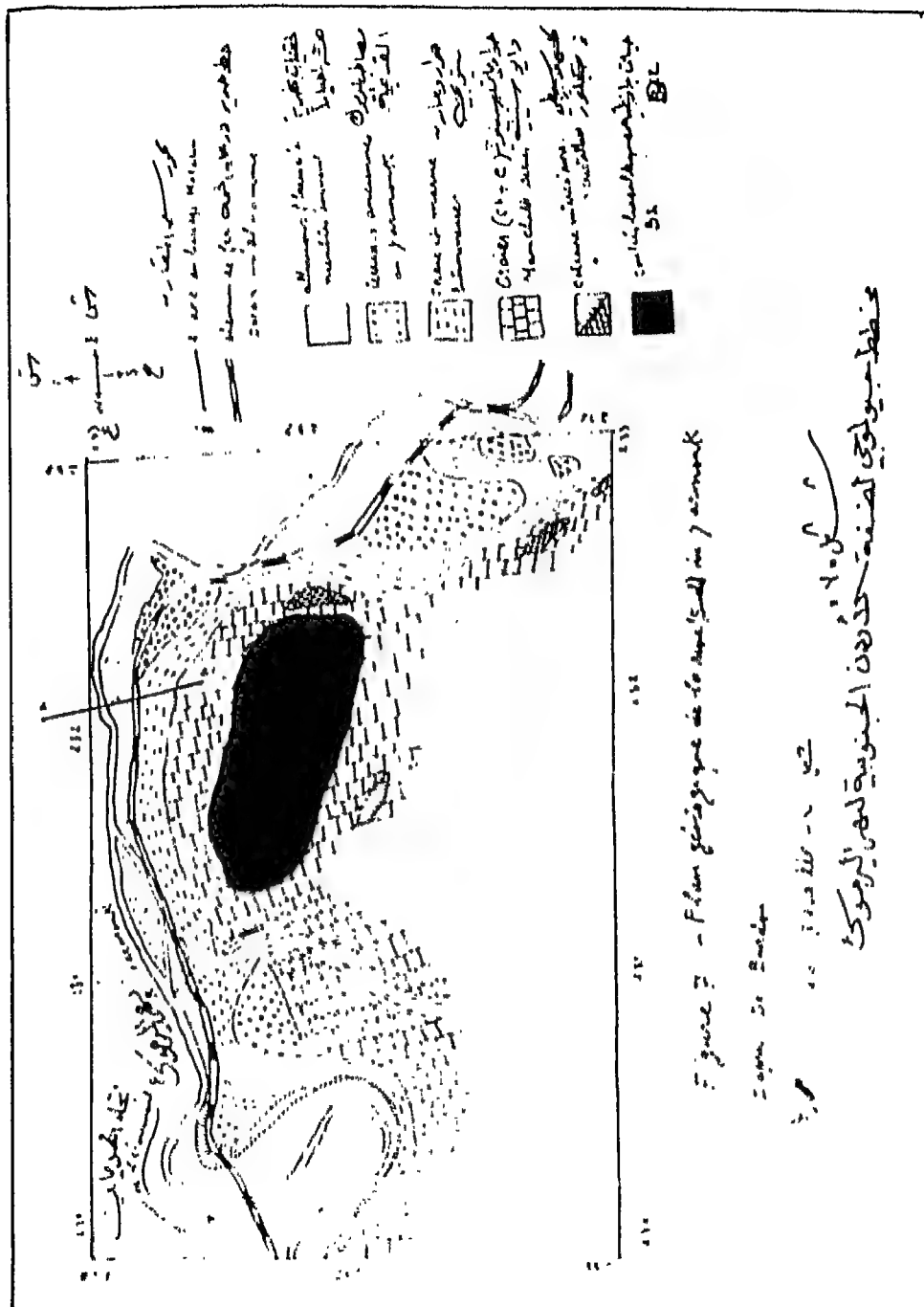




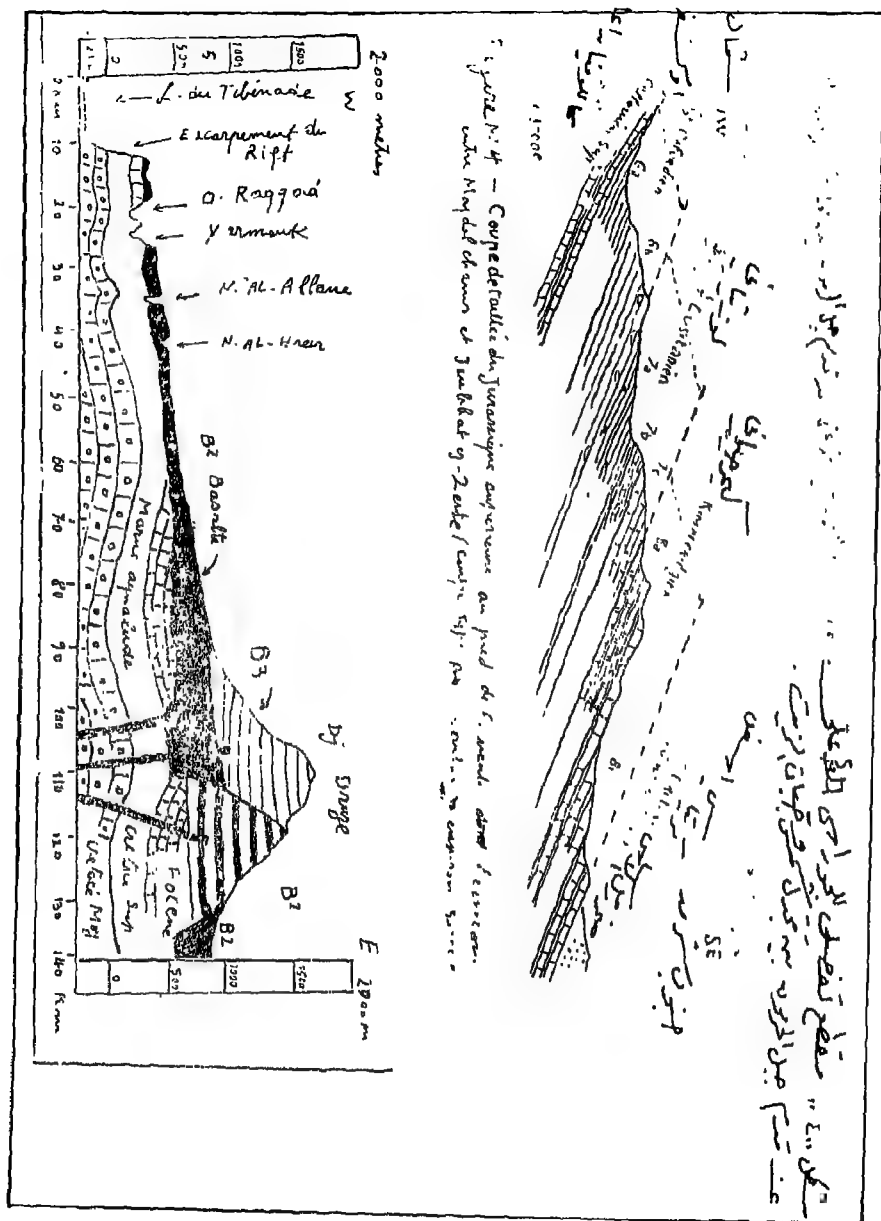


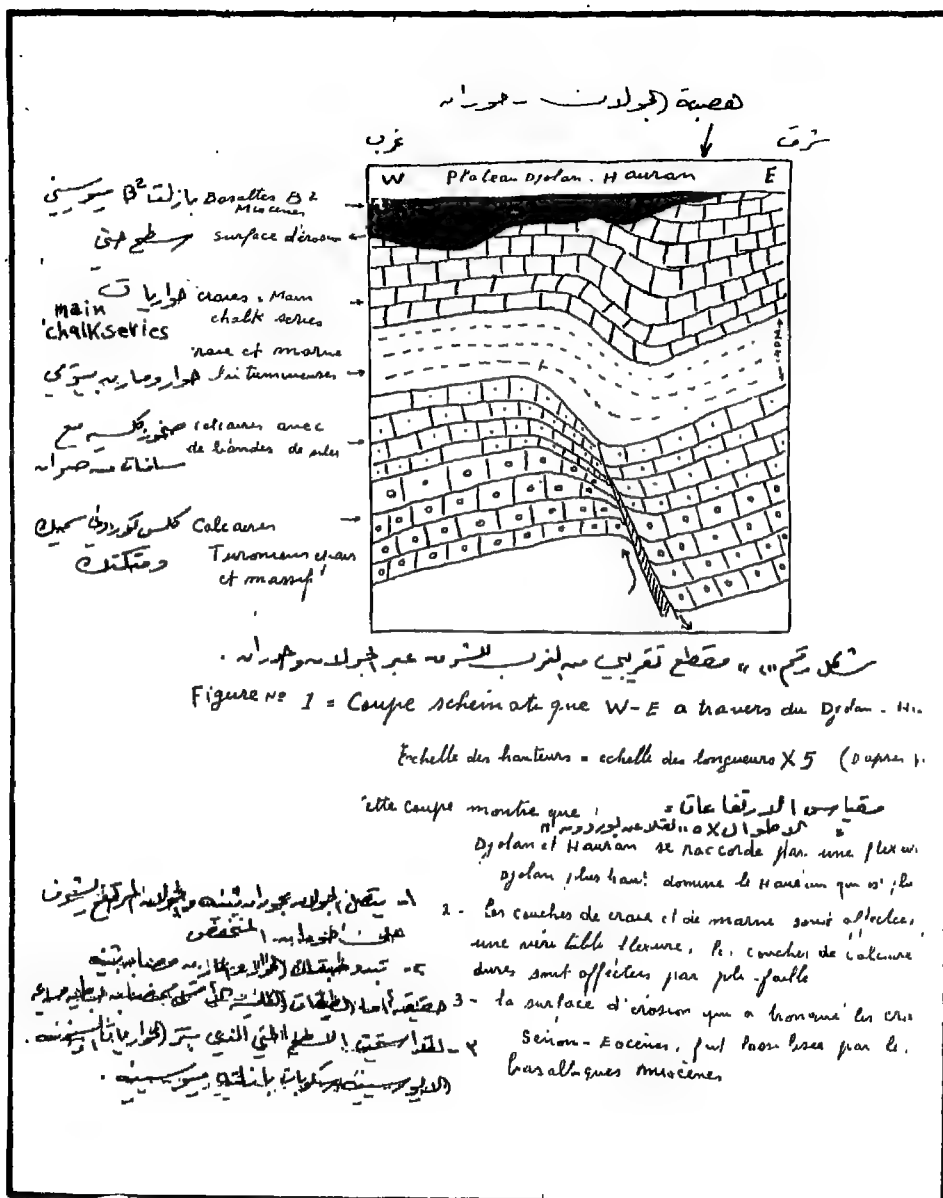






ΣΑΣ





المحتوى

٣	ملحة عن حياة المؤلف الفقيه د. أديب سليمان باغ
٥	الإهداء
٧	مقدمة
	القسم الأول
	الفصل الأول
٩	الجولان في الإطار الطبيعي
	الفصل الثاني
٢١	جيولوجية الجولان
	الفصل الثالث :
٣٩	تضريس الأرض
	الفصل الرابع :
٩٨	مناخ الجولان
	الفصل الخامس :
١٥٩	هيدرولوجية الجولان
	الفصل السادس :
٢١١	جغرافية الجولان الحيوية
	القسم الثاني :
٢٤٣	جغرافية الجولان البشرية
	الفصل الأول :
٢٤٥	الجولان في التاريخ

٢٥٧	الفصل الثاني :	الجغرافية الأثنولوجية في الجولان
٢٧٥	الفصل الثالث :	جغرافية الجولان الدينية
٢٩٣	الفصل الرابع :	دراسة ديمغرافية لسكان الجولان
٣٢١	القسم الثالث :	أشكال الفعاليات الريفية في الجولان
٣٢٣	الفصل الأول :	الزمر الإقتصادية والإجتماعية التقليدية
٣٣٩	الفصل الثاني :	الزراعة
٣٨٦	الإنتاج الزراعي في الجولان	الفصل الثالث :
٤٠٨	تربية الحيوانات	الفصل الرابع :
٤٣١	الفقر الريفي في الجولان	الفصل الخامس :
٤٣٩	مشاهد طبيعية وأشكال سكن ريفية	

صدر حديثاً عن اتحاد الكتاب العرب

* الأزرق والأحمر - شعر .

محمد عمران .

* الطاحونة السوداء - رواية .

بندر عبد الحميد .

* اليافاوي - قصص .

زكريا شريقي .

* أدب الاطفال نظرياً وتطبيقياً - دراسة .

عبد الله أبو هيف .

